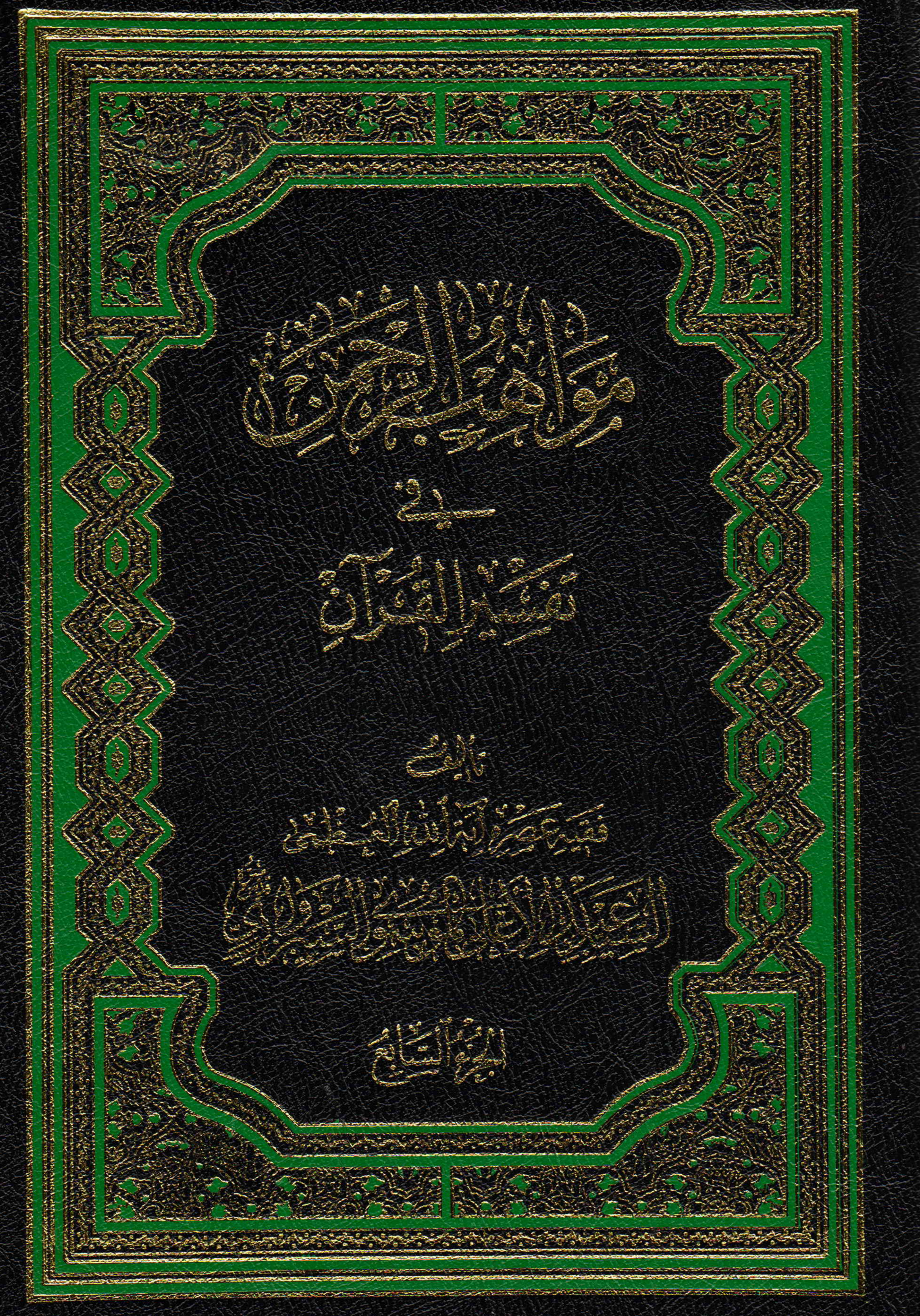

مواهب الرحمن
في
تفسير القرآن
تأليف
فقيه عصره آية الله العظمى
السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري قدس سره
الجزء السابع



تأليف

فقيه عصره آية الله العظمى

السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري قدس سره

الجزء السابع

سرشناسه : سبزواری، عبدالاعلی، ۱۲۸۸؟ - ۱۳۷۲.
عنوان و نام پدیدآور : مواهب‌الرحمن فی تفسیرالقرآن/ تالیف عبدالاعلی الموسوی‌السبزواری.
مشخصات نشر : قم: دارالتفسیر،۲۰۰۷م. =- ۱۴۲۸ق. =- ۱۳۸۶ -
مشخصات ظاهری : ۱۴ج.
شابک : دوره: 978-964-535-051-0
یادداشت : عربی.
یادداشت : ج.۶(چاپ دوم : ۱۳۸۶)
یادداشت : ج. ۱۲ (چاپ دوم: ۱۴۲۸ق. = ۲۰۰۷م. = ۱۳۸۵).
یادداشت : ج. ۱ الی ۱۴ (چاپ سوم: ۱۳۸۹) (فیپا).
مندرجات : ج. ۱. فاتحه- البقره.- ج. ۲- ۴. بقره.- ج. ۵ و ۶. آل عمران.- ج. ۷. آل عمران- نساء.- ج. ۸ و ۹. نساء.- ج. ۱۰. نساء- مائده.- ج. ۱۱ و ۱۲. مائده.- ج. ۱۳ و ۱۴. انعام
موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴
رده بندی کنگره : BP۹۸/س۲۳م۸ ۱۳۸۶
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی : ۱۰۵۳۵۷۱

منشورات دارالتفسیر

قم - خیابان معلم - میدان روح ا... - تلفن :۷۷۴۴۲۱۲

مواهب الرّحمن في تفسير القرآن ج/۷

آية الله العظمى السيّد عبد الأعلى الموسوي السبزواري

□ الطبعة الخامسة: ١٤٣١ هـ = ٢٠١٠ م

□ المطبعة: نگین

□ الكميّة: ٢٠٠٠دورة (١٤-١)

□ رقم الايداع الدّولي للدورة ISBN Vols: 978-964-535-051-0

□ رقم الايداع الدّولي للجزء السابع ISBN Vol 7: 978-964-535-074-9

٢ـ يوزع هذا الكتاب:

العراق ـ النجف الأشرف، سوق الحويش، مكتبة المهذّب، الجوّال ٠٧٨٠١٥٤١٥٢٣

ايران ـ قم، شارع معلم، ميدان روح‌الله، انتشارات دارالتفسير، تليفون ٧٧٤١٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الآية ١٥٩ ـ ١٦٠

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

خطاب إلى النبيّ ﷺ يبيّن فيه عزّ وجلّ فضله العظيم، وما مَنّ الله عليه من الصفات الكريمة، ويذكّره نعمة الله تعالىٰ عليه وعلى المسلمين أن جعل قلبه رحيماً بهم وليّناً معهم، وقد مدح رسوله الكريم بالعفو وترك الفظاظة والخشونة مع المؤمنين، وأنّهم كانوا مستحقّين لأكثر من اللوم والعتاب بعدما صدر منهم ما أوجب الفشل والهزيمة، وقد ضعفوا أمام إغراء الغنيمة، ووهنوا عن الجهاد في سبيله تعالىٰ، وقد أرشدهم سبحانه وتعالىٰ في الآيات المتقدّمة إلى ما ينفعهم ويسعدهم في دنياهم، وترك ما يوجب شقاءهم في الدُّنيا والآخرة.

والآيات المباركة تشتمل على أهمّ الحقائق والصفات التي لابدّ لمَن يتصدّى لأُمور المؤمنين من التحلّي بها، وهي العفو عنهم، والمشاورة معهم، والتوكّل على الله، لأنّ فيها إظهار العبودية فتكون حياتهم واتّجاهاتهم حسب ما قرّره سبحانه وتعالىٰ.

وفيها وعدهم عزّ وجلّ بالنصر على الأعداء، لأنّه لا يعطى النصر إلّا لمَن يستحقّ، ولا يكتب الهزيمة والخذلان إلّا على مَن خالف أوامره ونواهيه تعالىٰ، وإلّا فليس له إلّا الخذلان والردىٰ، وأمرهم بالتوكّل عليه.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللهِ**﴾.

إلتفات من خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول الكريم ﷺ، لأنّ الخطاب يتضمّن اللوم والعتاب لما صدر عنهم في اُحد، وقد استحقّوا بسببه التوبيخ من النبيّ ﷺ والتعنيف، فقد فعلوا ما أوجب الهزيمة وما يمسّ النبيّ ﷺ بالاعتراض عليه، فإنّهم قالوا: إنّ النبيّ هو الذي اورد مَن قتل منهم إلى ذلك، ولكن عظمة رحمة الله تعالىٰ التي أنزلها على رسوله الكريم شملت الجميع، فخاطب رسوله الكريم لأنّه أرسله رحمةً للعالمين، كما قال عزّ شأنه ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[1].

وممّا ذكرنا يظهر أنّ الفاء في قوله تعالىٰ: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ**﴾ هو لترتيب مضمون الكلام على ما سبق.

والمعروف أنّ «ما» زائده جاءت مؤكّدة للكلام، واُدّعي الإجماع عليه. ولكنّه موهون، لأنّه ليس في القرآن الكريم حرف زائد، مضافاً إلى ذهاب جمع إلى الخلاف في المقام، وسيأتي في البحث الأدبي ما يتعلّق بذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿**لِنتَ لَهُمْ**﴾.

مادّة (لَيَنَ) تدلّ على ضد الخشونة والصلابة، وفي حديث أوصاف

---

١. سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

المؤمنين «يتلون كتاب الله ليّناً» أي سهلاً على ألسنتهم لكثرة تلاوتهم له.

والمعنىٰ: مع كون المؤمنين على ما وصفناهم فبرحمة من الله تعالىٰ عليك ـ حيث جعلك متّصفاً بمكارم الأخلاق ـ لان جانبك، ورؤفت بالمؤمنين وصرت تحتملهم وتعطف عليهم وتعفو عنهم، وتشاورهم في الأمر، مع ما هم عليه من اختلاف الآراء والأحوال، وما صدر عنهم ممّا أوجب اللّوم العتاب والتعنيف، وعدم رضاء الله تعالىٰ عنهم، وبسبب هذه الرحمة العظيمة التي مَنَّ بها عزّ وجلّ عليهم ـ وبواسطة الفيض ـ دخلوا تحت لوائه، واهتدوا بهداه، واُقيم عمود الدِّين، وانتظمت شؤون الإسلام، وانقمعت شوكة الكفر والطغيان.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾.

الفظاظة: هي الخشونة والشراسة في الأخلاق.

وغليظ القلب: أي قسيّ القلب، والثاني سبب للأوّل فإنّ غلظة القلب وقساوته سبب للفظاظة، وقدّمها لظهورها في باديء الأمر. و إنّما أكدّ عليهما عزّ وجلّ لأنّه يتبعهما كلّ صفة ذميمة.

والانفضاض: التفرّق، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً**﴾[1]، وتستعمل في موارد التفرّق الموجب للسقوط في الهاوية والردىٰ.

والآية المباركة ترشد إلى أهمّ ما يجب على الزعيم الروحي أن يتحلّى به، وهو نبذ كلّ ما يوجب نفرة الناس منه قولاً أو فعلاً، فإنّه مهما كثرت فضائله وعمّت نوائله وفواضله، لكنّهم يتفرقون عنه ويتركونه وشأنه، وتفويه الغاية التي بعث الأنبياء لأجلها، وهي الهداية والإرشاد والدعوة إلى الطاعة والعبودية.

---

١. سورة الجمعة: الآية ١١.

وهكذا يقرّر الإسلام صفات القائد الإلهي، كالرسول العظيم الذي هو متّصف بمكارم الأخلاق وبالمؤمنين رؤوف رحيم، مهتمّ بإرشادهم، وحريصٌ على هدايتهم.

قوله تعالىٰ: **﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾**.

بيان لسيرته ﷺ مع المؤمنين وتقريره تعالىٰ لها، و قد أمره عزّوجل بعدم الترتيب على أفعالهم أثر المعصية إذا خالفوه في أمر الجهاد والقتال، وما يرجع إلى نفسه المقدّسة، ويطلب لهم من الله تعالى المغفرة في ذلك.

قوله تعالىٰ: **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾**

المشاورة: المناظرة والمراجعة في أخذ الرأي واستخلاصه من الغير، قيل إنّه مأخوذ من (شُرتُ العَسَل) إذا اجتباه واستخرجه من موضعه، والاسم الشورى والمشورة بسكون الشين وفتح الواو.

والمراد بالأمر هو ما يهتمّ بشأنه كالحرب وما يتعلّق بها، كما هو المنساق من الآيات الشريفة، ولا تشمل الآية المباركة أُمور الدين وما يتعلّق به، أو ما أُنزل فيه الوحي من أُمور الدُّنيا.

يعني: وشاورهم في ما يعرض عليك من الأُمور في ما يهتمّ بشأنه لمصالح كثيرة، منها استصلاحهم وتطميعاً لهم في الدخول في مكارم الإسلام، والتخلّق بفضائل الأخلاق، واستمالة لقلوبهم، وتعليماً لأُمّته بعدم تركها في أُمورهم. وإلّا فإنّه ﷺ لم يكن بحاجة إليهم ولم تفده المشاورة ـ علماً أو سداداً أو صلاحاً ـ كيف وهو المسدَّد من قِبل الله تعالىٰ، وقد قال عزّ وجلّ في شأنه: **﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾**[1].

---

١. سورة النجم: الآية ٤.

وعن الحسن بن عليّ عليه السلام: «قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة، ولكن أراد أن يستنّ به من بعده».

وعن ابن عبّاس عنه صلى الله عليه وآله: «أما إنّ الله ورسوله لغنيّان عنها ـ أي المشاورة ـ ولكن جعلها الله تعالىٰ رحمةً لأُمّتي، فمَن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيّاً».

والآية الشريفة تدلّ على إمضاء سيرته عزّ وجلّ مع المؤمنين كالآية السابقة في المشاورة معهم، والله تعالىٰ راض عنه، وقد استشار مع أصحابه في عدّة مواطن، منها: غزوة بدر الكبرىٰ حينما نزل عند أدني ماء بدر، فأشاروا عليه أن ينزل أدنى ماء من القوم. وكاستشارته في غزوة أُحُد عند ما كان رأيه أن يبقى في المدينة ويحارب فيها، وقد أشاروا عليه الخروج عنها إلى أُحُد.

وكيف كان، فللشورى فوائد جمّة ومصالح كثيرة، وقد وردت روايات كثيرة في مدحها، ففي الحديث عنه صلى الله عليه وآله: «ما تشاور قوم قط إلّا هُدُوا لأرشد أمرهم»، وعن علي عليه السلام: «لا ظهير كالمشاورة وما ندم مَن استشار».

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾.

إرشاد إلٰهي بعدم الاتّكال على المشاورة.

والعزم: عقد القلب والإمضاء على إتيان الفعل بعد المشورة، وعزم قلبه صلى الله عليه وآله إنّما يكون بنور الله تعالىٰ وتسديده له.

والتوكّل على الله: هو تفويض الأمر إليه عزّ وجلّ، فإنّه الأعلم بمصالح العباد، وهو يقضي ما يشاء ويحكم ما يريد، والمشورة والفكر وإحكام الرأي وإمضائه لا تكفي في النجاح إلّا بتوفيق من الله تعالىٰ وتسديد منه، ولا تؤثّر الأسباب إلّا به تعالىٰ، فإنّ الموانع كثيرة لا يعلمها ولا يقدر أحد أن يزيلها إلّا

الله عزّ وجلّ.

ومن ذلك يعرف أنّ التوكّل إنّما يتمّ إذا ٱستحكم الإنسان أمره، واستكمل العدّة، وراعى الأسباب العادية الظاهريّة، ولكن لا يعوّل عليها ولا يتّكل على حوله، بل علىٰ حول الله وقدرته عزّ وجلّ، فلا ينافي التوكلّ مراعاة الأسباب العادية.

وللتوكّل فوائد جمّة أيضاً، منها: إظهار العجز والعبودية وغيرها، كما يأتي في البحث الأخلاقي إن شاء الله تعالىٰ.

وإنّما أتى عزّ وجلّ اسم الجلالة لبيان أنّ هذه الذات المستجمعة لجميع الصفات الكمالية، تستدعي التوكّل عليه، ولا ينبغي للإنسان أن يتّكل على نفسه، وهو العاجز عن تدبيرها.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

المنقطعين إليه الواثقين به، وإذا أحبَّ الله تعالى أحداً كان وليّاً وناصراً له ولم يخذله بحال، ومحبّة الله تعالىٰ هي من أعظم الكمالات التي يسعى الإنسان إليها، هي الخير بجميع معنى الكلمة.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

جملة مستأنفة ترّغب المؤمنين إلى طاعة مَنْ يستمدّ منه النصر، وتُحذّرهم عن عصيان مَن يكون عصيانه سبباً للخذلان، والخطاب فيها تشريفاً للمؤمنين يدعوهم إلى التوكّل، ببيان وجه من وجوه الحكمة في وجوب التوكّل على الله تعالىٰ، وهو أنّ الإنسان إذا استعدّ للعمل وهيّأ مقدّماته على قدر المستطاع، وهو لايعلم عواقب الأُمور، فتوكّل على مَن يعلمها ويدبّرها على النحو الأحسن، فلامحالة تحصل في نفسه ثقة واطمئنان بتحقّقه، وقد اقتضت حكمته محبّة

المتوكّلين عليه ونصرتهم، فإذا نصرهم فلا يغلب أحد عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ يبيِّن نفي الجنس بنفي جميع أفراد الغالب ذاتاً وصفةً، وهذا أبلغ من قول «لا يغلبكم أحد»؛ لأنّه يدلّ على نفي الصفة فقط.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

أي: وإن أراد تعالىٰ خذلانكم بسبب معاصيكم وعدم توكّلكم عليه، فلا أحد يملك نصركم بعد خذلانه. والاستفهام إنكاري يفيد نفي التأخير، والكلام في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾ على حدّ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ من نفي الجنس بنفي جميع أفراد الناصرين ذاتاً وصفة.

وإنّما لم يذكر سبحانه النفي صريحاً في هذه الآية المباركة، كما ذكره في جواب الشرط الأوّل، تلطّفاً بالمؤمنين، حيث لم يصرّح سبحانه بأنّه لا ناصر لهم، واكتفى بعدم الغلبة لهم، وإن كان هذا يفيد ذلك أيضاً.

قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

اي: أنّ إيمان المؤمنين يستدعي التوكّل على الله تعالىٰ، فإنّه لا ناصر ولا مُعين لهم إلّا هو عزّ وجلّ، المستجمع لجميع صفات الكمال، وهو الذي وعد المؤمنين بالنصر، يوفّقهم إلى ذلك وإليه يكون التجاؤهم.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

تقدّم أنّ المعروف بين المفسّرين أنّ «ما» في قوله تعالىٰ: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ**﴾ زائدة جاءت مؤكّدة، وادّعى الطبرسي والزجّاج الإجماع عليه.

ولكنّه موهون، لذهاب جمع إلى الخلاف، حيث ذهب جماعة إلى أنّها نكرة بمعنى (شيء) و«رحمة» بدل منها.

وقال جمع آخر: إنّ «ما» لتفخيم قدر الرحمة التي لانَ بها لهم، ويرجع هذا إلى قول مَن قال: بأنّ (ما) استفهاميّة للتعجّب والتقدير، والتنوين في رحمةٍ للتفخيم، يُضاف إلى ذلك أنّه لم يرد شيء في القرآن الكريم إلّا لمعنى مفيد، ولم يكن حرف من حروف القرآن زائدة.

والفاء في قوله تعالىٰ: ﴿**فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ لبيان ترتيب ما بعدها على ما تقدّم من غلبة المؤمنين، على تقدير نصر الله لهم أو مغلوبيّتهم وخذلانه إيّاهم، والعلم بذلك يستدعي قصر التوكّل عليه عزّ وجلّ.

وقد اشتملت الآية الشريفة: ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾ على أُسلوب لطيف وترتيب حسن يقبله الذوق السليم والطبع المستقيم، فقد أمر عزّ وجلّ بالعفو عن الحقوق التي ترجع إلى نفسه ﷺ، ثمّ طلب الاستغفار من الله تعالىٰ لهم فيما يتعلّق بحقوقه عزّ وجلّ، فإذا زال المانع عنهم واستعدّوا للمشاورة، أمر عزّ وجلّ بالمشورة معهم، ثمّ أمر بإظهار العبودية لله تعالىٰ، وعدم الاعتماد على غيره عزّ وجلّ بالتوكّل عليه تعالىٰ والانقطاع إليه، فإنّه لا ملجأ إلّا إليه، ولا منجا إلّا به.

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ**﴾ ـ إلى آخر الآية الشريفة ـ أنّ النبوّات السماويّة تتقوّم بأمرين:

الأوّل: المظهريّة التامّة لأخلاق الله تعالىٰ، والمرآتيّة الكاملة للوحي المبين.

الثاني: اجتماع جميع الجهات الإنسانيّة في النبيّ من دون نقص فيها.

بالأوّل يستفيض من الله تعالىٰ، وبالثاني يخالط الناس ويعاشرهم فيفيدهم، وتدلّ على ما قلناه الأدلّة العقليّة والنقليّة:

قال تعالىٰ: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ**﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ**﴾[٢].

وقال تعالىٰ حكاية عن الكافرين: ﴿**مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ**﴾[٣]، وهذا الأمر لا يختصّ بنبيّ دون آخر، فهو جار في جميع الأنبياء والمرسلين، بل يجري بالنسبة إلى أولياء الله الداعين إليه المستمدّين علومهم من قوله تعالىٰ: ﴿**وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّٰهُ**﴾[٤]، وأمّا سيّد الأنبياء وخاتمهم فمقامه الجمع الجمعي من أجلّ المقامات وأعلاها، ففي كلّ آنٍ له سفران: سفر من الخلق إلى الحقّ المطلق، لأن يأخذ منه الكمالات المعنوية التي بها يربّي العباد تربية حقيقيّة كاملة، وسفر من الحقّ إلى الخلق لتربية النفوس المستعدّة، وأسفاره

١. سورة الأنعام: الآية ٩.

٢. سورة الكهف: الآية ١١٠.

٣. سورة الفرقان: الآية ٧.

٤. سورة البقره: الآية ٢٨٢.

الجسمانيّة، وإن كانت محدودة، ولكن أسفاره الروحانيّة لا تعدّ ولا تحصى، كيف وهو ﷺ يقول: «أبيتُ عند ربّي يطعمني ويسقيني ربّي»، بل قول خليل الله: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾[1]، يدلّ على أنّ لهم صلوات الله عليهم عالماً خاصّاً غير ما نحن فيه، وإن كانوا يشتركون معنا في كثير من الأُمور.

والآيات الشريفة التي تقدّم تفسيرها تدلّ على ما ذكرناه، فهو ﷺ مظهر الرحمة الإلهيّة وأخلاق الله تعالىٰ؛ كما أنّه بشر كسائر البشر، وقد أُمر بأن يخالط الناس ويتشاور معهم.

الثاني: الآيات الشريفة تدلّ على أنّ الرحمة واللّين مع الخلق، والتودّد معهم والرحمة لهم من أجلّ صفات الله تعالىٰ، فأفاضها على نبيّه ﷺ، فصارت من سيرته ﷺ، كما أنّ العفو عنهم، والإستغفار لهم، والمشاورة معهم كانت كذلك، والله سبحانه وتعالىٰ راض عن فعله.

الثالث: يتضمّن قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ـ الآية ـ﴾ على شروط التوكّل على الله تعالىٰ، وهي المخالطة مع الناس بأحسن وجه، وتهيئة الأسباب والمقدّمات المشاورة معهم، وتبيين الوجه الصحيح، وعزم النيّة وعقد القلب ثمّ التوكّل عليه عزّوجلّ في إصلاح الأُمور وإنجاحها، وسيأتي في البحث الأخلاقي تفصيل ذلك.

الرابع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ**﴾ على أنّ الأثر المهمّ المترتّب على التوكّل على الله هو النصر على الأعداء والظفر بالمراد، ولا يمكن أن يدفع ذلك أحد مهما كانت مرتبته أو عظُمت سلطته، لأنّه يدخل في سلطان الله تعالىٰ وهو القويّ الذي لا يُغلب.

---

١ . سورة الشعراء: الآية ٧٨ ـ ٨٠.

الخامس: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾** أن شأن المؤمن أن يتوكلّ على الله، ولا ينبغي له التخلّي عنه بعد أن آمن به عزّ وجلّ، وعلم بأنّه مسبّب الأسباب، وأن الأُمور تحت إرادته ومشيئته، ولا ناصر له غيره عزّ وجلّ، فلا محيص من التوكّل عليه، ولذا كان التوكّل من شأن جيمع الأنبياء والمرسلين، وأولياء الله الصالحين.

السادس: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾** على أنّ رسول الله ﷺ مثال الإنسانيّة الكاملة، والمرآتيّة الكبرى لله جلّ جلاله، وقد خلق من رحمته عزّ وجلّ، كما أرسله رحمةً للعالمين، فصار ليّناً لهم كما هو شأنه عزّ وجلّ، فقد سبقت رحمته غضبه، وعلى هذا يكون قوله تعالىٰ: **﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾** قضيّة فرضية امتناعيّة، كما هو شأن غالب استعمالات كلمة «لو»، فإنّ صدقها إنّما يكون بصدق لزوم ترتّب الجزاء على الشرط، لا الوقوع الخارجي، فتصدق هذه القضية مع الامتناع للشرط مهما كان ترتّب الجزاء على الشرط لازماً ولو امتنع الشرط.

وكيف كان، فهذا الخطاب البليغ ـ مع إيجازه ـ يبيّن أقصىٰ مراتب الإنسانيّة الكاملة.

***

بحث روائي:

في «الخصال»: عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، قال:

«سألت أبا عبد الله جعفر بن محمّد عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: **﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾**، وقوله عزّ وجلّ: **﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾**.

فقال عليه السلام: إذا فعل العبد ما أمره الله عزّ وجلّ به من الطاعة كان وفقاً لأمر الله،

سُمّي العبد موفّقاً، وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله، فحالَ الله تبارك وتعالىٰ بينه وبين المعصية فتركها، كان تركه لها بتوفيق الله تعالىٰ، ومتى خَلّى بينه وبين المعصية فلم يحل بينه وبينها حتّى يركبها، فقد خذله ولم ينصره».

أقول: مثل هذا الحديث يبيِّن حقيقة الإيمان، وكيفيّة إنسلاخ العبد عنه، وبيان مراتب التوفيق له، فيكون كلّ ذلك بمنشأية نفسه والإمدادات الغيبية، فالخذلان من نفس العبد إذا تجرّى على المعاصي، كما أنّ الوصول إلى المراتب يكون من نفسه أيضاً.

وفي «تفسير العيّاشي» عن علي بن مهزيار: «كتب إليّ أبو جعفر الجواد عليه السلام: أن أسأل فلاناً يشير عليَّ ويتخيّر لنفسه، فهو يعلم ما يجوز في بلده، وكيف يعامل السلاطين، فإنّ المشورة مباركة، قال الله تعالىٰ لنبيّه في محكم كتابه **﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾**، فإن كان ما يقول ممّا يجوز كنت أصوب رأيه، وإن كان غير ذلك رجوت أن أضعه على الطريق الواضح إن شاء الله. **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾**، قال عليه السلام: يعني الاستخارة».

أقول: الاستخارة من المؤمن من إحدى مراتب التوكّل، لفرض أنّ المستخير يكل أمره إلى الله تعالىٰ، والمراد من قوله عليه السلام: «ويتخيّر لنفسه» أي اختيار مورد المشورة لنفسه وبيانه لغيره.

***

بحث أخلاقي:

التوكل: فضيلة من الفضائل السامية، وخُلق كريم من مكارم الأخلاق، وخصلة حميدة، ومنزلٌ شريف من منازل الإيمان، ومقامٌ رفيع من مقامات الموقنين، بل أفضل مقامات الإنسانيّة الكاملة، به يظهر المؤمن صدق إيمانه

وثبات اعتقاده، ويجتمع فيه كثير من الفضائل والخصال الحميدة، فهو قرين الصدق والعزّ والاستعانة بالله العظيم وغيرها، وبه ينتظم العلم والحال والعمل. وكفى به فضلاً ومنقبةً أنّ الله تعالىٰ يحب المتوكّلين، وهو من أخلاق الأنبياء العظام، ولمكانته السامية فقد أمر به عزّ وجلّ نبيّه الكريم ﷺ بالتحلّي به في عدّة مواطن من كتابه الكريم، وقد ورد في فضل التوكّل ومدحه والترغيب إليه من الكتاب الكريم والسُنّة الشريفة الشيء الكثير، ونحن نذكر في هذا البحث ما ورد في التوكّل من الفضل، ومعنى التوكّل، وحقيقته، وشروطه، وآثاره.

فضل التوكّل:

قد ورد في مدح التوكّل وفضله والترغيب إليه، والحثّ على التحلّي به، في الكتاب الكريم والسنّة الشريفة ما يبهر منه العقول.

التوكّل في الكتاب الكريم:

وردت مادّة (وَكَل) في القرآن المجيد على ما يناهز السبعين موضعاً، وغالب استعمالاتها تدلّ على مدحه والترغيب إليه:

قال تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ **وَمَنْ يَتوكّل عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتوكّل عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[3].

---

١. سورة الطلاق: الآية ٣.

٢. سورة الانفال: الآية ٤٩.

٣. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

وقد ورد قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوكّل الْمُؤْمِنُونَ﴾[١]، في عدّة مواضع، وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتوكّل الْمُتَوَكِّلُون﴾[٢].

وقال تعالىٰ: «وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٣]، ويستفاد منه أنّ الإيمان منوط بالتوكّل.

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٤]، وهذه الآية المباركة تبيّن حقيقة التوكّل على ما ستعرف.

ويستفاد من الآيات الواردة في شأن الأنبياء، أنّ التوكّل كان من سيرتهم، وأنّه فضيلة مشتركة بينهم، قال تعالىٰ حكاية عن إبراهيمعليه السلام والذي معه: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[٥].

وقال تعالىٰ حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتوكّل الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٦].

وقال تعالىٰ حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٧].

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٦٠.

٢. سورة ابراهيم: الآية ١٢.

٣. سورة المائده: الآية ٢٣.

٤. سورة الشورى: الآية ٣٦.

٥. سورة الممتحنه: الآية ٤.

٦. سورة يوسف: الآية ٦٧.

٧. سورة يونس: الآية ٨٤ ـ ٨٥.

وقال تعالىٰ حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿وَسعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[١].

وقال تعالىٰ حكاية عن هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٢].

وقال تعالىٰ حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٣].

وقال تعالىٰ حكاية عن نوح عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ﴾[٤].

قد تحدّث سبحانه وتعالىٰ عن جمع من الرّسل عليهم السلام، وحكي عن شأنـهم، وذكر أنّ التوكّل من عمدة صفاتهم، ومن سيرتهم، وهو والصبر قرينان لديهم، قال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتوكّل الْمُؤْمِنُونَ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتوكّل عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتوكّل الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٥].

ويكفي في فضله أنّ الله تعالىٰ قد أمر به نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله في مواضع كثيرة من كتابه الكريم:

قال تعالىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتوكّل عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾[٦].

---

١. سورة الأعراف: الآية ٨٩.

٢. سورة هود: الآية ٥٦.

٣. سورة هود: الآية ٨٨.

٤. سورة يونس: الآية ٧١.

٥. سورة إبراهيم: الآية ١١ـ١٢.

٦. سورة النساء: الآية ٨١.

وقال تعالىٰ: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتوكّل عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[2].

والمستفاد من جميع ذلك أنّ التوكّل فضيلة سامية، وأنّه من أعلى مقامات التوحيد، وهو يدلّ على كمال إيمان المؤمنين، ولذا كان من صفات الأنبياء الكرام والمؤمنين المخلصين، بل هو توحيد عملي يكشف عن درجة الإيمان وشدّة اعتمادهم على الله عزّ وجلّ، قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾[3].

ويستفاد منه أنّ التوكّل أجلى برهان، وأحكم علامة علىٰ ثبات عقيدة المؤمن، ورسوخ التوحيد في قلبه؛ لأنّه لا يرى لغيره عزّ وجلّ سلطة وشأناً، فهو خاضع له، يطلب منه وحده تهيئة الأسباب وتدبيرها، قال تعالىٰ في الشيطان: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾[4].

وسيأتي مزيد بيان.

التوكّل في السنّة الشريفة:

وردت احاديث كثيرة عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمّة الهُداة عليهم السلام، تدلّ على فضل التوكّل على الله، وجميعها ـ سواء القوليّة والفعليّة ـ تحكي سيرتهم التي تدلّ على شدّة إعتمادهم على الله تعالىٰ، وتفويضهم الأمر إليه، وتحريض الناس عليه،

---

١. سورة التوبة: الآية ١٢٩.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٣. سورة الأنفال: الآية ٢.

٤. سورة النحل: الآية ٩٩.

ففي الحديث عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مَنْ انقطع إلى الله عزّ وجلّ كفاه الله كلّ مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومَن انقطع إلى الدُّنيا وكّله الله إليها».

وقال ﷺ: «لو أنّكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

وقال ﷺ: «من سرّه أن يكون أغنى الناس، فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده».

وروي عن الصادق عليه السلام: «أوحى الله تعالى إلى داود: ما اعتصم عبدٌ من عبادي بي من خلقي عرفت ذلك من نيّته، ثمّ تكيده السماوات والأرض ومَن فيهنّ، إلّا جعلت له المخرج من بينهنّ، وما اعتصم عبدٌ من عبادي بأحدٍ من خلق عرفت ذلك من نيّته، إلّا قطعت أسباب السماوات والأرض من يديه، وأسخت الأرض من تحته، ولم أُبال بأي وادٍ هلك».

وعنه عليه السلام: «أنّ الغنى والعزّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكّل أوطنا».

وعن الكاظم عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾، قال: «التوكّل على الله على درجات؛ منها أن تتوكّل على الله في أُمورك كلّها، فما فعل بك كنت عنه راضياً، تعلم أنّه لا يألوك خيراً وفضلاً، وتعلم أنّ الحكم في ذلك له، فتوكّل على الله بتفويض ذلك إليه وثق به وفي غيرها».

وقال الصادق عليه السلام: «مَن أُعطي ثلاثاً لا يمنع ثلاثاً؛ مَن أُعطي الدُّعاء أُعطي الإجابة، ومن أُعطي الشكر أُعطي الزيادة، ومن أُعطي التوكّل أُعطي الكفاية، ثمّ قال: أتلوت كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾، قال: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾، وقال تعالىٰ: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾».

إلىٰ غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الدالّة على فضل التوكّل ومدحه والترغيب إليه، وإنّه خُلق كريم يجب على المؤمن التحلّي به، ويدلّ عليه العقل أيضاً.

معنى التوكل:

التوكّل مشتقّ من الوكالة، يُقال: وكّل فلان الأمر إلى غيره، أي: فوّضه إليه واكتفى به لاعتماده عليه أنّه ينجزه ووثق به، ويسمّى المفوّض إليه متّكلاً ومتوكّلاً عليه.

وأمّا الوكيل فإنّه فعيل يأتي بمعنى المفعول ـ وهو الذي يوكّل الأمر إليه أو موكول إليه الأمر ـ ويأتي بمعنى الفاعل، فيكون بمعنى الحافظ الناصر والرقيب والمطّلع، لأنّه الذي يرعى الأُمور ويحفظها ويتعهّدها، وينصر مَن يركن إليه، ومنه قوله تعالىٰ: **﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾**[1]، ولأنّه هو الذي يتعهّد الأُمور التي وكّلت إليه من عباده، وناصره وحافظه، والاسم التكلان (بضم التاء).

وإذا رجعنا إلى اللّغة نرى أنّ التوكّل:

تارةً: يُطلق ويُراد منه التولّي للغير، يُقال: توكّلت لفلان، إذا صرت وكيلاً عنه وتولّيت له، ومنه الوكالة (بفتح الواو) أو (بالكسر على لغةٍ)، وهي الوكالة المعروفة في الفقه.

ويُطلق أُخرىٰ: ويُراد به الاعتماد على الغير والوثوق به.

والتوكّل على الله تعالىٰ هو تفويض الأمر إليه عزّوجلّ، والاكتفاء به، ويشبه التوكّل التفويض من هذه الجهة، فهما يشتركان في تسليم الأمر إليه عزّوجلّ، قال تعالىٰ حكاية عن شعيب: **﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أقول لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾**[2]، أي أُسلّم الأُمور إليه عزّوجلّ، فهو الذي يكفيكها.

وفي الحديث أنّ النّبي ﷺ كان يدعو فيقول: «اللّهم إنّي أسلمت نفسي

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

٢. سورة غافر: الآية ٤٤.

وفوّضت أمري إليك».

لكن التوكّل يزيد على التفويض في أنّه يتضمّن طلب النصرة منه، والوثوق بأنّه ينجزها، ويحفظ مَن يكل إليه أمره، والرضاء بفعل الله عزّ وجلّ بعد الاعتراف بالعجز، ولقصوره أمام عظمته وكبريائه.

حقيقة التوكل:

التوكّل على الله تعالىٰ هو الاعتماد عليه عزّوجلّ قلباً، واطمئنان النفس به، والوثوق بأنّه لهم يهمله، بعد الاعتراف بعجز الإنسان أمام قدرته وعلمه وإحاطته وقيموميّته، والاعتقاد بأنّه تعالىٰ هو الفاعل لا غيره، وأن لا ربّ غيره، فيعلم علماً قطعيّاً بأنّه لا حول ولا قوّة إلّا بالله، يضع الأشياء في مواضعها بحكمته، وهو القادر على كلّ شيء في السماوات والأرض.

ومن ذلك يظهر السرّ في ذكره عزّوجلّ العزّة والحكمة في قوله تعالىٰ ﴿**وَمَنْ يَتوكّل عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾، لأنّ الاعتقاد بأنّه حكيم يضع الأشياء في مواضعها، وعزيز قادر لا يمتنع عليه شيء إذا أراد، فلا محالة يذعن المؤمن بأنّه تعالىٰ ناصره ومعينه، وهو حسبه وكافيه، ويحصل له الاعتقاد بأنّ كلّ ما يسوقه إليه ربّه هو طيّبٌ وكريم وحسن وخير، ويعتمد عليه في جميع أُموره، وتحصل الثقة بالله العظيم فيتوكّل عليه عزّوجلّ.

فالتوكّل إنّما هو ارتباط عالم الشهادة المتناهية من كلّ جهة، بعالم الغيب غير المتناهي كذلك، ولذا نرى أنّه والتوحيد قرينان، لا يتحقّق أحدهما من دون الآخر، فمَن لا توحيد له لا توكّل له، ومَن لا توكّل له لا إيمان له، ويدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿**وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾.

بل يمكن أن يُقال بأنّ التوكّل طريق لمعرفة إيمان المؤمن، بل هو محقّق له،

لأنّه لا يرى لغير الله تعالى أثراً، فالجميع مسخّر تحت إرادته، وإنّما جعل لها نظاماً معيّناً أقام أُمور العالم به، فتجري وفق قانون الأسباب والمسبّبات، خاضعة له لاتتخلّف عنه، إلّا أنّها عاجزة عن أي نفع وضرر؛ لأنّها لا تفعل شيئاً إلّا بإرادته ومشيئته عزّوجلّ، والمؤمن يذعن بهذا النظام الذي أقام الله تعالىٰ هذا العالم به، ويطلب كلّ شيء عن طريق سببه، ويعمل ويكافح على إيجاد الأسباب الظاهريّة المنوطة بها المسبّبات، ويطلبها وفق ما أمره الله تعالىٰ طلباً تكوينيّاً أو تشريعيّاً، ولكنّه يعترف بالعجز أمام قدرة الله تعالىٰ، ويذعن بالجهل أمام المقادير التي قدّرها عزّوجلّ، ويعلم بأنّ الأسباب الظاهريّة التي عمل لأجلها شيء، والمقادير والقضاء والقدر والأسباب الخفية التي يجهلها شيء آخر، وجميعها خاضعة له عزّوجلّ، مسخّرة أمام ارادته ومشيئته، وهو عاجز عنها فيوكِّل أمره إليه معتقداً بأنّه حسبه وناصره ومُعينه.

ومن جميع ذلك يعلم بأنّ التوكّل لا ينافي الأسباب الظاهريّة، بل الاعتقاد بها، والعمل عليها من جملة أساسيات فضيلة التوكّل، ويدلّ على ذلك قوله تعالىٰ: **﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾**[1].

ويستفاد من هذا الآية الشريفة أمران:

الأوّل: أنّ الإنسان لا يمكن له التغاضي عن متاع الحياة الدّنيا الذي هو من نِعَم الله تعالىٰ عليه، فهو الذي يقضي به مآربه، ويحقّق مقاصده، ويعيش عليه في هذه الحياة الدّنيا، وأمّا ما عند الله فهو خيرٌ من هذا المتاع القليل في الكمّية والكيفيّة، وإنّما جعل الله هذه الدّنيا وسيلة لنيل ما هو أعظم منها، ولا يمكن

---

١ . سورة الشورىٰ: الآية ٣٦.

تحصيل هذا المتاع إلّا بأسباب خاصّة معروفة يجري عليها نظام هذا العالم، فالتوكّل على الله تعالىٰ والاعتماد على الأسباب الظاهريّة قرينان، بل هي من طرق تحصيل التوكّل عليه عزّوجلّ كما عرفت، ويدلّ عليه قوله ﷺ: «اعقلها ثمّ توكّل».

الثاني: أنّ التوكّل من شروط الإيمان الصحيح، بل هو من أعلىٰ مقامات التوحيد، فإنّه التوحيد العملي الذي اعتنى به الله تعالىٰ في كتابه الكريم، واهتمّ به الأنبياء والمرسلون، فهو يبيّن الجانب العملي في الإيمان؛ لأنّ التوكّل وظيفة من وظائف القلب، فإنّ به تطمأن النفس ويسكن القلب، وبه يدخل المؤمن تحت الآية المباركة ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[1].

وبالجملة: لمّا كان هذا العالم متقوّماً بالأسباب والمسبّبات الطولية والعرضية، ولابدّ من انتهاء تلك إلى سبب غيبي، وربوبية عظمى، لا يعقل فوقها ربوبية قيمومية كبرى، ليس ورائها قيّم أصلاً، فيكون الجميع مسخّراً تحت إرادته ومشيئته التامّة، فلا المادّيات تعوق مشيئته، ولا التكثّرات تمتنع قهّاريته، ولا ريب في تحقّق ما ذكر في هذا النظام الأحسن، وآثار عظمته وإبداعه ووحدانيّته ظاهرة في كلّ شيء، والتوحيد عبارة عن الاعتقاد بهذه الحقيقة، والتوكّل هو الاعتماد على مدبّر هذا العالم وخالقه و صانعه، فإن طابق الاعتقاد مع الواقع على ما هو عليه تتجلّى حقيقة التوكّل وإلّا فلا توكّل.

ومن ذلك يظهر السرّ في ما ورد عن الأئمّة عليهم السلام: «أنّ قول القائل: لولا أن فلاناً لهلكت شرك، قيل له عليه السلام: فكيف نقول؟ قال عليه السلام تقول: لولا أن مَنَّ الله عليَّ

---

١. سورة الفجر: الآية ٢٧ـ ٣٠.

بفلان لهلكت»، كما يظهر السرّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[1]، فالتوكّل الحقيقي هو الاعتقاد باستناد الكلّ إليه عزّوجلّ، وانبعاث الجميع منه تعالىٰ، ويستلزم ذلك الاعتقاد بتسبيب الأسباب، والسعي في تحصيلها، فإنّ التوكّل بدون ذلك لا ثمرة فيه، بل هو لغو وباطل، فترجع حقيقة التوكّل إلى إرجاع الأُمور ـ لا يتعلّق بها عقولنا من تحصيل المقتضيات ـ إلى الله تعالىٰ، لأنّه مسبِّب الأسباب، ومسهِّل الأُمور الصعاب.

ومن ذلك كلّه يظهر أنّ التوكّل عنوان التوحيد، وهو داع إليه، فهما متلازمان، وبه ينتظم حال الإنسان وعلمه وعمله. وبما ذكرناه يرتفع الغموض من حيث أنّ ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتباعد عنها خلاف طريقة العقل والشرع، والتوكّل يرفع الغموض والعسر عن ذلك كلّه.

شروط التوكّل:

للتوكّل على الله تعالىٰ شروط لا يتحقّق إلّا بها، تظهر من التمعّن في ما ذكرناه في حقيقة التوكّل، وهي:

الأوّل: الاعتقاد بالله تعالىٰ، وأنّه الربّ القيوم المدبّر لجميع ما سواه، وأنّه العزيز لا يمنعه شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها وفق إرادة وعلم بجميع الخصوصيّات.

الثاني: الاعتقاد بأنّه لا فاعل في هذا العالم إلّا الله تعالىٰ، وأنّ ما سواه مربوب له ومقهور تحت قهّاريته العظمى، فهو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

الثالث: الإذعان بأنّ هذا العالم ينتظم بقانون خاص لا يمكن التخلّف فيه، وأنّ الله تعالىٰ هو الذي جعل هذا القانون، وهو قانون الأسباب والمسبّبات،

---

١. سورة يوسف: الآية ١٠٦.

ولا يمكن فيه التغيير والتبديل ولا التخطّي عنه.

الرابع: تحصيل الأسباب والمعدّات والمقتضيات التي تقع تحت تصرّف الإنسان والسعي في تهيئتها وإعدادها، وأمّا غيرها من الأُمور الخفية التي لا يعلمها إلّا الله تعالىٰ، فلابدّ من الرجوع فيها إليه تعالىٰ والتضرّع لديه في تحقيقها، كما عرفت.

الخامس: حسن الظنّ بالله تعالىٰ، واستسلام القلب له عزّوجلّ، والخضوع لديه في رفع الموانع والعوائق في ترتّب النتيجة على المقدّمات والمسبّب على الأسباب.

السادس: أن يكون التوكّل على من يكون قادراً على جميع الأُمور مستجمعاً لجميع الشرائط، وهو ينحصر في الله تعالىٰ، قال عزّوجلّ في عدّة موارد من كتابه الكريم: **﴿وَتوكّل عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾**[1].

وقال تعالىٰ محكيا عن المؤمنين: **﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾**[2]، فينحصر التوكّل عليه عزّوجلّ، قال سبحانه: **﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتوكّل عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾**[3].

السابع: تفويض الأمر إلى الله تعالىٰ وتوكيله في جميع الأُمور والشؤون، فإنّه القادر على تحقيقها، يضعها وفق حكمته المتعالية؛ لأنّه العالم بحقائق الأُمور وجميع خصوصيّاتها.

وإذا تحقّقت جيمع هذه الشروط تحصل للإنسان راحة نفيسة واطمئنان قلبي، فتحصل له حالة التوكّل عليه عزّوجلّ، ويدخل في زمرة المتوكِّلين الذين

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٣.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

٣. سورة النساء: الآية ٨١.

يحبّهم الله تعالىٰ، كما ورد في جملة من الآيات الشريفة:

قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[1].

وقال عزّوجلّ: ﴿**وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[2].

درجات التوكّل:

للتوكّل درجات ومنازل تختلف حسب شدّة اليقين وضعفه، وحسب كثرة الأُمور المتوكّل فيها وقلّتها، وهي:

الأُولى: أن يكون المتوكّل على درجة كبيرة من اليقين والثبات في العقيدة والخضوع والطاعة لله تعالىٰ، بحيث لا يرى شيئاً إلّا يرى الله تعالىٰ معه يثق بكرمه وعنايته، ويعبّر بعض علماء الأخلاق عن هذه الدرجة بتوكّل خاصّ الخاصّ، وفي هذا المنزل يفوض المتوكّل جميع أُموره إلى الله تعالىٰ ويرضى بحكمه، فيكون بين يديه تعالىٰ كالميّت الملقى بين يدي الغاسل، ولعلّ الآية المباركة تشير إلى هذه الدرجة: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً**﴾[3]، فإنّ مَن اتّقى الله تعالىٰ ووثق به عزّوجلّ وتوكّل في جميع أُموره عليه عزّوجلّ، اطمأنت نفسه بأنّ الله ناصره وهو حسبه، وهذه المرتبة عزيزة الوجود في الناس، تختصّ بالأنبياء وأولياء الله تعالىٰ المخلصين له، وقد حكى الله جلّ شأنه عن الأنبياء والمرسلين في كتابه الكريم ما يشهد لذلك.

الثانية: أن لا يكون على الدرجة من اليقين والثبات في العقيدة والاطمئنان

١. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٢. سورة المائدة: الآية ٢٣.

٣. سورة الطلاق: الآية ٢ ـ ٣.

بما قسمه الله تعالىٰ لعباده، ولكن يعتمد في أُموره على الله تبارك وتعالىٰ، يفزع إليه ويعتمد عليه، ولا يترك الدُّعاء والتضرّع في كلّ مسألة وأمر، مثل الصبي الذي يفزع إلى أُمّه ويتعلّق بها وقد فنى في أُمّه ولا يرىٰ غيرها، وفي هذه الحالة يفنى المتوكّل في الموكّل عليه و لا يلاحظ الواسطة، ويعبّر بعض علماء الأخلاق عن هذه الدرجة بتوكّل الخواص.

وتفترق هذه الدرجة عن الدرجة السابقة، في أنّ المتوكّل في الأُولى لا يرى شيئاً إلّا الله تعالىٰ، قد وثق بكرمه ولطفه وعنايته، فربما يترك الدُّعاء والمسألة وثوقاً منه به عزّوجلّ في قضاء الحوائج، كما قال إبراهيم الخليل عليه السلام: «حسبي من سؤالي علمه بحالي»، وفي هذه الدرجة لا يترك الدُّعاء والمسألة والتضرّع، وإلى هذه الدرجة يشير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1]، فقد توكّلوا في جميع أُمورهم عليه عزّوجلّ، وأفنوا جميع حيثيّاتهم في الله تعالىٰ وقد أعرضوا عن غيره.

الثالثة: أن يكون كثير الاعتناء بالأسباب، فيرى للتدبير والاختيار في تهيئة الأُمور الأثر الكبير، ولكن لا يترك التوكّل عليه عزّوجلّ، وهو يعتمد على توكّله ويلتفت إليه دائما في أُموره لا يغضّ النظر عنه، وهذا هو الشغل الصارف عن الموكل إليه، ولأجل ذلك اختلفت هذه الدرجة عن سابقتها، في أنّ المتوكِّلين في الدرجة الثانية يعتمدون على المتوكّل عليه وحده، كما يعتمد على التضرّع لديه بالدّعاء والابتهال إليه عزّوجلّ. وإلىٰ هذه الدرجة يشير قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2].

وتختلف أيضاً عن السابقة في أنّ هذه الحالة قد تدوم أيّاماً كثيرة أوفي

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٦٠.

جميع الحالات لدى المؤمنين، بينما في الدرجة الثانية لا تدوم إلّا أيّاماً قليلة.

وقد عبّر بعض العلماء (رحمة الله تعالىٰ عليه) عن هذه الدرجة بتوكّل العامي، وربّما يكون توكّلهم في جميع الأُمور وربما يكون في بعضها.

وبالجملة: أنّ درجات التوكّل تختلف باختلاف قوّة الإيمان بالله عزّوجلّ والاعتقاد به تعالىٰ، وتفويض الأُمور إليه، والتسليم بقضائه وقدره، والرضا بما قسمه على عباده، كما أنّها تختلف باختلاف تفويض جميع الأُمور أو بعضها، وشدّة الاعتماد على الأسباب وقوّة الاعتقاد بها.

آثار التوكّل:

إذا حصل التوكّل على الله تعالىٰ فإنّه يخلّف آثاراً كبيرة على المتوكّل، نحن نذكر بعضاً منها:

الأوّل: التوكّل يحقّق معنى الإيمان ويزيد فيه ويثبت دعائمه في المؤمن، ويثبّت عقيدة التوحيد في قلبه، قال تعالىٰ: **﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**[1].

الثاني: التوكّل سبب إلى النصر والفوز بالمراد، قال تعالىٰ: **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾**[2].

الثالث: التوكّل يفتح أمام صاحبه طريقاً إلى الجنّة فيدخل ويُرزَق فيها بغير حساب، قال تعالىٰ: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾**[3].

---

١. سورة المائدة: الآية ٢٣.

٢. سورة الطلاق: الآية ٣.

٣. سورة العنكبوت: الآية ٥٨ـ٥٩.

الرابع: أنّ التوكّل يورث محبّة الله تعالىٰ والرضا الإلهي للمتوكّل، قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[1]، وكفىٰ بذلك فخراً.

الخامس: التوكّل يجعل كلّ ما يسوقه الله تعالىٰ إلى العبد حسناً طيّباً وخيراً.

السادس: التوكّل يورث الاطمئنان في قلب المتوكِّل والراحة في نفسه.

هذا موجز ما أردنا أن نذكره في هذه الفضيلة الكبيرة، وهو غيض من فيض، فإنّ كلّ ما يقال في هذا الخُلق الكريم قليل، وكفى بذلك داعياً في التخلّق بهذه الفضيلة، والمسارعة إلى هذا الخير العظيم.

***

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

الآية ١٦١ ـ ١٦٤

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كلّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦١ أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٦٢ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٦٣ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝١٦٤﴾.

الآيات الشريفة تبين جانباً آخر من الجوانب المتعدِّدة في غزوة أُحد، فإنّها تظهر حقيقة المنافقين، وضعفاء الإيمان الذين لم يألوا جهداً من النيل من رسول‌الله ﷺ، فقد وصموا هذا النبيّ الأمين بالخيانة، ونفى الله تعالىٰ عنه هذه التهمة، ووصفه بأحسن الأوصاف، وذلك اتباع رضوانه جلّت عظمته، الذي هو أهمّ الغايات، ولا يعدوه مؤمن فضلاً عن خاتم الأنبياء والمرسلين.

وقد أعلن سبحانه وتعالىٰ أنّه مَن اتّهم الرسول ﷺ وخالفه فقد باء بسخط من الله تعالىٰ، كما بيَّن عزّوجلّ أنّ مَن يتّبع رضوان الله تعالىٰ في درجة، ومَن باء بسخط من الله في درجة أُخرىٰ.

ثمّ ذكر سبحانه أنّه مَنَّ على المؤمنين بموهبة عظيمة وهو النبيّ العظيم، الذي اتّصف بمكارم الأخلاق، بل انّه المنّة الكبرىٰ والنعمة العظمىٰ، وقد جعله أميناً على

وحيه ومبلِّغاً لأحكامه، لينقلهم من الضلال الذي كانو فيه إلى الهداية، ويطّهرهم من دنس الشرك والمعصية، ويخرجهم من الجهالة إلى المعرفة، ويعلّمهم الكتاب والحكمة، ومثل هذا النبيّ العظيم الأمين كيف يمكن أن يتّصف بالخيانة!! والآيات الشريفة مرتبطة بما قبلها من الآيات كما هو معلوم.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

مادّة غلل تدلّ على الخروج عن الحدّ المقرّر، أو الدخول في شيء من غير حل، سواء كان في المال أم العقيدة أو غيرهما، وفي حديث صلح الحديبية: «لا إغلال ولا إسلال». والإغلال: السرقة الخفيّة، والإسلال: سل البعير في جوف الليل. وفي حديث أبي ذر: «غللتم والله»، أي: خنتم في القول والعمل ولم تصدقوا. والتجاوز إذا كان في الفيء والمغنم تكون خيانة.

وقيل: إنّ (غلّ) يختصّ بالأخذ خفية وإن كان في ما يضمره الناس في صدورهم، يُقال: رجل غلّ صدره، إذا كان ذا غش أو حقد أو ضغن، ويُقال: رجل غُل (مجهولاً)، اشتدّ عطشه أو كان في جوفه حرارة. وتغلل في الشيء دخل فيه واختفى في باطنه. والغَلول والغَل (بالفتح) هو السرقة والأخذ خفية، سُمّي بذلك لأنّها تجري في الملك خفية. وقيل: إنّها تختصّ بالمغنم والفيء.

والمعنىٰ: حاشا لنبيّ من أنبياء الله تعالىٰ أن تقع منه خيانة مطلقاً، سواء كانت في ما يتعلّق بأحكام الله تعالىٰ أو ما يتعلّق بشؤون الناس، فإنّ الخيانة معهم خيانة مع الله أيضاً، لأنّه ليس من شأنهم ذلك ولا يصحّ عنهم.

والخطاب ينزّه ساحة الأنبياء عن الخيانة بأبلغ وجه وأبدع اُسلوب، لأنّه يتضمّن حكماً مع دليل متين، فهو ينفي الوقوع بنفي الشأن والصحّة، ولأنّ الأنبياء

معصومون وهم أُمناء الله تعالىٰ في أرضه، وقد تقدّم نظير هذا الخطاب في قوله تعالىٰ: **﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي﴾**[1]، ومرّ الكلام فراجع. وذكر العلماء في شأن نزول هذه الآية بعض الروايات لا يخلو عن ضعف سيأتي في البحث الروائي نقلها.

وقد ذكر بعض المفسّرين أنّ الغل إنّما هو في الوحي وكتمانه عن الناس، لا الخيانة في المغنم.

ولكن ظاهر الآية المباركة التعميم لا الاختصاص، وممّا يهوّن الخطب أنّ الآية الشريفة تنزّه ساحة الأنبياء عن الخيانة، وتطهّرهم عنها وعن كلّ سوء وفحشاء، وقد ذكرنا أنّ الخيانة مع الناس خيانة مع الله تعالىٰ أيضاً.

قوله تعالىٰ: **﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**.

جملة حالية تبين الجزاء المترتّب على الفعل والخيانة، أي أنّ الخائن يلقى ربّه بخيانته يوم القيامة، وهو يوم ظهور حقائق الأعمال للناس، فيفضحه الله تعالىٰ من حين حشره.

والآية الكريمة تدلّ على تجسّم الأعمال في يوم الجزاء، والمراد بإتيان الله تعالىٰ بما غل هو الحضور لديه عزّوجلّ وظهوره للناس، وإيجاد تلك الحالة في ذلك العالم بما يناسبه.

قوله تعالىٰ: **﴿ثُمَّ تُوَفَّى كلّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾**.

أي: اذا اُحضر الغال للجزاء والحساب، فيوفّى وينال جزاء ما كسب ـ غلاً كان أو غيره ـ كما توفّى كلّ نفس وفاءً تامّاً بما كسبت، إن خيراً فخير وإن شرّاً فكذلك.

---

١ . سورة آل عمران: الآية ٧٩.

و الآية الشريفة تدلّ على أنّ الغال كما ينال جزاء فعله ينال المغلول منه حقّه، فإن ذلك هو الوفاء التامّ الذي يعطى لكلّ نفس يوم الجزاء.

وفي ذكر «ثمّ» لبيان التفاوت بين يوم عرض الأعمال ويوم الجزاء.

قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

بيان لتماميّة الوفاء من كلّ جهة، أي والحال أنّهم المحسنون والمسيِّئون لايظلمون في جزائهم، فلا يظلم المسيء بأن يجازى بغير ما كسب، كما لا يظلم المُحسن بنقصان جزائه، ولا يُعاقب العاصي بأكثر، ولا ينقص ثواب المحسن.

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ﴾.

هذه الآية الشريفة من جلائل الآيات القرآنية الراجعة إلى تهذيب الإنسان و تربيته ـ علمية وعمليّة ـ، وهي تبيّن اختلاف الناس في الهداية والضلال، والدخوال في رضوان الله تعالى، واختيار سخطه على رضوانه، تبعاً لاختلاف الطينات والاستعدادت، فإنّ هذا الاختلاف ممّا لا يسع لأحد إنكاره، إلّا أنّ ذلك هل هو أمر ذاتي غير قابل للتغيير والتبديل، أو هو اقتضائي فقط قابل لهما، والأفعال إنّما تنبعث عن كلّ واحد منهما حين تثبت الغالبية أو المغلوبية لكلّ واحد منهما؟

والحقّ هو الثاني، لأدلّة كثيرة يأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام فيها، والقول بالأوّل يستلزم بطلان الثواب والعقاب ومحاذير كثيرة لا يقبلها العقل.

والآية الكريمة صريحة في المطلوب، فإنّها تدعو الناس إلى ابتغاء رضوان الله عزّوجلّ في الأعمال والاقوال والاعتقادات، وإطاعته عزّوجلّ، والاهتداء بهدى الداعين إلى الصلاح من الأنبياء والمرسلين وأولياء الله الصالحين، ولابدّ من رسوخ هذا الأمر الاقتضائي الذي يدعو إلى رضوان الله تعالىٰ في النفس ليغلب

على الطرف الآخر الذي يدعو إلى سخط الله تعالىٰ وإن لم يوجب زواله بالكلّية، ولا يتحقّق ذلك إلّا بإزالة الحُجب والموانع عن النفس وما تدعو إليه الفطرة وما يرشد إلى الهداية، وهذا من أهمّ الطرق التي اتّبعها الأنبياء في تربية النفوس الإنسانيّة، وبها يقوم النظام الأحسن الإنساني.

ويمكن أن يقال: إنّ ذلك لا يختصّ بالتربية الإلهيّة، بل تجرى في غيرها من الأُمور الشرعية والعقليّة، فإنّ في الإنسان الفطرة المستقيمة ونور العقل وركيزة الجهل وحياة العزم والخيال، والعالم قائم بذلك كلّه.

والرضوان: مصدر كالرضا مصدر رضي، والصحيح أنّه اسم مصدر فإنّ معناه أوفر من الرضا، وفيه من المزية ما لا توجد في مجرّد الرضا، قال تعالىٰ: **﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللهِ وَرِضْوَاناً﴾**[1]، وقال تعالىٰ: **﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[2].

والآية المباركة تدعو الناس إلى جعل رضوان الله تعالىٰ مقصودهم في جميع أُمورهم وشؤونهم، فإنّه السعادة العظمى والصراط المستقيم، وهو لا يتحقّق إلّا بمطابقة ما يصدر من الإنسان مع دين الحقّ وشريعة الله عزّوجلّ، وأسباب الفوز بالرضوان كثيرة وقد ذكر سبحانه وتعالىٰ في كتابه الكريم جملة منها، كما ورد في السنّة الشريفة جميعها.

وفي الآية الشريفة ردّ على مزاعمهم وإبطال لدعواهم في نسبة الخيانة إلى النبيّ ﷺ، فإنّ الذي يتّبع رضوان الله تعالىٰ في جميع أُموره ولا يعدو عن رضا ربّه كيف يتحقّق فيه الخيانة، لأنّ الخائن قد باء بسخط من الله تعالىٰ.

---

١. سورة الحشر: الآية ٨.

٢. سورة التوبة: الآية ٧٢.

قوله تعالىٰ: ﴿**كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللهِ**﴾.

باءَ بمعنى رجع واستقر وفي الحديث: «مَن طلب علماً ليباهي به العلماء فليتبوّء مقعده في النار»، أي لينزل ويستقرّ فيها.

والسخط: هو الغضب العظيم، والمراد من سخط الله تعالىٰ هو الدخول في ما يوجب غضبه، كالمعاصي والموبقات وما نهاه عزّوجلّ، ويجمعها متابعة الشيطان والنفس الأمّارة.

والمعنى: ليس مَن اتّبع رضوان الله تعالىٰ في اعتقاده وأفعاله وأقواله كمَن دخل في سخط الله عزّوجلّ بسبب أفعاله وأقواله واعتقاده وخروجه عن النهج القويم والصراط المستقيم، واستوجب السخط والعقاب بفعل المعاصي والموبقات.

والآية الكريمة ترجع الأمر إلى الفطرة التي تحكم بالفرق بينهما، وأنّ قياس أحدهما على الآخر قياس باطل، بل هو جائر، ونظير ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ**﴾[1].

وإنّما لم يقل سبحانه وتعالىٰ: كمَن اتبع سخط الله، كما قال في رضوان الله، لأنّ ترك متابعته يستلزم الدخول في سخط الله تعالىٰ، لأنّهما من قبيل الضدّين اللّذين لا ثالث لهما، مضافاً إلى أنّ أسباب الرضوان هي الصراط المستقيم وأعلام الهداية، وهي ممّا يحكم العقل باتباعه، بخلاف أسباب السخط فإنّها شرور وقبائح فلا وجه لاتباعها.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾.

بيان الحال مَن باء بسخط من الله تعالىٰ، أي: أنّ المأوى الذي يريد أن يأوي إليه ليستريح فيه إنّما هي جهنّم، وقد ساء ذلك المصير الذي يصار إليه.

---

١. سورة السجدة: الآية ١٨.

وإنّما عبر عزّوجلّ بالمصير، لأنّ المكان الذي يصار إليه هو أسوء حالاً إذا قيس بالمكان الذي هو عليه في الدّنيا، ولأنّ الرجوع إلى سخط الله يكون مصيره التكويني النار، فالآية المباركة من قبيل القضايا التي قياساتها معها.

وقد قال بعض العلماء: الفرق بين المصير والمرجع أنّ الأوّل يستعمل في مورد يقتضي مخالفة ما صار إليه على ما كان عليه في الدّنيا، بخلاف المرجع فإنّه يقتضي انقلاب الشيء إلىٰ حال قد كان عليها.

وهو مردود، لاستعمال كلّ واحد منها في الآخر، قال تعالىٰ: ﴿**وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً**﴾[2]، إلّا أن يريد اختلاف الجهات والحيثيّات.

ولم يذكر سبحانه وتعالىٰ جزاء مَن اتّبع رضوان الله لعظمته، وليذهب ذهن السامع كلّ مذهب ممكن، فإنّ رضوان الله أكبر وهو يستلزم كلّ نعيم، وهو غير متناه من كلّ جهة.

قوله تعالىٰ: ﴿**هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ**﴾.

مدح بليغ لمَن ابتغى رضوان الله تعالىٰ، وبيان لمقاماتهم العالية، ومآلهم الحميد الذي يرجعون إليه.

والضمير «هم» عائد إلى الموصول الأوّل، وهو: ﴿**أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ**﴾.

وأمّا الطائفة الثانية، وهي مَن باء بسخط من الله تعالىٰ فقد ذكر سبحانه حكمها وحالها في يوم الجزاء في قوله عزّوجلّ: ﴿**وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾، مع أنّ سياق لفظ الدرجات ظاهر في الاختصاص.

---

١. سورة الأنفال: الآية ٤٤.

٢. سورة يونس: الآية ٤.

وإنّما أتى عزّوجلّ بضمير الجماعة العائد إلى ذوي العقول، لبيان أنّ درجات الرضوان عند الله تعالىٰ لها حياة أبدية ومن أشرف أنواع العقول وإن كانوا متفاوتين في ما بينهم، ولا يعلم أحد خصوصيّات ذلك وجهاته إلّا الله وعزّوجلّ، قال تعالىٰ في شأن الأنبياء العظام: **﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾**[١].

وظهر ممّا ذكرناه أنّه لا حاجة إلى ما قاله جمع من المفسِّرين: من أنّ الآية الشريفة على سبيل الاستعارة، بأن شبههم بالدرج في تفاوتهم علوّاً وسفلاً، أو أنّها على سبيل المبالغة في جعلهم نفس الدرجات، فيكون تشبيهاً بليغاً بحذف الأداة، كقولهم: زيد عدل، أو زيد أسد، أو أنّه علىٰ تقدير المضاف، أي: ذووا درجات. وقال بعضهم: بأنّ الآية المباركة تشمل الطائفتين، إلّا أنّ فيها تغليب الدرجات على الدركات، فإنّ الأوّل لمَن اتّبع رضوان الله تعالىٰ، والثاني لمَن باء بسخط من الله.

والجميع كما ترى، فإنّ ظاهر الآية المباركة على خلاف ذلك كما قلنا.

ويستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿عِندَ اللَّهِ﴾** عناية خاصّة بهم لا تستفاد من غير هذا اللفظ، فإنّ ما عند مَن هو غير متناه لا يعقل أن يكون متناهياً، كما لا يعقل أن يكون محدوداً بحدّ خاصّ من الكمال والجلال والعظمة والكبرياء.

والآية الكريمة مطلقة تشمل الدرجات في الدُّنيا والآخرة، أمّا الدرجات في الدُّنيا، فقد قال تعالىٰ فيها **﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾**[٢].

وقال تعالىٰ: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ**

---

١. سورة البقره: الآية ٢٥٣.

٢. سورة الزخرف: الآية ٣٢.

دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

وأمّا في الآخرة فالآيات فيها كثيرة:

قال تعالىٰ: **﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾**[٢].

وقال تعالىٰ: **﴿يَرْفَعْ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾**[٣].

وأمّا قوله تعالىٰ: **﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾**[٤]، فإنّه يشمل درجات الآخرة.

قال تعالىٰ: **﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾**[٥].

والآيات في سياق ذلك كثيرة وهي تبيِّن بعض أسباب رفع الدرجات و موجبات نيلها.

قوله تعالىٰ: **﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾**.

بيان بأنّ نيل تلك الدرجات لا يكون على التمنّي والوهم والخيال، وإنّما هو على الحقيقة والأعمال، فإنّ الله تعالىٰ لا يغيب عنه شيء ولا يفوت عنه الحقير من خير أو شرّ، فهو عليم بما في الضمائر والنيّات، ودقائق الأُمور والأعمال، فيجازى بحسبها.

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٦٥.

٢. سورة طه: الآية ٧٥ـ٧٦.

٣. سورة المجادله: الآية ١١.

٤. سورة الاسراء: الآية ٢١.

٥. سورة النساء: الآية ٩٥ـ٩٦.

قوله تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

ذكر لأفضل أفراد مَن اتّبع رضوان الله تعالىٰ، وبيان لأهمّ سبيل من سبل الدخول في رضوانه عزّوجلّ.

والمنة: وهي النّعمة العظيمة التي تفاجئ الإنسان من دون سبق سؤال، ومن صفات الله العُليا: «يا مَن مننه ابتداء وعطيّته فضل»، ومن أسمائه جلّت عظمته «المنّان» أي المُنعم المُعطي.

ولا خير في الممكنات مطلقاً أعلى وأكمل وأشمل من تكميل النفوس الناقصة المستعدّة، فهو الخير المطلق في الدُّنيا والآخرة، بل لا آخرة إلّا بذلك، فيكون أعظم صنع الله تعالىٰ ولم يخلق ما سواه إلّا لأجله، ولذا أجمل سبحانه هذه المنّة العظيمة في المقام وأهملها، فإنّ أنبياء الله تعالىٰ وإن خلقوا في هذا العالم لكنّهم (صلوات الله عليهم أجمعين) شوارق غيب يستمدّون من الفيض الربّاني غير المتناهي، ويفيضون على الأعيان المستعدّة، فهم بوجودهم الجمعي ليسوا إلّا العقل الكلّي المجرّد، يظهر تارةً في صورة خليل الله تعالى إبراهيم، وأُخرىٰ في صورة حبيب الله أحمد ﷺ، فالحقيقة واحدة والشوارق مختلفة، ومن ذلك يظهر السرّ في أقوالهم عليهم السلام: «مَنْ لا عقل له لا إيمان له، ومَنْ لا إيمان له لا عقل له»، والآيات الشريفة ناصّة في هذا التلازم كما ستعرف ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

إن قلت: إنّ ما ذكر من أنّ إفاضة الخير من دون سبق سؤال تسمّى منّة، مخالفة لظاهر قوله تعالىٰ حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[1]، وقول سيّد الأنبياء: «أنا دعوة أبي إبراهيم».

قلت: إنّ المراد من دون سبق سؤال من نفس المفاض عليه، لا ممّن يكون

---

١. سورة البقرة: الآية ١٢٩.

من طرق الفيض وفي سلسة الإفاضة.

قوله تعالىٰ: **﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾**.

بيان لمنّته العظمى التي مَنَّ بها الله تعالىٰ على المؤمنين وتأكيد لها، فقد ابتدأ عزّوجلّ بالنعمة أن بعث فيهم رسولاً عظيم الشأن جليل القدر. و(إذ) ظرف لـ(من) ويتضمّن التعليل.

وقد وصف سبحانه وتعالىٰ هذا الرسول بأوصاف تدلّ على جلالة قدره، وتؤكّد المنّة عليهم، وأن كلّ واحد منها نعمة جليلة تستوجب الشكر، وهي أربع:

الأوّل: أنّه رسول من أنفسهم، أي من جنسهم، فلم يكن من غير الإنسان ولا من غير العرب، ليستأنسوا به كما يستأنس الرجل بأبيه وأخيه فيفهموا كلامه ويسهل التلقّي منه، وليتأكدّوا على أحواله وكماله وملكاته العظيمة الفائقة وأخلاقه الفاضلة، وغيرها ممّا يدعو إلى الإقبال عليه، والانقياد إليه والتصديق به؛ ولئلّا تأخذهم النخوة والعصبية أو العزّة بالإثم من الإيمان به لو كان من غيرهم، فكان من عظيم المنّة على العرب أن سهَّل عليهم التعرّف على الرسول، ويسَّر لهم الإيمان به، وازدادوا بذلك شرفاً وعزّةً، وقد أكّد عزّوجلّ هذه المنّة في مواضع متعدِّدة في القرآن الكريم، قطعاً للمعاذير وإتماماً للحجّة، قال تعالىٰ: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**[١].

قوله تعالىٰ: **﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾**.

وصف ثان: الآيات جمع آية، والمراد بها الآيات التي أوحاها الله تعالىٰ

---

١. سورة الجمعة: الآية ٢.

عليه، المشتملة على جميع المعارف الإلهيّة، والعلوم الحقيقة الواقعيّة. والتلاوة هي القراءة مع التدبّر والتمعّن ليسهل عليهم فهم تلك الآيات، ويدركوا معانيها وحقائقها وإشاراتها، وقد جعل الله تعالىٰ معجزة هذا الرسول العظيم والدليل على رسالته في القرآن الكريم الذي نزل بلغتهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

وصف ثالث: وهو تزكية نفوسهم وتطهيرها من العقائد الزائفة، والآراء الباطلة، والأخلاق الذميمة، والصفات الرذيلة التي كانوا عليها قبل بعثته، فإنّ مع وجود تلك الملكات الفاسدة في النفس، لا يمكنها التحلّي بالمعارف الإلهيّة، وهي حُجبٌ ظلمانية تعوق عن الوصول إلى الفيض الإلهي، والتخلية متقدّمة على التحلية.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

وصف رابع: وهو تعليمهم الكمالات الإنسانيّة، وجهات الحكمة العلمية والعملية، والحكمة بأي معنى أُخذت مما يفتقر إليها الإنسان، ويعجز عن الإحاطة بها البيان.

والتعليم وإن كان مترتّباً على التلاوة، إلّا أنّه لابدّ من التزكية، التي هي عبارة عن تخلية النفس عن الرذائل والحُجب، وتصفية النفس وتهذيبها بالفضائل، ثمّ تكميلها العلم والتعليم المترتبين على التلاوة، ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[1]، إلّا أنّ الفرق بينهما في تقديم التزكية على التعليم وتأخيرها عنه، ويأتي في البحث الدلالي ما يتعلّق بذلك.

١. سورة البقرة: الآية ١٢٩.

والآية المباركة تدلّ على أنّ جهات تكميل الإنسانيّة الواقعيّة تكون مفوّضة إلى الله تعالىٰ، وليس للجهات الإمكانيّة دخل فيها أبداً.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

جملة حالية تبيّن حالتهم السابقة التي كانوا عليها قبل البعثة، وقد وصفها الله تعالىٰ بالجاهلية في مواضع متعدِّدة من القرآن الكريم، ويتضمّن هذا اللّفظ على جهات الفساد في العقيدة والعمل.

والمراد من قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ القبلية الرتبية أي قبل العمل بالشريعة، فيشمل ما بعد البعثة وقبلها.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: يستفاد من سياق قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ**﴾ تنزيه ساحة الأنبياء وطهارتهم عن السوء والفحشاء، وعصمتهم عن كلّ معصية ورذيلة، فيصحّ أن تجعل هذه الآية الكريمة من جملة الأدلّة الدالّة على عصمة الأنبياء ولو عن معصية الخيانة، فتتمّ في غيرها بالقول بعدم الفصل، وكذا نقول في القائمين مقامهم.

الثاني: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ على تجسّم الأعمال، وظهور الملكات بما يناسبها من الصور والحقائق في يوم القيامة، والظالم المذنب يتحمّل تبعات تلك المعاصي، فيُحاسب عليها ويوفي جزاؤه.

الثالث: يرشد قوله تعالىٰ: ﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ على أنّ نسبة الخيانة إلى النبيّ ﷺ ظلم، ولابدّ من التنزّه عنها كما تنزه عزّوجلّ عنه، فلا يظلم عباده يوم الجزاء مطلقاً.

الرابع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ**﴾ على أنّ النبيّ ﷺ لا يمكن رميه بالخيانة، والخائن باء بسخط من الله تعالىٰ.

وفي الآية المباركة الموعظة للمؤمنين وإرشادهم إلى اتباع رضوان الله تعالىٰ، والتعريض لهم بأنّ هذه الأقوال والأعمال من التعرّض بسخط الله، ولابدّ من الابتعاد عنه.

الخامس: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ**﴾ أن لمَن اتّبع رضوان الله تعالىٰ منازل كريمة وأجراً عظيماً، وقد عبّر عزّوجلّ في موضع آخر: ﴿**لَهُمْ**

دَرَجَاتٌ﴾[١]، ولعلّ الاختلاف في التعبير باعتبار الإضافة إلى الله تعالىٰ، التي هي الأصل لجميع خيرات الدُّنيا والآخرة، فقال ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾، ومن حيث الإضافة إلى نفس العاملين الموفين، فقال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾، والجميع صحيح لا إشكال فيه، مع أنّه يصحّ أن يُقال: إنّ اللام في قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ للاختصاص الذاتي كما يقال: للجنّة أشجار وأوراد ورياحين.

السادس: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ﴾ أهمّ أصل من أُصول التعليم والتربية في الإسلام، وهذه الآية المباركة مع إيجازها تتضمّن أعظم المقوّمات في السير والسلوك في الأخلاق، وهي تدلّ على أنّ المتّبع لها يتّصف بفضيلة الصلاح، وهي توجب الفوز بالسعادة الفرديّة والإجتماعيّة لمَن عمل بها، كما أنّها تبيّن الحدّ الفاصل بين الحقيقة والوهم والخيال، فإنّ كلّ من لم يتّبع رضوان الله تعالىٰ إنّما هو قشر بدون لب، وجسد بلا روح، وإن كان الظاهر مليحاً ولكنّه سراب زائل وضال، ولم يبيّن سبحانه سُبل رضوان الله تعالىٰ، لأنّها ذُكرت في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، وهي معلومة يحكم بحسنها العقل والفطرة المستقيمة، ولذا ورد في الحديث: «انّ الذين اتّبعوا رضوان الله تعالىٰ هم الأئمّة عليهم السلام»؛ لأنّهم يدعون إلى الكمال المطلق، وهم مثال للأخلاق الفاضلة والأصل في جميع الأحكام.

السابع: يبيّن قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أنّ جهات تكميل الإنسان لابدّ أن تكون من الله تعالىٰ، وأنّ مكمل الإنسانيّة يجب أن يكون مبعوثاً من قبله عزّوجلّ؛ لأنّ جهات التكميل الواقعيّة ممّا لا يمكن أن يحيط بها العقل.

---

١ . سورة الأنفال: الآية ٤.

وبمثل هذه الآية الشريفة يمكن أن يستدلّ على أنّ وصي الرسول ـ لاسيما خاتم الأنبياء ﷺ ـ لابدّ أن يكون باختيار الله تعالىٰ وتنصيص من النبيّ ﷺ عليه، لأنّ ما يتمّم الإنسانيّة الواقعيّة مثل المكمّل للإنسانيّة لا دخل لاختيار الناس فيه، فلابدّ وأن يكون بإختيار من الله عزّوجلّ، وتعيين من واسطة الفيض بطريق التنصيب، وسيأتي في الآيات اللاحقة تفصيل الكلام إن شاء الله تعالىٰ.

الثامن: إنّما خصّ المؤمنين بالذكر في قوله تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾، مع أنّ رسول الله تعالىٰ وأنبيائه مبعوثون إلى كافّة الناس، لبيان مزيد المنّة وتماميّتها عليهم، لأنّ تعليق الحكم على الوصف يشعر بالعليّة، ولأنّهم مستعدّون لنيل الإفاضات الربوبية، وقد تقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿**هُدًىٰ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ ما يرتبط بالمقام فراجع.

التاسع: إنّما قدَّم عزّوجلّ التزكية على التعليم في المقام، وأخّرها في قوله تعالىٰ: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِم**﴾[1]، لبيان التلازم بين التخلية والتحلية في النفوس المستعدّة، فلا ينافي تقديم أحد المتلازمين على الآخر في موضع، مع تأخّره عنه في موضع آخر، أو لأنّ التزكية والتعليم الواقعين لابدّ أن يدعو كلّ واحد منهما إلى الآخر، وإلّا فليسا من التخلية والتحلية بشيء.

***

بحث روائي:

في «تفسير القمّي» في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ**﴾، قال عليه السلام: «فصدق الله لم يكن الله ليجعل نبيّاً غالاً. ﴿**وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾، ومَن غل شيئاً رآه يوم القيامة في النار، ثمّ يكلّف أن يدخل إليه فيخرجه من النار».

---

١. سورة البقرة: الآية ١٢٩.

أقول: الحديث ينصّ على تجسّم الأعمال وأنّ العامل مأخوذ بعمله في الدار الآخرة.

وفي «المجالس»، عن الصادق عليه السلام: «وإنّ رضاء الناس لا يملك وألسنتهم لاتضبط، ألم ينسبوه ـ أي نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله ـ يوم بدر إلى أنّه أخذ لنفسه من المغنم قطيفة حمراء حتّى أظهره الله على القطيفة وبرّأ نبيّه من الخيانة، وأنزل في كتابه: **﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**».

أقول: الروايات في مضمون ذلك كثيرة مرويّة من الخاصّة والجمهور، ويستفاد منها أنّهم قد نسبوا ذلك إليه صلى الله عليه وآله في عدّة مواضع.

في «الكافي»: عن عمّار الساباطي، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: **﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾**.

فقال عليه السلام: الذين اتّبعوا رضوان الله هم الأئمة، وهم والله يا عمّار درجات للمؤمنين، وبولايتهم إيّانا يضاعف الله لهم أعمالهم، ويرفع الله لهم الدرجات العلى».

أقول: من كان مع الحقّ وفي الحقّ في جميع أفعاله وأقواله، تنطبق عليه الآية الشريفة، فتكون الرواية من باب التطبيق.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾** قال عليه السلام، «الدرجة ما بين السماء إلى الأرض».

أقول: لا ريب في اختلاف الدرجات إختلافاً كثيراً، بل ربما تكون التفاوت غير متناهٍ.

***

الآية ١٦٥ ـ ١٦٨

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِم وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

الآيات الشريفة تبيّن جانباً من الجوانب المتعدِّدة في غزوة أُحد، فقد كشفت عن شبهات المنافقين، وكيدهم في إضلال المؤمنين عن القتال، وتعرّضت للردّ عليهم وبيّنت الحقيقة فيهم، وأنّهم على الكفر والضلال.

والآيات المباركة تكشف عن الموازنة بين ما أصابهم من خسارة وهزيمة حصلت من عند أنفسهم، وبين تلك النعمة العظمى والمنّة الكبرىٰ بما تحقّق لهم من اتباع الرسول العظيم الذي هو من أنفسهم.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾**.

بيان لحقيقة واقعيّة، وهي أنّ ما يصيب الإنسان من المصائب إنّما يكون

بسبب المعاصي التي تقع منه، جرياً على قانون الأسباب والمسبّبات، وقد تقدّم في الآيات السابقة بيان الكبرى، فراجع قوله تعالىٰ: **﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُـهَا بَـيْنَ النَّاسِ﴾**[١].

والاستفهام للتقريع، فيكون السؤال الاستنكاري في موضعه، والواو عاطفة وقد تقدّمت عليها همزة الاستفهام؛ لأنّ لها الصدارة في الكلام، و«ما» ظرف بمعنى حين، و«قد أصبتم» صفة لمصيبة، وقيل في محل نصب على أنّه حال.

والمصيبة هي التي أصابتهم يوم أُحد إثر عصيان الرسولﷺ، ومخالفتهم لأوامره وعدم التقوى عندهم، والفشل والتنازع بينهم، ممّا كان سبباً لهزيمتهم وتوبيخهم وتقريعهم. والمشهور بين المفسّرين أنّ المراد بالمثلين: المثلان في غزوة بدر الكبرى، فإنّهم قتلوا من المشركين سبعين وأسروا منهم سبعين، فكان ذلك مثل ما أصاب المسلمين يوم أُحد من قتل سبعين منهم. والظاهر أنّه أعمّ من ذلك وممّا أصاب المسلمون من المشركين في غزوة أُحد، فقد هزموهم أوّل الأمر وقتلوا منهم جمعاً، ولكن عصيانهم للرسول وفشلهم وتنازعهم كان السبب في هزيمتهم وقتل المشركين لهم.

وكيف كان، ففي هذا التوصيف تسكين لقلوبهم، وتحقير للمعصية، ولما يورث السكون، وهذا كاف في الجواب عن سؤالهم.

والمعنى: أتدرون لماذا أصابكم تلك المصيبة، فإنّها كانت من عند أنفسكم نتيجة حتميّة لأعمالكم، لأنّكم خالفتم أوامر الرسول ﷺ، وفشلتم واختلفتم وتنازعتم، فكان ذلك سبباً في إفساد الفتح والظفر اللّذين كانا من نصيبكم.

قوله تعالىٰ: **﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾**.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

سؤال عن سبب المصيبة، تعجّباً منهم واستيحاشاً واستعظاماً واستبعاداً للحادثه مع مباشرتهم لسببها، والجملة جواب «لما»، وهذه واحدة من تلك الشبهات التي ذكروها في المقام بعدما رأوا النصر الباهر في بدر، فاعتبروا أنّ ذلك لأجل كونهم مسلمين، ولكنّهم ذهلوا عن الحقيقة.

قوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**﴾.

بيان للحقيقة التي غفلوا عنها، وتأكيد لما بيّنه عزّوجلّ سابقاً، من أنّ ما يصيب الإنسان إنّما هو آثار أفعاله ونتائج أعماله.

والمعنى: قل يا رسول الله في جوابهم أنّكم أخطأتهم في الرأي، فإنّ الذي أصابكم إنّما هو بسبب أعمالكم وأفعالكم، حيث خالفتم أوامر الرسولﷺ وفشلتم وتنازعتم في الرأي، وأنّكم اخترتم هذه المصيبة لأنّكم طمعتم بفداء الأسرى، مع أنّ الرسول ﷺ أنذرهم بأنّه يقتل منهم بعددهم، واشترط عليهم ذلك فرضوا به. وهذا محمول على الغالب من الذين كانوا معهﷺ. وأمّا أعاظم الصحابة مثل عليّ عليه السلام ونحوه، فلا تشملهم الآية الشريفة، فلا وجه لإشكال بعض المفسِّرين في المقام.

قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

أي: أنّ الله تعالىٰ قادر على الظفر عند المطاوعة والصبر، والخذلان عند المخالفة. وما وقع إنّما كان بسوء اختياركم وجرياً على سنّة الأسباب، ولكنّه تعالىٰ قادر على اللّطف بكم.

وفي الآية الشريفة كمال العناية بهم، وتطييب لأنفسهم، حيث قرن مرارة التقريع بحلاوة الوعد، وفيها درس من دروس الحكمة التي يعلّمها الله تعالىٰ للمؤمنين.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ**﴾.

بيان لقدرته الكاملة، وذكر لأحد مصاديقها، فإنّ كلّ شيء لابدّ أن ينتهي إلى إذن الله تعالىٰ وقدرته، ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً**﴾[1]، فكلّ ما أصاب المسلمين يوم التقى جمعهم بجمع المشركين في أُحد من قتل وجراح، إنّما كان باذن الله تعالىٰ وإرادته الأزلية وتقديره وقضائه، فإنّه جرت إرادته على امتحان المؤمنين وتمحيصهم ليكمل إيمانهم بذلك، وينال مَن قُتل منهم بدرجة الشهادة.

ذكر بعض المفسّرين أنّ هذه الآية الشريفة تؤيّد المراد من الآية السابقة، لأنّ المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**﴾ اختيارهم الفداء من أسرى يوم بدر، وشرطهم على أنفسهم لله ما شرطوا، فأصابتهم هذه المصيبة بإذن الله تعالىٰ.

وفيه: أنّ ظاهر هذه الآية المباركة يبيّن القدرة الكاملة والإرادة التامّة الأزلية التي قضى بها عزّوجلّ على إجراء سنّة الأسباب في هذا العالم، ويمكن أن يكون لما أصابهم أسباب كثيرة، قد بيّن جملة منها في الآيات السابقة. ويدلّ على ما ذكرناه ذيل الآية الشريفة.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

غاية أُخرىٰ من الغايات المترتّبة على ما أصابهم من المصائب، وهي وقوع المعلوم في الخارج ليطابق علمه الأزلي، أي أصابتكم المصيبة ليعلم حال المؤمنين في قوّة إيمانهم وضعفه. وليعلم الذين صبروا وثبتوا مع رسول الله ﷺ في ميدان القتال، والذين آثروا الفرار وخذلوا الرسول الكريم، فهذه الآية الشريفة

---

١. سورة فاطر: الآية ٤٤.

لبيان وجه الحكمة والغاية، والآية الأُولى لبيان السبب.

وكيف كان، فهذه الآيات الشريفة تبيّن جانباً من الجوانب المتعدِّدة في عزوة أُحد، التي اشتملت على وجوه من الحكمة، وتضمّنت غايات متعدِّدة قلّما اجتمعت في غزوة أُخرىٰ.

وإنّما ذكر عزّوجلّ المؤمنين ابتداءً تشريفاً لهم عن الانتظام والدخول في الطائفة الأُخرىٰ، فإن الفريقين مختلفان من جميع الجهات، ويمكن أن يكون ذكر اسم الفاعل ـ الدال على الثبوت والاستمرار ـ للإشارة إلى ما ذكرناه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾

تمهيد لذكر أحوال المنافقين الذين ظهروا في غزوة أُحد بأقبح صورة، سواء في أقوالهم أو أفعالهم. والجملة عطف على قوله تعالىٰ: ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾، وإنّما أعاد عزّوجلّ الفعل للتأكيد على هذه الغاية، واعتناءً بهذه العلّة.

والمراد من ﴿الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، أي إنّما أصابتكم المصيبة ليظهر المنافق ويميّز بينه وبين المؤمن.

وإنّما ذكر عزّوجلّ هذه الطائفة بموصول صلة فعل، للدلالة على الحدوث وعدم الثبوت، بأنّه قد يتوب منهم بعد ذلك ويرجع إلى الإيمان، وقد ذكرهم تعالىٰ بعد ذكر المؤمنين للعبرة بسوء عاقبتهم، والإحتراز عن أفعالهم وأقوالهم، وعدم التشبّه لهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾

بيان لوجوه نفاقهم، منها: أنّ الذين نافقوا قد دعوا إلى القتال في سبيل الله ونصرة دينه، لينالوا الشهادة فيفوزوا بدرجاتها العالية، ولو لم تقاتلوا كذلك فادفعوا عن أنفسكم وأهليكم حميةً أو ابتغاءً للغنيمة والكسب وغير ذلك من المقاصد

الدنيوية، ولكنّهم تكاسلوا وراوغوا بنفاقهم.

وإنّما ذكر عزّوجلّ ﴿تَعَالَوْا﴾ لما فيه من الدلالة على التظاهر والتعاون، ترغيباً لهم عليهما والمشاركة مع المؤمنين في نيل السعادة.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

مظهر من مظاهر نفاقهم، فإنّهم قالوا: لو كنّا نعلم أنّكم تلقون العدوّ لأجل القتال في سبيل الله وإقامة الحقّ لذهبنا معكم، ولكن لا نرى قتالاً حقّاً في البين، وهذا تعلّل منهم نفاقاً واستهزاءً بالمؤمنين، فإنّ القتال معلوم، حيث نزل العدوّ بساحتهم بجميع عدده وعُدّته، وقد حنق غيظاً على الحقّ وعلى المؤمنين به. وقد ردّ عزّوجلّ عليهم وبّين كذبهم.

والمراد بـ«اتّبعناكم» هو الذهاب مع المؤمنين للقتال، ولم يفصحوا بالقتال لكمال معاندتهم مع الحقّ، وغيظهم وإحجامهم عن ذكره.

قوله تعالىٰ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

أي: هو يوم إذ قالوا ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً﴾ أقرب إلى الكفر منهم قبل ذلكالإيمان لظهور أمارته عليهم، فإنّ هذه المقالة كفر بالله العظيم، واستهزاءً بالنبيّ الكريم، فإنّهم يميلون إلى الكفر أكثر من ميلهم إلى الايمان.

وإنّما ذكر عزّوجلّ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مع أنّهم لم يؤمنوا لرفع شأن ذلك اليوم الذي ظهر فيه الحقّ، وتميّز المؤمن عن المنافق.

كما أنّه سبحانه وتعالىٰ قال: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ﴾ لبيان ظهور كفرهم الصريح، وأمّا النفاق فأمره واضح؛ لأنّهم واقعوه قبل ذلك وظهر على أفعالهم وأقوالهم، ولترغيبهم إلى الإسلام والدخول فيه، ولو كانوا على خلاف الحقّ وعدم ايئاسهم.

قوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

بيان لحال المنافقين مطلقاً، والجملة مستأنفة تبيّن حقيقة نفاقهم. أي أنّهم لم يؤمنوا بالحقّ ولم يتّبعوكم ولو علموا به، لأنّهم على الكذب دائماً، وإظهار خلاف ما يضمرون، وذلك عادتهم وسيرتهم، فهم مستمرّون عليه.

والأفواه: جمع فاه، وإنّما ذكره عزّوجلّ للتأكيد، ومقابلة للقلوب، وزيادة في التقريع، ونظير ذلك قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1].

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

أي: أنّهم غافلون عن الحقيقة، فإنّ الله تعالى أعلم بما يكتمونه من الكفر والنفاق والشرّ والفساد، وهو يحاسبهم ويجازيهم عليه.

قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾

مظهر آخر من مظاهر نفاقهم، وإنّما صدر منهم هذا القول بعد القتال، كما أنّ القول السابق صدر منهم قبله كما هو واضح، والجملة بدل.

والمراد بإخوانهم: الإخوان في النسب، وإنّما ذكره بالخصوص، لأنّهم يدّعون الأُخوّة الظاهريّة ومع ذلك يخالفونها ولم يفوا بدعواهم، فإنّهم قعدوا عن مساعدتهم حين ابتلائهم بالقتال، وهذا أقبح تعبير في الجاهليّة فضلاً عن الإسلام.

قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

هذا من من المثبطات التي كان المنافقون يتوسّلون بها في تضعيف المؤمنين، وبثّ روح الشكّ والارتياب في نفوسهم.

---

١. سورة الفتح: الآية ١١.

والمعنى: أنّهم قالوا لإخوانهم لو أطاعونا بالقعود عندنا، وعدم الذهاب إلى ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ من الجهاد مع أعداء الله تعالىٰ، ما قتلوا كما لم يقع علينا القتل. وقولهم هذا يرجع إلى جحودهم للقضاء والقدر، واعتقادهم بأنّ الموت يستند إلى أسباب معلومة، إذا اتّقاها الإنسان سلم عنه، وأنّ الموت ممّا يمكن أن يستدفع عنه ويتحرّز منه، وهذا مكابرة منهم، وإنكار للوجدان الذي يحكم بأنّ الموت والحياة وإن كانا أمرين طبيعيّين، لهما أسباب معلومة، لكنّهما كسائر الحوادث الكونيّة تحت إرادة الله تعالىٰ وقضائه وقدره، كما أكّد عزّوجلّ ذلك في الآيات السابقة.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾.

تثبيت لإرادة الله تعالىٰ، وتأكيد بأنّ الأُمور تحت قضائه وقدره. والدرء هو الدفع، أي قُل يا محمّد في جوابهم، تبكيتاً لهم وإظهاراً لكذبهم، فادفعوا عن أنفسكم الموت فإنّ القعود لا يُنجيكم منه؛ لأنّه أمرٌ محتّم يحلّ إذا حلّ الأجل وإن طال، بلا فرق بين القاعد والمجاهد، والحذر عن سبب معيّن لا يقي عن باقي الأسباب التي تقع بإرادة الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قضيّة شرطيّة معلّقة على أمر ممتنع، فيكون الصدق منهم ممتنعاً في ذلك. وفي الآية الشريفة التأكيد على كذبهم، فإنّه يمتنع أن يكونوا صادقين في أقوالهم وأفعالهم.

أي: فإن كنتم صادقين فادرأوا عن أنفسكم جميع أسباب الموت.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

«ما» في قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ﴾** اسم وموصول مبتدأ، و«أصابكم» صلة «فبإذن الله» خبره، وإنّما دخل عليه الفاء لتضمّن الموصول معنى الشرط، وقيل إنّه للسبب.

وإنّما ترك العاطف بين «تعالوا» و«قاتلوا» في قوله تعالىٰ: **﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا﴾**، لبيان التلازم بينهما، وأنّ المقصود بهما واحد.

قوله تعالىٰ: **﴿وَقَعَدُوا﴾** إمّا حالية من ضمير قالوا بإضمار (قد)، وإمّا معطوفة بالواو التي هي لمطلق الجمع، فتكون جملة معترضة بين قالوا ومقوله، وهو قوله تعالىٰ: **﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾**.

الظرفان في قوله تعالىٰ: **﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾** قيل: إنّ كليهما متعلّقان بـ«أقرب»، وذكروا أنّ من القواعد في باب الظروف أنّه لا يتعلّق حرفا جرّ أو ظرفان ـ بمعنى واحد ـ بمتعلّق واحد إلّا في ثلاث صور:

الأُولىٰ: أن يتعلّق أحدهما به مطلقاً، ثمّ يتعلّق به الآخر بعد تقييده بالأوّل.

الثانية: أن يكون الثاني تابعاً للأوّل ببدليّة أو عطف بيان أو نحوهما.

الثالثة: أن يكون المتعلّق أفعل تفضيل لتضمّنه الفاضل والمفضول اللذين يجعلانه بمنزلة تعدّد المتعلّق، كما في المقيّد والمطلق، والمقام من هذا القبيل.

والجامع في جميع ذلك لحاظ الوحدة الاعتباريّة، فكلّما لوحظ فيه هذه الجهة يصحّ ذلك، ولا يختصّ بتلك الصور الثلاث.

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾** واقع الإنسان بعد إصابة المصيبة، بأنّه يلتمس أسباباً لتلك وإلقاء تبعاتها على الغير، تخفيفاً للوعة المصاب، ولما فيه الأثر النفسي الكبير. والآية الشريفة لا تنفي ذلك، بل تبيِّن الطريق الصحيح، وتهدي الإنسان إلى الصراط المستقيم، وتبيِّن أنّ الأسباب لتلك المصائب والهموم إنّما تكون من عند الإنسان نفسه، وقد أتى الجواب عن جميع تلك الأسئلة والشبهات واضحاً يبيّن الحقيقة، قال تعالىٰ: **﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾**، وقال تعالىٰ: **﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾**[1]، وعلى الإنسان التفكّر في عقيدته وأفكاره وأفعاله وأقواله، فإنّ فيها الأسباب التي تقتضي حدوث المصائب على الإنسان وكيفيّة التحرّز عنها بالالتزام بالشرع والاتّكال على الله تعالىٰ.

الثاني: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**، على أنّ قانون الأسباب والمسبّبات الذي بُني عليه هذا النظام، لا يخرج عن قدرة الله تعالىٰ وقضائه وقدره؛ فإنّه عزّوجلّ المدبِّر لهذا النظام الكياني، وهو المُهيمن علىٰ جميع ما يجرى فيه، فإنّ الأسباب وإن اقتضت المسبّبات المعلومة إلّا أنّها تؤثر بإرادة الله عزّوجلّ وإذنه.

ومن ذلك يعلم السرّ في تعقيب ذلك بقوله تعالىٰ: **﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ﴾**، وأكّد ذلك بقوله عزّوجلّ: **﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**، الذي يدلّ على أنّ الاعتقاد بذلك من الإيمان.

---

١. سورة الشورى: الآية ٣٠.

الثالث: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾** إلى أهمّ ما كان يريد المنافقون من أقوالهم وأفعالهم، وهو تثبيط المؤمنين عن القتال، وبثّ روح الشكّ في نفوسهم، والإحجام عن تنفيذ أوامر الله تعالىٰ، وترك طاعة الرسول ﷺ، وقد فنَّد عزّوجلّ مزاعمهم، وأبطل دعاويهم وأعلن كفرهم، وأظهر كذبهم وحقيقة أمرهم وهي أنّهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وأنّ ذلك صار من عادتهم وسيرتهم.

الرابع: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ﴾** حسن المحاورة والمحاجّة مع المنافقين والكافرين وإقامة البرهان لهم حتّى يرجعوا إلى الإيمان، وحيث لابدّ أن تكون بالتي هي أحسن وإلّا خرج عن الحدود الشرعيّة، وهذه الآيات كلّها تعليم للحكمة التي وردت في الآية السابقة **﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾**.

***

بحث روائي:

في «تفسير العيّاشي» في قوله تعالىٰ: **﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾**، قال الصادق عليه السلام: «كان المسلمون قد أصابوا ببدر مائة وأربعين رجلاً، قتلوا سبعين رجلاً وأسروا سبعين رجلاً، فلمّا كان يوم أُحد أُصيب من المسلمين سبعون رجلاً، فاغتمّوا بذلك فأنزل الله تعالىٰ: **﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾**.

أقول: قد روى الجمهور مثل ذلك أيضاً، والرواية على فرض صحّتها ترشد إلى استنكار التعجيب منهم بعد وصول مثلي ما أصابهم إليهم في يوم بدر.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالىٰ: **﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾**، قال: فهم ثلاثمائة منافق رجعوا مع عبد الله بن أبي سلول،

فقال لهم جابر بن عبد الله: أنشدكم في نبيّكم ودينكم وديارکم، فقالوا والله لا يكون القتال اليوم ولو علم أن يكون القتال لاتبعناكم، يقول الله **﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾**.

أقول: بيان لبعض مصاديق النفاق، وقد تقدّم في التفسير ما يتعلّق بذلك.

***

الآية ١٦٩ ـ ١٧٥

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

بعدما بيَّن سبحانه وتعالىٰ مكر المنافقين وضعف نفوسهم، وتحدّاهم بأمر واقع لا نكران فيه، بأنّ الموت كما يُصيب المجاهدين في سبيله تعالىٰ، كذلك يصيب القاعدين، ولا يستطيعون درء الموت عن أنفسهم بقعودهم.

بيّن في هذه الآيات الشريفة المائز والفارق بين ميتة القاعدين، وبين ما يصيب المجاهدين في سبيله تعالىٰ، ولا يموتون ميتتهم فإنّهم ليسوا أمواتاً ولا تكون حياتهم محدودة، فلا تنتهي وإنّما لهم الحياة عند ربّهم متّصفين بأكمل الصفات وأسماها، فرحين، ومستبشرين، لا يطرأ عليهم خوف ولا حزن لأنّهم عند

«مليك مقتدر».

والأحياء عند ربّهم هم الذين استجابوا لله والرسول، ولم تزلزلهم المحنة، ولم تقعدهم الجراحات عن الجهاد في سبيله، ولم يخشوا من تجمّع الأعداء، ولم يرهبهم إرجاف الناس، بل زادهم كلّ ذلك إيماناً به تعالىٰ وتسليماً لأمره، فاعتمدوا عليه وساروا على النهج الذي فيه رضوان الله تعالىٰ، ويستبشرون خيار المؤمنين بكمال سعادتهم.

وقد كشف سبحانه وتعالىٰ عن منشأ الخوف وهو الشيطان الذي يخوّف أولياءه تعالىٰ، ولكنّهم لا يخافون سواه تعالىٰ، وأنّ قلوبهم مملوءة بالثقة بالله العظيم والإيمان به.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً﴾.

بيان لحقيقة من الحقائق الواقعيّة التي غفل عنها جميع مَن قصر نظره على المادّة والمادّيات وأعرض عن الواقع والحقيقة، ولأجل أهمّية المضمون تحقّق الالتفات في الآية المباركة عن خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول ﷺ، فكأنّ هذه الحقيقة لا يمكن دركها بسهولة ولا يتقبلها عقول سائر الناس المأنوسة بالمادِّيات، إلّا مَن كان متّصلاً بالفيض الربوبي ومتربّياً بالتربية الإلهيّة ومهتدياً بهدى الله تعالىٰ.

والآية المباركة ردّ لجميع مزاعم المنافقين والكافرين وكلّ متوهّم يتوهّم أنّ الموت هو سبب لصيرورة الميّت كالجماد روحاً وبدناً وانعدام كلّ منهما، فلا حياة بعد ذلك وراء هذه الحياة الدّنيا ولا بعث. والتعبير بالحسبان، للإعلان ببطلان هذا الزعم وفساده.

والمراد بسبيل الله كلّ سبيل شرع لإقامة الحقّ وإزاحة الباطل وقمعه، سواء كان من الجهاد الأكبر أو الجهاد الأصغر، وتعلم المعارف الربوبيّة والأحكام الشرعيّة، وتهذيب النفس بما يرتضيه الله تعالىٰ، بل ويشمل السعي في قضاء حوائج المؤمنين تقرّباً إلى الله تعالىٰ؛ فكلّ مَن قتل في سبيل تلك تشمله الآية الشريفة.

كما أنّ المراد بالموت هنا هو الموت الظاهري وسقوط الإدراك، لأجل مفارقة تلك الحياة الحيوانيّة المعروفة.

والحياة الثانية هي الحياة الواقعيّة المعنوية، فالشهيد بالحقّ وفي الحقّ تصعد روحه إلى الجنّة وتعيش في المقامات المعدّة لها، فتكون أرواح الشهداء من مظاهر تجلّيات الحقّ بالحقّ، ومن شوارق أشعّة الذات غير المحدودة بحدّ أبداً.

فالآية شريفة تبيّن حقيقة من الحقائق الواقعيّة وهي الحياة بعد الموت، وأنّ الإنسان بروحه لا بجسده فحسب، فهي التي تشقى أو تسعد، والمنافقون وغيرهم غفلوا عن هذه الحقيقة واقتصروا على ما هو المحسوس، وكان قصدهم من ذلك تثبيط المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله تعالىٰ وتقنيطهم عن مأمولهم وما كانوا يرجونه في جهادهم وقتلهم في سبيل الله تعالىٰ، لكن الوجدان الإنساني يعلن بطلان أقوالهم ويحكم عليهم بالخزي والعار، وأنّ نصيبهم من ذلك الحرمان والشقاء.

فالآية المباركة ترشد إلى أمر وجداني يذعن الإنسان به بعد أدنى تفكّر وروية، ولعلّ ذلك كلّه هو الوجه في تأكيد هذه الحقيقة في القرآن الكريم وتكرارها في مواضع متعدِّدة منه، وقد تقدَّم في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾**[1]، فقد نفى عزّ وجلّ عنهم الشعور

---

١. سورة البقرة: الآية ١٥٤.

لكثرة أُنسهم بالمادِّيات وغفلتهم عن الحقائق والمعنويات، وبعد التفكير وعدم الاقتصار على الجانب المادِّي فقط في هذه الحياة تنكشف الحقيقة بوضوح.

هذا وللإذعان بهذه الحقيقة فوائد كثيرة، فإنّه يوجب الاعتقاد ببقاء الروح وأنّها تنتقل من عالم إلى عالم آخر، كما أنّه يقتضي زوال كثير من الهموم والغموم التي تُصيب الإنسان في الحياة الدُّنيا، وشدّة الإقدام والمثابرة في تحمّل المكاره، للعلم بأنّها إذا كانت في سبيل الله تعالىٰ فإنّ لها الجزاء الأوفىٰ، وهي توجب السعادة والعيش الهنيء في العُقبىٰ.

ولذا نرى أنّ هذه الحقيقة إنّما تذكر بعد آيات الجهاد والقتال في سبيل الله، لما لها الأثر الكبير على الصبر في ميدان القتال والمثابرة عند النزال.

كما أنّ الاعتقاد بهذه الحقيقة يكون من أسباب استكمال الإنسان وإعداد نفسه لحياة أُخرىٰ بوجه أتمّ وأكمل، كما تدلّ عليه ذيل الآية الشريفة وآيات أُخرىٰ في مواضع متعدِّدة، يُضاف إلى ذلك أنّ لها الأثر الكبير في النفس فتجعلها مطمئنة راضية بما قسمه الله تعالىٰ وما ينزل عليها من المصائب.

قوله تعالىٰ: **﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**.

إبطال لما زعموه في المقتولين في سبيل الله تعالىٰ بأنّهم أموات قد انتهت حياتهم، بل هم أحياء بحياة خاصّة ومقرَّبون عند ربّهم، يتعّمون بأنواع الرزق في تلك الحياة الكريمة، وسعداء في ذلك العالم الحميد، وقد كرَّمهم عزّوجلّ بذكر (عند) والربوبية وإضافتها إلى ضمير (هم)، وفيه غاية التكريم والتبجيل، وقد تقدّم في آية (١٥٤) من سورة البقرة بعض الكلام، فراجع.

قوله تعالىٰ: **﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾**.

الفرح: السرور وهو ضد الحزن، أي أنّهم مسرورون بما وجدوه من فضل الله

الذي كان حاضراً مشهوداً عندهم، والفضل هذا يكون زائداً على الرزق، فإنّه ما كان من غير مقابلة، قال تعالىٰ: **﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾**[1].

وهذه الآية الشريفة تثبت الحياة الكاملة لهم بعد قتلهم، وتبيّن نهاية السعادة ورفعة الدرجات.

قوله تعالىٰ: **﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾**.

مزيد بيان لتلك الحياة، فإنّهم في تنعّمهم في فضل الله تعالىٰ، يفرحون بأخبار خيار المؤمنين الباقين في الحياة الدُّنيا، ويستبشرون بسعادتهم وصلاحهم في الآخرة. وإنّما عبّر تعالىٰ: **﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾**؛ لبيان أنّهم على طريقة الشهداء ويقتفون أثرهم.

قوله تعالىٰ: **﴿أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**.

بيان لصلاحهم في الآخرة، أي أنّهم يستبشرون بمَن خلفهم بأنّهم لا خوف عليهم من المتوقّع ولا هم يحزنون من الواقع، وإنّما كان ذلك منهم مشاهدة وإرشاداً للمؤمنين بأن لا يخافوا ممّا يصيبهم ولا يحزنوا مقابل تلك المقامات العالية. وقد أُبهم الخوف والحزن لتدلّ على التعميم من كلّ جهة يُمكن أن تفرض، لأنّ النكرة في سياق النفي تفيد العموم.

قوله تعالىٰ: **﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللهِ وَفَضْلٍ﴾**.

جملة مستقلّة لم يذكر فيها حرف العطف اهتماماً وتعظيماً، لأنّ مفادها نعمة عظيمة فوق جميع النِّعم.

---

١. سورة فاطر: الآية ٣٠.

والاستبشار هو الخبر السار، الظاهر سروره على البشرة، وهذا الاستبشار أعمّ من الاستبشار بحال أنفسهم والاستبشار بحال غيرهم، وإنّما حصلت هذه الفضيلة لهم من مجاهداتهم في سبيل الله تعالىٰ والاصطبار عليها.

والنعمة: هي الأجر الجزيل الذي أتحفهم تعالىٰ به وخصّهم بولايتهم، والفضل هو الكرامة التي حباهم عزّوجلّ زيادة على أجرهم وجزائهم، نظير قوله تعالىٰ: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**﴾[1].

وإنّما جمع عزّوجلّ بين الاستبشار بانتفاء الخوف والحزن، والاستبشار بنعمة من الله وفضل، لبيان تماميّة النعمة وكمال الحياة بعد الموت، والإرشاد إلى أنّ أعمالهم مشكورة ومقبولة عند الله، وهي محفوظة لهم، قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ**﴾[2]، ولعلّه لأجل ذلك كلّه كرّر سبحانه وتعالىٰ الاستبشار والفضل في الآيات المتقدّمة.

وقد أبهم عزّوجلّ النعمة وأضافها إلى نفسه جلّ جلاله، ليقترن الفخامة الذاتيّة لفخامة الإضافيّة، وليذهب ذهن السامع كلّ مذهب ممكن، كما أنّه عزّوجلّ جمع بين النعمة والفضل لبيان أنّ النعمة التي أنعمها الله تعالىٰ عليهم مضاعفة، ولا نهاية لسرورهم ولذّاتهم، ولا حدّ لعناياته عزّوجلّ بهم.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

تأكيد آخر بتوفية الله أجر المؤمنين من الشهداء وغيرهم من غير نقصان، والآية الشريفة تبيّن وجه نفي الحزن والخوف عنهم، فإنّ الإنسان إنّما يخاف إذا كانت النعمة التي هو فيها في معرض الزوال، ويحزن إذا علم بفقدان السعادة التي

---

١. سورة يونس: الآية ٢٦.

٢. سورة البقرة: الآية ١١٠.

اكتسبها، فإذا تيقّن بأن الأعمال محفوظة عند الله تعالىٰ، وأنّه عزّوجلّ لا يضيع الأجر عنده، فيرتفع الخوف والحزن عنه، وهذا هو الفضل الذي ذكره تعالىٰ ابتداءً، وإذا كان عزّوجلّ هو الذي يتولّى أمرهم ويمنحهم الفضل الكبير، لا وجه للحزن والخوف عنده.

وإنّما ذكر عزّوجلّ المؤمنين تنويهاً بمقامهم السامي، وأنّ تلك المقامات التي ذكرها عزّوجلّ إنّما تنال بالإيمان. فما ذكره تعالىٰ في هذه الآيات إنّما هو لبيان تمام النعمة والدخول في حياة كاملة لا ينغصّها شيء من الكدورات، وقد خصّهم عزّوجلّ بولايته ومنحهم أنواع النِّعَم.

والآيات الشريفة المتقدِّمة من أجلّ الآيات التي وردت في إثبات الحياة للروح بعد الموت، وإثبات عالم البرزخ وتنعّم أرواح الشهداء، وإبطال مزاعم الكفّار والمنافقين في هذا المجال، وهي في غاية الفصاحة والبلاغة بأُسلوب جذّاب لطيف في منتهى الجمال والروعة، وقد ذكر عزّوجلّ فيها من الدقائق والرموز التي لا يمكن أن تدركها عقول سائر الناس إلّا بواسطة الوحي المبين وإرشاد واسطة الفيض الربوبي، وهي تدلّ على أُمور نحن نذكر جملة منها في المقام:

منها: أنّه عزّوجلّ ذكر ابتداء الأمر بطلان كلّ ما قيل من السوء أو يقال في هذا المجال، وبيّن فساد مزاعم المنافقين في أرواح الشهداء والمؤمنين، وأدرج جميع ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾، ويستفاد من ذلك أنّ الاعتقاد بخلاف ما ذكره عزّوجلّ من مجرّد الحسبان الذي لا واقع له.

ومنها: ثبوت الحياة الكاملة لأرواح الشهداء التي شرفّها عزّوجلّ، وأنّها حاظت مقام القُرب لديه، الذي هو من أجلّ المقامات، ولا يعقل محمدة فوق هذه المحمدة، لأنّ الشهداء بذلوا أعزّ الأشياء عندهم وهي الروح، فإذا فدّى الإنسان ما

هو أعزّ الأشياء لديه في سبيله جلّت عظمته، كان الجزاء عظيماً وينال ذلك المقام العظيم وهو مقام القُرب، ولذا ورد في الحديث أنّه: «فوق كلّ برٍّ برّ، إلّا القتل في سبيل الله فليس فوقه برّ»، والعندية المذكورة في الآية المباركة ليس المراد بها العنديّة الظاهريّة بل العنديّة الواقعيّة الحقيقيّة التي لا يعقل لها حدّ، وليس لجلالها ولا لكمالها غاية، فهي خارجة عن الحدود الإمكانيّة وإدراكات العقول، ورزقنا الله تعالىٰ لمحة من لمحاتها، وشارقة من شوارقها.

و منها: أنّها تتنعّم في تلك الحياة بأنواع الرزق الظاهريّة والمعنوية بجميع مراتبها، فلا ينقص من تلك الحياة شيء من أسباب العيش الهنيء، وقد منحهم عزّوجلّ ذلك الرزق العظيم لأنّهم حرموا في هذه الحياة المحدودة الفانية عن تلك الأرزاق ببذل أعزّ شيء عندهم في سبيل الله تعالىٰ، وكانوا في جهاد مستمرّ مع النفس الأمّارة وأعداء الله تعالىٰ.

ومنها: أنّهم فرحون بما آتاهم الله تعالىٰ من فضله؛ لأنّهم وجدوا جزاء أعمالهم تامّاً كاملاً قد منحهم الله تعالىٰ الفضل الكبير، وهذا الفرح ممّا يزيد في بهجة تلك الحياة، وإنّما كانوا فرحين فيها لأنّهم كانوا محزونون في الحياة الدُّنيا بسبب أفعال الكافرين والمنافقين وأقوالهم، وما كان يصيبهم من شدّة البلاء والمثابرة في سبيل الله تعالىٰ.

ومنها: أنّ المقتولين في سبيل الله تعالىٰ لمّا كانوا يحيون حياة كاملة ويتنعّمون فيها بأنواع الرزق وهم فرحون فيها، لا يحزنهم شيء ممّا كان يحزنهم في هذه الحياة الفانية، قد أتمّ الله تعالىٰ عليهم النعمة، وأنّهم في اتّصال مع خيار المؤمنين الباقين بعدهم في الدُّنيا، يستخبرون عن أحواهم وتصل إليهم أخبارهم ويسألون عن شؤونهم ويسرّون بصلاحهم، ويفرحون بنجاتهم من سوء العقاب.

ومنها: أنّهم بمشاهدتهم جزاء أعمالهم وأعمال المؤمنين فلا خوفٌ عليهم

ولا هم يحزنون، وبذلك كملت حياتهم؛ لأنّ الحياة التي اشتملت على جميع اللذّات وأسباب الفرح، وخلصت من جميع ما يوجب الحزن والخوف، لا يعقل فوقها كمال، وإذا كان ذلك على وجه الدوام والخلود ولم يكن في معرض الزوال، فلا نقمة من هذه الجهة أيضاً، فهذه هي السعادة العظمىٰ، ولذا نرى أنّ الله تعالىٰ يؤكّد على هذا الجانب في آيات أُخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾[2].

ومنها: أنّهم في ولاية الله تعالىٰ يرعى شؤونهم ويفيض عليهم ما يوجب استبشارهم في كلّ آن؛ لأنّهم رأوا جزاء ما عملوا حاضراً قد زانه الفضل من الله تعالىٰ، وبعد اجتماع تلك الخصوصيات في هذه الحياة، لا يعقل حياة ولا سعادة فوقها.

قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾.

الآية الشريفة بأُسلوبها اللطيف تبيّن كيفيّة تأثير التربية الحقيّقيّة الملهمة في نفوس المؤمنين، بعد أن وعوا تلك الدروس الهائلة التي مرّت بهم في معركة أُحد، وبعدما لاقوا من الشدائد والصِّعاب بسبب المخالفة والعصيان، فكانت حصيلة تلك التعليمات الإلهيّة والإرشادات الربوبية أنّهم هبّوا من غفلتهم، وأفاقوا ممّا لحقهم من تبعات المعصية والتفرّق والاختلاف، ورجعوا إلى الحقّ والصراط المستقيم، فاجتمعت فيهم صفات الثبات والصمود والعزيمة والتوكّل على الله تعالىٰ، فأطاعوا الله والرسول، واستجابوا له عندما دعاهم إلى قتال الكفّار إثر المعركة السابقة، فقد لاحقوا جيش المشركين في رجوعهم من معركة أُحد على ما هم عليه من الجراح،

---

١. سورة القصص: الآية ٦٠.

٢. سورة النحل: الآية ٩٦.

وهم لا يزالون يقاسون الآلام التي أنهكت قواهم، وأصرّوا على أن لا يعودوا إلى العهد السابق حذراً من العتاب والخروج عن الحقّ، فأدّوا العمل على أكمل وجه، واتّقوا التقصير الذي حصل منهم في تلك المعركة، فكانوا في صورة مقابلة للصورة السابقة التي حكى عنها عزّوجلّ في قوله: **﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾**[1]، هذه هي التربية الإلهيّة التي تؤثّر في النفوس وتغيّرها إلى صورة أُخرىٰ مخالفة للتي كانت عليها قبلها، وهؤلاء هم المؤمنون الذين حكى عنهم عزّوجلّ آنفاً بأنّ الشهداء يستخبرون عن أحوالهم ويستبشرون بجزائهم الجزيل ومقامهم الرفيع.

وإنّما ذكر سبحانه وتعالىٰ **﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾** مع أنّ إطاعة أحدهما إطاعة للآخر، لبيان أنّ ما صدر منهم في أُحد قد تضمّن مخالفة الله وعصيان الرسول كليهما.

أمّا الأُولى، فقد خالفوا الله تعالىٰ في أوامره بالصبر والثبات، فعصوه بالفرار والتولّي.

وأمّا عصيان الرسول ﷺ، فقد كان بمخالفة أمره بالصمود في فم الشعب ولزوم مراكزهم. وفي هذه الواقعة قد استجابوا لله والرسول فاستحقّوا الثناء الجميل والأجر الجزيل.

قوله تعالىٰ: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**.

ثناء جميل لمَن احسن ممّن استجاب لله والرسول واتّقى في أقواله وأفعاله وامتثل أوامر الله تعالىٰ والرسول، بحسن نيّة وإخلاص، واحترز عن كلّ ما يوجب البُعد عنه عزّوجلّ، فإنّ الله تعالىٰ وإن وصف الجميع بالاستجابة إلّا أنّها أعمّ مَن

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٥٣.

الإحسان والتقوى اللّتين عليهما مدار هذا الثناء والأجر الجزيل.

والاستجابة أمرٌ ظاهري تشمل جميع من لبّى دعوة الرسول ﷺ، إلّا أنّ وراء ذلك أمراً خفيّاً لا يمكن أن يطّلع عليه إلّا الله تعالىٰ، وهو تحري الإخلاص، ومراقبة العمل والتحذّر ممّا يشينه، فإنّه الإحسان الذي أمرنا الله تعالىٰ بابتغائه في جميع الأحوال. و إذا لازم ذلك التقوى والتحرّز عمّا يوجب سخط الله تعالىٰ في الأقوال والأفعال، فقد استحقّ العامل ذلك الثناء الجميل وعظيم الأجر، وهذا ممّا يختصّ به طائفة معيّنة.

فالآية المباركة تقسم المستجيبيّن إلى طائفتين:

إحداهما: حصلت منهم الاستجابة الظاهريّة التي خلت عن الإحسان والتقوى.

والثانية: كانت محسنة متّقية، فاستحقّت عظيم الأجر.

ومن ذلك يظهر أنّ «من» في قوله تعالىٰ: ﴿**فَمِنْهُمْ**﴾ تبعيضيّة وقيل إنّ «من» بيانيّة، وعليه الأكثر. كما في قوله تعالىٰ: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ـ إلى أن قال تعالىٰ ـ **وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾[1]، وعليه يكون المستجيبون لله والرسول كلّهم محسنين ومتّقين، والجمع بين الوصفين إنّما يكون للمدح والتعليل لا التقييد، يمكن تقريب هذا الاحتمال على ما يوافق الأوّل بأنّ الآية الشريفة في الموردين وإن كانت صورتها جارية على النوع إلّا أنّ المراد منها البعض بالتقريب المتقدِّم، وفي غيره يكون التأويل خلاف السياق، ويأتي في البحث الأدبي ما ينفع المقام.

قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ**﴾.

---

١. سورة الفتح: الآية ٢٩.

أثر من آثار التربية الحقّة الحقيقيّة أنّهم لا يتأثّرون بأقاويل المرجفين وتحذير المنافقين، بل أنّ أثر ذلك يكون على الخلاف، فيزيد في إيمانهم بالله تعالىٰ وتوكّلهم عليه عزّوجلّ والثبات والعزيمة، وقد كان ذلك فضلاً كبيراً من الله تعالىٰ عليهم، لذا لمّا عرف المشركون عزم المؤمنين وذلك الثبات، لم يصدقوا بأنّ فلول الجيش المتفرّقة المضطربة في الأمس تريد القتال مع ما بهم من الجراح، فأرهبتهم هذه العزيمة فآثروا الفرار على القرار.

والمراد بـ «الذين» هم الذين استجابوا لله والرسول، فهي بدل من قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا**﴾. كما أنّ المراد من الناس (الأوّل) هم الخاذلون المثبطون للعزيمة، الذين قد أشاعوا خبر اجتماع العدوّ ليخذلوا المؤمنين عن القتال، والمراد بالناس (الثاني) المشركون.

و الظاهر من الآية المباركة أنّهم في كلا الموردين جماعة لا واحد.

واختلفوا في المراد من الناس (الأوّل)، فقيل: أنّه نعيم بن مسعود الأشجعي قبل إسلامه، فيكون اللّفظ عامّاً ويُراد به الخاص.

وقيل: إنّه ركب من قريش، وقيل غير ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿**فَزَادَهُمْ إِيمَاناً**﴾.

أي: أنّ هذا القول زادهم إيماناً بالله تعالىٰ وبرسوله؛ لأنّهم أخلصوا لله عزّوجلّ عن جميع ما سواه وأحسنوا ظنّهم به جلّت عظمته وصدقوا بوعده، فأثّرت فيهم التربية الحقّة، وجنّبوا أنفسهم من الرذائل والمعاصي، فتجلّت في قلوبهم الأنوار الربوبيّة، فلا يبقى موضوع حينئذ لتأثّرها بما كان من غير الحقّ قولاً أو فعلاً، فيزيد التحذير والتخويف في اشتداد الإيمان بربّهم، ولم يعد يؤثّر في نفوسهم، فإنّ الإنسان إذا لم يحسن الظنّ بأحد، واعتقد بكونه على الخلاف، ويريد

الإضلال والإفساد من أقواله وأفعاله، فإنّه لا يلتفت إلى تخويفه، وكلّ ما أصرَّ عليه زاد في تصميمه والمضيّ على ما يريد، وقوي العزم عنده على طاعة الله والرسول وثبت على دين الحقّ؛ لأنّه يرى نفسه محقّاً، وأنّه علىٰ يقين من نصر الله تعالىٰ وعلى علم من أنّ الله عزّوجلّ لم يتمّ لهم أمرهم إلّا مع ملاقاة الأهوال، وأنّ النصر لايكون إلّا في الجهاد مع أعداء الله تعالىٰ والقتال معهم.

وإنّما يظهر أثر هذه الزيادة فخ الإيمان في اعتقاده وأقواله وأفعاله، ويشتدّ بذلك كلّه عزيمته على الاقتحام في الشدائد وتحمّلها في جنب الله، فلا يخاف فيه لومة لائم.

قوله تعالىٰ: **﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾**.

هذا أثر من آثار زيادة الإيمان فيهم واشتداده في قلوبهم، فإنّهم صدقوا في أقوالهم، وعبرّوا عمّا يجيش في نفوسهم، واعتقدوا بأنّ الله تعالىٰ يكفيهم من الأُمور، وقد أعرضوا عن ما سوى الله تعالىٰ، وهو نِعْمَ الوكيل الذي يدبِّر أُمورهم ويكفيهم أعداؤهم وينصرهم عليهم، لأنّه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض، فاجتمعت النيّة الصادقة والفعال الحسان والقول الحقّ فيهم.

وحسبنا مأخوذ من الإحساب وهو الكفاية، يُقال: احسبني الشيء، أي كفاني.

وقيل: إنّه مصدر مؤول باسم الفاعل، أي فحسبنا.

والحقّ هو الأوّل.

قوله تعالىٰ: **﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾**.

ترتّب هذه الآية الشريفة على الآية السابقة من قبيل ترتّب المعلول على العلّة التامّة المنحصرة، فإنّ المؤمن إذا وكّل أمره إلى الله تعالىٰ وأعتقد أنّه عزّوجلّ

يكفيه ويعطيه الله تعالىٰ الجزاء العظيم.

وقد ذكر عزّوجلّ أُموراً أربعة هي: الانقلاب بنعمة من الله، والفضل، وصرف السوء، واتّباع الرِّضا.

أمّا النعمة: فهي عودة المؤمنين إلى التربية الحقّة، والاستجابة لله والرسول ﷺ، والطاعة بعد المعصية والصمود بعد الخذلان، وهذه هي نعمة كبرىٰ، فجزاهم الله تعالىٰ بأن صرف عنهم الأسواء والمهالك، فما ذكره بعض المفسِّرين في هذه النعمة من أنّ المراد منها السلامة والعافية والرجوع عن حمراء الاسد بدون قتال، إنّما هو تخصيص بلا مخصّص. نعم هي من لوازم تلك النعمة الكبرىٰ.

وأمّا الفضل: فهو زيادة الإيمان وثبات العقيدة والخروج عن العصيان والخذلان، كما حصل منهم في عزوة أُحد، وهذا الانقلاب كان واضحاً عندهم، وقد استشعروا بردّ تلك النعمة والفضل في نفوسهم، وظهرت آثارهما على أقوالهم وأفعالهم.

ومن زيادة النعمة عليهم أنّهم لم يمسسهم سوء، فلم يصبهم قتل أو نكبة، وبرّأهم الله تعالىٰ عن السوء الذي لاقوه في معركة أُحد.

قوله تعالىٰ: **﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ﴾**.

ثناء جميل ومدح عظيم لهم، واتباع رضوان الله تعالىٰ هو السعادة العظمى ومناط كلّ خير، وقد مدح عزّوجلّ مَنْ اتّبع رضوان الله تعالىٰ في الآيات السابقة، وفي هذه الآية الشريفة يبيّن تعالىٰ حقيقته، وهي الاستجابة لله والرسول، وشرطها الإحسان والتقوىٰ.

قوله تعالىٰ: **﴿وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾**.

لأنّه تعالىٰ وفّقهم لهذه التربية الصالحة ومنَّ عليهم أن استجابوا لله والرسول،

وأخرجهم عن ما هم عليه في معركة أُحد فعادوا إلى الصراط المستقيم، وزاد إيمانهم وقويت عزيمتهم واشتدّ توكّلهم على الله تعالىٰ، ومن الفضل عليهم أنّهم مع ما هم عليه من الجراح والشدّة، أنّ العدو لمّا رأى فيهم العزيمة على القتال خشي أن ينقلب عليه الأمر، فتقع عليه الهزيمة والفرار دون القتال، وهذا هو الفضل العظيم على المؤمنين في هذه الحال.

قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّما ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾.

بعدما أثبت سبحانه وتعالىٰ أنّ المؤمنين خرجوا عن غفلتهم وعصيانّهم بالاستجابة لله تعالىٰ والرسول، وانقلبوا عن التفرّق والاختلاف والطاعة، وتفضّل عليهم ربّهم أن منَّ عليهم وثبّتهم وهداهم إلى الصراط المستقيم، فعادوا أقوى عزيمة وأتمّ إيماناً وأشدّ توكّلاً على الله تعالىٰ، إلّا أنّ الشيطان يعلب دوراً هامّاً في حياة الإنسان، يتربّص بالمؤمنين الدوائر ويريد إغواءهم ويبثّ أولياء وأعوانه ليقوموا بهذه المهمّة فينشروا الفساد في الأرض ويروّجوا الضلال، فكان ذلك النداء الشيطاني بالخشية من العدوّ، حفظاً لأوليائه، وحماية للكفر والضلال، وتثبيطاً للمؤمنين عن القتال بإلقاء الرعب والخوف في نفوسهم ليخضعوا لهم.

والآية الشريفة ترشد المؤمنين الذين كمُل إيمانهم، واهتدوا بهدى الله تعالىٰ، وتوكّلوا عليه عزّوجلّ حقّ التوكّل إلى أمرٍ مهمّ يمسّ عقيدتهم وسعادتهم في الدارين، وهو ترك الرهبة والخوف من الشيطان وأوليائه و عدم الوقوع في حبائله ووساوسه؛ لأنّ الخوف يستوجب الوهن في العزيمة ويلزم ذلك الطاعة لمَن يخاف منه، فمَن خاف الله تعالىٰ فإنّه لا محالة يتّبع أحكامه فيبتعد عن الشيطان، وإذا خاف الشيطان وأولياءه فإنّه يطيعه ويقيم حكمه فيبتعد عن الله تعالىٰ، وهذا هو السبب للتأكيد على ترك خوف الشيطان بقوله تعالىٰ: ﴿**فَلَا**

تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾.

واسم الإشارة في قوله تعالىٰ: ﴿إنّما ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ﴾:

إمّا راجع إلى الناس المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ﴾، فيكون من إطلاق الشيطان على الشياطين.

وإمّا أن يرجع إلى الوساوس الحاصلة بين الناس من الشيطان، وإنّما أتى بضمير ذوي العقول ترجيحاً للموسوسين علىٰ نفس الوسوسة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

لأنّ الإيمان يستلزم خوف الله تعالىٰ، والخوف يوجب الطاعة كما عرفت، والله تعالىٰ هو وليّ المؤمنين وناصرهم، وقد وعدهم النصر وحسن الجزاء، فلاينبغي الخوف من غيره، فالسعادة في خوف الله جلّت عظمته وتقواه دون غيره.

وفي الآية الشريفة الذمّ لإبليس وأوليائه، والبشرى للمؤمنين ومَن اتبع رضوان الله تعالىٰ بالأمن من شرّ الشيطان وأوليائه، ولا تختصّ الآية الكريمة بخصوص مشركي قريش وغيرهم للعموم في الطرفين.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

المفعول الأوّل في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً﴾** محذوف، وهو أنفسهم.

وقوله تعالىٰ: **﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾**، قيل: إنّه في محل رفع على أنّه خبر ثان للمبتدأ المقدر، أو صفة لـ(أحياء)، أو في محل نصب على أنّه حال من الضمير في «أحياء».

وقوله تعالىٰ: **﴿فَرِحِينَ﴾** منصوب إمّا على أنّه حال من الضمير في «يرزقون»، أو يكون على المدح أو الوصفيّة.

ويستبشرون عطف على «فرحين»، ويحتمل أن تكون جملة استئنافية، أو على تقدير (وهم يستبشرون)، فتكون حالاً في الضمير من (فرحين).

وقوله تعالىٰ: **﴿أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** بدل اشتمال من «الذين من خلفهم» مبيّن للاستبشار.

والذين في قوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ﴾** مبتدأ، والخبر قوله تعالىٰ: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**.

وقيل: إنّه منصوب بإضمار أعني.

وقيل: إنّه في موضع رفع على إضمار «هم».

ومنهم في قوله تعالىٰ: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** حال من الضمير في أحسنوا. و(من) للتبعيض، كما عرفت.

وقيل: إنّها للبيان.

ويردّ عليه: أنّ التي للإبهام لابدّ أن تكون مباينة فيه إبهام في جنسه، ويكون في مجرورها بيان يرفع ذلك الإبهام، ولا إبهام في الآية الشريفة حتّى يرفع بـ(من) ومجرورها. وممّا يهوّن الخطب أنّه يمكن إرجاع ذلك إلى القول الأوّل كما عرفت في التفسير.

وقيل: إنّ «من» للتبعيض، والضمير يرجع إلى المؤمنين في آخر الآية السابقة، أي أنّ من المؤمنين مَن لم يخرج إلى حمراء الاسد.

وعلى هذا لابدّ من نصب (الذين) على المدح في أوّل الآية المباركة، إذ لايستقيم ذلك على كون (الذين) مبتدأ، والخبر جملة «للذين أحسنوا منهم»، إذ تبقى الجملة بلا رابط.

ويردّ على نصب (الذين) على المدح، أنّه لا عطف يدلّ على المغايرة، مضافاً إلى أنّ جعلها منصوباً على المدح بعيد، إذ لا دليل عليه.

و(الذين) في قوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ﴾** بدل من **﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾** أو صفة.

والمخصوص بالمدح في قوله تعالىٰ: **﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾** محذوف هو ضميره تعالىٰ، والجملة الخبريّة، وفي الآية الكريمة كلام طويل في عطف الجملة الإنشائيّة على الجملة الخبريّة.

والحقّ أنّ كلّ ذلك تطويل بلا طائل تحته، بل أنّ جميع هذه الآيات جمل مستقلّة وردت في مقام مدح المؤمنين وبيان صفاتهم، وجيء بالواو لتزيين الكلام.

وجملة: «يخوّف أولياءه» جملة مستأنفة مبيِّنة لشيطنة الشيطان، أو حال.

و(خاف) يتعدّى إلى مفعول واحد، ويتعدّى بالتشديد إلى مفعول ثان، وقد يحذف المفعول الأوّل كما في الآية الشريفة، فإنّ االأصل يخوفكم أوليائه. وقد

يحذف المفعول الثاني كما تقول: خوّفني عمرو.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً﴾** على حقيقة من الحقايق الواقعيّة التي كشف عنها القرآن، وأكّد عليها في مواضع متفرِّقة، وهي تجرّد الأرواح وحياتها بعد الموت، وقد كانت هذه الحقيقة مورد البحث والنظر من أوّل حدوث العالم، فالروح جوهر مجرّد مختلف التكوّن عن غيرها، وهي من شعاع الذات المقدَّسة غير المتناهية.

والآية المباركة ردّ على شبهات المنافقين والمشركين من أنّ الإنسان يموت حين القتل في سبيل الله، والموت نهاية الحياة في الأرض، فتذهب ذكراه ولا يبقى له اسم ولا رسم بعد فترة تطول أو تقصر.

والمستفاد من الآية الشريفة أنّها تثبت الحياة بعد القتل، وتبيّن أجر المؤمنين وهو الرزق عند الله تعالىٰ، وأنّه نعمة من الله تعالىٰ وفضل منه، وزاد عزّوجلّ عليهم أنّه لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وهذه كلّها من أهمّ مقوّمات الحياة الكاملة السعيدة الهنيئة في عالم البرزخ.

الثاني: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾** ماهيّة هذه الحياة السعيدة وحقيقتها التي تتقوّم بالفرح والاستبشار ونفي الحزن والخوف، وهي مرزوقة عند الله تعالىٰ، وهذا هو الحدّ الفاصل في ما يقال في هذه الحياة، فلايصغي إلى ما قد قيل فيها من أنّ أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر، فإنّ أرواح المؤمنين أجلّ قدراً من أن يجعلهم الله تعالىٰ في تلك الحواصل، بل هو نحو من التناسخ الذي ثبت بطلانه، وقد أنعم تعالىٰ عليهم بأنواع الرزق، وأعزّهم بأن

جعلهم (عنده).

الثالث: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ على سنخيّة أرواح المؤمنين لعالم القدس، كيف لا وإنّ الله تعالىٰ خلقها من روحه، قال عزّوجلّ: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**﴾[1]، فنزلت من المحل الأرفع لتتّحد مع البدن برهة من الزمن، وبعد الموت أو القتل تصعد إلى محلّها فتكون عند ربّها، وهذه العنديّة أعظم قدراً من العنديّة المكانيّة أو الزمانيّة، بل هي تبيّن حقيقة تلك الأرواح المقدّسة التي خُلقت من روح الله جلّت عظمته.

فاختلاف العلماء والمفسّرين في المراد من قوله تعالىٰ: ﴿**عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ لا وجه له، بعد ملاحظة سياق الآية الشريفة، وما ورد في هذا المضمار في مواضع متعدِّدة من القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿**وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾[2]، وقال تعالىٰ: ﴿**وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ**﴾[3]، وغيرهما من الآيات الشريفة.

الرابع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ**﴾، على أنّ القرح وما يصيب المؤمنين في ميدان القتال مع أعداء الله تعالىٰ في إثبات الحقّ وإعلاء كلمة الدِّين وإزهاق الباطل، له الأثر الكبير في تهذيب المؤمنين وإرجاعهم إلى الصواب، بل له دخل في النظام الأحسن، فإنّ ما لاقاه المؤمنون من المصائب والمتاعب بسبب عصيانهم وفشلهم، والعتاب الشديد العنيف تارةً، والخفيف اللّطيف أُخرىٰ، كان السبب في زيادة إيمانهم والرجوع إلى التربيّة الحقّة، والانقلاب عن التفرّق، والاختلاف إلى الطاعة والاتّحاد وشدّة العزيمة، والتوكّل على الله تعالىٰ، فهو من المقتضيات في إعداد الإنسان نفسه

---

١. سورة ص: الآية ٧٢.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٤.

٣. سورة ص: الآية ٤٧.

بالدخول في السير التكاملي. ولأجل ذلك كانت المصائب والقرح الذي لحقهم في معركة أُحد من أهمّ طرق التربية الإلهيّة الحقّة. ولذا عدّ سبحانه وتعالىٰ تلك نعمة ربّانية وفضلا من الله تعالىٰ عليهم؛ لأنّها كانت من الأسباب المهمّة في تقويم النفوس وإحياء القلوب، فقد رجعت إلى الحقّ وخلصت في إيمانها واشتدّ توكّلها عليه تعالىٰ، فكان في الخذلان والهزيمة والمعصية دروساً كبيرة أثّرت في نفوسهم، بل كانت معركة أُحد أهمّ مدرسة للمؤمنين عبر التأريخ.

الخامس: يمكن أن يجعل قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ**﴾ من الآيات الدالّة على لزوم مراعاة الاستقامة الحقيقيّة للحقّ في الحقّ، نظير:

قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ**﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً**﴾[3].

إذ لاريب في أنّ بناء الشّيطان وأوليائه إنّما هو التشكيك في عقيدة المؤمنين، وبثّ الأشواك و المزالق في طريق الوافدين إلى الله تعالىٰ، لأنّ العبد حينئذ إنّما أزال جميع الحُجب الظلمانيّة عن نفسه بالصبر والمثابرة حتّى وصل إلى معدن النور والعظمة، فلم يبق في البين إلّا سرادق الجلال والجمال، التي قال فيها جبرائيل أعظم الأملاك: «لو دنوت أُنملة لاحترقت»، ولعلّ المراد بالاحتراق انطماس الحدود الإمكانيّة بالكليّة.

---

١. سورة فصلت: الآية ٣٠.

٢. سورة هود: الآية ١١٢.

٣. سورة الجن: الآية ١٦.

السادس: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**، أنّ الإحسان والتقوى هما المناط في القرب إلى الله تعالىٰ، وإحراز الأجر العظيم والثناء الجميل، وهذان الأمران لا يتوفّران في كلّ أحد؛ لأنّ المؤمنين على درجات متفاوتة، والإحسان والتقوى يكشفان عن شدّة الخلوص لله تعالىٰ فيهم، وكمال الإيمان عندهم وشدّة ارتباطهم مع الله تعالىٰ، وذلك هو السبب في استحقاقهم لهذا الأجر العظيم الذي أبهمه تعالىٰ ليذهب ذهن السامع إلى كلّ مذهب أمكن.

السابع: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾** حقيقة من الحقائق القرآنيّة، وهي دأب المنافقين وأهل الباطل على التشكيك في معتقدات المؤمنين وأهل الحقّ، والسعي في فسخ عزائمهم، ونقض هممهم، وإلقاء الرعب والخوف في نفوسهم، وهم مصدران لكلّ الفساد والخروج عن الطاعة، والطغيان على الأوامر الإلهيّة والأحكام الربوبيّة.

وتبيّن الآيات الكريمة أنّ ذلك ناشئ من المضادّة التي هي بين الطرفين؛ كما أنّ أهل الحقّ يسعون في إبطال مزاعم المنافقين، وإفساد مكرهم وكيدهم بالطاعة لله تعالىٰ والرسول والاستجابة لأوامرهما، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإرشادات الحقّة، ولا تزول تلك المضادّة إلّا باضمحلال أحد الضدّين، كما هو واضح بالوجدان.

الثامن: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾** كمال إيمانهم وخلوصهم فيه، وأنّهم كانوا مخلصين لله تعالىٰ، مسلّمين أمرهم إليه عزّوجلّ، قد أكتفوا بالله سبحانه عن غيره من الأسباب، واعتقدوا بأنّ الله ناصرهم ومؤيّدهم، كما قال تعالىٰ: **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾**[1]،

---

١ . سورة الطلاق: الآية ٣.

فلايخشون غير الله تعالىٰ ولا يخافون لومة لائم، وقد صدق الله وعده فيهم بأن قال: ﴿**فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ**﴾ وأعطاهم الأجر العظيم.

التاسع: يستفاد من ظاهر الآية الشريفة: ﴿**فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ**﴾ أنّ مضمونها لا تختصّ بحالة دون أُخرىٰ، ولا بعالم دون آخر.

والمراد بالانقلاب المعنى العام الشامل للتحوّلات الدنيويّة والبرزخيّة والأُخرويّة، كما أنّ المراد بالنعمة والفضل أيضاً كذلك، وتشمل النِعمَ الدنيويّة والمثاليّة والأُخرويّة. والوجه في ذلك أنّ الموضوع كلّما اتّسعت جهات كماله وفضله، اتّسع جميع جهات الإضافة إلى الله تعالىٰ، والمنعم إذاكان محيطاً ووسيعاً من جميع الجهات المفروضة فيه، فلا يعقل وجه للتخصيص حينئذٍ.

وجهة التعميم:

تارة: مأخوذة في الكلام، كما إذا قيل: لا تأكل الرمّان لأنّه حامض، فيشمل الكلام كلّ حامض.

وأُخرى: مأخوذة في السياق العام من الكلام.

الثانية أولى من الأوّل بمراتب، وقد اشتهر في العلوم الأدبية أنّ الكناية أبلغ من التصريح، والقرآن العظيم مشتمل على أنحاء الكنايات والاستعارات والتشبيهات البليغة، وفّقنا الله تعالىٰ للتدبُّر فيها.

العاشر: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾ أن مَن لم يتّصف بما ذكر في الآيات السابقة، قد فوّت على نفسه أمراً عظيماً لا يُمكن أن يتدارك، وهو جدير بأن يتحسّر على ما فاته.

الحادي عشر: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّما ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾، أنّ الخوف الناشئ من الأُمور الدنيويّة إنّما يكون منشأه الشيطان، الذي يريد أن يخرج الإنسان بسببه عن طاعة الله تعالىٰ، والإحجام من تنفيذ أوامره

وأحكامه عزّوجلّ، والخوف الذي يكون مصدره الشيطان، هو من أهمّ سُبله التي يتوصّل بها لاغواء الإنسان، ولذا أمرنا عزّوجلّ بعدم الخوف وحصرة الله تعالىٰ في نفسه، فإنّ الخوف منه عزّوجلّ مصدر كلّ خير، ومبعث كلّ سعادة. فالآية المباركة ترشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم، والكمال العظيم الذي لا كمال فوقه، كما أنّها تنبّه المؤمنين إلى الموازنة بين وليّ الكافرين والمشركين والمنافقين وأهل الباطل الذي عجز عن نصرهم، وبين ولي المؤمنين الذي لايعجزه أمر وهو القادر على كلّ شيء.

الثاني عشر: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ على أنّ الإيمان جُنّة واقية تحرس صاحبه من الخوف عن غير الله تعالىٰ. وأنّ الإيمان مع الخوف من غير الله تعالىٰ هما ضدّان لا يجتمعان، فمَن يرجّح الخوف من أولياء الشيطان فإنّ إيمانه مشكوك فيه، فهذه الآية الشريفة من الآيات التي ينبغي أن يوزن الإنسان نفسه وإيمانه وأعماله بها.

***

بحث عرفاني:

يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ كمال العناية بالشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، فقد أرادوا من جهادهم وبذل أرواحهم الغالية في إعلاء كلمة الله، وإحياء الحقّ وإماتة الباطل، فأعطاهم الله تعالىٰ الأجر الجزيل والثناء الجميل، والذِّكر الحميد، ومنحهم السعادة الكبيرة، أن جعلهم عنده يرزقون ويستبشرون ويفرحون، قد خلت حياتهم عن كلّ ما ينغّصها من الخوف والحزن والآلام، فإذا كان الجهاد الأصغر له هذه الحظوة عند خالق الأرواح، فما ظنّك بالجهاد الأكبر مع النفس الأمارّة لكسر سورتها، وقمع الهوى بالصبر والاصطبار، وكان العبد معه مطيعاً لمولاه مخالفاً لهواه مراقباً لنفسه وأعماله وأقواله، فإنّ له

الفضل العظيم والمنزلة الكبرى عند الله وعزّوجلّ، قال تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[1]، والجهاد الأصغر ـ وإن كان في وقت معيّن ـ معلوم، أمّا الجهاد الأكبر فإنّ مدّته أطول، ومعاناته أشدّ وأعظم.

والمجاهدون مع النفس الأمّارة لهم الحياة الحقيقيّة؛ لأنّ الأرواح لها نحو تعلّق خاص بالمبدأ الفيّاض والحي القيوم، فاذا اشتدّ ارتباطها معه اشتاقت إليه، وأنّ حبّها له قد تصل إلى مرتبة لا تحسّ بآلام الجراح ووقع السيوف، مثل ما نُسب إلىٰ عليّ عليه السلام من عدم توجّهه إلى إخراج السهم من بدنه حين اشتغاله بالصلاة، وقد نظم هذه القضية جملة من العرفاء بأشعار لطيفة، وما نُسب إلى الصادق عليه السلام من مشيه على النار، وقوله عليه السلام: «أنا ابن إبراهيم الخليل»، إلى غير ذلك من آثار ذلك العالم الوسيع الذي لا يمكن أن يحيط به بيان، فإنّه لا يهدى من الجنّة إلّا بعض ثمارها لا تمام أشجارها. وحينئذٍ يقدر العبد المجاهد المؤمن على الخلع واللّبس، ومن حيث شروق نوره على هذا البدن يتحرّك البدن بقدر ذلك الشارق، ومع درك هذه المرتبة قد يصل إلى مرتبة جمع الجمع، بأن يكثر بدنه كما نسب إلى بعض الأولياء من وجودهم في زمان واحد في أمكنة متعدِّدة، وقد رأينا بعض مشائخنا (رضوان الله تعالىٰ عليه) ورآه بعض أصحابه في عين هذا البدن في محلّ آخر، ولكن لا يعدّ ذلك شيئاً في مقابل تلك المجاهدات؛ لشدّة تفانيه في مرضاة الله تعالىٰ، ومن هنا تنكشف أبواب من المعارف.

ويمكن أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ**﴾، إشارة في إلى بعض مقامات العارفين بالله في سيرهم وسلوكهم، وهم الذين طرحوا جميع الجهات الجسمانيّة للوصول إلى المعشوق الحقيقي والمحبوب الواقعي، فيكون ألم النبال والسهام في ذلك يسيراً، ووقع الصمصام

---

١. سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

على أبدانهم سهلاً حقيراً، بل وجدوا في ذلك التذاذاً كبيراً، وهم الذين سمعوا زئير جهنّم بآذانهم، ورأوا الحور المقصورات في الخيام بأعينهم، فتجاوزوا عن ذلك كلّه، وخرقوا جميع الحُجب الظلمانيّة بهممهم العالية، وطرحوا حدود الإمكانيّة فوصلوا إلى حدّ الوجوب، ورأوا أنّ الأملاك قد وضعت أجنحتها تبرّكاً بمقدمهم، ووصلوا إلى ما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فنزلت عليهم أنوار الجمال، واستشرقوا من مشارق الجلال، إلىٰ غير ذلك من جذبات الحبيب التي يبهر فيها كلّ عاقل لبيب. رزقنا الله تعالىٰ رشحة من تلك الرشحات، ونسمة من تلك النفحات.

وخلاصة الكلام: أنّ هذه الطائفة من المخلصين (بفتح اللام) همّ الذين تابعوا نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله، حيث قيل له: «هل لك شيطان يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله: نعم، ولكن أسلمت شيطاني بيدي».

***

بحث روائي:

في «المجمع» في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً** ـ الآيات ـ﴾ عن الباقر عليه السلام «نزلت في شهداء بدر وأُحد معاً».

أقول: وردت في ذلك روايات متعدّدة، في بعضها أنّها نزلت في شهداء أُحد خاصّة، وفي بعضها في شهداء بئر معونة وقصّتهم مشهورة، وذكر كلّ ذلك من باب المثال لا التخصيص، كما هو كذلك في شأن نزول الآيات.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً** ـ الآية ـ﴾ عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«هم والله شيعتنا إذا دخلوا الجنّة واستقبلوا الكرامة من الله، استبشروا بمَن لم يلحق بهم من إخوانهم من المؤمنين في الدُّنيا».

أقول: المراد من الشيعة هنا مَن تابع رسول الله ﷺ في اعتقاده وأفعاله وأقواله، حتّى في قوله ﷺ: «إنّي تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي»، وقوله ﷺ: «مَن كنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه»، إلى غير ذلك من الأحاديث التي رواها المسلمون في شأن ذلك.

وفي «تفسير العيّاشي» في الآية المتقدِّمة أيضاً عن الصادق عليه السلام:

«همّ والله شيعتنا، حتّى صارت أرواحهم في الجنّة، واستقبلوا الكرامة من الله عزّوجلّ، واستيقنوا أنّهم كانوا على الحقّ وعلى دين الله عزّوجلّ، فاستبشروا بمَن لم يلحقوا فهم من خلفهم من المؤمنين».

أقول: المراد من الشيعة من تابع رسول الله ﷺ، فإنّ متابعته متابعتهم أيضاً كما مرّ في الرواية السابقة.

وفي «تفسير العيّاشي» أيضاً، عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: إنّي راغب نشيط في الجهاد في سبيل الله، قال ﷺ: فجاهد في سبيل الله فإنّك إن تُقتل كنت حيّاً عند الله تُرزق، وإن متّ فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت خرجت من الذُّنوب إلى الله، هذا تفسير **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً﴾**».

أقول: لا منافاة بين هذا التفسير وما مرّ من قول الصادقين عليهما السلام.

وفي «أسباب النزول»: عن ابن عبّاس، قال: «قال رسول الله ﷺ: لمّا اُصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم في اجواف طير خضر ترد أنهار الجنّة، وتأكل من ثمارها وتأوي إلىٰ قناديل من ذهب معلّقة في ظلّ العرش، فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم و(حسن) مقيلهم، قالوا: مَن يبلغ إخواننا (عنّا) إنّا في الجنّة نُرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا في الحرب؟ فقال الله عزّوجلّ: أنا اُبلِّغهم عنكم فأنزل الله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ**

رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾».

أقول: رواه في «الدرّ المنثور»، وقال: أخرج أحمد وابن داود، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم ـ صحّحه ـ والبيهقي من «الدلائل» وغيرهم، رووا جميعاً عن أبي سعيد الخدري، وعبد الله بن مسعود، وأبي العالية وابن عبّاس وغيرهم، وهي وإن اختلفت في بعض الألفاظ ولكنّها متقاربة في المعنى. وهذه الروايات لابدّ من تأويلها على نحو تساوق القواعد العقليّة والنقليّة، والمؤمن أعزّ على الله تعالىٰ من أن يحصره في حواصل الطير، ويمكن أن يُراد بحواصل الطيور الخضر الأبدان المثالية التي تكون لهم في ذلك العالم، وقد تقدّم ما يتعلّق بهذه الروايات في سورة البقرة آية ١٥٣.

وفي «الدرّ المنثور» في قوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** أخرج ابن إسحاق وابن جرير، والبيهقي في «الدلائل»: «أنّها نزلت في حمراء الأسد»، وفي «تفسير القمّي» أيضاً أنّها نزلت في حمراء الأسد.

وفي «المجمع» عن الباقر ﷺ في الآية المباركة: «أنّها نزلت في غزوة بدر الصغرىٰ».

أقول: يأتي في البحث التأريخي تفصيل الكلام.

وفي «أسباب النزول» في قوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾** عن قتادة: «ذاك يوم بعد القتل والجراحة، وبعدما انصرف المشركون ـ أبو سفيان وأصحابه ـ قال نبيّ الله لأصحابه: ألا عصابة تشدّ لأمر الله فتطلب عدوّها فإنّه أنكى للعدو، وأبعد للسمع، فإنطلق عصابة على ما يعلم الله تعالىٰ من الجهد، حتّى إذا كانوا بذى الحُليفة جعل الأعراب والناس يأتون عليهم فيقولون: هذا أبو سفيان مائل عليكم بالناس؛ فقالوا: حسبنا الله ونِعمَ الوكيل، فأنزل الله

تعالىٰ فيهم قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾.

وفي «المجمع» و«تفسير القمّي» عنهما عليهما السلام في الآية يعني: نعيم بن مسعود الأشجعي.

أقول: إنّه على تقدير كون الغزوة هي غزوة بدر الصغرى، وإلّا فإنّ الناس المحذّرين هم غيرهم، ويُحتمل أن يكون هذا الشخص قد حذّر المؤمنين في الغزوتين فلا منافاة في البين.

وفي «الدرّ المنثور»: أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة، قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونِعمَ الوكيل».

وفيه أيضاً: عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «حسبي الله ونِعمَ الوكيل أمان كلّ خائف».

أقول: على فرض صحّتهما تدلّان على أهمّية الآية الشريفة على كلّ تقدير.

***

بحث تاريخي:

تقدّم أن قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ﴾ يشير إلىٰ وقعة أُخرىٰ من وقعات الرسول صلى الله عليه وآله، التي كانت مع المشركين والكفّار وأعداء الله تعالىٰ لتثبيت الإسلام والدفاع عنه وعن المؤمنين من كيد المشركين والكافرين والمنافقين وإبطال مزاعمهم، وتقدّم في أحد مباحثنا السابقة ذكر عدد غروات الرسول صلى الله عليه وآله وسراياه، وتكلّمنا عن غزوة أُحد مفصّلاً، ونذكر في المقام ما يتعلّق بغزوة حمراء الأسد وموقعها، وأسبابها، وأهدافها.

وقبل أن نذكر ذلك لابدّ من التنبيه على أمر، وهو أنّ المعروف بين العلماء والمفسّرين أنّ الآيات المتقدّمة نزلت في شأن غزوة حمراء الأسد على ما عرفت،

وقد وردت في ذلك أحاديث من الفريقين، وذهب جمع من المفسّرين إلى أنّ الآية الكريمة نزلت في خروج رسول الله ﷺ بمَن معه لموعد أبي سفيان في غزوة بدر الصغرىٰ في السنة الرابعة في شهر ذي القعدة، رأس الحول من وقعة أُحد على ما رواه الواقدي، أو في شعبان من السنة الرابعة في رواية «الدرّ المنثور» عن مغازي ابن عقبة، و«دلائل البيهقي». وفي «تاريخ ابن جرير» عن ابن إسحاق، وفي «الدرّ المنثور» عن ابن شهاب قال:

«إنّ رسول الله ﷺ استنفر المسلمين لموعد أبي سفيان بدراً، فاحتمل الشيطان أولياءه من الناس يخوّفونهم، وقالوا: قد أُخبرنا أنّ العدوّ قد جمعوا لكم من الناس مثل الليل، يرجون أن يواقعوكم فيثبتوكم، فالحذر الحذر، فعصم الله المسلمين من تخويف الشيطان، فاستجابوا لله ورسوله، وخرجوا ببضائع لهم، وقالوا: إن لقينا أبا سفيان فهو الذي خرجنا له، وإن لم نلقه أتبعنا بضائعنا، وكان بدر متجراً يوافي كلّ عام، فانطلقوا حتّى أتوا موسم بدر فقضوا منه حاجتهم، وأخلف أبو سفيان الموعد فلم يخرج هو ولا أصحابه، ومرّ عليهم ابن حمام، فقال: مَنْ هؤلاء؟ قالوا: رسول الله وأصحابه ينتظرون أباسفيان من معه من قريش، فقدم على قريش فأخبرهم فأرعب أبو سفيان ورجع إلى مكّة، وانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة بنعمة من الله وفضل، فكانت تلك الغزوة تُعدّ غزوة جيش السويق، وكانت في شعبان من السنة الرابعة».

وروي قريب منه عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، وفي «المجمع» رواه أبو الجارود عنه عليه السلام أيضاً.

ولكن الأوّل هو المعروف بين العلماء والمفسّرين، ورواه القمّي في «تفسيره» بطريق معتبر، والشيخ الطوسي في «التبيان»، وقد نسب الثاني إلى القيل.

وكيف كان، فإنّ تسمية هذه الوقعة بالغزوة بإعتبار خروج رسول الله ﷺ

بنفسه الشريفة على ما اصطلح عليه العلماء، وإلّا فإنّه لم يكن في هذه الوقعة قتال، بل كان المقصود منها مطاردة المشركين، وإبطال نواياهم، وإفساد ما كانوا يشنّونه من الحرب الدعائيّة ضدّ المسلمين، فإنّهم كانوا يذكرون نتائج غزوة أُحد ويظهرونها بمظهر يرفع من قدرهم والحطّ من قدر المسلمين على ماستعرف، فتسميتها بقوّة مطاردة لها أهداف معيّنة غير القتال، لما كان يعلم رسول الله ﷺ أنّه لم يقع قتال أولى، وقد تحقّقت تلك الأهداف بأحسن وجه.

الموقع والزمان:

حمراء الأسد: سوق للعرب على ثمانية أميال من المدينة عن يسار الطريق إذا أردت ذا الحُليفة، والمعروف أنّه انتهى إليها رسول الله ﷺ في اليوم الثاني من يوم أُحد، فإنّ وقعة أُحد كانت في السنة الثالثة من الهجرة، وفي اليوم الثاني من يوم أُحد، أي اليوم الخامس عشر من شوّال، ولما كان الغد أذّن مؤذّن رسول الله ﷺ بالغزو، وقال: «لا يخرج معنا إلّا من حضر بالأمس»، فاستجاب المؤمنون لله والرسول فخرجوا إلى حمراء الأسد، فأقاموا بها ثلاثة أيّام ثم رجعوا إلى المدينة حين علم ﷺ أنّ قريشاً قد استمرت إلى مكّة، وقال: «والذي نفسي بيده، لقد سومت لهم حجارة لو صيحوا بها كانوا كأمس الذاهب».

العدد:

عدد المسلمين الذين خرجوا للحرب، كما في «تفسير العيّاشي»:

«أنّ رسول الله ﷺ بعث عليّاً عليه السلام في عشرة استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح».

وفي «أسباب النزول» للواحدي: «أنّ رسول الله ﷺ استنفر الناس بعد أُحد

حين انصرف المشركون فاستجاب له سبعون رجلاً».

ويمكن رفع الاختلاف بأنّ رواية الواحدي وردت في مجموع الذين استجابوا لله والرسول، ورواية القمّي وردت في خصوص المحسنين والمتّقين منهم.

وفي «تفسير القمّي»: «فلمّا دخل رسول الله المدينة نزل عليه جبرئيل، فقال: يا محمّد، إنّ الله يأمرك أن تخرج في إثر القوم ولا يخرج معك إلّا مَن به جراحة، فأمر رسول الله ﷺ منادياً يُنادي يا معشر المهاجرين والأنصار مَن كانت به جراحة فليخرج، ومَن لم يكن به جراحة فليقم، فأقبلوا يضمّدون جراحاتهم ويداوونها، فأنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيّه: **﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾**، وهذه الآية (المباركة) في سورة النساء، ويجب أن تكون في هذه السورة، قال عزّوجلّ: **﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾**، فخرجوا على ما بهم من الألم والجراح، فلمّا بلغ رسول الله ﷺ حمراء الأسد وقريش قد نزلت الروحا، قال عكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد: نرجع فنُغير على المدينة فقد فقد سراتهم وكبشهم، يعني حمزة، فوافاهم رجل خرج من المدينة فسألوه الخبر، فقال: تركت محمّداً وأصحابه بحمراء الأسد يطلبونكم جدّ الطلب، فقال أبو سفيان: هذا النكد والبغي قد ظفرنا بالقوم وبغينا، والله ما أفلح قوم قط بغوا، فوافاهم نعيم بن مسعود الأشجعي، فقال أبو سفيان: أين تريد؟ قال: المدينة لأمتار لأهلي طعاماً، قال: هل لك أن تمرّ بحمراء الأسد وتلقى أصحاب محمّد وتعلمهم أنّ حلفاءنا وموالينا قد وافونا من الأحابيش حتّى يرجعوا عنّا ولك عندي عشرة قلايص (الإبل) املؤها تمراً وزبيباً؟ قال: نعم، فوافىٰ من غد ذلك اليوم حمراء

الأسد، فقال لأصحاب محمّد ﷺ: أين تريدون؟ قالوا: قريش، قال: ارجعوا فإنّ قريشاً قد أجنحت اليهم حلفاؤهم ومَن كان تخلّف عنهم، وما أظنّ إلّا وأوائل القوم قد طلعوا عليكم الساعة، فقالوا: حسبنا الله ونِعمَ الوكيل، ونـزل جـبرئيل عـلى رسول الله ﷺ فقال: ارجع يا محمّد فإنّ الله قد أرهب قريشاً ومرّوا لا يلوون علىٰ شيء، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنزل الله: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ**﴾».

أقول: قوله عليه السلام: «ويجب أن تكون في هذه السورة»، ليس المراد الوجوب الاصطلاحي حتّى يستلزم التحريف، ولعلّ المراد المناسبة السياقيّة، كما يدلّ عليه ذيل الحديث أيضاً.

الأسباب:

أمّا أسباب هذه الوقعة فهي متعدّدة، ويمكن تلخيصها في اُمور:

الأوّل: الخشية من مداهمة العدوّ المدينة استغلالاً منهم لضعف المسلمين وما أصابهم في اُحد، ففي «الدرّ المنثور» أخرج النسائي وابن أبي حاتم والطبراني عن عكرمة عن ابن عبّاس، قال: «لمّا رجع المشركون عن اُحد قالوا: لا محمّداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم، بئس ما صنعتم، فسمع رسول الله ﷺ بذلك فندب المسلمين فانتدبوا حتّىٰ بلغ حمراء الأسد ـ إلى أن قال ـ فقال المشركون: نرجع قابل، فرجع رسول الله ﷺ فكانت تعدّ غزوة».

الثاني: بلوغ رسول الله ﷺ أنّ المشركين قد أزمعوا على الرجعة، ففي «الدرّ المنثور» عن عبد الله بن أبي بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم، قال: «خرج رسول الله ﷺ بحمراء الأسد، وقد أجمع أبو سفيان بالرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: رجعنا قبل أن نستأصلهم لنكون على بقيّتهم، فبلغه أنّ النبيّ ﷺ

خرج في أصحابه يطلبهم فثني ذلك أبا سفيان أصحابه».

الثـالث: الحرب الدعائيّة التي شنّها المشركون بإظهار نـتائج غـزوة أُحـد بمظهر يرفع من قدرهم ويحطّ من قدر المسلمين، ومن المعلوم أنّ لذلك أثراً كبيراً في وهن العزيمة، وتفكيك القوى وإلقاء الخلاف في الصفوف، وهو زوال الهـيبة التي اكتسبها المسلمون في غزوة بدر.

الرابع: إعادة الكرّة في التطهير العام لإعادة النظام وتمييز المؤمن المستسلم عن غيره، وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء.

الأهداف:

كانت لهذه الوقعة أهداف معيّنة وقد حصلت جميعها، وهي متعدّدة:

منها: إزالة آثار الهزيمة عن نفوس المؤمنين، فإنّه لو استقرّت في قـلوبهم لأورثت الرعب في قلوبهم، وبقيت آثار الخوف في نفوسهم فلا يعودون يقتحمون ميدان الجهاد بسهولة، وكانت لهذه الواقعة الأثـر الكـبير فـي إزالة تـلك الآثـار وتشجيعهم على القتال، وإلقاء الرعب والخوف في قلوب الأعداء فإنّهم لم يصدّقوا أنّ أفراداً من الطائفة التي مُنيت بالهزيمة بالأمس وقتل صناديدهم وشجعانهم قد تجمّعت اليوم لتقاتلهم و هي مُثخنة بالجراح، فأرهبتهم هذه العزيمة فـخشوا أن تنقلب عليهم الدائرة فيذهب ما أحرزوه من النصر بزعمهم.

وفي «أسباب النزول»: «قال نبيّ الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: ألا عصابة تشدّ لأمر الله فتطلب عدوّها، فإنّه أنكى للعدو وأبعد للسمع، فانطلق عصابة على ما يـعلم الله تعالىٰ من الجهد ـ الحديث ـ».

ومنها: ظهور التربية الإلهيّة فيهم، فتراهم يلبّون دعوة الله والرسول من دون شكٍّ وارتياب، وقد أخذوا من الدروس الماضية عِبراً ووعوها وجـعلوها مـحطّ

نظرهم، وصغت لها قلوبهم، فخرجوا من غفلتهم وغسلوا نفوسهم من آثار المعصية والتفرّق والاختلاف، وعادوا إلى الصورة التي ينبغي أن يكونوا عليها.

ومنها: أنّ هذه الوقعة بيَّنت المشركين أنّ المسلمين على ما هم عليه من الجراح، ففيهم القوّة الكافية لمجابهتهم وردّ كيدهم، فأورثت رُعباً في نفوس الأعداء. قال ابن إسحاق: «وإنّما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو وليبلغهم أنّه خرج في طلبهم، ليظنّوا به قوّة وأنّ الذي أصابهم لم توهنهم عن عدوّهم».

***

الآية ١٧٥ ـ ١٧٩

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالإِيمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

الآيات الشريفة ترشد المؤمنين إلى أُمور تهمّهم في حياتهم الدنيويّة والأُخروية وتمسّ عقيدتهم، فهي تحذّرهم من المنافقين والكافرين وأكاذيبهم وقبائح أفعاهم ومكرهم، فإنّهم لم يتحرّجوا من إعلان الكذب على الله عزّوجلّ ورسوله ﷺ، وما يوجب وهن العزيمة والحطّ من قدر المسلمين، والشكّ في عقيدتهم وتنفيرهم عن الإسلام.

والآيات المباركة تسلّي النبيّ الكريم من ما يوجب حزنه، وتعلن أنّ الله تعالىٰ لن يتركه والمؤمنين فهو يرعاهم ويحفظهم، وتبيّن أنّ ذلك كلّه سُنّة إلهيّة جارية في خلقه، فلابدّ من تمييز المؤمنين من المنافقين والخبيث من الطيّب،

وتأمر المؤمنين بالإيمان بالله ورسله والتقوى والتسليم لأمره، ليفوزوا بالأجر العظيم.

والآيات الكريمة مرتبطة بما تقدّم من الآيات التي وردت في بيان الجوانب المتعدّدة في غزوة أُحد، وقد تقدَّم ذكر المنافقين وبعض كيدهم، وفي المقام يبيِّن سبحانه وتعالىٰ نوعاً آخر منه، ويحذّر المؤمنين منه.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

تسلية للنبيّ الكريم ﷺ ومواساة له من الحزن الذي كان يصيبه من أفعال المنافقين وأقوالهم، ممّا يوجب وهن عزيمة المؤمنين وإيقاع الشكّ في عقيدتهم والوقوع في الكفر. وكلّ ذلك ممّا يوجب الحزن.

والآية المباركة توجّه الخطاب للنبيّ ﷺ تشريفاً له، ولأنّه واسطة الفيض، ولأنّه المسؤول عن أُمّته ويرعىٰ مصالحهم، وهو يكشف عن أنّ الشغل الشاغل للرسول العظيم هو أمر الدِّين والمؤمنين به، وهي ترفع الحزن بنفي أسبابه، وترشد المؤمنين بإزالة الحزن عن أنفسهم ببيان الواقع في المقام، وهو أنّهم لن يضرّوا الله.

وقد أُسند الحزن إلى ذواتهم بإعتبار كونها مظاهر الفساد والغواية والضلال، فتراهم يسارعون في الكفر ويقعون فيه سريعاً من دون تريّث ويجتهدون فيه ويمارسونه في أقوالهم وأفعالهم ونيّاتهم؛ لأنّهم استقرّوا في الكفر وتمكّن في قلوبهم، ولأجل ذلك كلّه تعدّت المسارعة بـ(في) ولم تتعدّ بـ(إلى)، ومثل ذلك ما ورد في حقّ المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[1]، فإنّ من شدّة

---

١. سورة آل عمران: الآية ١١٤.

إيمانهم بالله تعالىٰ وكمالهم، أنّهم حريصون على الخير وراغبون فيه، وقد داوموا على ملابستهم له واستقرّوا فيه. ولعلّ تعدّي المادّة بـ(إلى) في قوله تعالىٰ: **﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾**[1] باعتبار أنّ المغفرة والجنّة منتهىٰ سيرهم ومسيرهم الاستكمالي.

قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً﴾**.

بيان لحقيقة من الحقائق الواقعيّة، فإنّ الله تعالىٰ غنيٌّ عن العالمين لا يغلبه شيء في السماوات والأرض، ولا يضرّه كيد المنافقين والكافرين وغيرهم، وتظاهرهم على إطفاء نور الله تعالىٰ، وإيقاع الضرر بالمؤمنين لا يوجب إطفاء ذلك النور وطمس الحقّ، فهم لا يضرّون إلّا أنفسهم لأنّهم يحاربون الله تعالىٰ، وقد خرجوا بسبب ذلك عن أهليّة اللّطف وحرموا أنفسهم عن كلّ خير، فلايبقى موضوع للتحزّن والأسىٰ، وهم مسخّرون تحت إرادته ومشيئته عزّوجلّ، فقد تعلّقت إرادته بأن يحرمهم من حظّ الآخرة ويسلك بهم إلى أسوء العذاب، فكانت عاقبة مسارعتهم في الكفر وبالاً عليهم.

وفي تعليق الضرّر به تعالىٰ كمال التسلية للنبيّ ﷺ والتشريف للمؤمنين، لبيان أنّ مضارّتهم مضارّته تعالىٰ، وهي غير معقول في الواقع وهذا أيضاً كذلك.

قوله تعالىٰ: **﴿يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الْآخِرَةِ﴾**.

تعليل وتأكيد لعدم مضارّتهم له تعالىٰ، وإعلام بأنّ المضارّة الحقيقيّة هي التي كانت في الآخرة دون ما يتوهّموه، وهم قد سلكوا مسلكاً اختاروا فيه الملذّات الدنيويّة الفانية، على الدرجات الرفيعة الأُخروية ونعيمها، وحرموا على أنفسهم نصيب الآخرة، وتعلّقت إرادة الله تعالىٰ الاقتضائية علىٰ طبق اختيارهم.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

ويأتي في الآيات التالية تفسير كيفيّة تعلّق إرادته عزّوجلّ بحرمانهم من نصيب الآخرة.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**.

أي: ولهم مع الحرمان من كلّ ثواب ونعيم في الآخرة عذاب عظيم لا يتقدّر بقدر، جزاء ما كانوا يكفرون.

وقد وصف سبحانه وتعالىٰ العذاب بالعظيم؛ إمّا باعتبار أنّ المسارعة في الكفر تدلّ على عظم قدره عند المسارع إليه، وتعلّق كلّ إرادته به وصرف جميع حيثيّاته في سبيله، فوصف تعالىٰ عذابه بالعظيم تنبيهاً على حقارة ما سارعوا إليه، أو لأجل أنّ القصد عظيم؛ لأنّهم قصدوا إضراراً عظيماً لا منتهى لعظمته، فيترتّب عليه العظيم.

ولم يقيد سبحانه وتعالىٰ العذاب بالآخرة كما قيّد الحرمان بها، لكون عذابه أعمّ، ولا مانع في ذلك فقد ورد في المنافقين: **﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾**[١].

واستحقاق العذاب العظيم هو نتيجة الحرمان من نصيب الآخرة، لأنّ كلّ مَن لم يكن له نصيب في الآخرة يكون سعيه في الدُّنيا ـ وإن بلغ ما بلغ ـ سبباً في زيادة العذاب.

قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالإيمان﴾**.

تعميم لجميع الكافرين بعد تخصيص الآية السابقة بالمسارعين في الكفر، فيصحّ أن تكون علّة أُخرىٰ تعمّ لنفي ضرر جميع الكافرين، وفيهم المسارعون في الكفر تقديراً للحكم السابق وتأكيداً له، ولزيادة التسرية عن قلب سيّد الأنبياء ﷺ والتسلية له.

---

١. سورة التوبة: الآية ١٠١.

وإنّما ذكر سبحانه لفظ الاشتراء زيادة في التقريع؛ لأنّهم بمعاملتهم في تبديل الإيمان بالكفر قد استبدلوا الشريف العظيم بالدنيّ الحقير، ولبيان أنّهم قد أخذوا الكفر رغبةً منهم في ما أخذوا وإعراضاً عمّا تركوا، فيكون أظهر على سوء الاختيار وكمال الرضا منهم، ولا يتأتّى ذلك في لفظ آخر. ويستفاد منه علمهم بالخسران الكلّي والحرمان الأبدي، فيكون الضرر عليهم عظيماً.

ويصحّ أن يكون المراد بالكفر في المقام جميع مراتبه من الاعتقادي والقولي والعملي، ويشهد لهذا التعميم بعض الآيات الشريفة:

قال تعالىٰ: **﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾**[١].

وقال تعالىٰ: **﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾**[٢]، كما أنّ الإيمان كذلك.

قوله تعالىٰ: **﴿لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً﴾**.

أي: أنّ الكافرين جميعاً لن يضرّوا الله شيئاً، وهذه العلّة عامّة يمكن تعليل الخاص وهم المسارعون في الكفر بها أيضاً.

والآية المباركة تبيّن قضيّة عقليّة حقيقيّة هي عين الواقع، لأنّ من كان جامعاً للصفات الكماليّة والجلاليّة بالذات، ومسلوباً عنه جميع النواقص الواقعيّة والإدراكيّة، لا يعقل في حقّه النقص والنفع وإلّا يلزم الخلف المحال، ولعلّه لذلك عبّر تعالىٰ بالنفي التأبيدي، وعن مولانا السجّاد عليه السلام في صحيفته الملكوتيّة: «يامَن يستغنى به ولا يستغنىٰ عنه، ويا مَن يرغب إليه ولا يرغب عنه، ويا مَن لا تفني خزائنه المسائل، ويا مَن لا ينقطع عنه الوسائل».

---

١. سورة البقره: الآية ٩٩.

٢. سورة الممتحنة: الآية ١.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

جزاء لتمرّدهم على الله تعالىٰ، وهو يدلّ على شدّة العذاب وفظاظته بذكر أحد آثاره، وهو غاية الإيلام.

وقد وصف سبحانه وتعالىٰ العذاب في الآية السابقة بالعظيم، وهنا بكونه أليماً، لتفاوت الطائفتين؛ فإنّ الأُولىٰ كانوا مسارعين في الكفر، فكان الجزاء المترتّب على فعلهم عظيماً، وقد حرموا أيضاً من نعيم الآخرة ولذّاتها، واستحقّوا العذاب العظيم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾.

بيان لحقيقة من الحقائق الواقعيّة التي كشف عنها القرآن الكريم، وهي سُنّة من السُنن الحكيمة في الاجتماع البشري، فإنّها تدلّ على السير التكاملي الجاري عليه هذا النظام الأحسن. وتتضمّن التوجيه للمؤمنين في ما يدور في نفوسهم إثر كلّ انتصار للباطل على الحقّ في الظاهر، كما أنّها توجّه الحديث إلى الكفّار لتنذرهم بعدم الاغترار بما يحرزونه من النصر الظاهر المؤقّت، وما يُمليه لهم الله تعالىٰ عليهم من أنواع نعمه في الأعمار والأولاد والأموال، فإنّ ذلك ليس لأجل عناية خاصّة من الله تعالىٰ بهم، بل إنّما هو سُنّة جارية في الخلق، فلا يعتبروه خيراً لكلّ واحد منهم بحسب نفسه، ولا يضمرون في نفوسهم الخبيثة بأنّهم خير من المؤمنين، أو أنّ الباطل الذي همّ عليه خير من الحقّ، ففي الواقع يكون الإملاء سبباً لاسترسالهم في الغيّ والضلال والفجور وعلّة لغرورهم، فتزيد آثامهم وجرائمهم، لتكون خاتمة أعمارهم وأعمالهم العذاب المهين، فإنّ العبرة بالخواتيم لا بالمبادي، فالآية الشريفة قطع لأعذار المبطلين؛ وإزالة لكلّ وهم وحديث نفس من البين، فإنّ ما املى الله تعالىٰ به لكلّ فرد لابدّ أن يصرف في التوجّه إلى

المحبوب الحقيقي والمطلوب الواقعي، حتّى يصل إلى الدرجة العالية من الكمال والحياة الأبدية والنِعَم السرمديّة، وأنّ غير ذلك يكون وبالاً على صاحبه وغيّاً وضلالاً، فإملاء الله تعالى للكافرين والعُصاة، إنّما يكون وفق سنّة حكيمة، ولعلّ من بعض أسرارها إعمار نظام الدُّنيا الظاهري حتّى تظهر دولة الحقّ، فإنّ الله تعالىٰ أراد أن يعمّرها بهذا النحو لأجل مصالح كثيرة، وأنّ الله تعالىٰ يُنعم على الكافرين ليميّز الخبيث من الطيِّب، ويزيد في درجات المؤمنين، أو يرجع الكافر من العصيان إلى الطاعة والإيمان، فإذا اختاروا صَرف ما أملى به الله تعالى لهم في الطغيان والعصيان، فهم في غضب الله تعالىٰ وسخطه ما لم يرجعوا، فإذا رجعوا إلى الإيمان والطاعة دخلوا في رحمته ورضوانه، فالإملاء ليس علّة تامّة للمعصية، بل هي تصدر بعمد الفاعل واختياره.

ولا يختصّ مضمون هذه الآية الشريفة بالذين كفراوا أو بشخص معيّن، بل يجري في النوع وفي كلّ مَن يعصى الله تعالىٰ.

ومادّة (ملل) تدلّ على رفع القيد، ومنه أملى لفرسه إذا أرخى الطول ليرعى كيف شاء، ومنه الملأ: الحين الطويل والأرض الواسعة، لأنّه يرجع إلى رفع القيد والإطالة أيضاً، وإلى هذا يرجع الملوان وهما الليل والنهار لطول تعاقبهما.

والمعنىٰ: لا يحسبنّ الكافرون أنّ إملاءنا لهم بالإمهال وإزالة القيود المانعة عن الاستفادة من أموالهم وأولادهم وشؤونهم خير لأنفسهم؛ لأنّ الإنسان بطبعه يحبّ الخير لنفسه، والشيء إنّما يكون خيراً إذا صرفه الإنسان في تهذيب نفسه وتزكيتها من مساوئ الأخلاق، أو كَسَب به عملاً صالحاً ينتفع به دائماً، ولكنّهم صرفوها في الخيريّة الموقّتة الزائلة، ولا ريب أنّه ليس بخير بل الخير ما كان نفعه دائماً وأبداً.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً﴾.

بيان لإحدى المصالح والحِكَم التي اقتضت إملاء الله تعالىٰ لهم، وهي تعلّق إرادة الله تعالىٰ بأن يكون إمهالاً لهم، واستدراجهم إلى زيادة الإثم بسوء اختيارهم، وإضراراً بأنفسهم جهلاً منهم.

واللام في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَزْدادُوا﴾ للعاقبة، نظير قوله تعالىٰ: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾[1]. والحصر المستفاد من «إنّما» باعتبار العاقبة لانحصار الحكمة في ذلك فقط.

أي: ليس لهم عاقبة خير ما داموا على الكفر والعصيان كما عرفت.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾.

بيان لسوء حالهم في الآخرة بعد بيان حالهم في الدُّنيا، أي وراء ذلك عذاب معه الهوان جزاء كفرانهم، وإنّما كان عذاباً مهيناً باعتبار تعزّزهم وتجبّرهم في الدُّنيا، بما أملى الله تعالىٰ به لهم من أنواع النِعَم وإطالة الأعمار، فأورثتهم ذلك في الآخرة عذاباً مهيناً لهم.

قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾.

ذكر تبارك وتعالىٰ في هذه الآية الكريمة جملة من القضايا الحقيقيّة الثابتة في الطبيعة، التي هي مسخّرة تحت إرادته ومشيئته جلّت عظمته، وهي من أهمّ القوانين الجارية في مسير التكامل والاستكمال، ولا تختصّ بنوع معيّن، بل هي جارية في جميع المادّيات من الجماد والنبات والحيوان والإنسان، لأنّ المهمّ لأفراد الإنسان في عالم المادّة هو تمييز الخبيث من الطيّب لأغراضهم العقلائيّة، ونرى ذلك في الأعشاب والنبات والأثمار والمعادن والأحجار، إلى غير ذلك ممّا

---

١. سورة القصص: الآية ٨.

لايحصى، وأوكل الله تعالىٰ كلّ ذلك إلى بني آدم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[1]، على حسب مراتبهم في العقول والأفكار.

وأمّا نفس الإنسان فقد تصدّى الباري عزّوجلّ تمييز خبيثهم عن طيّبهم بواسطة أنبيائه ورسله، الذين هم أدلّة مقاله وتراجمة وحيه، وكفى بذلك فخراً لهم على غيرهم من الممكنات.

وفي هذه الآية الشريفة التفات إلى المؤمنين، وإعراض عن خطاب الكافرين، الذين بيّن سبحانه وتعالىٰ حقيقة الأمر بالنسبة إليهم، وفيها أرشد عزّوجلّ المؤمنين إلى أنّهم لم يخرجوا عن سُنّة الابتلاء التي هي من أهمّ سُبل التكميل.

والمراد بقوله تعالىٰ: ﴿عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي بما هم عليه من اشتباه الحال واختلاط بعضهم ببعض. وفي الآية الشريفة الوعد بالنسبة إلى المؤمنين، والوعيد بالنسبة إلى الكافرين والمنافقين. وقد ذكر المفسّرون في المراد من الآية الكريمة أقوالاً لا ترجع إلى محصل.

قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ﴾.

غاية للنفي السابق، أي أنّ الله تعالىٰ ما كان يذر المؤمنين على اشتباه الحال، واختلاط المخلص في الإيمان بغيره حتّى يفرّق بين الخبيث والطيّب، فإنّه لابدّ من التمييز؛ لأنّ الأمور لاتستقيم إلّا إذا تميّز الخبيث من الطيّب، لأنّ الخبيث لا أهليّة له بالاختلاط مع الطيّب، ولا أهليّة له لحمل الأمانة المُلقاة على المؤمنين، ولاتستقيم حالهم إذا خالطهم الخبيث، فإنّه يعوقهم عن إقامة الحقّ ويوهن عزائمهم ويعوج لهم الطريق المستقيم، فالخبيث بمنزلة المرض الذي يوجب

---

١. سورة لقمان: الآية ٢٠.

الهلاك والفناء.

والمراد بالخبيث كلّ مَن كان منقاداً للشيطان وتابعاً لهواه، ولم يتنوّر قلبه بنور الإيمان، فيسرع إلى الموبقات وارتكاب الآثام، ويسعى إلى البغي والفساد، والانقلاب على الأعقاب.

والطيّب بخلافه، وهو المطيع لله تعالىٰ المخالف لهواه والمتّبع للحقّ.

ويميز ـ بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء ـ فعل مضارع وماضيه ماز، وقرئ بالتشديد، فيكون ماضيه ميّز، وهما لغتان بمعنى، كما عن جمع من اللّغويين، وليس التضعيف لتعدّي الفعل، لأنّهما يتعدّيان إلى مفعول واحد، يُقال: مزت الشيء بعضه من بعض أميزه، وميّزته تمييزاً، وقال بعضهم: مزت الشيء أُميزه ميزاً إذا فرّقت بين شيئين، فإن كانت أشياء قلتَ: ميزتها تمييزاً، نظير (فرّق)، فإنّه إذا جعلت الواحد شيئين يقال: فرّقت بينهما (مخفّفاً). ومنه فرُق الشعر، وإذا جعلت بين الأشياء يقال: فرّقت (مشدّداً) تقريباً. وامتاز القوم، أي تميّز بعضهم عن بعض، وفي الحديث: «مَن ماز أذىً عن الطريق فهو له صدقة».

والطيب والخباثة قد ينسبان إلى الذوات، وقد ينسبان إلى الأفعال والأعمال والصفات، ولمشيئته تبارك وتعالىٰ وإرادته دخل في تمييز الخبيث من الطيّب بنحو الاقتضاء، كما أنّ لإرادة العبد أيضاً دخلاً كذلك، فإذا اجتمعت جميع مقتضيات الخباثة فإلى النار لا محالة، كما إذا اجتمعت جميع مقتضيات الطيّب فإلى الجنّة لا محالة، والمقتضيات في كلّ واحد منهما كثيرة لا يحصيها إلّا الله تعالىٰ، ولعلّ تعقيب هذه الآية الشريفة بقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**﴾ إشارة إلى ذلك.

وطرق تمييز الخبيث من الطيّب كثيرة، ولا يتعيّن في طريق خاصّ، فإمّا الإخبار بالطيّبين والخبثاء، والاطّلاع عليهم بالوحي من دون مقاساة الأهوال

والبلايا، ولكن ذلك خلاف حكمته تعالىٰ ـ فإنّه لا يطّلع على غيبه أحد ـ وما اقتضته السنّة الاجتماعيّة والنظام الأحسن. أو الابتلاء الذي يكشف عن خفايا النفوس وغير ذلك.

وكيف كان، فلابدّ من تدبير ربوبي، ومعيّة قيوميّة، ولا يمكن أن يقوم به غير الله تعالىٰ، وهو من علم الغيب الذي استأثر الله تعالىٰ به نفسه، فلا يطّلع عليه أحد إلّا مَن اجتبى من رسله، فيطلعه على ذلك بالوحي، وفي ذلك يقول تعالىٰ: **﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾**.

والتمييز هذا يقترن مع الشدّة والجهاد، وبذل الأنفس والأموال، وفيها مقاساة البلاء، ومشاهدة مختلف الأهوال والمتاعب والمشاكل الكثيرة، ويخرج إلى الصبر والمثابرة، فإنّ جميع ذلك مقدّمة للسعادة العظمىٰ والفوز الأكبر في الدُّنيا والعقبى، بل مقدَّمة لوصول العاشق المتيّم إلى المعشوق الحقيقي، وليس متاعب هذه المرتبة محدودة بحدّ خاص ودرجة مخصوصة، وقد وصف عليّ عليه السلام المؤمنين الممتحنين بالامتحان الربوبي في خطبته المباركة الواردة في وصف المتّقين بأحسن وصف.

ولكن، لابدّ أن يعلم أنّ التمييز الذي يوجب الحمد واستحقاق عظيم الأجر والثواب، إنّما هو ما كان بالاختيار الحاصل من الإيمان بالله تعالىٰ ورسله، والعمل الصالح والتقوىٰ، فالطيب والخباثة إنّما يدوران مدار الأمر الاختياري، وهو الإيمان والكفر، ولذا كانا أمرين اختياريّين، ولعلّ ذيل الآية الشريفة يرشد إلى ذلك، قال تعالىٰ: **﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**[1].

قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾**.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٧٩.

أي: أنّ الله تعالىٰ لا يليق بحكمته وجلالة شأنه أن يطلع أحداً من عباده على الغيب، إلّا مَن يجتبي من رسله مَن يشاء فيطلعه على الغيب بالوحي.

والمراد بالغيب الشريعة وشؤونها وموارد الامتحان وخصوصيّاته ودرجاته، فإنّه كما عرفت له شأن كبير ليس كلّ أحد أهلاً له، بل قيام كلّ فرد به اختلال النظام، ولأنّ عالم المادّة هو عالم الحُجب الظلمانية، وعالم الغيب مباين له، فكيف يكمن أن يطلع المحجوب بالحُجب الظلمانية على الغيب المكنون؟

نعم، لو أمكن لعبد إزالة تلك الحُجب باختياره لعلم ما لا يعلمه غيره، وهو يختصّ بمقام الأنبياء والمرسلين، حيث أشرقت على نفوسهم المقدّسة الشوارق الأزلية، وكانوا أهلاً للكمال، فعرجوا بهممهم العالية عن الأُمور الدنيئة، فتتابعت عليهم الفيوضات الإلهيّة، فصاروا قسيمي الجنّة والنار.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: أنّ الطريق الذي اختارته الحكمة الإلهيّة، والذي يكشف به خبايا النفوس، ويتميّز الطيّب من الخبيث، هو أن يرسل الله مَن يجتبيه من رسله، ويدعوا الناس إلى الإيمان بالله ورسله والطاعة له والجهاد في سبيله تعالىٰ، والصبر على الإيمان، فإنّه الطريق الذي يميّز به الخبيث من الطيّب؛ وقد بيّن سبحانه وتعالىٰ في موضع آخر من القرآن الكريم أنّ الحياة الدُّنيا هي محلّ الابتلاء، قال تعالىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1].

والاستدارك في الآية المباركة: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي﴾، لبيان كيفيّة وقوع التمييز على سبيل الإجمال، وإشارة إلى أمر مهمّ لا يمكن أن يتصدّى له أحد إلّا هو عزّوجلّ، وهو الاصطفاء والاجتباء من عباده للإنذار والتبشير، وتصدّيه

---

١. سورة الملك: الآية ٢.

للتمييز بين الخبيث والطيّب بأمره تبارك وتعالىٰ، ولعلّ في ذكر اسم الجلالة إيماء إلى أنّ تلك الأمور يتّصف بها هو عزّوجلّ لكونه إلٰهاً.

قوله تعالىٰ: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾.

أتمّ بيان للتمييز بين الخبيث والطيّب، أي آمنوا مخلصين في إيمانكم بالله رسله، الذين اجتباهم تعالىٰ لهدايتكم. والتفريع باعتبار أنّ الإيمان بالله تعالىٰ والرسول مادّة الطيب وروح الحياة الطيّبة، كما قال تعالىٰ: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[1]، وهو يدلّ على أنّ ثمرة الإيمان هي الحياة الطيّبة، والمستفاد من ذلك أنّ الطيب والخباثة يدوران مدار الإيمان والكفر، وقد أمر سبحانه وتعالىٰ باكتساب سبب الطيب ومادّته بالاختيار، لأنّ الإيمان امر اختياري.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

إعلام بأنّ آثار الحياة الطيّبة مترتّبة على العمل الصالح، والأجر متفرّع على الإيمان والتقوى، بعد بيان أنّ الإيمان روح الحياة الطيِّبة، وهو مادّة الطيب، فالأجر العظيم المعدّ للمؤمنين إنّما يكون لمَن آمن بالله تعالىٰ ورسله، واتّقى ما يوجب مخالفته عزّوجلّ، وهذا ما يدلّ عليه جملة كثيرة من الآيات الشريفة. ولذا كرّر عزّوجلّ الأمر بالإيمان، فإنّ الأوّل كان لدرك طيب الحياة، والثاني لدرك الأجر العظيم الذي لا يعرف كنهه وخصوصيّاته إلّا الله تعالىٰ، لأنّ الابتلاء عظيم، وهو شاقّ على النفوس فيكون أجره عظيماً أيضاً.

***

---

١. سورة النحل: الآية ٩٧.

بحوث المقام

بحث أدبي:

قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا يَحْزُنْكَ**﴾ بفتح الياء وضم الزاي، فإنّ (يحزن) بفتح الياء والزاي للقاصر، وبضم الزاي للمتعدّي؛ وفي المصباح: أنّها لغة قريش، وعليها استعمال القرآن الكريم في تسعة موارد، منها المقام، واسم المفعول (محزون) في العامّة من هذه اللغة.

و(شيئاً) في قوله تعالىٰ: ﴿**لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً**﴾ واقع موقع المصدر، أي شيئاً من الضرر، وهو يفيد العموم لوقوعه في حيز النفي، أي لا واقعاً ولا وهماً.

وقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إنّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ**﴾ عطف على قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا يَحْزُنْكَ**﴾، والفعل مسند إلى الموصول، و(ان) ومعمولها سادّ مسدّ مفعوليه لحصول المقصود، وهو تعليق أفعال القلوب بنسبة بين المبتدأ والخبر، وقيل: المفعول الثاني محذوف و(ما) إمّا مصدرية أو موصولة؛ والضمير في (نملي) محذوف أو التقدير عليه، وكان الحقّ أن تكتب (ما) في الوجهين مفصولة، ولكنّها كتبت موصولة في المصاحف، ولعلّ الوجه هو المشاكلة لما بعده. و«خير» خبر وقرئ «خيراً» بالنصب على أن يكون لأنفسهم هو الخبر. و«لهم» بيان أو حال من «خير»، هذا.

وقرئ و«لا تحسبنّ» بالتاء، والخطاب إمّا للنبيّ ﷺ أو لكلّ مَن يتأتى منه الحسبان، فيكون الموصول مفعولاً، و«إنّما نملي» بدل اشتمال من «الذين» فيسدّ مسدّ المفعولين كما عرفت.

واللّام في قوله تعالىٰ: ﴿**مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ**﴾ قيل: إنّها متعلّقة بمحذوف هو

الخبر، والفعل يذر منصوب بأنّ مضمرة، أي وما كان الله مريداً لأن يذر المؤمنين.

وقيل: إنّ اللام مزيدة للتأكيد وناصبة للفعل، والخبر هو الفعل.

وأُشكل عليه: بأنّ الزايدة كيف تعمل.

ويُجاب عنه: بأنّه لا يقدح زيادتها، فإنّ الزائد قد يعمل كما في حروف الجر.

والحقّ أنّ اللام لا تكون زائدة، بل هي للتأكيد وتنصب الفعل، لأنّه لا معنى للزيادة في القرآن ولو بحرف واحد كما عرفت.

و«يذر» من يوذر حذفت الواو منها تشبيهاً لها بيدع، وليست العلّة التي أوجبت حذفها موجودة في الأخيرة ولكنّها موجودة في «يذر»، إذ لم تقع بين ياء وكسرة ولا ما هو في تقدير الكسرة، بخلاف (يدع) كما هو معلوم.

وإنّما فتحت الذال تشبيهاً بيدع، فإنّ الدال فيه فتحت لأنّ لامه حرف حلقي مثل يسع، ويقع، ولم يستعملوا من «يذر» ماضياً ولا مصدراً، ولا اسم الفاعل، استغناءً بتصرّف مرادفه، وهو يدع.

ومن في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ﴾** لتبيّن الصفة لا التبعيض، لأنّ الأنبياء كلّهم مجتبون، كما في قوله تعالىٰ: **﴿مَا يَفْتَحْ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾**[1]، وكما في قولك: (عندي عشرون من الدارهم)، إذا قصد بالدراهم جنسها دون دراهم معيّنة، وقد أوضح ذلك الشيخ الرضي في «شرح الكافية».

وقيل: إنّ (من) في المقام لابتداء الغاية، وتعميم الاجتباء لسائر الرُّسل، للدلالة على أنّ شأن رسول الله ﷺ في هذا الباب له أصل أصيل وأمر مبين له، وجار على سنّة الله تعالىٰ الجارية في جميع الرُّسل (صلوات الله عليهم أجمعين).

ولا فرق بين الوجهين من حيث النتيجة، لأنّ الأنبياء في كلّ من الوجهين

---

١. سورة فاطر: الآية ٢.

يكونون من المجتبين لله تعالىٰ، ولكن الوجه الأخير من الوحدة في الكثرة باعتبار أنّ مقام سيِّد الأنبياء ﷺ مقام جمع الجمع، بخلاف الأوّل فإنّه بلحاظ الكثرة بنفسها.

وقيل: إنّ (من) للتبعيض، لأنّ الإطلاع على المغيبات مختصّ ببعض الرُّسل، بما فضّل الله تعالىٰ به بعضهم على بعض، لا بأصل الرسالة.

ولكنّه بعيد عن السياق، خصوصاً بملاحظة التفريع في قوله تعالىٰ: **﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾**.

و(طلع) في قوله تعالىٰ: **﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾** لازم ومتعد، يقال: طلعت على كذا، واطّلعت عليه، وأطلعت عليه غيري، فهو لازم ومتعد.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾**، على أنّ إعراض الناس عن الإيمان موجب لحزن سيِّد الأنبياء ﷺ، ونظير ذلك قوله تعالىٰ: **﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾**[١]، وقوله تعالىٰ: **﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾**[٢]، فهو الحريص على إيمان الناس جميعهم والدخول في رحمة الله عزّوجلّ ولا يبقى بغي وظلم على وجه الأرض.

والآية الشريفة تُسلِّي النبيّ ﷺ عن ذلك وترشده إلى الحزن، لأنّه ليس له إلّا البلاغ، قال تعالىٰ: **﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾**[٣]، مضافاً إلى أنّ

---

١. سورة الكهف: الآية ٦.

٢. سورة فاطر: الآية ٨.

٣. سورة الرعد: الآية ٤٠.

المستفاد من الآية الكريمة أنّ سبب حزنه ﷺ هو مسارعتهم في الكفر وخوف الإضرار بالمؤمنين، ولذا ورد في علّة النهي «أنّهم لن يَضُرّوا الله شيئاً».

الثاني: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً﴾** على كمال عنايته عزّوجلّ بالرسول الكريم ﷺ والمؤمنين، حيث جعل مضرّتهم مضرّته عزّوجلّ، وهو يعدهم بأنّ إضرار الكافرين لا يصل إليهم، كما أنّ إضرارهم لا يصل إلى الله تعالىٰ، فإنّه الغنيّ عن العالمين والقادر على أن يُغني المؤمنين ويعزّهم بعزّته، ويمنحهم الصبر ويجزيهم الجزاء الأولى، ويقمع كيد الكافرين ويردّه عليهم، قال تعالىٰ: **﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**[1]. ومن مظاهر استيلاء الله تعالىٰ عليهم وعدم إمكان إضرارهم له، أن حرمهم الله تعالىٰ من حظّ الآخرة الذي هو عظيم أمره، وأوعدهم العذاب العظيم الذي أعدّه الله تعالىٰ الكافرين جزاء مسارعتهم في الكفر، وكانت إرادته تعالىٰ لذلك مستمرّة معهم لا تبديل لها، وهم اختاروا ذلك.

الثالث: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالإيمان لَنْ يَضُرُّوا اللهَ﴾**، أنّ كلّ مَن أعرض عن الإيمان، سواء كان من المسارعين في الكفر أم من غيرهم، لن يضرّوا الله تعالىٰ والمؤمنين فإنّهم معزّزون بعزّته.

والآية المباركة تدلّ على كمال غبنهم في هذا التبديل، حيث بدّلوا أعزّ الأشياء وأعظمها وخيرها بأخسّها وأقبحها وشرّها، وفي هذه الحالة كيف يمكن أن يضرّوا الله تعالىٰ، وهو القيوم والعزيز الذي لا يضام، والعظيم الذي لا يدانيه أحد؟!

وهذه الآيات تدلّ على أعظم الحقائق الواقعيّة التي غفل عنها جميع أهل الباطل، فإنّ أنغماسهم في المادّة وغرورهم في الدُّنيا، وتجبّرهم على الحقّ وأهله، أوجبت أن يظنّوا بالله العظيم الظنون الباطلة التي أوقعتهم في المهلكة والشقاء.

الرابع: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ**

---

١. سورة الزمر: الآية ٦٣.

لِأَنْفُسِهِمْ﴾ على حقيقة؛ وهي أنّ الخير في الدُّنيا إنّما هو أمر وهمي لا واقع له، وإنّما الخير الواقعي الذي لابدَّ من طلبه والسعي في ابتغائه، هو الذي يبيِّنه عزّوجلّ ويحدّه القرآن الكريم في مواضع متعدِّدة، وهو الإيمان والتقوى والعمل الصالح الذي يترتّب عليه الحياة الطيّبة، والسعادة العظمىٰ في العقبىٰ:

قال تعالىٰ: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾**[2].

فالخير الذي يظنّه الكافرون ممّا أنعمه الله تعالىٰ عليهم من الأموال والأولاد، إنّما هو في الواقع تسخير إلٰهي لينساقوا إلى حيث لايبقى لهم حظّ، وقد سلبهم عن الكمال الواقعي المعدّ لجميع أفراد الإنسان، ومن سوء ظنّهم أنّهم اعتبروا أنّ ذلك الاستدراج لهم من المسارعة لهم في الخيرات، قال تعالىٰ: **﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ﴾**[3]، وفي ظنّهم أنّهم يوم القيامة يؤتون خيراً ممّا أُوتوه في الدُّنيا، قال تعالىٰ: **﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴾**[4].

وقد بيّن عزّوجلّ في موضع آخر أنّ هذا الاستدراج من كيده المتين، قال تعالىٰ: **﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾**[5]، فاعتبر

---

١. سورة النحل: الآية ٩٧.

٢. سورة العنكبوت: الآية ٦٤.

٣. سورة المؤمنون: الآية ٥٥ ـ ٥٦.

٤. سورة الكهف: الآية ٣٦.

٥. سورة الأعراف: الآية ١٨٢ ـ ١٨٣.

عزّوجلّ أنّ ذلك الاستدراج من جزاء الكيد الذي أراده الكافرون لله وللمؤمنين، فهو يسوقهم به إلى ازدياد الإثم الموجب لاستحقاق العذاب المهين، ولا يخرج جميع ذلك عن سنّة متقنة جارية في الحياة، وهي سُنّة التكميل وابتلاء المؤمنين، وتمييز الخبيث من الطيّب، قال تعالىٰ: **﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾**[1]، هذه هي الحقيقة في استدارج الكافرين وبيان الواقع في إملاء الله تعالى لهم في الأموال والأولاد.

الخامس: يستفاد من التفنّن في وصف العذاب في المواضع الثلاثة ـ بين عظيم وأليم ومهين ـ أنّ كلّ وصف يناسب مضمون الآية التي ورد فيها الوصف، ففي المسارعة في الكفر يكون العذاب عظيماً؛ لأنّ الكفر قد خلب لبّهم واستولى على جميع أحاسيسهم، واشتدّ تسرّعهم فيه، فكان ذلك عظيماً وكان الجزاء كذلك أيضاً.

وفي اشتراء الكفر بالايمان يكون العذاب أليماً؛ لأنّهم تركوا الإيمان ورغبوا في الكفر بسوء اختيارهم، فإنّهم بعد معرفتهم حقيقة الحال لابدّ من تألّمهم كما يتألّم المشتري المغبون إذا عرف مقدار الغبن الكبير، ولا محيص عن دفعه عنه.

وفي الإملاء للكافرين يكون العذاب مهيناً، فإنّهم كانوا يتجبّرون بما أملاهم الله تعالىٰ لهم ويطلبون بذلك العزّ والكرامة، فآتاهم الله عزّوجلّ العذاب المهين، وكلّ ذلك من دقائق الأُمور التي لا يعلمها إلّا الله جلّت عظمته.

السادس: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾** أنّ التكميل والإبتلاء في طريقه وتوارد الآلام

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٨٦.

المحن في ابتغائه، ممّا لابدّ منه ولا محيص عنه، فإنّ مَن أراد أن يسلك في سلك الطيّبين، فلابدّ له من تحمّل البلاء والصبر عليه.

وتدلّ الآية الشريفة على أنّ التمييز بين الخبيث والطيّب في الإنسان، منحصر في الإيمان بالله تعالىٰ، والتقوى والعمل الصالح، فالدخول في الطيّبين طريقه منحصر في الإيمان بالله تعالىٰ، ولكن ذلك لا يكفي في نيل الأجر العظيم، بل لابدّ من البقاء والاستمرار عليه وحفظ طيبه، وهو منحصر في العمل الصالح والتقوى.

وبالجملة: أنّ مَن كان مؤمناً بنحو ما اراده الله تعالىٰ من العبد فهو من الطيب، فإذا وافق العمل الاعتقاد كان طيّباً بالذات وبالفعل، ويستتبع ذلك سعادة الدُّنيا والآخرة. ومَن كان غير ذلك فهو خبيث إمّا اعتقاداً أو عملاً أو هما معاً.

السابع: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾** أنّهما أمران اختياريان، لأنّهما يدوران مدار الإيمان والكفر، وهذه حقيقة قرآنية، ويترتّب عليها أُمور مهمّة؛ منها جزاء الأعمال، ومنها تكشّف أسرار التوحيد، ولعلّنا نتعرّض لذلك في موضع مناسب إن شاء الله تعالىٰ.

الثامن: يدلّ تكرار لفظ الجلالة في قوله تعالىٰ: **﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**، مع أنّ الثلاثة الأخيرة من وضع الظاهر موضع المضمر ـ على أنّ الله تعالىٰ هو مصدر الجلال والجمال، وأنّ تلك الأُمور التي في الآية الشريفة من مختصّات الإله الواحد المتّصف بالأُلوهيّة وأنّ الرُّسل وسائط الفيض.

التاسع: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ﴾** أنّ طريق الإنسان إلى العلم بالحقائق إنّما هو منحصر بالإستدلال، والحاصل من نصيب العلامات

وإقامة البراهين، وأنّه لا مطمع لأحد في الاطّلاع على الغيب، فإنّه منحصر بالله تعالىٰ، وبمَن يجتبيهم عزّوجلّ.

وتعقيب هذه الآية الكريمة بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ﴾ يدلّ على فضل الرُّسل ومزيّتهم على سائر الخلق، وقصور رتبة غيرهم عن الاطّلاع على الغيب والوقوف على خفايا الأُمور والأسرار التي لابدّ من إصدارها عن طريق الوحي.

العاشر: الآية الشريفة لا تبيّن طرق التمييز بين الخبيث والطيّب، وإنّما تدلّ على أنّه من الأُمور التي تختصّ بالله تعالىٰ، وقد بيَّن عزّوجلّ في مواضع أُخرىٰ من القرآن الكريم تلك الطرق، ولعلّ ذكر اجتباء الرُّسل بعد ذلك فيه الدلالة على أنّ جميع مجاهدات الأنبياء وغزواتهم وحروبهم ليس إلّا للتمييز بين الخبيث والطيّب، فتكون هذه الآية الكريمة بمنزلة العلّة لجميع ما ذكر في غزوة أُحد وسائر الغزوات، والله تعالىٰ هو العالم بما مضىٰ وبما هو آت.

الحادي عشر: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، على أنّ الإيمان لا يكمل إلّا بالتقوى، وأنّ الأجر إنّما يكون على حسب الإيمان المقترن بالتقوى والعمل الصالح.

***

بحث روائي:

في «تفسير العيّاشي»، عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قلت له: أخبرني عن الكافر، الموت خيرٌ له أم الحياة؟

فقال عليه السلام: ألموت خيرٌ للمؤمن والكافر، قلت: ولِمَ؟

قال: لأنّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾، ويقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إنّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إنّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾».

أقول: روي قريباً منه في «الدرّ المنثور» عن ابن مسعود، وحيث إنّه ذكر الأبرار في مقابل الذين كفروا، صحّ أن يُراد به مطلق المؤمنين لا طائفة خاصّة، ويشهد لذلك جملة من الآيات والأخبار التي وردت في بيان درجات الجنّة للمؤمنين.

وفي «أسباب النزول» للواحدي: قال رسول ﷺ:

«عرضت عليَّ أُمّتي في صورها كما عرضت على آدم، وأُعلمت مَن يؤمن بي ومَن يكفر، فبلغ ذلك المنافقين، فاستهزأوا، وقالوا يزعم محمّد أنّه يعلم مَن يؤمن به ومَن يكفر، ونحن معه ولا يعرفنا، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إنّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إنّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾».

أقول: علىٰ فرض صحّة الحديث لا بُعد فيه بحسب القواعد العقليّة، لأنّ المستفيض قابل لجميع أنحاء الاستفاضة والمفيض بالنسبة إليه لا حدّ لإفاضته، فعرض صور الأُمّة عليه يكون كعرض أعمالها عليه في كلّ يوم الاثنين والخميس، كما نطقت به الأحاديث.

***

الآية ١٨٠ ـ ١٨٤

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴿١٨٤﴾﴾.

تضمّنت الآيات الشريفة المتقدّمة ما يتعلّق ببذل النفس في الجهاد في سبيل الله تعالىٰ، وقد ذكر جلّت عظمته فيها ما يرتبط بغزوة أُحد، وما لاقاه المؤمنون المجاهدون في سبيله عزّوجلّ من البلاء المحن، وما صدر عنهم فيها من الفشل والجبن والمخالفة، وما ترتّب على ذلك من اللّوم والعتاب والآثار الكبيرة، وبيّن سبحانه وتعالىٰ جميع الجهات التي تعلّقت بها، فكانت غزوة أُحد درساً عظيماً للمؤمنين، وفيها من العِبر المهمّة لهم، وحثّ جلّ شأنه على الرجوع إلى الحقّ، وبذل النفس والصبر والمثابرة، ووعدهم الجزاء العظيم، وذكر الكافرين والمنافقين

وبيّن حقيقة الحال فيهم. ثمّ ذكر تعالى أنّ إملائه للكافرين ليس إلّا استدراجاً لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين.

ويذكر عزّوجلّ في هذه الآيات المباركة بعض أقسام الإملاء والاستدراج، وهو الإملاء في جمع المال، وضَرَب مثلاً في الذي يبخل عن إنفاقه في سبيل الله تعالىٰ، فكان حاله حال إملاء الكافرين، وأرشده سبحانه إلى الواقع، وبيّن أشدّ أنواع الوعيد بالنسبة إليه، ثمّ عطف الكلام إلى يهود الذين كانوا مع النصارى موضوع الحوار في هذه السورة، وبيّن خطيئة اليهود، وأنّهم جمعوا كثيراً من صفات السوء والشرّ ما لم تجتمع في غيرهم، فقد أساءوا الظنّ بالله تعالىٰ، وكذّبوا بآياته عزّ وجلّ، ونسبوا الفقر إليه، وعادوا أنبياء الله وكذّبوهم وكتموا الحقّ والميثاق الذي أُخذ منهم وقد أُمروا ببيانه، وأوعدهم الله تعالى العذاب جزاء اعتقادهم وأعمالهم.

والآيات المباركة خاتمة الآيات الكريمة التي وردت في غزوة أُحد، وهي تأمر بالصبر والثبات، وتستنهض الناس إلى متابعة الحقّ والجهاد في سبيل الله، وتحرّضهم على الإنفاق في سبيل الله تعالىٰ والحذر من كيد اليهود، وتسلّي النبيّ ﷺ والمؤمنين من تكذيبهم.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾.

تحريض على بذل المال في سبيل الله تعالىٰ، بعد التحريض على بذل النفس في الجهاد، وتوكيد لما ذكره عزّوجلّ آنفاً من إملاء الكافرين ببيان أظهر مصاديقه، وهو الإملاء بالمال، فيكون حال الذين يبخلون بالمال وعدم إنفاقه في سبيل الله تعالىٰ، كحال الذين أملى لهم الله تعالىٰ، وكلا الفريقين يعيش في الوهم والخيال،

وواقع في أعظم الشرّ في الحقيقة.

وبيان لحال البخيل وسوء عاقبته، وتخطئة لما يتوهّمه هو وأهله من دعوى الخيريّة ببيان حال الدُّنيا، وهي أنّ جملة من معتقداتهم التي يهتمّون بها ويرتّبون الآثار عليها تكون وزراً عليهم ووبالاً في دار القرار، ونظير هذه الآية قوله تعالىٰ: **﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾**[1]، فالبخيل عن إنفاق المال في سبيل الله تعالىٰ، وإن كان يجمع المال وهو خير بحسب الظاهر له، ولكنّه طوق ثقيل يحمله الإنسان في عنقه في الواقع، ويظهر ذلك يوم ظهور الحقائق، قال تعالىٰ: **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾**[2].

الآيات الشريفة المتقدِّمة صريحة في تجسّم الأعمال، كما دلّت عليه الأدلّة العقليّة والنقليّة، والتجسيم يحصل بعمل نفس الإنسان وإعداده له، كما تدلّ عليه هذه الآية. على أنّ الغنى والمال إنّما هو من فضل الله تعالىٰ يؤتيه مَن يشاء من عباده، وفعل المكلّف في ذلك إنّما يكون مقتضياً، فيترتّب عليه أثر فعله لا أثر فضله جلّت عظمته.

قوله تعالىٰ: **﴿بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾**.

فيه كمال الاحتجاج على الباخلين، وفيه التوبيخ والذم لهم، فإنّ ما يبخلون به إنّما هو من عطاء الله تعالىٰ وفضله، والآية الكريمة لا تختصّ بنوع معيّن، فإنّ عموم قوله تعالىٰ: **﴿بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾** يشمل المال والعلم والجاه، وكلّ فضل

---

١. سورة البقرة: الآية ٢١٦.

٢. سورة التوبة: الآية ٣٤ـ٣٥.

من الله تعالىٰ يمكن أن ينتفع به الناس، فإنّ الامتناع عن بذله والبخل بـه يكـون مرجوحاً وتشمله الآية المباركة، وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «مَن سئل عن علم فكتمه أُلجم من نار».

قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾.

بيان لواقع الحال في أنّ ما توهّموه خيراً إنّما هو في الحقيقة شـرّ؛ لأن مـا زعموه في وجه الخيريّة في البخل هو حفظ المال لمنافعهم وشؤونهم، وهذا في مقابل الشرّ العظيم المترتّب على ذلك عدم محض، وهو يكشف عن رذيلة خُلقية وهي رذيلة الشح وسوء الظنّ بالله العظيم، وينبئ عن فسق صاحبه، لأنّ فيه خسّة المعصية وبُعده عن مكارم الأخلاق، لأنّه يخسر فضيلة الطاعة وحسن السماحة والرحمة، والإعانة للضعيف، والتكـافل الاجـتماعي، مـضافاً إلى أنّـه مـوجب للحرمان عن الثواب الجزيل المترتّب على البذل والعطاء في سـبيل الله تـعالىٰ، ولعلّه لأجل ذلك جاء النصّ على كونه شرّاً مبالغة فيه، ودفعاً لكلّ توهّم في قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾، مع كفاية ما تقدّم في نفي الخيريّة على ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

إخبار عن عواقب الحال، وتعليل لكون البخل شرّاً لهم، ببيان ذكر أهمّ العلل الآثار. و«سيطوقون» من الطوق، والسين للتأكيد، والمراد به أنّ ما بخلوا سيتمثّل يوم القيامة كالحمل الثقيل الذي يجعل في عنقهم كالطوق، فيزيد في تعبهم وفزعهم فوق ما يحملونه من الأوزار، فيكون من طوق التكليف (المشقّة)، لا مـن طـوق التقليد، ومنه قول الشاعر:

❊ كلّ امرىءٍ مجاهد بطوقه ❊

وقد ذكر المفسِّرون في بيان ذلك وجوهاً، الظاهر أنّها ترجع إلى أمر واحد

وهو تصوير الحمل الثقيل في يوم القيامة، وهو إمّا أن يكون طوقاً في التكليف، أي تكلّفوا أن يأتوا بمثل ما بخلوا، أو طوقاً على وجه التقليد كالثعبان، وبه روايات، وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «مَن ظلم شبراً من أرض طوّقه الله من سبع أرضين»، وعلى أي حال فالمراد به ما ذكرناه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: وهم لا يعلمون أنَّهم عن قريب يتركون ما بخلوا به وما اكتنزوه لأنفسهم، فيرثه الله تبارك وتعالى الذي له ميراث السماوات والأرض وحده، فلا هم ينتفعون به، ولا هم ينجون من تبعاته وآثامه يوم القيامة، فتبقى الحسرة عليهم، والندامة لهم لا تنفك عنهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

تهديد وتوعيد لهم بأنّه لا يخفى على الله تعالىٰ شيء، وهو يعلم ما يعملون فيجازيهم عليه. وإظهار اسم الجلالة لبيان المهابة وزيادة في التهديد.

قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

بعد أن كان الخطاب عامّاً يشمل اليهود وغيرهم، وبيّن لهم حقيقة الحال في البخيل وما يزعمه في ما يدخره ويبخل به.

ذكر سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية الشريفة مظهراً آخر من مظاهر سوء الظنّ بالله العظيم، والبُعد عنه عزّوجلّ، وهو نسبة الفقر إلى الله تعالىٰ، وهي تُنبئ عن أنّ قائلها لا يعرف الله أصلا ولا يخشاه عزّوجلّ. والقائلون بهذه المقالة هم اليهود بقرينة السياق في تعداد مثالبهم وجرائمهم، فهم الذين صدرت عنهم تلك الأقوال البذيئة والأفعال الشنيعة، والسبب في صدور هذا القول منهم متعدِّد؛ فإمّا أن يكون

تهكّماً بالقرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً**﴾[1]، أو استهانة بفقراء المؤمنين وتعريضاً بفقرهم وفاقتهم، أو استهزاءاً بالإيمان وأهله، فإنّهم عُرفوا بالاستهزاء والوقاحة، والجرأة على الله تعالىٰ والحقّ. ولا يقدح أن يجتمع جميع تلك الأسباب فيهم، كما يأتي في البحث الروائي نقل بعض الروايات.

وإنّما ذكر عزّوجلّ السماع دون غيره لبيان شناعة القول، وفيه التوعيد والتهديد لقائله، فهو سماع علم وتهديد وإثبات للعذاب الأليم لهم، لا سماع قبول ورضا.

وأمّا وجه القسم، فهو تأكيد لشناعة قولهم وصدوره عنهم، فإنّهم بمقالتهم هذه كأنّهم ينكرون السمع لله تعالىٰ، أو ينكرون المقال أصلاً، فأكّده عزّوجلّ بالتأكيد القسمي على السماع، وترتّب الجزاء على ما سمع.

قوله تعالىٰ: ﴿**سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمْ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾.

تأكيد آخر. أي نحفظ ما قالوا ونثبته في صحائف أعمالهم لوصول جزائهم إليهم، كما أثبتنا قتلهم الأنبياء بغير حقّ، علماً منهم بأنّهم أنبياء، وظلماً وعدواناً عليهم.

وإنّما قرن بين قولهم وفعلهم لتثبيت شناعتهما من كلّ جهة، ولبيان فساد كلّ واحدة منهما، والمراد بالكتابة هو الحفظ لأجل الجزاء عليه، والسين للتأكيد، والخطاب يدلّ على عظم ما قالوه.

وفي نسبة القتل إلى الحاضرين منهم، إمّا لأجل رضائهم بفعل السلف، أو لأنّ الأُمّة تستوي في التكافل الاجتماعي، وأنّهم على حدٍّ سواء في الأُمور العامّة

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

التي لابدّ من الإلتزام بها ومراعاتها، والاعتراض على مَن أنكرها، ومن تلك الأُمور الانكار على فاعل المنكر من أفراد تلك الأُمّة، وإلّا كانوا متساوين في الجريمة واستحقاق العذاب، وقد تقدم في سورة البقرة ما يتعلّق بذلك أيضاً فراجع، وفي الحديث عن الصادق عليه السلام: «أنّ بين القائلين إنّ الله عهد إلينا ـ وهم الذين قالوا: إنّ الله فقير ونحن أغنياء ـ وبين القاتلين للأنبياء خمسمائة عام، فألزمهم الله القتل برضاهم بما فعلوا».

أقول: لعلّ التقدير بالخمسمائة من باب المثال للكثرة.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾.

الذوق معروف، وهو ما يكون باللّسان لمعرفة طعم الطعام، وأصله في ما يقلّ تناوله دون ما يكثر، ثمّ اتّسع استعماله لإدراك سائر المحسوسات والحالات، يقال: ذاق الأمرّين إذا وقع في الشدائد، وكابد أحوالها، وقاسى آلامها. وقال بعضهم: إنّ كلمة (ذق) تستعمل لمَن آيسٌ عن العفو، وهي تؤذن بأنّ ما هم فيه من العذاب والهوان يعقبه ما هو أشدّ من ذلك وأدهى.

والحريق إمّا بمعنى المحرق، فتكون إضافة العذاب إليه بيانيّة، أو تكون الإضافة للسبب لتنزيله منزلة الفاعل فيقال: عذاب الحريق النار أو اللّهب.

والانتقام بهذا القول، لبيان أنّ العذاب قد تحقّق ووجد، ولا يمكن الخلاص منه، وهو ينبئ عن كمال الغضب.

وفي الآية الشريفة وجوه تدلّ على المبالغة في الوعيد، والشدّة في العذاب، فقد ذكر فيها القول، والعذاب، والحريق والذوق.

قوله تعالىٰ: ﴿**ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾.

الاسم (ذلك) إشارة إلى العذاب الذي نزل منزلة المحسوس المشاهد،

لتحقّقه ولتهويل الأمر وتعظيم شأنه في الفظاظة. والباء للسببيّة.

والمراد بالأيدي: الأنفس والأشخاص، وإنّما ذكرت لأنّها آلة للتقديم غالباً، ولبيان أنّ ذلك ممّا جنته أيديكم، وأنتم تتحمّلون مسؤوليّته، فتفيد النسبة إلى يد الفاعل إلصاق العمل بعامله، وتمام مسؤوليّته عليه ما لا يفيد غيرها ذلك.

والمعنىٰ: أنّ ذلك العذاب إنّما هو بسبب ما قدّمتم من العمل، وهو الجزاء المختصّ بهذه النفوس الآثمة الوقحة على الله تعالىٰ ورسله.

قوله تعالىٰ: **﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾**.

تعليل لجميع ما تقدّم، أي أنّ ذلك العذاب والكتابة والحفظ، لأجل أنّ الله تعالىٰ ليس بظلّامٍ للعبيد، ويستفاد منه أنّه لو لم يكن ذلك الحفظ والجزاء، لكان إهمالاً لقانون الجزاء المبني عليه النظام الأحسن، ونفي الظلم الكثير حسب تعدّد الأعمال والجزاء فيكون ظلّاماً، كما أنّ نفي الظلم عنه عزّوجلّ يستلزم إثبات العدل فيه، فهو عدل في حكمه وفعله وجزائه وعذابه.

وهيئة «ظلام» تأتي إمّا للنسب كعطّار، أو للمبالغة، وكلاهما صحيح في المقام، أمّا الأوّل أي لا ينسب إليه ظلم أصلاً، لأنّ مَن كان على نهاية الكمال والعظمة، وكانت كلّ صفة فيه في أعلى مراتب الكمال، لا يعقل الظلم بالنسبة إليه، لأنّ الظلم يستلزم النقص، والمفروض انتفاؤه فيه جلّ شأنه، فلو كان سبحانه وتعالىٰ ظالماً كان ظلّاماً.

وأمّا الثاني فلأنّ المنفي عنه الظلم الكثير، فإذا ترك الظلم الكثير مع زيادة نفعه في حقّ من يجوز عليه النفع والضرّ، كان لقليله مع قلّة نفعه أكثر تركاً وأشدّ امتناعاً. وتقدّم آنفاً أنّه يمكن أن يكون التكثير والمبالغة لأجل تعدّد الأعمال والجزاء.

ومن ذلك يعلم أنّه لا وجه للإشكال بأنّ نفي الظلم أبلغ من نفي الأكثريّة، لأنّ الأخير لا ينفي أصله، بل ربّما يشعر بوجوده. وأنت بعد الإحاطة بما ذكرناه تعلم الجواب عنه، فإنّ التعبير بالكثرة لبيان أنّ ساحته تبارك وتعالىٰ منزّهة عن أي ظلم، وأنّه بلغت نزاهته إلى حدّ الكمال، ولشدّة كماله وتماميّته، كان الظلم القليل يعدّ بالنسبة إليه ظلماً كثيراً، فيصير ظلّاماً، فكماله المطلق يوجب عدم ثبوته له مطلقاً.

قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ**﴾.

الجملة في موضع خفض بدلاً من (الذين) في الآية الكريمة المتقدِّمة، أو نعتاً له. والمراد بالعهد هو الأمر والتوصية.

والآية شريفة تبيّن زعماً آخر من مزاعم اليهود الفاسدة، فقد زعموا أنّ رفضهم الإيمان برسول ـ يدّعي برسالة من الله تعالىٰ وهم لا يعترفون برسالته حسب أهوائهم ـ كان بوصية من الله تعالىٰ وإطاعة لأمره عزّوجلّ.

وإنّما قالوا: «لرسول» مداهنة ومغالطة، وإلّا فهم لا يعترفون برسالة أحد، إلّا مَنْ يعلقون الإيمان به على ما قالوه.

قوله تعالىٰ: ﴿**حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ**﴾.

القربان: فعلان من القربة، وهو يأتي إسماً كالبرهان والسلطان، ومصدراً كالعدوان والخسران، وهو كلّ ما يتقرّب به إلى الله تعالىٰ من نِعَم وغيرها. وأكل النار كناية عن إحراق القربان وإحالته إلى رماد، وكان ذلك معجزة خاصّة تدلّ على صدق المدّعي في دعواه.

ويستفاد من الآية الشريفة وذيلها أنّها كانت شائعة عندهم، وفي بعض الأحاديث أنّها كانت لأنبياء بني إسرائيل، وفي قصّة ابني آدم دلالة على وقوعها،

كما حكى الله تعالىٰ ذلك في سورة المائدة آية ٢٧.

وذكر بعض المفسِّرين أنّ إحراق القربان كان بفعل أنفسهم وبأيديهم، ولم يكن معجزة خارقة للعادة، واستشهد ببعض الفقرات من الفصل الأوّل من سفر اللّاويين. ولكن ما ذكره مخالف لظاهر الآية الشريفة، بل صريحها في أنّ إحراق القربان كان بسبب غيبي، فهي معجزة دالّة على صدق مدّعي الرسالة، واستشهاده بالتوراة الرائجة غريب جدّاً، فإنّها مضافاً إلى معلوميّة تحريفها بحيث لا يبقى مجال للاستشهاد بها، معارض بما دلّ على نزول النار من السماء. وقد كفانا مؤونة الردّ عليه شيخنا البلاغي ﷺ، فراجع.

وكيف كان، فهي معجزة خارقة للعادة، وهؤلاء زعموا أنّ إيمانهم بالرسول ﷺ متوقّف على مجيء النار لتأكل القربان الذي يقدِّمونه، وما دام الرسول لم يأتهم بذلك، فهم لا يؤمنون به إطاعةً لأمر الله تعالىٰ لهم، فيكون طلبهم لهذه المعجزة على سبيل التعنّت لا الاسترشاد، ولذا جاء الردّ عليهم بالتكذيب.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾.

تكذيب لهم في دعواهم على الله تعالىٰ، وإلزام لهم بالإيمان. أي قل لهم يا رسول الله: قد جاءكم رسلٌ من الله تعالىٰ قبلي، وجاءكم بالبيِّنات الواضحات الدالّة على صدق دعواهم وحقيّة رسالتهم، خصوصاً ذلك الذي قلتم، وهو القربان الذي تأكله النار.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾.

أي: أنّكم لم تكتفوا بالعصيان وعدم الإيمان بهم، بل تجرأتم عليهم فقتلتموهم، وهو يدلّ على خبثهم وجرأتهم على الحقّ وأهله.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

زيادة تقريع لهم بأنّهم كاذبون في ما زعموه وما نسبوه إلى الله تعالىٰ، فكلّ ما ذكروه هو من مفتعلاتهم التي أرادوا منها الإعراض عن الإيمان، مع أنّه قد أمرهم أنبياؤهم بالإيمان بالرسول الكريم ﷺ.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

تسلية للرسول الكريم ﷺ في تكذيبهم له، أي فإن كذّبوك يا رسول الله مع ما جئت به من الحجج الباهرة والمعجزات الكثيرة، فقد كذّبوا رُسلاً من قبلك جاءوا بمثل ما جئت به، فلا تحزن لكفرهم، فإنّهم أبوا إلّا على العصيان، ولا تعجب من فساد أمرهم.

قوله تعالىٰ: ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

البيّنات: هي الحجج الباهرات والمعجزات الواضحات، والزبر جمع زبور، وقد ذكر لمادّة (زبر) معان متعدّدة، ولكن يمكن جعلها من متّحد المعنى ـ وما ذكروه إنّما هو من ذكر المصاديق لا الاختلاف في أصل المعنى ـ وهو القطع والفصل، يقال: زبرت أي: كتبت، لأنّ الكتابة تستلزم تقطيع الحروف والكلمات، ومنه زبر الحديد، أي: قِطَعِها وأجزائها، ومنه أيضاً: زبرت الرجل، أي: انتهرته، وهو يستلزم قطعه عمّا زبر عنه.

والمراد بها تلك الكتب التي تشمل على الحِكَم والمواعظ التي تزجر الإنسان عن المعاصي وتمنعه عن ارتكاب الآثام.

والكتاب المنير أي: المضيء بشرايعه ومعارفه وأحكامه، والمراد به جنس الكتاب، وهو الكتب المنزّلة من السماء لإنارة الطريق، وهداية الناس إلى الصراط المستقيم،، وإنّما جمع بين الزبر والكتاب وهما بمعنى واحد، لاختلاف أصلهما والآثار المترتّبة عليهما.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

خيراً في قوله تعالىٰ: ﴿**هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ**﴾ مفعول ثان ليحسبن، والمفعول الأوّل هو البخل المدلول بقوله تعالىٰ ﴿**يَبْخَلُونَ**﴾، أو الذي بخلوا به ممّا آتاهم الله. و«هو» ضمير فصل والفاعل (الذين)، هذا بناءً على القراءة المشهورة «لا يحسبن» بالياء، وأمّا مَن قرأ بالتاء، فالفاعل هو المخاطب، إمّا النبيّ ﷺ، أو مَن يستحقّ الخطاب، و(الذين) مفعول أوّل على تقدير حذف مضاف وإقامة (الذين) مقامه، وهو فاصلة، وخيراً مفعول ثان.

والالتفات في قوله تعالىٰ: ﴿**وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ إلى الخطاب للمبالغة في التهديد، لأنّ تهديد العظيم بالمواجهة أشدّ، وقرئ «بما يعملون» بالياء على الغيبة. وإنّما قال تعالىٰ: ﴿**سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا**﴾ دون (كتبنا ما قالوا)، لأنّ الكتابة في الماضي ربّما تحتمل العفو، فكان الخطاب الأوّل أبلغ في الوعيد.

ونظير قوله تعالىٰ: ﴿**جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾، قوله عزّوجلّ: ﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾[1]، ولكن الفرق بينهما من جهتين:

الأولى: أنّه جعل لفظ الماضي مبنيّاً للمجهول في الشرط مقام لفظ المستقبل في آية آل عمران، قال تعالىٰ: ﴿**فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**﴾، بخلاف الآية الشريفة الواردة في سورة فاطر، فإنّ الشرط فيها بلفظ المستقبل، والفاعل

---

١. سورة فاطر: الآية ٢٥.

مذكور مع الفعل.

الثانية: أنّ الآية المباركة في سورة آل عمران قد ذكر فيها (باء) واحدة **﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾**، إلّا في قراءة ابن عامر، والآية الشريفة الواردة في سورة فاطر قد ذكر فيها باءات ثلاثة **﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾**، ولعلّ الوجه في ذلك أنّه قد ذكر فيها الشرط بلفظ المستقبل، وذكر الفاعل أيضاً، فاقتضى ذكر الباءات الثلاثة لبيان أنّ كلّ رسول كان من الرُّسل كان له واحداً من الثلاثة، والآية الشريفة الواردة في سورة آل عمران كان الأمر فيها بيان أنّ الرُّسل كان من شأنّهم إقامة الحجّة على أقوالهم، وإعطاء المواعظ الزاجرة، وإنارة الطريق بالكتب بمعارفها الفاخرة.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ﴾** على ذمّ البخل، وأنّه من رذائل الأخلاق، بل من مهلكاتها، فهو يجلب الشرّ والشقاء للفرد البخيل، ويضرّ الاجتماع، وهو مانع عن الخير والسعادة الفرديّة والاجتماعيّة، ويكفي في بُعد صاحب هذه الرذيلة عن الكمال، أنّ الله تعالىٰ أوعد على مَنْ يبخل من ما تفضّل الله تبارك وتعالىٰ عليه، بأن يجعله في شدّة وعذاب، وسيتمثّل ذلك له حملاً ثقيلاً يكون كالطوق في عنقه، مضافاً إلى الفزع الأكبر الذي هو فيه، وقد ترك ما ادّخره وما بخل به فلم يأخذ منه شيئاً، ويرثه الله تعالىٰ الذي له ميراث السماوات والأرض، فكان ذلك وبالاً عليه لم ينتفع به لا في الدُّنيا ولا في الآخرة.

والبخل.. **تارةً**: يكون عن عدم إعطاء الحقوق الواجبة على الإنسان ـ كالزكاة والخمس ـ وغيرهما.

وأُخرى: يكون عن عدم الإنفاق في الجهات الراجحة غير الواجبة.

وثالثة: يكون عن عدم الإنفاق في الأُمور المباحة غير المرجوحة شرعاً.

وإطلاق الآية الكريمة يشمل الجميع، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام في هذه الرذيلة الخُلقيّة إن شاء الله تعالىٰ.

الثاني: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ علىٰ تجسّم الأعمال، وقد دلّت عليه الأدلّة العقليّة والنقليّة كما عرفت. ولم يبيّن سبحانه الطوق الذي يتمثّل لهم يوم القيامة في هذه الآية الشريفة لتهويل الأمر، ولاختلافه باختلاف درجات البخل وكمّية ما بخل به وسائر خصوصيّاته، وقد ورد في بعض الأحاديث: «يطوق ما له شجاعاً أقرع»، ولعلّه في مقام بيان أحد المصاديق.

الثالث: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ أنّ كلّ ما يعطاه الإنسان من مال وجاه وقوّة وفضل وعلم، بل كلّ ما في الأرض والسماوات عرض زائل لا يبقى وصاحبه يفنى، ولا وجه للبخل به واستبقاء ما هو فان وزائل، وعليه أن يقرضه إلى مَن يبقى ملكه ويدوم، وأن يبذله في المواضع اللائقة له، وما أمره الله تعالىٰ به، وما هو مطلوب منه، وبذلك قد أدرك رضا الله تعالىٰ فيكون محسناً، والله يحبّ المحسنين.

الرابع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ**﴾ على أنّ القائلين بهذه المقالة قد اجتمع فيهم من صفات السوء وخصال

الشرّ ما لم تجتمع في غيرهم، من سوء أدب مع الله تعالىٰ والجرأة عليه، وتكذيب الرُّسل والبخل وقتل الأنبياء، ومعاندة الحق.

والآية الشريفة تعدّد تلك الخصال وتبيِّن جرائمهم وتندّد بها وتوعد عليها، وتقلّل من شأن المتّصفين بها في نفوس المؤمنين.

الخامس: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**وَقَتْلَهُمُ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقّ**﴾ أنّ الرضا بالمعصية معصية، فمَن رضي بقتل الأنبياء بغير حقّ من متأخّري اليهود، يكون مع المتقدِّمين الذين وقع القتل على أيديهم على حدٍّ سواء في المعصية، وهم مشتركون في الجزاء والعذاب الحريق. ويدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿**ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾، فكأنّ تلك الأفعال المنكرة قد حصلت منهم جميعاً مباشرة مع العمد. ويرشدنا الله تعالىٰ في مثل هذه الآيات إلى النظر في أفعال المتقدِّمين والعبرة منها، واستحسان ما استحسنوه، وتقبيح ما فعلوه من القبائح، وإلّا كانوا شركاء معهم في الإثم.

السادس: يمكن أن يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾، أنّ كثرة الظلم إنّما هو من جهة كثرة ما يجزى على المعاصي الصادرة من العبيد، فيكون التعدّد والكثرة بحسب تعدّد المتعلّق، وقد تقدّم في التفسير وجه آخر، فراجع.

ويستفاد منه أنّه لا يمكن أن يُنسب الظلم إليه تعالىٰ، لفرض أنّه الذات المستجمعة لجميع الكمالات الواقعيّة والإدراكيّة، ومسلوبٌ عنه جميع النقائص الواقعيّة والإدراكيّة، والظلم نقص، وأي نقص أشدّ منه، فيمتنع أن ينسب إليه، وإلّا كان خُلفاً. وهذا البرهان يأتي في كلّ النقائص الواقعيّة والإدراكية ولا يختصّ بالظلم فقط.

ومن الآية الشريفة يستفاد بطلان فلسفة اليهود والنصارى، وإشتمالها على أُمور لا تطابق العقل، وفسادها أوضح من أن يخفى، مع أنّ الفلسفة الإسلاميّة قد فتحت عليهم أبواباً من المعارف والحقائق، ولكنّهم أعرضوا عنها، وحرّفوا الكلم عن مواضعه.

السابع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا**﴾ على كمال الحفظ لما فيه من أمن النسيان، وفيه من التوعيد ما لا يكون في غيره. وقد شاع استعمال لفظ الكتابة في التوعيد على الذنب وإرادة العقوبة عليه.

الثامن: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾، أنّ الرُّسل إنّما بعثوا بهذه الأُمور الثلاثة:

البيّنات: و هي الدلائل الواضحات التي تدلّ على صدق دعواهم وإثباتها مقابل كيد الكافرين وأباطيلهم.

والزبر: وهي المواعظ المشتملة على مكارم الأخلاق وفضائلها، وما يكون موجباً لتهذيب النفس وتطهيرها من الرذائل والمفاسد.

والكتاب المنير: المشتمل على أُصول المعارف والأحكام الإلهيّة التي تهدي الإنسان إلى الكمال المنشود والسعادة في الدارين، وهو اسم جنس يشمل جميع الكتب السماويّة كما تقدّم.

وإنّما ذكرها عزّوجلّ لبيان شدّة التنكير وقبح العمل، فإنّ الذين كذّبوا الرُّسل إنّما حرموا أنفسهم من السعادة وما هو الصالح، وللإعلام بأنّ جميع المعارف الإلهيّة والأحكام الشرعية والأُصول الإعتقادية لابدّ وأن تنتهي إلى وحي السماء.

***

بحث روائي:

في «الكافي»، عن الصادقين عليهما السلام، في قوله تعالىٰ: ﴿**سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ**

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، قال عليه السلام: «ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلّا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتّى يفرغ من الحساب، وهو قول الله عزّوجلّ سيطوقون ـ الآية ـ».

وفي «تفسير العيّاشي» في قوله تعالىٰ: **﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما من ذي مال نخل ولا زرع ولا كَرْمٍ يمنع زكاة ماله إلّا قلدت أرضه في سبع أرضين، يطوّق بها إلى يوم القيامة».

أقول: الأحاديث في مضمون ذلك كثيرة مرويّة في كتب الفريقين، وقد ذكرنا أنّها من باب المثال لكلّ ثقل يطوّق به في عنق الذي بخل بما تفضّل الله عليه، وذكر الزكاة والمال إنّما هو من ذكر أهمّ المصاديق، وإلّا فالآية المباركة عامّة تشمل مطلق ما تفضّل الله تعالىٰ على الإنسان، ولا بعد في تقليد الأرض في عنق مانع الحقّ، لأنّ تقليل الكثير وتكثير القليل واقعان تحت قدرته، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وفي «الدرّ المنثور»: أخرج ابن المنذر وابن جرير عن قتادة، في قوله تعالىٰ: **﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾**، قال: «ذكر أنّها نزلت في حُيّي بن أخطب لمّا نزل: **﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾**، قال: يستقرضنا ربّنا إنّما يستقرض الفقير الغنيّ».

أقول: الروايات في مضمون ذلك كثيرة، وفي بعضها أنّ الذي قال ذلك رجل من اليهود، ويُقال له فنحاص وكان من علمائهم، وفي آخر أنّ الذي قاله هم اليهود لما أتت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي «تفسير العيّاشي» في قولى تعالىٰ: **﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾**، قال: «والله ما رأوا الله حتّى يعلمون أنّه فقير، ولكنّهم رأوا

أولياء الله فقراء، فقالوا: لو كان غنيّاً لأغنى أولياءه، وفخروا على الله بالغنىٰ».

أقول: مثله ما رواه القمّي في «تفسيره»، ويستفاد منه أنّ الأسباب لهذه المقالة متعدِّدة، ومقصود اليهود من ذلك معروف، وهو تطميع المؤمنين بالمال، والإيحاء إليهم بأنّهم هم الأغنياء والمال عندهم فقط، فلا ينفعهم الإيمان، ويدلّ على ما ذكرناه ما رود في «المناقب» عن الباقر عليه السلام قال:

«هم الذين يزعمون أنّ الإمام يحتاج إلى ما يحملونه إليه».

فلو كان الإمام ـ الذي هو من باب المثال ـ يحتاج إلى مال اليهود فكيف بالمؤمنين، وهذا هو أُسلوب من الأساليب الخبيثة التي اتّبعها اليهود عبر التاريخ لصدّ الناس عن الإيمان بالرُّسل والأنبياء. وقد أبطل سبحانه وتعالىٰ مزاعمهم بأحسن وجه وأبلغ أُسلوب، وكلّ ذلك يدلّ على عدم فهمهم للكنايات ولوازم الكلمات.

في «تفسير القمّي» في قوله تعالى: **﴿أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾**، قال: «كان عند بني إسرائيل طست كانوا يقرِّبون القربان فيضعونه في الطست، فتجيء نار فتقع فيه فتحرقه، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: لن نؤمن لك حتّى تأتينا بقربان تأكله النار كما كان لبني إسرائيل، فقال الله تعالىٰ: قُلْ ـ لهم يا محمّد ـ **﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**».

أقول: الوارد في جملة من كتب التواريخ أنّ محلّ قبول القربان كان في بيت المقدس، ولعلّ ذكر الطست مثال لذلك المحل الخاص.

وفي «الكافي» في قوله تعالىٰ: **﴿وَقَتْلَهُمُ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾** عن الصادق عليه السلام: «أما والله ما قتلوهم بأسيافهم، ولكن أذاعوا أمرهم وأفشوا عليهم فقتلوا».

أقول: إذاعة أسرار أنبياء الله تعالى أسرع في التسبّب إلى قتلهم من المباشرة في القتل، ولعلّ ذلك هو السرّ في بيان الإمام عليه السلام له.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالىٰ: **﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**

﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ قال أبو جعفر عليه السلام: «الزبر هو كتب الأنبياء، والكتاب المنير الحلال والحرام».

أقول: يمكن أن يكون ذلك بياناً لبعض المصاديق، فلا ينافي ما تقدّم في التفسير.

***

بحث فقهي:

الآية الشريفة **﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ـ الآية ـ﴾** تدلّ على حرمة البخل وقبح جمع المال وإدّخاره، ولكن المستفاد من مجموع الأدلّة الواردة في الكتاب والسنّة أنّ جمع المال وادّخاره ينقسم حسب الأحكام الخمسة التكليفيّة:

الأوّل: ما إذا كان واجباً، وهو ما إذا جمعه الإنسان لأن يصرفه في النفقات الواجبة ـ خالقة كانت أو خلقية ـ وهي كثيرة؛ كالإنفاق على الأولاد أو إعطاء الدَّين، وغيرهما ممّا ذكر في الكتب الفقهيّة.

الثاني: ما إذا كان مندوباً، وهو الجمع للصرف في الخيرات والمبرّات الراجحة شرعاً.

الثالث: ما إذا كان مكروهاً، وهو الجمع والادّخار للإنفاق في الأغراض المرجوحة شرعاً غير البالغة حدّ الحرمة، كجملة من الإنفاقات التي تنفق لأجل التفاخر بين الناس والمراءاة معهم.

الرابع: ما إذا كان محرّماً، وهو الجمع للصرف في الأغراض المحرّمة شرعاً.

الخامس: ما إذا كان مباحاً، وهو ما إذا لم يترتّب عليه أيّة جهة راجحة أو مرجوحة، لو لم نقل بأنّ جمع المال من حيث هو مرجوح شرعاً، كما يستفاد من جملة من الأخبار، كقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدُّنيا جيفة وطلّابها كلاب»، وقول

مولانا الصادقعليه السلام: «و الله ما تناولت من دنياكم إلّا ما اضطررت إليها»، إلىٰ غير ذلك ممّا رُوي عن المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

***

بحث عرفاني:

جمع المال بلا شوق ومحبّة إليه غير ممكن، لما ثبت في محلّه أنّ كلّ فعل معلول الشوق والمحبّة، وبدونهما يكون المعلول بلا علّة وهو باطل بـالضرورة، ولاريب في أنّه ينافي محبّة الله تعالىٰ والشوق إليه، وهو من أهمّ الموانع التي تصدّ الإنسان عن ذكر الله تعالى، والقيام بوظائفه الشرعيّة، وهو من العوائق التي تعيق عن الإستكمال والتخلّق بأخلاق الله عزّوجلّ، اللّهُمَّ إلّا أن يكون الجمع لأجـل الإنفاق في ما يرتضيه الله تعالىٰ، فيرجع إلى حبّ الله تعالىٰ.

ومن ذلك يظهر السرّ في ما ورد في القرآن الكريم من الإنفاق في سبيل الله تعالىٰ، فإنّه الطريق الأمثل للوصول إلى أعلى المقامات، والتنزّه عن جملة مـن الرذائل، كرذيلة الشحّ والبخل ونحوهما.

ولكن، مع ذلك جمع المال بنفسه من المبعدات عن حظيرة القدس وساحة الرحمان، ولعلّ السرّ في كثرة تنزّه الأنبياءعليهم السلام والأولياء عن الدُّنيا هو ذلك.

***

الآية ١٨٥ ـ ١٨٩

﴿كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

رجوع إلى استنهاض الناس إلى الجهاد في سبيل الله تعالىٰ، والصبر والمثابرة في ميدان القتال، وأنّ المعركة مع أعداء الله تعالىٰ حتميّة لابدّ منها، وإثبات كلمة التوحيد ممّا لا يمكن التخلّي عنه، والموت الذي يصيب كلّ ذي حياة لا يمكن الفرار منه، فلابدّ أن لا يخاف منه ولا يكون حائلاً عن تطبيق ذلك الهدف الأسمىٰ، والله جلّت عظمته يوفي الأجور في يوم يحتاج إليها الإنسان، وليست الدُّنيا محلّها، فإنّها المتاع الذي يستمتع به الإنسان في أيّام قلائل ثمّ يزول عنها، فهذه الآيات الشريفة تحرّض المؤمنين إلى الجهاد بأبلغ اُسلوب.

ثمّ ذكر سبحانه وتعالىٰ أنّ السنّة في هذه الحياة الفانية هي التمحيص والتمييز والابتلاء، ولا يمكن لأحد التخطّي عن هذا الامتحان الإلهي، وهي سنّة حتميّة لا يمكن الفوز بالسعادة في الدُّنيا والآخرة، ونيل الأجر الحقيقي والعبوديّة الكاملة، إلّا مع العبور على هذه القنطرة، والدخول في تلك السنّة الربانيّة.

وقد ذكر عزّوجلّ من الابتلاء ما يناله المؤمنون من أعداء الله تعالىٰ من الأذى قولاً والعدوان فعلاً، ثمّ وعدهم الحُسنى إن هم صبروا واتّقوا، وهما من عزائم الأُمور التي يحتاج إليها كلّ فرد في مواجهة المشاكل والمكائد.

وأخيراً بيَّن سبحانه وتعالىٰ مفاسد أخلاق أهل الكتاب الذين أمرهم الله جلّت عظمته ببيان الحقّ وأخذ عليه الميثاق منهم، ولكنّهم خالفوه وعاندوه فكتموه وحرّفوه، وأوعدهم النار وسوء العذاب.

كما بيَّن سبحانه وتعالى أنّ ما سواه عزّوجلّ هو ملك له يتصرّف فيه بما يريد جلّت عظمته وبما يشاء، وهو على كلّ شيء قدير، لا يمنعه عن إرادته أحد.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾**.

قضيّة حقيقيّة طبيعيّة وجدانيّة، فإنّ بناء هذا العالم على تجدّد الأمثال وتبدّل الأحوال، وأنّ دار الدُّنيا دار الكون والفساد، ومقتضى ذلك أنّ التبدّل والموت والفناء من مقوّمات حقيقة هذا العالم، ولذا بدأ بالحكم العام المقضي له في حقّ كلّ ذي حياة، ولا يستثنى من ذلك أحد، فأصل القضيّة وجداني لكلّ ذي حياة.

نعم، عامّة الناس محرومون عن ترتيب الأثر على هذا الأمر الوجداني، قال تعالىٰ: **﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾**[1]، وفي الحديث:

---

١. سورة الأنبياء: الآية ١.

«الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا».

والآية الشريفة تنبّه الناس إلى المصير المحتوم، وتزجرهم عن ما هم عليه من الغفلة والذهول، وتحرّض المؤمنين إلى القتال مع أعداء الله تعالىٰ، وتبيّن أنّ هذه المعركة حتمية فلا ينبغي الخوف، لأنّ كلّ نفس ذائقة الموت. فمَن يقعد عن القتال لا ينجو من الموت، فلا عذر في القعود، ثمّ هي توعد الكافرين والمنافقين الذين قعدوا عن القتال، فإنّ الموت لابدّ منه وهو ملاقيهم ولا مفرّ منه، قال تعالىٰ: **﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[١]، وليست الدُّنيا إلّا متاعاً يستمتع به الإنسان ثمّ يزول مهما طال الزمن، فهم لابدّ لهم من الورود على الله عزّوجلّ، الذي يجازيهم على أعمالهم، فالآية المباركة تتضمّن الوعد للمصدّق والوعيد للمكذِّب.

وهي تسلّي النبيّ ﷺ والمؤمنين بأنّ حياة الظالمين منتهيّة لا محالة، وسينتهي ما يلاقونه منهم من البلاء والعذاب، وليس عليكم من أوزارهم شيئاً.

والمراد بالنفس ما به الحياة، وعمومها يشمل كلّ ذي حياة من الإنسان والحيوان والنبات والملائكة، قال تعالىٰ: **﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾**[٢]، والمنساق من الاستثناء خصوص فرد واحد وهو ملك الموت، ولكنّه يموت بعد ذلك بمشيئة إلهيّة، كما هو مفصّل في الحديث.

وقد يقال: إنّ الآية المباركة بعمومها تشمل الباري عزّوجلّ لإطلاق النفس عليه، قال تعالىٰ حكاية عن عيسى بن مريم: **﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي**

---

١. سورة الجمعة: الآية ٨.

٢. سورة الزمر: الآية ٦٨.

نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾[١].

ولكنّه فاسد، لاختصاص لفظ النفس بالأجسام، وأنّ النفس التي تُضاف إليه عزّوجلّ ليست النفس الاصطلاحيّة المعروف، فإنّ مثل هذه النفس لا يعقل ذوق الموت بالنسبة إليها، بل هي بمعنى الذات، وإطلاق النفس عليه جلّت عظمته، لحسن المشاكلة ومراعاة الفصاحة والبلاغة.

وذوق النفس للموت باعتبار انفصال تدبيرات النفس عن البدن، ومفارقة الروح عنه، ولذا عبّر سبحانه وتعالىٰ بالذوق، لأنّه إنّما يكون عن شعور، وهو يختصّ بالنفس، وهي باقية ـ ببقاء الله تعالىٰ ـ إمّا في زمرة السعداء، أو في زمرة الأشقياء، وأمّا البدن فلا شعور ولا إحساس له بعد انفصال الروح عنه بالموت، وإن كان أصل المادّه باقية، وأمّا الصور فهي تتبدّل حسب مرور الدّهور والأيّام إلى أن يحشر في يوم القيامة.

قوله تعالىٰ: **﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾**.

التوفية: العطاء الكامل، يُقال: وافاه أجره، أي أعطاه إيّاه تماماً ولم ينقص منه شيئاً، وفي الحديث: «انّكم وفيتم سبعين اُمّة أنتم خيرها»، أي تمّت العدّة بكم سبعين.

والمعنى: من ذاق الموت يوفّى أجره تامّاً، سعيداً كان أو شقيّاً، لأنّ كلّاً منهما يستحقّ جزاء عمله ويوفّى أجره إليه، فنتائج الأعمال لا تنفكّ عن العامل.

قوله تعالىٰ: **﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾**.

القيامة مصدر، ويوم القيامة هو وقت قيام الناس لربّ العالمين من القبور والأجداث، وإنّما خصّه عزّوجلّ بالذّكر لبيان أنّه مهما نال الإنسان من الأجر، فإنّ

---

١. سورة المائدة: الآية ١١٦.

التوفية إنّما تكون في ذلك الوقت، وللإعلام بأنّ الأُجور فيه هي الأُجور الحقيقيّة التي يستحقّ الإنسان أن يسعى إليها، دون ما يتمتّع في الحياة الدُّنيا، فإنّها ناقصة فانية، فيستوفي الجميع أُجورهم، أمّا الكفّار والمنافقون فيأخذون جزاء أعمالهم وافياً من دون عفو ومغفرة من الله تعالىٰ، وأمّا المؤمنون فإنّهم يستوفون جزاءهم في الأجر الذي يعطيهم الله تعالىٰ كاملاً، وأمّا جزاء السيِّئات فهو في معرض المسامحة والغفران.

قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

تفصيل لتوفية الأجر بعد الإجمال. والزحزحة تكرير الزح، وهو الجذب بعنف وعجلة.

وهذه الآية الشريفة بعبارتها البليغة الموجزة، وأُسلوبها الجذّاب، لها الأثر العظيم في نفوس المؤمنين، والوقع الكبير عليهم، فإنّ عندها تسكب العبرات، وتحلّ المخاطر والمهالك، وتزلّ فيها أقدام الرجال، وتحطّ دون الوصول إليها الرِّحال، ويشيب في تصوّر معناها الصغير، ويهرم الكبير، فهي تبيّن هول النار وشدّتها، وأنّها تجذب الإنسان إليها بعنف، فيحتاج إلى الجهد الكبير للابتعاد عنها، والفكّ من قيودها، وتستوقفنا كلمة (زحزح)، فإنّها تدلّ على شدّة البلاء، والجهد الكبير، والمشقّة العظيمة التي لابدّ منها في للابتعاد عن النار، فكأنّ لكلّ فرد جذوراً عميقة في النار، لا يمكن بسهولة قلعها إلّا مع الزحزحة ببذل جهد عظيم. والوجه في ذلك معلوم، لأنّ الإنسان محفوف بما يجذبه إلى النار من جهات، فإنّ جاذبيّة الشهوات والنفس الأمّارة بالسوء، اللّتين تشدّان الناس إلى النار شدّاً. والحُجب الظلمانية التي حجبت النفس عن الكمال، كلّ ذلك تسوق إلى النار وتدفعه إليها، وهي تجذبه إليها جذباً عنيفاً، وفي الحديث «حفّت الجنّة بالمكاره،

وحفّت النار بالشهوات»، فكلّ فرد من أفراد الإنسان فيه الموجبات الكثيرة للدخول في النار، قال تعالىٰ: **﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾**[1]، بناءً علىٰ رجوع الضمير إلى النار.

ولذلك لابدّ من جهاد مرير، ومشقّة عظيمة للابتعاد عن دائرة جذبها، والانفلات من إسارها إلى أن يدخل في الجنّة، فإنّ ذلك هو الفوز العظيم الذي لا نهاية لعظمته، إذ لا أجر في الحقيقة غير ذلك، والبقيّة خسران محض، لأنّ فيه السلامة من النار والنجاة منها، وقد كاد أن يبقى فيها. والسلامة عن المكروه أهمّ ما يطلبه المرء في جميع الأحوال، ناهيك أنّه يدخل الجنّة ويفوز بنعيمها الدائم في دار الخلود.

وليس الدخول في الجنّة قيداً زائداً على الزحزحة عن النار، فإنّه لا واسطة بينهما، فإنّ النجاة من النار ليس إلّا الدخول في الجنّة، كما يستفاد من الآيات الشريفة والسنّة المباركة.

ولكن الآية الكريمة تبيِّن معنى دقيقاً آخر في الخروج من النار، الذي هو مطلوب كلّ فرد والدخول في الجنّة الذي لا برّ فوقه، فإنّ التعبير بالمجهول في كلّ من «زحزح وأُدخل» يوحي بأنّ الإنسان لا يتزحزح من قبل نفسه، بل هناك أيد خفيّة تجذب الإنسان جذباً عنيفاً لتزحزحه عن النار وتُدخله الجنّة، ولولاها لبقي في النار، وهذه الأيدي قد مدّت في دار الدُّنيا لتنقذ عباد الله من المهالك والمخاطر ومن الدخول في النار، وهي كثيرة؛ كأيدي الرسول والأنبياء عليهم السلام، وكتاب الله العظيم، والأحكام الإلهيّة، وأيدي الملائكة الذين وكلوا للاستغفار لمَنْ في الأرض وإعانتهم، وأهمّها يد الله الرحيمة سبحانه وتعالى، التي بسطت على جميع خلقه،

---

١. سورة مريم: الآية ٧١.

والشفاعة العظمى.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

الدُّنيا مؤنّث الأدنى صفة للحياة، وحياة الدُّنيا هي الحياة السفلى أو القربى، وهي الحياة ما قبل الموت التي نعيش فيها ونتمتّع بما فيها من الملذّات، وقد وصفها الله تعالىٰ في القرآن الكريم بأوصاف متعدِّدة، جميعها تدلّ على دناءتها بالنسبة إلى الحياة الآخرة، منها أنّها متاع للغرور؛ لأنّها تغرّ صاحبها فيخدع لها فتشغله عن إعداد نفسه إلى الكمال الواقعي.

والمتاع: ما يتمتّع به الإنسان وينتفع به، والغرور هو الخداع، ومتاع الغرور أي المتاع الذي يظهر بمظهر جميل ليغترّ به المغترون، والآية المباركة تبيّن حقيقة الواقع على ما هو عليه.

والدّنيا تُضاف تارةً إلى الله، وأُخرىٰ تلحظ بحسب نفسها، وثالثة بحسب الأعمال التي تقع فيها.

والأُولىٰ: محمودة، لأنّه لا يصدر من الخير المحض إلّا الخير كما هو معلوم، وهذه قاعدة فلسفيّة أسّسها الفلاسفة جميعهم ـ الطبيعيّون منهم والإلٰهيّون ـ خصوصاً بناءً على ملاحظة السنخيّة بين العلّة والمعلول، ولكنّا أثبتنا بطلان ذاك بالنسبة إلى الفاعل المختار في أحد مباحثنا المتقدّمة.

وأمّا الثانية: فهي أيضاً حسنة لا نقص فيها، لأنّها دار عبادة الله تعالىٰ، ومحلّ أوليائه وأنبيائه، ومهبط نزول الكتب الإلهيّة، ومقام إظهار مكارم الأخلاق وتربية الإنسان، وإعداد المؤمن نفسه للكمال الذي لا يكون شيء أعزّ منه في الدارين.

وأمّا الثالثة: فإنّ الأعمال تارةً تكون من المؤمنين السعداء، وهي حسنة وتعدّ من مفاخر الدُّنيا والآخرة، وأمّا من الأشقياء فلا شبهة في مبغوضيّة أعمالهم

السيِّئة، والدُّنيا من حيث الإضافة إليها مبغوضة أيضاً.

وبتعبير آخر: الدُّنيا من هذه الجهة إمّا أن تكون من النعيم الأُخروي يظهر في الدُّنيا بالوجود المناسب لها، وإمّا من الجحيم، ومن هذه الجهة تكون متاع الغرور. وبذلك يمكن الجمع بين ما ورد في مدح الدُّنيا وما ورد في ذمّها.

وكيف كان، فإنّه يستفاد من الحصر الوارد في الآية الشريفة **﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾** أنّ كلّ فعل وعمل في هذه الدّنيا، سواء صدر من الأخيار أو من الفسّاق الفجّار، فإنّه لا محالة محدود لا بقاء له، هذا إذا جعلنا عمل الخير من متاع الدُّنيا، وأمّا إذا جعلنا من الآخرة في الدّنيا ـ كما تقدّم آنفاً ـ فالحصر مختصّ بعمل الشرّ، فالآية المباركة تبيِّن أنّ الدّنيا لابدّ أن لا تغرّ الإنسان بمظاهرها الخلّابة، فتمنعه عن ذكر الله تعالىٰ، والإيمان به والعمل الصالح وتكميل نفسه بمكارم الأخلاق، ولا يصحّ أن يجعل متاع الدُّنيا غاية تمنعه عن الكمال، كأنّه لا نهاية له، بل هي وسيلة لطلب السعادة وزيادة الأجر، لأنّ الأجر الحقيقي هو ما ذكره عزّوجلّ من الزحزحة عن النار والدخول في الجنّة، فلا سعادة وراء ذلك، ولابدّ من السعي إليها، كما أنّ الأجر الحقيقي ليس هو أيّاماً في هذه الدُّنيا يستمتع فيها ثمّ يزول فيردّ علىٰ عذاب أبدي لا خلاص منه، وذلك هو الخسران المبين.

قوله تعالىٰ: **﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾**.

بعدما ذكر عزّوجلّ جريان سنّة البلاء والابتلاء في المؤمنين، وما يوجب الوهن في عزيمتهم، يبيّن سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية الكريمة أنّ ذلك الابتلاء مستمرّ، وسيتكرّر من الكافرين والمنافقين، وسيلقون منهم الأذى بكلّ ما يمكنهم، وإنّما أعلمهم عزّوجلّ به قبل وقوعه ليوطّنوا أنفسهم على احتماله، فتستعدّ نفوسهم ويتقبّلوا الابتلاء بصبر وعزيمة ورضى، فلا يحزنوا على ما يفوتهم من متاع الدّنيا،

فيكون ترتّب هذه الآية الشريفة على سابقتها، من قبيل ترتّب المعلول على العلّة، أو المقتضى (بالفتح) على المقتضي (بالكسر)، لأنّ من لوازم متاع الغرور الابتلاء بالنسبة إلى مَن هو مؤمن وليس من أهل الاغترار، فلابدّ من التمييز وإظهار الثابت على الحقّ والمطيع عن غيرهما، بل يمكن أن يعدّ وجوه مَن يهتمّ بإصلاح نفسه ويطلب وجه الله تعالىٰ والآخرة في دار الغرور ابتلاءً، وفي الحديث: «أنّ أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل»، وعلىٰ هذا يكون ما ورد في هذه الآية الشريفة من قبيل القضايا الحقيقيّة.

وكيف كان، ففي الآية المباركة التسلية للنبي ﷺ والمؤمنين بعد التسلية بقوله تعالىٰ: ﴿**كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾.

والبلاء والابتلاء بمعنى واحد، وهو الاختبار بما يصعب تحمّله أو فعله، ويأتي في الخير والشرّ، قال تعالىٰ: ﴿**وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُون**﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿**فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**﴾[3]، والابتلاء في الأموال والأنفس هو الوقوع في تكاليف خاصّة حسب المصالح.

ومثال الأوّل: هو التكاليف الآمرة ببذل الأموال في الصدقات وقضاء الحوائج، وما يتطلّبه الدعوة على المؤمن من بذل المال، وما يفقد في أثناء

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٦٨.

٢. سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

٣. سورة الفجر: الآية ١٥ـ١٦.

الحروب والقتال.

والثاني: مثل التكليف ببذل النفس ومَن يحبّ من الأهل والأولاد في سبيل الله تعالىٰ، ويدخل فيه التسليم للأمراض والآفات.

وإنّما قدم عزّوجلّ الأموال، إمّا لأنّ الابتلاء فيها أكثر من الأنفس، أو لأجل أنّ تحمّل الرزايا فيها أصعب وأشدّ، وفي الحديث عن عليّ عليه السلام: «ينام الإنسان على الثكل ولا ينام على الحرب»، أو على سبيل الترقّي إلى الأشرف.

ويدخل في النفس الرزايا في الأولاد والأهل، ومَن يحبّه الإنسان من الأصدقاء.

والتأكيد بالقَسَم المحذوف «لتبلون»، للإعلام بأنّ ذلك سنّة حتميّة لا مفرّ منها، وقد تقدّم ما يدلّ على ذلك في الآيات السابقة.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً﴾**.

ابتلاء آخر بالأقوال بعد الابتلاء بالأفعال، وقد ذكره بالخصوص لأهمّيته، وبيان أنّ الابتلاء بالعدوان صادر من طائفة خاصّة، وهم الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم ـ اليهود والنصارى ـ ومن الذين أشركوا.

والأذى: إسم جمع يأتي بمعنى الضرر والعدوان، ومنه الحديث «أدنى الصدقة إماطة الأذى عن الطريق»، وهو ما يؤذي فيها كالشوك والحجر والنجاسة وغيرها، وعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «كلّ مؤذٍ في النار»، وهو وعيد لمَن يؤذي الناس في الدُّنيا بعقوبة النار في الآخرة.

وما ورد في الآية الشريفة من القضايا الفطرية، فإنّ مَن ذكر فيها هم الأعداء للحقّ والمؤمنين، وما يلاقيه كلّ فرد من عدوّه من الأذىٰ معلوم.

وإنّما ذكر عزّوجلّ ﴿مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ تعريضاً بهم بأنّ مَن أُوتي الكتاب لا ينبغي أن يصدر منه ذلك، فإنّه لابدّ أن يكون زاجراً له، ويؤكّد ذلك ذكر «من قبلكم»، وأمّا ما صدر منهم من الأذى بحقّ الرسول الكريم ﷺ والدِّين الحقّ والمؤمنين، فهو معلوم ولا يزال يصدر ذلك منهم على مرّ العصور.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾.

بيان لأهمّ ما ينتظم به نظام الدِّين والدُّنيا، وهو الصبر على الشدائد والأهوال، و ما يرد عليهم من المكاره والآفات في الأنفس والأموال، ولو كانت من ناحية التكاليف والمقادير الإلهيّة.

والتقوى لله تعالىٰ بالطاعة له عزّوجلّ، وباجتناب نواهيه، وما يوجب سخطه، وبهما تستعدّ النفوس لتلقّي الأهوال والأذى الكثير، والعصمة من الوهن والفشل. كما أنّ بهما تنال الدرجات العالية والثواب العظيم، فلو تجسّم الصبر لكان في أحسن مثال وأتمّ حال، كما أنّه لو تجسّمت التقوى في الدُّنيا لكانت في أفضل نعيم الآخرة. وإنّما قرن عزّوجلّ بين الصبر والتقوى لما ذكرناه، ولبيان أنّ العمل لابدّ وأن ينبعث عن القلب فيكون من عزم الأُمور.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

عزم مصدر بمعنى المعزوم، يقال: عزم الأمر بالنصب على المفعوليّة، وقيل: عزمت على الأمر أيضاً. وهو يرجع إلى عقد القلب، والجزم في العمل لما فيه من كمال الشرف والمزيّة. وعزائم الأُمور: محكماتها ومتقناتها التي لا تصدر إلّا من ذوي الألباب، الذين وصفهم الله تعالىٰ بأحسن أوصاف. وفي الحديث: «خير الأُمور عوازمها»، وصاحب العزم هو الثابت في الإرادة والكمال والفضيلة، قد اتّصف بالفضل والكمال بحيث نال آخر مقامات الإنسانيّة الكاملة، ولو عبّر عنه

بآخر مقام الوفاء بالعهد وأوّل مرتبة التفاني في مرضات المعبود لكان حسناً وجديراً، ولذا صار الأنبياء العظام من أُولي العزم.

والمعنىٰ: أنّ الصبر والتقوى لهما من الكمال والمزيّة ما لا يمكن اقتناؤهما بسهولة ويُسر، بل لابدّ من عقد القلب وجزم الإرادة عليهما وبصيرة بهما، فلابدّ من عزيمة لمواجهة كيد الأعداء والمكابرة.

وإنّما أشار سبحانه وتعالىٰ إليهما بالإشارة البعيدة إيذاناً بعلوّ درجتهما وبُعد منزلتهما، كما أنّه عزّوجلّ أتى بالمفرد «ذلك» لبيان أنّهما متلازمان، فلايتحقّق أحدهما بدون الآخر، فإنّ الصبر في الدين للدين يلازم التقوىٰ، كما أنّ التقوى تلازم الصبر، وفي الحديث: «أنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد».

قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾**.

رجوع إلى اليهود والنصارى. والميثاق ـ كما تقدّم ـ هو العهد المؤكّد، وقد تقدّم اشتقاق الكلمة في قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾**[1]، والمراد من الذين أُوتوا الكتاب هم اليهود والنصارىٰ، ويحتمل أن يكون اليهود، وإنّما خصّهم بالذكر لأنّهم عرفوا بالعناد وكتمان الحقّ. وإنّما ذكر إيتاء الكتاب تقبيحاً لأفعالهم وتذكيراً لهم بأنّهم أهل الكتاب، فلا ينبغي أن يصدر منهم ذلك، وقد تقدّم ما يتعلّق بأخذ الميثاق، فراجع.

قوله تعالىٰ: **﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾**.

النبذ: الطرح، والنبذ وراء الظهر كناية عن الإهمال وعدم الاعتناء لترك

١. سورة آل عمران: الآية ٨١.

العمل، بل هو أشدّ من الكتمان، وضدّه (نصب العين)، ألذي يكنّى به عن الاعتناء بالشيء والاهتمام به.

وإنّما نبذوه قضاءً لأطماعهم الشرّيرة ونواياهم الفاسدة، وليكونوا مطلَقي العنان في فعلهم وكيدهم فلا يقاومهم أحد ولا يستنكر عليهم، فلذلك كتموه وأهملوه لئلا يحكم به عليهم.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً**﴾.

لأنّهم آثروا الحياة الدُّنيا فباعوا الحياة الآخرة بها، فهي ثمن قليل بالنسبة الى الجزاء الذي أُعدّ لمن بين الكتاب والحقّ. وفيه من الذمّ والتوعيد ما لا يخفى.

والضمير في (به) يرجع إلى الحقّ الذي وجب بيانه.

قوله تعالىٰ: ﴿**فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾.

تقبيح لهم وتسفيه لعقولهم، فإنّهم جعلوا الفاني الزائل بدلاً عن النعيم الدائم الباقي، وقد ذكر سبحانه وتعالىٰ في عدّة مواضع من القرآن الكريم كتمان الحقّ وتبديله بالثمن القليل.

قوله تعالىٰ: ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا**﴾.

بيان لبعض الصفات الذميمة التي اتّصف بها الذين ذكرهم الله تعالىٰ في الآية المتقدِّمة، وهي الفرح بما فعلوه من التحريف والتدليس وكتمان الحقّ، والظنّ السوء بأنّ ذلك شرف لهم وقد منّ الله به عليهم، وهو من الفرح بالباطل، فإنّه يكشف عن استحكام رذيلة العجب في نفوسهم والغرور بالفعل، وإنّما حكى عزّوجلّ هذه الخصلة الباطلة لتحذير المؤمنين منها، فإنّهم عرضة لذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا**﴾.

صفة أُخرىٰ من صفاتهم الذميمة، أي أنّهم يحبّون أن يمدحهم الناس على الذى لم يفعلوه، وهم الوفاء بالميثاق وإظهار الحق، فإنّهم لم يفعلوه شيئاً من ذلك وإنّما فعلوا نقيضه من كتمان الحقّ وتحريف الكتاب بما يوافق أهواءهم الباطلة.

وهذه الصفة أكثر ما تكون في العلماء غير العاملين بعلمهم، كالرهبان وحفّاظ الكتاب، فإنّهم يحبّون أن يُحمدوا بالدِّين والفضل وحفظ الكتاب، ولكنّهم في الحقيقة مراؤون، ولم يفعلوا شيئاً ممّا يُرضي الله تعالىٰ.

ويستفاد من الآية الشريفة أنّ حبّ المحمدة بما لم يفعل باطل، ومن الصفات الذميمة، فإنّه يكشف عن الغرور والعُجب والرياء وسوء الأخلاق. وأمّا إذاكان بالحقّ فهو خُلق حسن، بل من الأُمور الفطرية، فإنّ الإنسان يحبّ المحمدة على الفعل النافع، وقد ورد في الكتاب والسنّة ما يدلّ على ذلك، قال تعالىٰ محكياً عن نوح: **﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**[1].

وقال تعالىٰ حكايةً عن هود: **﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾**[2].

وفي هذه الآية الشريفة استعمل لفظ الحمد في غير الله تعالىٰ، وهذا هو المورد الوحيد في القرآن الكريم، وقد ذكرنا في سورة الفاتحة أنّه لم يرد استعمال مادّة (الحمد) في غيره عزّوجلّ إلّا في هذا الموضع، وتقدّم الجواب عن ذلك، فراجع.

ونزيد هنا أنّه يمكن أن يكون لأجل أنّهم جعلوا أنفسهم حفّاظ الشريعة القائمين بأُمور الدِّين وورثة الأنبياء، فأحبّوا لأنفسهم حمد الناس، وهذا من مجرّد

---

١. سورة الأعراف: الآية ٦١ـ٦٢.

٢. سورة الأعراف: الآية ٦٨.

الزعم الباطل، وقد ذمّهم الله تعالىٰ على ذلك، حيث لم يصدر منهم فعل الله تعالىٰ حتّى يستحقّوا المدح والثناء.

وفي الآية المباركة التنبيه العجيب للعلماء، وإنذار لهم بالاحتراز عمّا يوجب انطباق مضمون هذه الآية عليهم.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

بيان لسوء عاقبتهم بعد بيان خسّتهم في الدُّنيا، وإنّما أعاد عزّ وجلّ كلمة ﴿لَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ للتأكيد.

والمفازة مصدر ميمي بمعنى الفوز والنجاة، والتاء ليست للوحدة، وسمّي موضع المخاوف مفازة على جهة التفاؤل. واحتمل بعضهم أن يكون المفازة اسم مكان، أي محل فوز، فيكون «من العذاب» صفة له؛ لأنّ اسم المكان لا يعمل فيقدر المتعلّق خاصّاً أو عاماً، ولكنّه بعيد.

والمعنى: أنّهم ليسوا بناجين من العذاب، بل ليس لهم عذاب محدود. وإنّما لم يبيّن عزّوجلّ نوع العذاب لأنّه إمّا أن يكون بما يطابق سجاياهم الفاسدة وملكاتهم الخسيسة، أو يكون عذاباً إلهيّاً ناشئاً عن سخطه عزّوجلّ، لأنّه لا ولاية للحقّ عليهم، بعدما تعلّقت نفوسهم بالباطل، وفسدت أخلاقهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

تأكيد في التوعيد بالعذاب في الآخرة جزاء كفرهم وعنادهم للحقّ، والتنكير في العذاب ووصفه بكونه أليماً، لبيان أنّه لا أمد له ولا نهاية لشدّته.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

تعليل لجميع ما ورد في الآيات السابقة، واحتجاج علىٰ مَن عاند الحقّ

ونسب الفقر إليه تبارك تعالىٰ.

أي: له تعالىٰ وحده مُلك جميع العالم ـ ما سواه ـ يتصرّف فيه بما يشاء ويريد إيجاداً وإفناءً، ورحمةً وعذاباً، وهو الذي يملك أمر عباده فيدبّرهم وفق حكمته المتعالية.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فلا يعجزه شيء، ولا يقهره أحد. ومن قدرته أنّه يجازي كلّ إنسان حسب عمله، ويعذِّب الظالمين بظلمهم.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

(كلّ نفس) في قوله تعالىٰ: ﴿**كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْـمَوْتِ**﴾ مبتدأ، والابتداء بالنكرة جائز هنا لما فيه العموم، و ﴿**ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ خبر. و«كلّ» إذا أُضيف إلىٰ نكرة كان الحكم في الخبر، والإضمار لتلك النكرة، كقوله تعالىٰ: ﴿**ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾، وقوله عزّوجلّ: ﴿**كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾[2]. وكلّ رجلين قاما، وكلّ امرأتين قامتا، فالتذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع بحسب النكرة التي أُضيف إليها كلّ.

وقرئ: «ذائقة الموت» بالتنوين ونصب الموت على الأصل، وقرئ: «ذائقة الموت» بطرح التنوين مع النصب.

وعزم الأُمور في قوله تعالىٰ: ﴿**مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ من إضافة المصدر إلىٰ فاعله.

وإنّما لم يؤكّد: «ولا تكتمونه» بالنون كما في «لتبيّننه»، للاكتفاء بالتأكيد في الأوّل.

وقوله تعالىٰ: ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ**﴾، الفاعل هو الضمير المخاطب سواء كان الرسول الكريم أو مَن له أهليّة الخطاب. و«الذين» المفعول الأوّل والمفعول الثاني محذوف لتهويل الأمر، فيقدّره المخاطب بما يليق بهم من العذاب والذمّ لدلالة مفعولي «تحسبنّهم» الآتي عليه.

---

١. سورة الطور: الآية ٢١.

٢. سورة الإسراء: الآية ٧١.

وأمّا قوله تعالىٰ: **﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾** فقد ذكر فيه المفعول الثاني، فالأوّل: (الهاء والميم)، والثاني: هو «بمفازة» لبيان نوع العذاب الذي حذف في الأوّل فيكون الفاء للتفريع.

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة اُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾** على تجرّد النفس، وأنّها غير البدن، فهي لا تموت بموته، لأنّ الذوق لا يكون إلّا عن شعور.

وفي ذكر هذه الآية الشريفة بعد حكاية أحوال المنافقين، والكافرين والمشركين وتكذيبهم للرسل وأذاهم في الفعل والقول، التسلية العظيمة، وللإرشاد إلى تذكّر الموت، ممّا يزيل الهموم والأشجان الدنيويّة، ولذا اُمرنا بزيارة القبور إذا غلبت علينا الغفلة، قال تعالىٰ: **﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ﴾**[1]. وفي الحديث: «أكثروا ذكر هادم اللّذات، فإنّه ما ذكر في كثير إلّا قلّله ولا في قليل إلّا كثّره»، فإنّ ذكر الموت والتفكّر فيه يهوّن كلّ خطب.

الثاني: عموم قوله تعالىٰ: **﴿كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾** يدلّ على أنّ كلّ ذي نفس لابدّ لها من ذوق الموت، سواء كانت النفس حيوانيّة أم نباتيّة أم من الملائكة، فكلّ حيّ لابدّ أن يموت إلّا الله تعالىٰ، فإنّه حيٌّ لا يموت، وهو الأوّل والآخر.

وهذه الآية الشريفة وردت في القرآن الكريم في مواضع متعدِّدة:

قال تعالىٰ: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾**[2].

---

١. سورة التكاثر: الآية ١ ـ ٢.

٢. سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

وقال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[١].

وتختلف الآية الكريمة التي تقدّم تفسيرها عن الآيات الأُخرى في أنّها قد ذكر فيها توفية الأجر ونوعه وكيفيّته، فتكون كالتفسير لتلك الآيات المباركة، لأنّه عزّوجلّ اكتفى بكونه مرجعاً للعباد، فقال: ﴿إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

الثالث: إنّما عبّر سبحانه وتعالىٰ بالذوق في قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ لبيان أنّ الموت يسري في جميع البدن، كما يسري المذوقات فيه كما إذا شرب سمّاً، وللكناية عن الإحساس بمرارة خروج الروح، وللإعلام بأنّ ذوق الموت شيء وذات الموت شيء آخر، ولذا ورد في بعض الأخبار أنّ المقتول يرجع ليذوق الموت، وقد تقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢].

الرابع: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ ـ على إيجازه البليغ المعجز ـ أنّ لكلّ نفس جزاء معيّناً إمّا خيراً أو شرّاً. ونوعية الجزاء وانها إما الجنّة أو النار، وكيفيّته وهي هول النار وشدّتها، وراحة الجنّة والنجاة فيها.

وإنّما ذكر عزّوجلّ ذلك عقيب ذلك الحكم الكلّي العام المقضي في حقّ كلّ نفس، للإعلام بأنّ وراء الموت حياة أُخرىٰ، يتميّز فيها المُحسن عن المُسيء، ويرى كلّ منهما جزاء عمله، فإنّ العلم بذلك يهون كلّ خطب ويسهّل كلّ صعب.

الخامس: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ﴾ ثبوت حياة البرزخ، وأنّ

---

١. سورة العنكبوت: الآية ٥٧.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٥٦.

الأرواح فيها إمّا أن تكون معذّبة أو متنعّمة، فإنّ التوفية إنّما تكون في ما إذا سبق بعض العطاء، وأنّ في يوم القيامة العطاء الوافي الكامل، وفي الحديث: «القبر إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران».

السادس: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾** علىٰ عظمة الموقف وشدّة الهول، فإنّ لكلّ إنسان موقفاً في النار، لا يمكن إزاحته عنه إلّا بعد الزحزحة، ومقاساة الشدائد والأهوالِ والصبر عليها، حتّى يتحقّق الفوز والدخول بالجنّة.

وحذف المتعلّق في الفوز يفيد العظمة والتعميم، فإنّه فوز عن كلّ مكروه، وسلامة من كلّ شدّة ونجاة من النار، كما أنّه الفوز بالمحبوب والدخول في الجنّة، وأنّ فيها النعيم الدائم.

السابع: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾** على خسّة هذه الحياة في مقابل الحياة الأُخرىٰ، وأنّ في هذه الحياة يتعيّن مصير الإنسان في العقبىٰ، ففي هذه الحياة تتحقّق الزحزحة عن النار والدخول في الجنّة، وفي الآية الشريفة الترغيب إلى العمل الذي يوجب ذلك، والإعراض عن زخارف الدُّنيا ومباهجها التي تُبعد الإنسان عن كلّ خير وسعادة، فإنّها تغرّه وتُلقيه في الشقاء والخسران.

الثامن: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾**، أنّ المزحزحة عن النار والفوز بالجنّة والنعيم الدائم لا يتحقّقان إلّا بالبلاء والابتلاء، والصبر على البلايا والرزايا، والأذى الكثير، وتقوى الله تعالىٰ، وأنّ في الصبر والتقوى النجاة، فتعتبر هذه الآية الشريفة كالعلّة بالنسبة إلى الآية السابقة، مضافاً إلى أنّ الآية المباركة ترغّب المؤمنين إلى الصبر والتقوى، فإنّهما الأساس لكلّ سعادة.

التاسع: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾** على أنّ عزائم الأمور هي التي تُنجي الإنسان وتهيّئه لنيل السعادة والفوز بالأجر العظيم، وقد اهتمّ سبحانه وتعالىٰ بها فذكرها في مواضع متعدِّدة من القرآن الكريم، وجعلها من صفات الأنبياء العظام، فلهذه الأُمور التي لابدّ فيها العزم منزلة عظيمة وشأن كبير. وقد رغَّب القرآن الكريم إليها، وهي من أهمّ السُّبل إلى سعادة الإنسان.

العاشر: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾** أنّ بيان الحقّ وما أنزله الله تعالىٰ في الكتب الإلهيّة ممّا أخذ الله عليه الميثاق، بلا اختصاص له بقوم وملّة معيّنة. وفي الحديث عن عليّ عليه السلام: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتّى أخذ على أهل العلم أن يعلموا»، وبمضمون ذلك وردت أحاديث كثيرة.

وإنّما أكّد سبحانه وتعالىٰ علىٰ وجوب البيان بعدم الكتمان لرفع كلّ التباس من البين، فتشمل الآية الشريفة كلّ شبهة وتحريف ونفاق وتزييف، فإنّه قد يتصوّر متصوّر أنّه من البيان للكتاب، إذا كان فيه تحريف وتزييف، ولكن الآية الشريفة تضع الحدّ الفاصل في جميع ذلك، وتعتبر أنّ البيان وإظهار الكتاب لابدّ أن يكون واضحاً وجليّاً من دون التباس وتحريف.

الحادي عشر: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا﴾** ذمّ الفرحين بأفعالهم التي لا تطابق الواقع مع بُعدهم عن الحقّ، ويدلّ على أنّه رذيلة تنطوي تحتها مساوئ من الأخلاق، فإنّ الفرح الذي لا يكون عن حقّ وفي حقّ يُنبئ عن الغرور والعُجب والتجرّي على المولى، وكلّ ذلك مذموم بل من المهالك.

وأمّا إذا كان الفرح عن حقّ فلا ذمّ فيه، ففي الحديث: «مَنْ سرّته حسنة وساءته سيّئة فهو مؤمن»، والآية الشريفة لا تختصّ بطائفة خاصّة، بل هي تشمل

كلّ مَن كان فعله مخالفاً للواقع إذا فرح بما فعل.

الثاني عشر: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا**﴾ أنّ حبّ محمدة الناس أمر فطري لا يسع لأحد إنكاره، وأنّ المذموم منها هو ما إذا لم يكن عن سبب ومنشأ صحيح عقلائي في البين، فإنّه يكشف عن غرور صاحبه وجهله بالواقع واعتماده على النفس الأمّارة، ويستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا**﴾ أنّ كلّ فعل إذا لم يكن مرضيّاً لله تعالىٰ، ولم يكن مطابقاً لقواعد الشرع، فلا أثر يُرجى منه ولا فائدة فيه. فلا موجب للمحمدة بالنسبة إليه، فما يصدر من الكافرين والمنافقين وأصحاب الأهواء الباطلة وغيرهم من الأفعال، ولم تكن مطابقة للشريعة المطهّرة ومرضيّة عند الله تعالىٰ، فإنّ حبّ المحمدة من الناس عليها باطل ولا وجه لها، لأنّه لم يصدر منهم شيء يستحقّ عليه المحمدة، وأمّا إذا كان ذلك بالحقّ وفي الحق، فلا ذمّ فيه. وفي الحديث: «مَن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق»، وهو يدلّ على أنّ مطلق الثناء على الأفعال الحسنة ممدوح، بل هو من حمد الله تعالىٰ، ويمكن أن يكون هذا وجهاً آخر في استعمال لفظ الحمد في المقام، حيث اعتبروا حمدهم من حمد الله تعالىٰ، وهو عزّوجلّ أبطل مزاعمهم، وبيّن أنّه إذا كان بالحقّ وفي الحقّ فإنّه من حمده عزّوجلّ.

الثالث عشر: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ**﴾ على أنّ الخصال المذمومة والمَلَكات الرذيلة سبب للدخول في العذاب، وعدم نجاتهم منه، فلابدّ للإنسان من السعي لتهذيب النفس عنها وجعلها مرآة لمكارم الأخلاق لتجلّي أخلاق الله تعالىٰ فيها، فإنّ في ذلك الفوز والسعادة.

***

بحث روائي:

في «الكافي»، عن الصادق عليه السلام، أنّه قال:

«يموت أهل الأرض حتّى لا يبقى أحد، ثمّ يموت أهل السماء حتّى لا يبقى أحد، إلّا مَلك الموت وحَمَلة العرش وجبرائيل وميكائيل، قال: فيجيء مَلك الموت حتّى يقوم بين يدي الله عزّوجلّ، فيُقال له: مَن بقي ـ وهو أعلم ـ فيقول: يا ربّ لم يبق إلّا ملك الموت وحَمَلة العرش وجبرائيل وميكائيل، فيُقال له: قُل لجبرائيل وميكائيل فليموتا، فيقول الملائكة عند ذلك: يا ربّ رسولاك وأميناك، فيقول: إني قد قضيت على كلّ نفس فيها الروح الموت، ثمّ يجيء ملك الموت حتّى يقف بين يدي الله عزّوجلّ، فيُقال له: مَن بقي ـ وهو أعلم ـ فيقول: ياربّ لم يبق إلّا ملك الموت وحَمَلة العرش، فيقول لحملة العرش: فليموتوا، ثمّ قال: يجيء كئيباً حزيناً لا يرفع طرفه، فيُقال له: مَن بقي ـ وهو أعلم ـ فيقول: يا ربّ لم يبق إلّا مَلك الموت، فيُقال له: مُت يا ملك الموت، فيموت، ثمّ يأخذ الأرض بيمينه، ويقول: أين الذين كانوا يدعون معي شريكاً؟ أين الذين كانوا يجعلون معي إلٰهاً آخر».

أقول: مثل هذا الحديث كثير، وهي تدلّ على أنّ كلّ كائن حيّ، لابدّ وأن تنقضي حياته في دار الإمكان، لأنّه كتب الفناء على الجميع، بل لا معنى للإمكان إلّا ذلك، فتنحصر الحياة في ما هو حيّ بالذات، وعموم الآية الشريفة: **﴿كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾** يدلّ على ذلك أيضاً.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾** قال عليه السلام: «لم يذق الموت مَن قُتل، وقال: لابدّ من أن يرجع حتّى يذوق الموت».

أقول: يستفاد من ذلك أمران:

الأوّل: أنّ ذات الموت شيء والقتل شيءٌ آخر، وإن كان القتل سبباً له، وقد

تقدّم في الآية الشريفة: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾[1]، ما يرتبط بالمقام.

الثاني: الرجعة كما يأتي الكلام فيها مفصّلاً إن شاء الله تعالىٰ.

وفي «الدّر المنثور» في قوله تعالىٰ: **﴿كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** أخرج ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال:

«لمّا توفّى النبيّ صلى الله عليه وآله وجاءت التعزية، جاءهم آت يسمعون حسّه ولا يرون شخصه، فقال: السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته، **﴿كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**، إن في الله عزاء من كلّ مصيبة، وخلفاً من كلّ هالك، ودركاً من كلّ ما فات، فبالله فثقوا، وإيّاه فارجوا، فإنّ المصاب من حرم الثواب، فقال علي عليه السلام: هذا الخضر».

أقول: لا عجب في حضور الخضر للتسلية بعد حضور سادات الملائكة لأجل ذلك.

وفي «الكافي»، عن الصادق عليه السلام: «خياركم سمحاؤكم، وشراركم بخلاؤكم، ومن خالص الإيمان البرّ بالإخوان والسعي في حوائجهم، وأنّ البار بالإخوان ليحبّه الرحمٰن، وفي ذلك مرغمة الشيطان، وتزحزح عن النيران، ودخول الجنان».

أقول: الحديث يبيّن بعض مصاديق الزحزحة عن النار والدخول في الجنّة.

وفي «الدرّ المنثور»: أخرج ابن مردويه عن سهل بن سعد، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لموضع سوط أحدكم في الجنّة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ثمّ تلا هذه الآية: **﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾**».

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٥٨.

أقول: يبيّن ﷺ بعض مراتب الفوز، وإلّا فهي غير متناه.

وفي «العلل»، عن الرضا عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾** قال عليه السلام: «في أموالكم بإخراج الزكاة، وفي أنفسكم بالتوطين على الصبر».

أقول: ما ورد في الحديث من باب ذكر أحد المصاديق.

وفي «تفسير القمّي»، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾** قال عليه السلام: «في محمّد ﷺ **﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾** إذا خرج ولا تكتمونه **﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾**، يقول نبذوا عهد الله وراء ظهورهم».

أقول: لا فرق في رجوع الضمير إلى العهد أو الكتاب، لتلازم كلّ منهما مع الآخر.

وفي «تفسير القمّي» أيضاً في قوله تعالىٰ: **﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾** عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ببعيد من العذاب».

أقول: لا بأس به؛ لأنّ معنى المفازة النجاة من العذاب، وهو يحصل بالبُعد عنه.

***

بحث فلسفي:

الحياة والموت أمران وجدانيان لكلّ ذي حياة، ولكن الكلام في حقيقة الحياة التي لم تكتشف بعد، وإن بذل العلماء غاية الجهد في دركها ومعرفة حقيقتها وخصوصيّاتها، مع أنّ آثارها مشاهدة بالحسّ، ودرك أصلها وجداني لكلّ ذي حياة.

كذلك حقيقة الموت، فإنّه وإن كان معلوماً لكلّ ذي حياة، سواء كان الموت نباتيّاً أو حيوانيّاً أو إنسانيّاً.

نعم، الذي تدلّ عليه الكتب السماويّة وأقوال المحقّقين من الفلاسفة أنّ موت الإنسان ليس انعداماً لروحه، بل هو نقل الروح من عالم إلىٰ عالم آخر، يرى فيه نتائج أعماله وآثار أفعاله وأقواله، هذا بالنسبة إلى موت الإنسان.

وأمّا بالنسبة إلى موت الحيوان والنبات، فهل هو من انتقال الروح إلى عالم آخر من سنخه أو انعدامها، كما ينعدم نور السراج بإطفائه، أو من قبيل تبدّل صورة إلى صورة أُخرىٰ مناسبةً، جوهراً كانت أو عرضاً أو غير ذلك. كلّ ذلك محتمل، ولم يرد في الفلسفة القديمة ولا الحديثة شيء يروي الغليل ويشفي العليل، ويمكن اختيار الاحتمال الأخير والقول بالتبدّل، لما عليه من الشواهد النقليّة والتجربيّة بل العقليّة أيضاً، ويأتي في الموضع المناسب تتمّة الكلام إن شاء الله تعالىٰ.

***

بحث عرفاني:

يمكن أن يكون المراد من (عن النار) في قوله تعالىٰ: ﴿**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**﴾ نار الشهوات المادّية الجسمانيّة، التي هي أصل النار الكبرىٰ ومادّتها. ويُراد بالجنّة جنّة التفاني في مرضاة الله تعالىٰ، التي هي أعلىٰ من جنّة عدن بمرّات كثيرة، قال تعالىٰ ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنْ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[1]، فإنّه لا فوز أعظم من ذلك، وأنّ جميع الممكنات دونه نزر يسير. فتكون الآية الشريفة في مقام بيان حقيقة أولياء الله تعالىٰ، الذين أماتوا أنفسهم بالاختيار، واستخرجوا النفس الأمّارة من جحيم الشهوات، ففازوا بلقاء الله تعالىٰ، وشربوا من عيون الحياة المعنويّة، واستشرقوا بشوارق الأنوار الأزليّة، وجعلوا متاع الغرور تحت أقدامهم، فابتهجوا بابتهاجات غير متناهية في المدّة والعدّة، كما ابتهج العرش الأعلى بوجودهم.

---

١. سورة التوبة: الآية ٧٢.

والآيات الشريفة المتقدِّمة من آيات السير والسلوك إلى الله تعالىٰ، فإنّها ترشد الإنسان إلى الكمال، وتبيّن أنّ الوصول إليه صعب المنال، فلابدّ من الصبر والتقوى، وخلع النفس الأمّارة بالسوء التي لها منابت في النار.

كما أنّها ترشد المؤمنين إلى التحلّي بمكارم الأخلاق، وتذكّرهم فيها ببعض مساوئ الأخلاق التي تُبعدهم عن الواقع، وتُوقعهم في المهالك والردىٰ.

***

بحث أخلاقي:

من أخّس الرذائل النفسانيّة حبّ الثناء والمحمدة، بل يعتبره علماء الأخلاق أُمّ الفساد وأصل المهلكات، وقد ورد في ذمّه شيء كثير من الأحاديث، ففي الحديث: «احثوا في وجوه المدّاحين التراب»، لأنّ مدح الناس يوجب الغرور، وصرف النفس عن نيل الكمال، ولذا ورد أنّه يستحبّ أن يقول الممدوح عند سماع المدح: «اللّهُمَّ اجعلني فوق ما يظنّون، واغفر لي ما لا يعلمون»، هذا إذا كان منشأ المدح موجوداً في الإنسان، وإلّا فالخطب أعظم والرزء أكبر.

***

الآية ١٩٠ ـ ١٩٥

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

الآيات الشريفة من جلائل الآيات وأعاظمها، التي تدعو الناس إلى التفكّر والتدبّر والتذكّر، وترشد المؤمنين إلى أهمّ طريق من طرق السير والسلوك، وتعلّمهم التربية الحقيقيّة، وهي تطبيق المشاعر الإيمانيّة في سلوك عملي، وإبرازها في عمل واقعي.

وسياق الآيات المباركة يدلّ على أنّها نزلت من العرش العظيم على قلب

الرسول الكريم، وهي تحكي الارتباط التامّ بين العابد والمعبود وعنايته بالعابد، فإذا اعترف في مقام عبوديّته بالقصور والتقصير والتسليم للمعبود، تجلّى له بكلّ ما يطلبه ويبغيه.

والعناية الظاهرة في قوله جلّت عظمته: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ ممّا لا يمكن أن يظهر بلسان، وأنّ جذبات المحبوب لحبيبه في هذه الآيات متوالية، ولو لم يكن لمقام العبودية إلّا هذا المقام لكفاه فخراً وعزّاً.

وقد مدح عزّوجلّ أُولي الألباب الذين يذكرون الله تعالىٰ ويتفكّرون في خلقه، ويسلّمون أمرهم إليه سبحانه وتعالىٰ، ويقرّون له بالطاعة والعبودية، فهم عباد ربّانيون لا يفترون عن ذكر الله تعالىٰ في جميع حالاتهم؛ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، يرجون رحمته، وما وعدهم الله تعالىٰ على لسان رسله.

وذكر جلَّ شأنه أنّه لا يضيع عملهم فهو محفوظ لديه، وسيكفِّر الله تعالىٰ عنهم سيِّئاتهم ويُدخلهم الجنّات العظيمة، وذلك جزاء ما لا قوه في سبيله عزّوجلّ من الأذىٰ، وذلك الجزاء العظيم ينتظرهم يوم الحساب.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

دعوة إلى التفكّر في خلق الله تعالىٰ، بعد بيان أنّ جميع خلقه مُلكٌ له عزّوجلّ، وهو على كلّ شي قدير، فإنّ إنضمام هذه الآية الشريفة إلى الآيات السابقة، يثبت الوحدانية الكبرى والربوبيّة العُظمىٰ، ولذا ترك العطف بينهما، فإنّ في خلق السماوات والأرض الآيات الدالة على قدرته عزّوجلّ واعتنائه تعالىٰ بخلقهما، على ما فيهما من العجائب والبدائع، التي ترشد أصناف العباد إلى المبدأ والمعاد، وتجذبهم إلى الحيّ القيّوم.

والآية الشريفة بأُسلوبها الجذّاب ومضمونها الخلّاب تدعو الناس إلى النظر والتفكّر في الآيات الكونيّة، وتفتح لهم أبواب الفلسفة العلمية والعملية، فإنّ آثار رحمته عزّوجلّ فيها واضحة، ودلالات إحاطته تعالىٰ، وقيموميّته العظمى الكاملة مشهودة.

والمراد بخلق السماوات والأرض الآيات الكونيّة المحسوسة التي ظهرت في جميع موجودات السماوات والأرض، من الجواهر والأعراض والعرضيات والروحانيّين، والأملاك والكواكب والأفلاك، وما في الأرض من الآيات الكثيرة في الإنسان والحيوان والنبات، وما في البرّ والبحر والجوّ، فإنّ فيها الآيات التي تبهر منها العقول، وقد بذل الإنسان غاية الجهد في معرفتها، ولم يبلغ معشار ما فيها، وفي كلّ يوم يبرز علماً جديداً ومعرفة مستجدة، وما جهله أكثر ممّا علمه بمراتب.

وإنّما أتى عزّوجلّ لفظ الأرض مفرداً، لأنّ الأرض التي يعيش عليها الإنسان ويستفيد منها إنّما هي واحدة، كما دلّت عليه الأدلّة العقليّة، وأمّا النقليّة فسيأتي البحث فيها.

قوله تعالىٰ: **﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾**.

آية من الآيات الكونيّة التي يحسّها كلّ أحد، ومعنى اختلافهما تعاقبهما، ومجيء كلّ واحد منهما عقيب الآخر، على حدّ قوله تعالىٰ: **﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾**[1]، واختلاف الليل والنهار يأتي وفق نظام دقيق له آثار كبيرة وخواص عجيبة، محسوسة ظاهرة في النباتات والحيوانات وفي الإنسان. والأعجب من الجميع أنّ هذا النظام المتّسق الموزون في العالم الكياني، وترتيب

---

١. سورة فاطر: الآية ١٣.

الفصول يبتني علىٰ ذلك الاختلاف، فإنّ ذلك يدلّ على عظمة الصنع الدالّة على عظمة الصانع وعلمه وحكمته التامّة.

وهذه الآيات الكونيّة ذات وقع على الحسّ الإنساني، لا يمكن لأحد التنصّل منها، وإنّما يستفيد كلّ فرد من أفراد الإنسان بمقدار فهمه وجودة فكره.

قوله تعالىٰ: ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

(الآيات) العلامات والدلالات التي تدلّ على عظمة الخالق ووحدته عزّوجلّ، وكمال عمله وقدرته وحكمته التامّة المتعاليّة.

والآيات جمع قلّة، لكنّه يقوم مقام جمع الكثرة، ولعلّ مجيئه لأجل أنّ الآيات المحسوسة قليلة في جنب ما خفي منها.

و(الألباب) جمع اللّب، وهو خالص كلّ شيء، يقال: لبَّ يلبُّ، مثل: عضّ يَعُضُ، وهذه لغة أهل الحجاز، وأهل نجد يقولون: لبّ يلب، على وزن فَّر يفِر، وفي الحديث: «إنّ الله منع بني مدلج لصلتهم الرحم وطعنهم في ألباب الإبل»، أي خالص إبلهم وكرائمها. ولبّ العقل ما خلص عن شوائب الأوهام مطلقاً.

وقد ورد لفظ أُولي الألباب في القرآن الكريم في ما يقرب من ستّة عشر موضعاً، كلّها مقرونة بالمدح والثناء والتعظيم، فقد عرَّفهم عزّوجلّ بأنّهم أصل الهداية والإيمان بالله تعالىٰ، والتقوى والطاعة، والخضوع، والإنابة إليه عزّوجلّ، وهم الذين يتّبعون أحسن القول، وهم أهل الذكر والتذكّر والتفكّر.

وقد وصفهم تعالىٰ في الآيات التالية بالصفة التي تميِّزهم ولا يبقى مجال إلى تفسير آخر، فهم الذين يذكرون الله تعالىٰ في جميع الحالات، لا يفترون عن ذكره، وهم عباد ربّانيون مرتبطون مع عالم الغيب بكلّ معنى الارتباط، علماً وعملاً وقولاً وفكراً، وقلوبهم متعلّقة به، يرجون رحمته ويخافون عذابه.

وإنّما خصَّ أُولى الألباب لأنّهم لا يقصرون نظرهم على المادّيات والمظاهر الخارجيّة فقط، ولا يوصدون قلوبهم عن الغوص في أعماق الموجودات بل يتفكّرون ويتدبّرون ويستفيدون منها، فهم يلتفتون بقلوبهم وعقولهم إلى ما في ذلك من الوجوه والحِكَم الدالّة على الوحدانيّة والحكمة والعلم والقدرة.

قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾.

وصف بليغ لأُولي الألباب، وشرح لأحوالهم شرحاً وافياً، فقد وصفهم تعالىٰ بأوصاف متعدّدة وهي:

الأوّل: أنّهم أهل الذِّكر في جميع الحالات لا يفترون عن ذكر الله تعالىٰ، ولا يغفلون عنه في حال. والمراد من: ﴿**عَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾، أي مضطجعين، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿**دَعَانَا لِجَنْبِهِ**﴾[1]، أي دعانا مضطجعاً على جنبه.

وهذا الذكر أعمّ من الذكر اللفظي والذكر العملي ـ وهو الصلاة ـ وقد ورد في بعض الروايات ما يدلّ على التعميم، فهم يذكرون الله جلّت عظمته مع حضور القلب، فإنّ الذكر ما كان عن خضوع وخشوع وإنابة، وإلّا لا يُسمّىٰ ذكراً.

وإنّما خص تعالىٰ هذه الحالات الثلاثة القيام، والقعود، وعلى جنوبهم، لأنّ الإنسان لا يخلو عن إحداها، فيكون المراد أنّ معظم حركاتهم وسكناتهم في ذكر الله تعالىٰ وبذكر الله عزّوجلّ، وهذا يسير على أُولي الألباب؛ لأنّهم لا يرون للدّنيا قيمة أصلاً حتّى يجعلوا شيئاً للدّنيا، فهم في حال كونهم في الدُّنيا جعلوا الآخرة نُصب أعينهم، وهذه هي الفلسفة العملية التي أتعب الفلاسفة وعلماء الأخلاق والسير والسلوك أنفسهم فيها، وجعلوا لها قواعد وأُصولاً وأفردوا لها كتباً مستقلّة، والله تبارك وتعالىٰ جمعها في حملة واحدة.

---

١. سورة يونس: الآية ١٢.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾.

وصف ثان لأُولي الألباب. أي أنّهم ينظرون في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار فيذكرون الله تعالىٰ، بل يذكرونه في جميع أحوالهم، لايفترون عن ذكره وقد ملأ الإيمان قلوبهم، وتفكّروا في خلق السماوات والأرض مهتدين إلى وحدانيّته وحكمته التامّة، وقدرته الكاملة، وعلمه الأتمّ، فاهتدوا إلى أنّ الله تعالىٰ لم يخلقها باطلاً وعبثاً.

والآية المباركة تدلّ على أنّ الفكر إذا لم يستند على اللّب، فلم يهتد بنور الإيمان، وكان عرضة للضلال، فكم ضلّت عقول الذين يتفكّرون في خلق السماوات والأرض، ويغوصون في عجائبها وأسرارها، ولكنّهم كانوا غافلين عن الخالق العليم المدبّر القادر. قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ**﴾[1]، ولكن أُولوا الألباب تفكّروا في خلقها، واهتدوا إلى أنّ الله تعالى لم يخلقها باطلاً، وأنّها من صنع الإله القادر الحكيم، فأكملوا نورانيّة فكرهم بذلك، واعترفوا بأنّ الخلق بالحقّ وفي الحقّ.

والفكر من أهمّ خصائص الإنسان، وبه تنتظم شؤونه، ويقوم نظام الدُّنيا والآخرة، وقد حثّت الكتب الإلهيّة الناس إلى التفكّر والتدبّر، ووردت مادّة (فكر) في القرآن الكريم في أكثر من ستّة عشر موضعاً، جميعها تدلّ على عظمة هذه النعمة الربّانية والموهبة الإلهيّة، وهي من الحقائق المعدودة التي يجهلها الإنسان لحدّ الآن، وإن عرف مفهومها فهو من الأُمور التي:

مفهومها من أعرف الأشياء   وكُنهها في غاية الخفاء

---

١. سورة ص: الآية ٢٧.

والمعروف بين الفلاسفة أنّه توجّه النفس بمبادئ معلومة، ليستنتج منها نتائج مطلوبة تترتّب عليها قهراً:

وهل هذا الترتّب من قبيل الأسباب التوليديّة.

أو أنّه من مجرّد الاقتضاء كما في جميع المقتضيات.

أو أنّه عمليّة كيمياويّة كما يدّعيها المادّيون.

أو أنّه من مجرّد الاتّفاق من دون دخل للأسباب في البين.

أو أنّه من الإفاضات الغيبيّة حفظاً للنظام، وتسهيلاً على الأنام.

قال بكلّ جمع من الفلاسفة، وإن كان الحقّ هو الأخير، فتكون النتائج الفكريّة كالمصابيح الكهربائية التي لا تضيء إلّا مع الاتّصال بأسلاك تربط بالمحل المولّد لتلك القوّة، وفي الفكر لابدّ من الاتّصال بالمبدأ الفيّاض.

ولكن، لا يمكن لأحد إنكار أنّ بعض الأقسام منها تكويني بديهي الانتاج، وهذا لا ينافي ما ذكرناه، ففي مثل المقام التفكّر في خلق السماوات والأرض يورث التذكّر والإذعان بأنّها حادثة، وكلّ حادث يحتاج إلى مؤثّر، والمؤثّر هو الله تعالىٰ، ولأنّ فيها بدائع من النُظم العجيب، والإبداع الفريد، والأسرار والدقائق والرموز والحكمة، التي لا يمكن أن تصدر إلّا عن عليمٍ حكيمٍ، فلابدّ أن يكون الخالق عليماً حكيماً متّصفاً بصفات الجمال والجلال، وهذا النحو من الاستدلال يسمّىٰ عندهم بالبرهان الإنّي، أي العلم من المعلول بالعلّة، ويقابله البرهان اللمّي أي العلم من العلّة بالمعلول، والقرآن الكريم مشحون بالقسمين، ويأتي في قوله تعالىٰ: ﴿**أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[1]، بعض الكلام إن شاء الله تعالىٰ.

وفي كلمات المعصومين الشيء الكثير من ذلك؛ قال علي بن الحسين عليهما السلام:

---

١. سورة إبراهيم: الآية ١٠.

«بك عرفتك، وأنت دللتني عليك، ودعوتني إليك، ولولا أنت لم أدرِ ما أنت».

وقال عليه السلام أيضاً: «وأنّ الراحل إليك قريب المسافة، وأنّك لا تحتجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الأعمال دونك».

وسُئِلَ عن بعض الأولياء فقيل له:

ما قدر المسافة بين العبد ومعرفة الله تعالىٰ؟

قال: «قدمان؛ قدمٌ يضعها على الممكنات، وقدم يضعها في مقام العرفان».

وسُئل آخر عنها، فقال: «قدمٌ واحدة يضعها على نيّة نفسه يتجلّى له ربّه، فإنّ مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربّه».

والبحث في ذلك طويل عقلاً ونقلاً وعرفاناً وشهوداً.

ويستفاد من الآية المباركة الترغيب إلى التفكّر والتدبّر، وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «تفكّر ساعة خيرٌ من عبادة سبعين سنة»، كما أنّ المستفاد من الأدلّة الدالّة على حسن التفكّر والحثّ عليه، أنّ التفكّر الحسن المرغوب إليه لابدّ أن لا يكون منهيّاً عنه شرعاً، ففي الحديث: «تفكّروا في آلاء الله تعالىٰ، ولا تتفكّروا في الله تعالىٰ»، وفي حديث آخر: «تفكّروا في الخلق ولا تتفكّروا في الخالق»، فإنّ التفكّر في المبدأ تعالىٰ، لابدّ أن يكون من جهة خلقه وصفاته الفعليّة، وأمّا التفكّر في ذاته المقدّسة وصفاته التي هي عين ذاته، فلا يفيد إلّا تحيّراً، بل ربّما ضلالاً، وقد ورد في تفسير قوله تعالىٰ: **﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾**[1]، أنّه «إذا انتهى الكلام إلى الله تعالىٰ فامسكوا»، وأمّا النظر والتفكّر في ما هو منهيٌّ عنه شرعاً، فلا يكون منتجاً، بل أنّ تسميته بالفكر مجاز، لأنّه في الحقيقة وهم باطل، أو النكراء، أو الشيطنة، أو من إيحاء الشيطان، قال تعالىٰ: **﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ**

---

١. سورة النجم: الآية ٤٢.

إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾[1]، فلابدّ للمتفكّر أن يتأمّل في مقدّمات فكره، بأن لا تبتني على الأوهام والخيالات، وإلّا فيحرم من الفيض الأقدس الإلهي، ويكون من الذين كان للشيطان عليه سبيلاً، وكلّ ما كان الفكر بريئاً من الخيال والأوهام، وخالياً من الوسوسة كان إلى الواقع أقرب، وإلّا فإنّه يؤدّي إلى اختلال القوّة الفكرية، وانطفاء هذا النور الإلهي الذي أودعه الله تعالىٰ في الإنسان، فلابدّ من أن يلتمس سبباً صحيحاً إليه، وهذا من شؤون الأنبياء والمرسلين، ومَن يقوم مقامهم، فإنّهم يستنيرون بنور الله تعالىٰ، كما في الحديث: «اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله».

ثمّ إنّ الخلق في قوله تعالىٰ: ﴿**فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾:

إمّا بمعنى المخلوق، فتكون الإضافة إمّا بمعنى (في)، أي يتفكّرون في ما خلق في السماوات الأرض.

أو تكون الإضافة بيانيّة، أي يتفكّرون في المخلوق الذي هو في السماوات والأرض.

أو يكون بالمعنى المصدري، أي يتفكّرون في إنشائهما وإبداعهما.

وإنّما لم يذكر سبحانه وتعالىٰ اختلاف الليل والنهار في المقام؛ إمّا لأجل اندراج اختلاف الليل والنهار في خلق السماوات والأرض، فإنّه من شؤونهما، أو لبيان أنّ أُولي الألباب بسبب فكرهم الثاقب بمثابة، بحيث إذا تفكّروا في بعض الآيات تنسبق إلى ذهنهم الآيات الأُخرى، فتترتّب عليها النتيجة لا محالة.

قوله تعالىٰ: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً**﴾.

أي: أنّهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض، فيبهرون من عظمة

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٢١.

الخلق، ويعترفون بالعجز والتقصير أمام الخالق العظيم، فينطلق لسأنّـهم بـالثناء والدُّعاء فيقولون: ربّنا ما خلقت هذا المخلوق باطلاً، لأنّك العليم الحكيم.

وإنّما اهتدوا إلى هذه الحقيقة الكـبرى، لأنّـهم رأوا آثـار عـظمة الخـالق وحكمته، فأذعنوا بأنّ خلقه تعالىٰ بالحقّ وفي الحقّ، ولا يمكن أن يكون هـذا الصنع العجيب باطلاً وبلا غاية، وهي الرجوع إلى الله تعالىٰ وترتّب الجـزاء، إمّـا درجات الجنان التي وعد بها رسوله للصلحاء، أو دركات النيران التي هي جـزاء الظالمين، لأنّهم لما اعترفوا بأنّ خلق الدُّنيا وما فيها لم يكن عبثاً وباطلاً، فلابدّ أن يكون الرجوع إلى الله تعالىٰ والحشر إليه عزّوجلّ، والحساب على ما تحقّق في الحياة الدُّنيا من الأعمال، فهناك الثواب والعقاب، قـال تـعالىٰ: **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾**[1]، وإلّا كان من العبث الذي يتنزّه الخـالق منه، والباطل الذي ينفى عن كلّ عاقل، فضلاً عن الحكيم المطلق، فانطلق لسانهم بالتنزيه، وقد ملئت قلوبهم بالدهشة منه، وتعاقب عليها الخوف والرجاء.

قوله تعالىٰ: **﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**.

أي: أنّهم لمّا بهرتهم عظمة الخالق، قالوا: «سبحانك»، يعني تنزيهاً لك من كلّ ما لا يليق بك، وتقديساً لك من الباطل والعبث، وهم يستغيثون به من عذاب النار، ويتوسّلون إليه بالنجاة منه، لأنّهم عـلموا بأنّ الظـالمين سـيحشرون إليـه فيجازيهم على أعمالهم، فطلبوا منه التوفيق إلى الأعمال التي تقيهم من عـذاب النار.

قوله تعالىٰ: **﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾**.

توسّل منهم إلى الله تعالىٰ الذي ربّاهم أن يجيرهم من النار، ومبالغة منهم في

---

١. سورة المؤمنون، الآية ١١٥.

استدعاء الوقاية عنها، اعترافاً منهم بقبح ما يوجب دخول النار، وأنّ ذلك هو الخزي المبين.

وإنّما قالوا ذلك مبالغة في التضرّع إلى الذي عوّدهم على الإحسان، عرفوه بالإنعام والإكرام على خلقه بعد التفكّر في مخلوقاته، فإنّ آثار الكرم والنعمة عليها ظاهرة.

وأخزيته من الخزي. وهو الافتضاح والإذلال، يُقال: أخزاه الله، أي أذلّه ومَقَته، والاسم الخزي. ويستفاد من الآية المباركة أنّ الدخول في النار هو أشدّ أنواع الخزي، مع قطع النظر عن إحراقه بالنار، لأنّ دخول النار فيه البُعد عن لقاء الله تعالىٰ وأحبّائه، والابتلاء بعذاب الفراق، وهو أشدّ وأقوى من العذاب الجسماني.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

بيان للسبب الموجب لدخولهم في النار. أي أنّ الذين يخزون يدخلون في النار، لأنّهم ظلموا أنفسهم، والظالم ليس له ناصر ينصره من النار، لأنّه حرم نفسه من الفيض الإلهي، وقطعها عن رحمته بالكفر والعصيان، وأنّ النصر في يوم الجزاء لابدّ أن يكون منه تعالىٰ، وهو لا يشمل غير المؤمن به عزّوجلّ. وهذا اعتراف منهم بأنّ الظلم على النفس من أشدّ أنحاء الظلم، وإقرار منهم بأنّ النصر لابدّ أن يكون من الله تعالىٰ، والظالم قد حرم نفسه منه بسبب ظلمه.

والظلم هنا أعمّ من الكفر والمعاصي التي توجب الدخول في النار.

قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾.

بعدما استجاروا بالله تعالىٰ من النار، وطلبوا منه الوقاية عن عذابها، لمّا رأوا آثار عظمة الخالق في خلقه، فاعترفوا بالتقصير.

وفي هذه الآية الشريفة يطلبون منه العون والتوفيق، لما يؤهّلهم في الدخول في الجنّة بعد إقرارهم بالاستجابة لمنادي الإيمان، ذلك النداء الغيبي الذي يدعو الى الإيمان بالله تعالىٰ، والمنادي هو الفطرة والعقل، ومظهرهما الأنبياء والرُّسل ومَن يقوم مقامهم، وسائر آيات الله الداعية إليه عزّوجلّ.

وهذا النداء ليس تشريعيًّا محضاً، بل له دخل في نظام التكوين، وهو تربية الإنسان تربية حقيقيّة كاملة، التي لم يخلق العالم إلّا لأجلها، فأُولوا الألباب هم الذين يقرّون بغاية الخليقة، وتربيب الخالق الكريم لها.

قوله تعالىٰ: **﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾**.

بيان للنداء، أي أنّ المنادي نادى بالإيمان بالربّ، فسمعنا وأسرعنا إلى الإيمان وأطعنا، وقولهم: «آمنا» إقرار منهم بالإيمان والعبودية للحيّ القيوم، الذي لا حدّ لعظمته وعنايته.

وإنّما أكّدوا إيمانهم بإيراد لفظ الإيمان ومشتقّاته ثلاث مرّات، ليؤهِّلهم إلى الفيض الربوبي، ولبيان أنّ الإيمان شغلهم الشاغل، وأنّهم أحبّوه وقد ملأ مشاعرهم.

وذكرهم للرب، حثّاً منهم له عزّوجلّ بالعطف عليهم؛ لأنّهم عبيد مربوبون له عزّوجلّ.

وإنّما أسرعوا إلى الإيمان بمجرّد أن سمعوا المنادي ينادي للإيمان بالله تعالىٰ، لأنّهم رأوا آثار عظمته في الخلق بعد النظر والتفكّر.

قوله تعالىٰ: **﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾**.

زيادة في التضرّع، وتوجّه منهم إلى الله تعالىٰ بالدّعاء لطلب المغفرة والتكفير للسيّئات، لأنّهم آمنوا بالله تعالىٰ ورسله الذين يخبرون عن الله عزّوجلّ

بما يوجب سعادتهم، ويحذّرونهم عن ما يوجب سخطه وعقابه وشقاءهم، فاعترفوا بالقصور والتقصير والرهبة ممّا يصدر منهم من الذنوب، داعين ـ عند مَن لا يعقل حدّ لعظمته ورحمته ـ المغفرة للذنوب، والتكفير للسيّئات.

والغفران للذنوب يحصل بالتوبة والإستغفار عنهما، بخلاف التكفير للسيّئات، فإنّه ربما يحصل بإتيان الحسنات، قال تعالىٰ: **﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾**[1]، أو باجتناب الكبائر، قال تعالىٰ: **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾**[2]، فيكون التكفير للسيّئات أعمّ من الاستغفار لها.

والمعنى: وفقنا للتوبة عن الذنوب والسيّئات إمّا بالاستغفار، أو بفعل ما يوجب التكفير عن السيّئات.

قوله تعالىٰ: **﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾**.

أي: اجعلنا عند أخذك لنا من هذه الدُّنيا وانتقالنا من هذا العالم، في زمرة الأبرار وفي صحبتهم. والأبرار جمع بار، وقيل: جمع بر، وقد تقدّم معناه في الآيات السابقة، وللأبرار شأن خاص، ومنزلة رفيعة عند الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: **﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾**.

زيادة ترغيب في التقرّب إلى الله تعالىٰ، بعدما أبدوه من الرهبة من المعاصي والذنوب التي تستوجب النار، ودعاءٌ بالثبات والاستقامة على الإيمان، فإنّ الثواب مشروط بالموافاة على الإيمان.

والمعنىٰ: ربّنا وأعطنا ما وعدتنا وما أنزلته من التبشيرات على رسلك، وفي

---

١. سورة هود: الآية ٣١.

٢. سورة النساء: الآية ٣١.

الحقيقة أنّهم سألوا الله تعالىٰ التوفيق للإيمان والتقوى والعمل الصالح، ليكونوا أهلاً لوفاء الوعد لهم، وهو الجزاء الحسن الذي أوحاه عزّوجلّ إلى رسله.

ومن ذلك يعلم الجواب عن ما ذكره بعضهم، من أنّه كيف يسألون الله تعالىٰ شيئاً قد وعد به، وهم يعلمون أنّه لا يُخلف الميعاد.

وهذا الدُّعاء منهم يدلّ على نهاية الخضوع، وعدم الاعتماد على النفس، والاعتراف بالتقصير، وعدم الثقة بالثبات إلّا بتوفيق منه عزّوجلّ.

وعموم الآية المباركة يشمل الدُّعاء لتنجيز كلّ ما وعده عزّوجلّ للمؤمنين، سواء في الدُّنيا أو في الآخرة:

قال تعالىٰ: **﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم﴾**[2].

وقال تعالىٰ: **﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾**[3].

وغير ذلك من الآيات الشريفة التي تضمّنت الوعد والبُشرى للمؤمنين.

وإنّما ذكر عزّوجلّ: **﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾** لبيان أنّ ذلك وحي منزل من الله تعالىٰ على الرُّسل، وقد تناقله أنبياؤه الكرام عليهم السلام خلفاً عن سلف، وهم شاهدون على ذلك مع ضمانهم لذلك عليه عزّوجلّ.

---

١. سورة التوبة: الآية ٧٢.

٢. سورة النور: الآية ٥٥.

٣. سورة محمّد: الآية ٧.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

مبالغة في الدُّعاء والإلحاح فيه بما استولى عليهم الرهبة.

والمراد بالخزي في المقام، هو عدم وفاء الوعد الموعود به المؤمنون، بقرينة ذيل الآية المباركة، فيستلزم الهلاك والوقوع في البلية.

وإنّما خصّوا ذلك بيوم القيامة، لما فيه من الأهوال العظيمة، فطلبوا النجاة منها، وعدم الخزي على رؤوس الخلائق، فما أشدّ على مَن يخال نفسه من المؤمنين في الدُّنيا، وهو في القيامة من المفضوحين، يستحيي ممّا ورد عليه من الذلّ والهوان، فهذه الفقرة من الدُّعاء تأكيد للدّعاء المتقدّم، وطلب للنجاة من الخزي والفضيحة يوم القيامة، الذي تظهر نتائج الأعمال فيه.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

ثناء جميل، وتمجيد لله تعالىٰ، وتقديس منهم له بما هو حقّه، وقد ختموا به دعاءهم، ليكونوا على اطمئنان بالإجابة، فإنّ الدُّعاء الذي يتضمّن التقديس والتمجيد لله تعالىٰ أقرب إلى الاستجابة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

الفاء للترتيب، وما بعده مترتّب على السابق ترتّب المعلول على العلّة التامّة المنحصرة، وتدلّ عليه هيئة الماضي الدالّة على تحقّق الاستجابة وتقرّرها، وذيل الآية المباركة ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ﴾ تقرير لقولهم ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

والاستجابة هي الجواب مع حصول المقصود والمراد، بخلاف الإجابة فإنّها تُطلق على مجرّد الجواب بالردّ أيضاً. وهذه الاستجابة تكوينيّة ذكرها عزّوجلّ لإبراز العناية بالدّاعين والتلطّف معهم. بل أنّ لأُولي الألباب بذواتهم القدسية مراتب استجابة الله تعالىٰ بجميع أطوارهم وشؤونهم، في أي عالم ورد عليهم.

وفي ذكر الربّ مضافاً إليهم دلالة على كمال العطف بهم، واختصاصهم بالرحمة الإلهيّة.

قوله تعالىٰ: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ﴾.

زيادة تلطّف في الكلام، وكمال تحبّب معهم، والاعتناء بشأنهم، وتشريف الداعين بشرف الخطاب، ولذلك جاء الالتفات في الكلام بقوله تعالىٰ: ﴿أَنِّي﴾ للتكلّم والخطاب بقوله جل شأنه ﴿مِنكُم﴾.

والضياع: بمعنى الهلاك والإبطال، أي إنّي أحفظ لكم أعمالكم، وأستجب لكم بشرط العمل الصالح.

والآية المباركة تدلّ على أنّ الاستجابة لم تكن إلّا لأجل العمل، فهو المدار فيها، فلم تكن تلك المشاعر الإيمانيّة الصادقة التي لازمت الدُّعاء كافية في الاستجابة، حتّى تتحوّل إلى العمل، فكانت الاستجابة بالنسبة إلى العاملين هي توفية جزاء أعمالهم، فتكون هذه الآية الشريفة بياناً للاستجابة وكيفيّتها.

قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾.

بيان لجنس العامل، أي أنّه لا يفرّق عنده تعالىٰ حينئذٍ بين الذكر والأُنثى، فالجميع بالنسبة إلى سبب الاستجابة على حدٍّ سواء، وأنّ المناط هو العمل مع الإخلاص، سواء كان العامل ذكراً أم أُنثىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.

بيان لسبب التساوي بين العاملين الذكور والإناث. وفي الآية الشريفة كمال العناية والتحبّب واللّطف بهم، أي انكم في الثواب والتقرّب وسائر الصفات والخصوصيّات سواء عندي، بعد ان كنتم جميعاً من أُولي الألباب.

قوله تعالىٰ: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾.

بيان للأعمال التي يثبت فيها الجزاء الموعود، وتفصيل لما أجمله آنفا بذكر أهمّ أفراد العمل وأفضلها، ولبيان أنّ المثوبة التي أكّد الله تعالىٰ عليها في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم، لا يمكن أن ينالها أحد إلّا مع العمل، فلا يطمعنّ أحد فيها بدونه.

ولمّا كانت السورة مشتملة على الجهاد في سبيل الله تعالىٰ، والمعركة في تثبيت كلمة التوحيد، وإعلاء شأن دين الله تعالىٰ، كانت الأمثلة المضروبه للأعمال الصالحة، لها ارتباط بهذا المضمار مع المدح والثناء والتعظيم. فمنها الهجرة في سبيل الله تعالىٰ، وإيثار الدِّين الحقّ، سواء كانت الهجرة عن الشرك أم الوطن أو الذنوب، فتكون الهجرة أعمّ من الإخراج من الدِّيار.

ومنها إخراج المؤمنين من ديارهم وأوطانهم ظلماً وعدواناً؛ لأنّهم آمنوا بالله تعالىٰ وأعرضوا عن الباطل.

وإنّما ذكر الهجرة لأنّها أشقّ شيء على النفس، فإنّها مجبولة على حبّ الوطن الذي نشأت فيه، ويمكن أن يكون الإخراج من الدِّيار تغييراً للهجرة وتفصيلاً بعد إجمال، ولكنّه بعيدٌ عن ظاهر الآية المباركة، ويحتمل أن يكون لبيان أنّ ترك الديار إنّما كان عن ظلم وعدوان، وأمّا الهجرة عن الأوطان فلأجل أنّهم لم يتمكّنوا من إقامة الدِّين.

والآية الشريفة تبيّن أهمّية الهجرة إلى الله تعالىٰ، وهو يشمل الهجرة إليه عزّوجلّ كما مرّ، سواء كانت مكانيّة أو زمانيّة وعمليّة، فالمهاجر عن المعاصي مهاجر إليه جلّت عظمته، وكذا ورد في بعض الأحاديث: «أنّ المؤمن مهاجر»، لأنّه يهجر عن المعاصي.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾.

أي: وتحمّلوا الأذىٰ في سبيل الله تعالىٰ، وهو يشمل كلّ ما يُصيب المؤمن من المشركين وغيرهم قولاً وفعلاً.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾.

أي: وقاتلوا الكفّار والمشركين وأعداء الله تعالىٰ، فقتلوا واستشهدوا في سبيل الله تعالىٰ، فإنّ مَن جمع فيه هذه الصفات له المثوبة العظيمة المؤكّدة.

قوله تعالىٰ: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي: من اتّصف بتلك الأوصاف، لأسترن عليهم سيِّئاتهم وأمحوها، وهي صغائر المعاصي، لأنّهم تركوا الكبائر وهجروها بالترك أو التوبة.

ويُحتمل أن يكون ذلك جواباً عن ما طلبوه من الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أي: واتفضّل عليهم بأن أدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار، قد جمعت فيها موجبات البهجة والسرور، وهذا هو الذى طلبه الدّاعون في قولهم ﴿وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾.

أي: أنّ جميع ذلك كانت نتائج أعمالهم، وهي محفوظة عند الله تعالىٰ.

وإنّما قال ذلك عزّوجلّ لأنّه أكمل في اللذّة، وللتنبيه بأنّه من عظيم لا نهاية لعظمته.

وإنّما ذكر اسم الجلالة تنويهاً بشرفه وكرامته، و(ثواباً) مصدر مؤكّد لما قبله.

وهذه الآية المباركة مبيِّنة لقوله تعالىٰ: ﴿**أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ**﴾، فإنّ الأعمال محفوظة لديه عزّوجلّ، ويُثيب عليها الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ**﴾.

تأكيد لما سبق، ولبيان أنّ الثواب من رحمة الله الواسعة ومن فضله العظيم، وللإعلام بأنّ الثواب قد تشرّف بحضرته، وأنّه محفوظ عنده لا يصيبه الهلاك والفناء.

وقد ذكر عزّوجلّ في هذه الآية المباركة أُموراً ثلاثة:

الأوّل: محو السيّئات، وغفران الذنوب، وهو الذي طلبوه في قولهم: ﴿**رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا**﴾، وإنّما لم يذكر عزّوجلّ غفران الذنوب، وقال: ﴿**لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**﴾ فقط، لأنّها غفرت بالهجرة والتوبة.

الثاني: الثواب العظيم، وهو الدخول في الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار، وهو الذي طلبوه في قولهم: ﴿**وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ**﴾.

الثالث: أنّ ذلك ثواب من عند الله تعالىٰ، لأنّه لا يضيع عمل عامل منكم، فالأعمال محفوظة لديه، ويكون الثواب نتائج أعمالهم، وهذا الثواب مقرون بالتعظيم والتجليل، ويكفي في شرفها أنّها من عند الله تعالىٰ.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

إنّما حذف العطف بين قوله تعالىٰ: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾، لأنّ الأخير يبيّن كمال قدرته وعلمه وحكمته في ملكه، فهو مؤكّد للأوّل.

والآيات في قوله تعالىٰ: ﴿**لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ اسم إن، وقد دخله اللام لتأخّره عن الخبر، وللتأكيد. والتنوين فيه للتفخيم، أي آيات عظيمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ**﴾ في موضع جرّ نعت لأُولي الألباب، ويجوز أن يكون في موضع رفع أو نصب على المدح.

وقوله تعالىٰ: ﴿**قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾ منصوب على الحال في يذكرون، أو في موضع الحال.

وقوله تعالىٰ: ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلْ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ**﴾ إنّما وضع الظاهر (النار) موضع المضمر للتهويل.

والخزي: هو الخسران، وقيل: إنّه بمعنى الهلاك أو الإهانة أو الافتضاح، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي**﴾[1] أو الإبعاد، ولكن جميع ذلك متقاربة.

والنداء: في قوله تعالىٰ: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ**﴾ لما كان مخصوصاً بما يؤدّي له ومنتهياً إليه تعدّى باللام..

---

١. سورة هود: الآية ٧٨.

تارة: كما في المقام.

وأُخرى: بـ(إلى)، فلا حاجة إلى صرف اللام عن ظاهرها، وجعلها بمعنى إلى أو غيرها.

وقال بعضهم: إنّ جملة ينادي مفعول ثان لـ(سمع).

وقال آخرون: إنّ سمع تعدّت إلى واحد وينادي صفة له، وإنّما حذف المفعول الصريح في «ينادي» إيذاناً بالتعميم.

وقوله تعالىٰ: ﴿**أَنْ آمِنُوا**﴾ إمّا تفسير لينادي، إذا جعل أن مصدرية، أو بأن آمنوا فيكون متعلّقاً بـ(ينادي).

وقال بعضهم: إنّه بدل من الإيمان، ولكنّه ليس بشيء.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾ على حقيقة من الحقائق الواقعيّة التي طالما أكّد عليها القران الكريم في مواضع متعدّدة، بل أنّها مراده، وهي الاستدلال بآيات الله تعالىٰ في مخلوقاته العلوية والسفلية على عبادة الله الواحد الأحد، ونبذ الشرك والأنداد وعبادة الآيات الكونيّة، والخوارق، وهذه هي دعوة الأنبياء والرُّسل.

والآية الشريفة تضمّنت المبدأ والمعاد، فإنّ قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ يدعو إلى المبدأ المتّصف بجميع صفات الكمال في العلم والقدرة والحياة والحكمة والربوبيّة، وأمّا قوله تعالىٰ ﴿**وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾، فإنّه يدلّ على المعاد لما في هذه الآية من الدلالة على القدرة الإلهيّة، وأنّ اختلاف الليل والنهار لا يخلو من المشابهة للموت والحياة، فالليل فيه الإشارة إلى الخمود

والسكون، والنهار إشارة إلى الحركة والظهور والنشور، والموت خمود وسكون، والحياة ظهور وحركة. كما أنّ اختلاف الليل والنهار سنّة إلٰهيّة طبيعيّة، والموت والحياة سُنّة إلٰهية كذلك.

ومن ذلك يُعرف السرّ في تقديم الليل على النهار، فإنّ الموت أسبق على الحياة، فإنّها الإيجاد من العدم.

الثاني: يستفاد من ذكر اختلاف الليل والنهار بعد خلق السماوات والأرض، أنّ اختلاف الليل والنهار من شؤون خلق السماوات والأرض وتابع له.

الثالث: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ المنزلة العظيمة لأُولي الألباب، فهم الذين ينظرون في الآيات ويتعمّقون فيها ويدركون تلك الآيات الكونيّة ويستفيدون منها ويعتبرون بها، وأمّا سائر الناس فلا حظَّ لهم منها إلّا المناظر البديعة، وما فيها من الحسن والروعة والبهجة دون التعمّق والاعتبار.

الرابع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾، أنّ ذكر الله تعالىٰ له الأثر الكبير في استفادة ذوي الألباب من آيات الله تعالىٰ، وله المنزلة العظيمة في الاهتداء به إلى الحقيقة، فقد ملأ الذكر جميع مشاعرهم وتمام حالاتهم، فلا يغفلون عن الله تعالىٰ لأنّهم شاهدوا آثار عظمته في خلقه، وأيقنوا أنّ ما سواه من فيض رحمته، فاستغرقت سرائرهم في مراقبته، فلا يشاهدون حالاً من الأحوال في الآفاق وفي الأنفس إلّا وهم يعاينون شأناً من شؤونه، ومظهراً من مظاهره تعالىٰ.

وإطلاق الذكر يشمل جميع أنحائه من حيث الذات أو الصفات أو الأفعال، فكانوا في طاعة الله تعالىٰ دائماً، ممّا أوجب استعداد أنفسهم لقبول الفيض الإلهي.

الخامس: يستفاد في قوله تعالىٰ: ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ أنّ التفكّر الصحيح إنّما يكون بعد تهذيب الروح وتطهير النفس من الرذائل، وذكر

الله تعالىٰ إنّما يقوم بتلك الوظيفة؛ ولذا قدّمه عزّوجلّ على التفكّر في خلق السماوات والأرض، وهو يعدّ النفس لهذه الموهبة، ويستفاد من الآية المباركة اختصاص التفكير في السماوات والأرض دون الذات المقدّسة، لعدم الوصول إلىٰ كنه ذاته، وقد ورد النهي عن التفكّر في الذات، يضاف إلى ذلك أنّ ذكر الله تعالىٰ يُغني عن التفكّر في الذات، وهذه الآية المباركة ترشد الناس إلى التفكّر في أفعاله تبارك وتعالىٰ.

السادس: يمكن أن يُراد بالقيام في قوله تعالىٰ: ﴿**قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾ مطلق القيام بالوظائف العبوديّة، لا خصوص القيام حال الصلاة، فكلّ مَن سعى في قضاء حوائج المؤمنين، أو في تعظيم شعائر الله تعالىٰ، أو في معاش العيال، ونحو ذلك ممّا هو كثير داخل في الآية الشريفة، لقوله عليه السلام: «الكادّ لعياله مجاهد في سبيل الله»، وقوله عليه السلام: «الكاسب حبيب الله»، وقوله عليه السلام: «جهاد المرأة حسن التبعّل»، وقوله عليه السلام: «مَن سعى في قضاء حاجة كان له أجر الشهيد»، كما يمكن أن يراد بالقعود، القعود عن كلّ ما لا يرتضيه الله تعالىٰ، وعدم الحركة فيه أصلاً، وأن يراد بالجنوب الحالات الحاصلة للعبد عند التوجّه إلى القهّار العظيم.

ومن ترتيب التفكّر على ما ذكر في هذه الآية الشريفة، يستفاد أنّ التفكّر الصحيح المنتج إنّما يكون بعد العمل الصالح، ويدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللهُ**﴾[1]، ولكن الإنسان غفل عن ذلك كلّه، فجعل نفسه مقيّدة بأمور اصطنعها، فما أقبح ذلك منه!

السابع: يستفاد في قوله تعالىٰ: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ**﴾، أنّ الربّ الذي خلق الخلق بهذا النظم العجيب، ودبّر أُمورهم هو حقّ، ولا يصدر منه

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

إلّا الحقّ، وهو منزّه عن الباطل، وأنّى للعقول أن يحيطوا بآثار حكمته، وأنّ الخلق مهما تفكّروا في مخلوقاته، فلن يعرفوا حقيقتها، وليس لهم إلّا الإذعان بأنّه لم يخلقها باطلاً، لأنّه منزّه عنه، وهو الحقّ، ولا يصدر منه إلّا الحقّ، فإن لم يدرك العقل آثار الحكمة والعظمة لا يمكنه إنكار هذا الأمر، وهو أنّه لم يخلقه باطلاً. ويستفاد منه أدب الدُّعاء والمناجاة مع الله تعالىٰ، وفيه تعليم المؤمنين كيفيّة المخاطبة مع الله تعالىٰ، فلابدّ من الثناء والتنزيه والدُّعاء والابتهال.

الثامن: يستفاد من سياق قوله تعالىٰ: ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ**﴾ العليّة والمعلوليّة، أي أنّ دخول النار لا يكون إلّا لأجل ظلم الإنسان على نفسه، ولا نصر للظالم على النفس، فيترتّب الخزي لا محالة؛ أمّا أنّ دخول النار لا يكون إلّا لأجل الظلم فهو معلوم، لأنّه مترتّب على المعصية والطغيان، وأمّا أنّه لا ناصر للظالم على النفس، فلأنّه منحصر في الله تعالىٰ، لأنّه إمّا الشفاعة، أو التوبة، والمفروض عدم تحقّقها، فلا محالة يترتّب المعلول على العلّة التامّة المنحصرة.

التاسع: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ**﴾، أنّ إيمانهم مبني على أمرين:

أحدهما: الدليل العقلي الذي اعتمد على التفكّر في خلق الله تعالىٰ، والأدلّة القطعية.

والثاني: الدليل السمعي، عندما سمعوا المنادي يناديهم الى الإيمان بالله تعالىٰ، وهم بعد تأمّلهم في هذا الدليل السمعي، وقعت منهم الإجابة بلا فاصلة وفتور.

ويمكن أن يكون المراد بالسمع هنا الإجابة الحقيقيّة، كما في قول: «سمع الله لمن حمده»، فالمنادي داع إلى الله تعالىٰ، وشاهد على تحقّق الدعوة الحقّة، وبعد فناء العالم ينتفي موضوع الدعوة وتبقى موضوع الشهادة.

وهذه الآية الشريفة على اختصارها تبيّن المبدأ والمعاد، واستدلّ على الأوّل بالمعلول على وجود العلّة، وتسمى هذه الطريقة في الاصطلاح بالبرهان الإني، واستدلّ على الثاني مع قطع النظر عن الملازمة بينهما بالإقرار والاعتراف، الذي هو من أقوى الأدلّة في القوانين الجزائية.

العاشر: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾** أنّ مقام الأبرار من أعلى المقامات، الذي لا مقام أعلى وأرفع عند الله تعالىٰ منه، قال جلّ شأنه: **﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ... يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾**[١]، وقال تعالىٰ: **﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ... يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾**[٢]، ويكفي في عظمة شأنهم أنّ هؤلاء الداعين مع علوّ شأنّهم يطلبون من الله تعالى أن يتوفّاهم مع الأبرار، ويجعلهم معهم. فتكون حالاتهم من سنخ حالات الأبرار، وأن تكون عوالمهم كعوالمهم.

والحاصل: أنّ هذه الآية الكريمة تُبيّن أنّ أُولي الألباب، هم الذين يكونون مع الأبرار، في جميع النشآت، وفي مرضاة الله تعالىٰ، والأبرار هم شهداء الخلق وقادة أهل الجنّة.

الحادي عشر: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾**، أنّ الجامع بين الجميع ـ الذكور والإناث ـ كونهم من أُولي الألباب، وهو بمنزلة المادّة الواحدة التي تجمع الجميع، والخصوصيّات الفرديّة بمنزلة الصور المتعدّدة، فتكون (من) نشوية حينئذٍ، أي أنّ منشأهم واحد، وهو كونهم أُولي الألباب، وهذه الخصوصيّة هي التي أوجبت اشتراك النساء مع الرجال في هذا الأمر المهمّ، ويدلّ على ذلك قوله تعالىٰ: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**

---

١. سورة المطففين: الآية ١٨ و ٢١.

٢. سورة المطففين: الآية ٢٢ و ٢٥ و ٢٦.

وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١]، وإذا انتفت هذه الخصوصيّة كان الآمر على خلاف ما أراده الله عزّوجلّ، وكذا الأمر في ضدّ المؤمنين وهم المنافقون، كما في قوله تعالىٰ: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾[٢].

الثاني عشر: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾، أنّ أُولي الألباب لم يبلغوا تلك المقامات العالية، ولم يتّصفوا بتلك الصفات الكريمة، إلّا لأنّهم تحمّلوا الأذىٰ في سبيل الله تعالىٰ وهجروا المعاصي والملذّات، والأهل والعيال والديار ليقيموا دين الحقّ، وجعلوا أنفسهم وفقاً لمرضاة الله عزّوجلّ، فعندما طلب منهم الشهادة لم يتوانوا في ذلك، فقدّموها إليه عزّوجلّ، وأذعنوا أنّ سعادتهم إنّما هي بإقامة دين الحقّ.

الثالث عشر: إنّما لم يذكر سبحانه وتعالى أسماء هذه الطائفة في الآيات، واقتصر جلّ شأنه على ذكر حالاتهم وصفاتهم وابتهالاتهم، لأجل أنّهم القدوة والأُسوة بعملهم وسيرتهم، وأنّهم ينيرون لنا الطريق، وأنّ حالاتهم وابتهالهم هي طريق السير والسلوك إلى الله تعالىٰ.

***

بحث روائي:

الآيات الشريفة من جلائل الآيات القرآنية وقد تضمّنت مضامين عالية في التوحيد والعرفان، واعتبرها علماء السير والسلوك من أهمّ الآيات التي وردت

---

١. سورة التوبة: الآية ٧١.

٢. سورة التوبة: الآية ٦٧.

في هذا الطريق، ونحن نذكر ما وردت في فضلها من الروايات، ثمّ ما وردت في تفسير المفردات منها.

فضل الآيات:

في «المجمع»، عن النبيّ ﷺ، أنّه لما نزلت هذه الآيات قال ﷺ: «ويلٌ لمَن لاكها بين فكّيه ولم يتأمّل فيها».

وفي «تفسير البرهان»، عن رسول الله ﷺ، قال: «ويلٌ لمَن قرأ الآية ثمّ مسح بها شبكته»، أي تجاوز عنها من غير فكر فيه، وذمَّ المعرضين عنها.

وفي «التهذيب»، عن معاوية بن وهب، قال:

«سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في صلاة النبيّ ﷺ: كان يؤتى بطهور فيخمر عند رأسه، ويوضع سواكه تحت فراشه، ثمّ ينام ما شاء الله، فإذا استيقظ جلس، ثمّ قلّب بصره في السماء، ثمّ تلا الآيات من آل عمران: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾، ثمّ يستنّ ويتطهّر، ثمّ يقوم إلى المسجد فيركع أربع ركعات على قدر قراءة ركوعه، وسجوده على قدر ركوعه، ويركع حتّى يقال: متىٰ يرفع رأسه، ويسجد حتّىٰ يُقال: متى يرفع رأسه، ثمّ يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثمّ يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، ويقلّب بصره في السماء، ثمّ يستنّ ويتطهّر ويقوم إلى المسجد ويُصلّي الأربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثمّ يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثمّ يستيقظ ويجلس ويتلو الآيات من آل عمران، ويقلّب بصره في السماء، ثمّ يستنّ يتطهّر ويقوم إلى المسجد، فيوتر ويصلّي الركعتين ثمّ يخرج إلى الصلاة».

أقول: يستفاد من الرواية فضل الآيات المباركة وأهمّيتها، لأنّه ﷺ كان يكرّر قراءتها ويواظب عليها.

وفي «الدّر المنثور»: أخرج ابن حيّان في صحيحه، وابن عساكر وغيرهما عن عطاء، قال: «قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ؟

قالت: وأيّ شأنه لم يكن عجباً؟!! إنّه أتاني ليلة فدخل معي في لحافي ثمّ قال: ذريني أتعبّد لربّي، فقام فتوضّأ ثمّ قام يصلّي، فبكى حتّى سالت دموعه على صدره، ثمّ ركع فبكى ثمّ سجد فبكى، ثمّ رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك حتّى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقال: يا رسول الله، ما يُبكيك وقد غفر الله تعالى لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟! قال ﷺ: أفلا أكون عبداً شكوراً، ولِمَ لا أفعل؟ وقد أنزل الله تعالىٰ عليَّ في هذه الليلة: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾، ثمّ قال ﷺ: ويلٌ لمَن قرأها ولم يتفكّر فيها».

وفي «الدرّ المنثور» أيضاً، عن علي عليه السلام:

«أنّه ﷺ إذا قام تسوّك ثمّ ينظر إلى السماء ثمّ يقول: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾».

وأخرج الشيخان، وأبو داود، والنسائي وغيرهم عن ابن عبّاس، قال:

«بتّ عند خالتي ميمونة، فنام رسول الله ﷺ حتّى انتصف الليل أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، ثمّ استيقظ فجعل يمسح النوم عن وجهه وبيديه، ثمّ قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران حتّى ختم».

أقول: الروايات متّفقة المضمون على جلالة هذه الآيات، والاهتمام بشأنها، وكثرة التدبّر في مضامينها، والحثّ في الإتيان بها في أهمّ الأوقات، وهو السحر الذي يكون الدُّعاء فيه أقرب إلى الاستجابة والقبول.

تفسير مفردات الآيات:

في «الكافي» عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «أفضل العبادة إدمان التفكير في الله تعالىٰ وفي قدرته».

أقول: المراد بالتفكّر في الله تعالىٰ التفكّر في خلقه وصفاته، لا التفكّر في الذات؛ فإنّه منهيٌّ عنه ولا يوجب إلّا التحيّر، قال تعالىٰ: **﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾**[1]، وعن عليّ عليه السلام: «تاهت العقول في كنه معرفته»، وأمّا التفكّر في الصفات والأفعال فقد ورد في الأمثال الكثيرة والسنّة الشريفة الحثّ عليه، قال تعالىٰ: **﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[2].

وفي «الكافي» أيضاً، عن معمّر بن خلّاد، قال:

«سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنّما العبادة التفكّر في أمر الله عزّوجلّ».

أقول: الحديث شاهد على ما ذكرناه أيضاً.

وفيه أيضاً: عن الصادق عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«التفكّر يدعو إلى البرّ والعمل به».

أقول: لأنّ الفكر الصحيح المنتج يوجب تهييج النفس، وتحرّك القوى الإرادية إلى العمل.

وفي «الدرّ المنثور» أخرج أبو الشيخ في العظمة، عن أبي هريرة، قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: فكر ساعة خير من عبادة ستّين سنة».

أقول: في بعض الروايات عنه صلى الله عليه وآله: «تفكّر ساعة خير من قيام ليلة»، وفي رواية أُخرىٰ «من عبادة سنة» وهي المرويّة من طرق الإماميّة، ويمكن حمل

---

١. سورة طه: الآية ١١٠.

٢. سورة الحشر: الآية ٢١.

الاختلاف على مراتب اختلاف الفكر وقربه وبُعده نحو إصابة الواقع.

وفي «الدرّ المنثور» أيضاً، عن ابن عبّاس، قال:

«قال رسول الله ﷺ: تفكّروا في خلق الله، ولا تفكّروا في الله».

أقول: قد تقدّم في التفسير ما يبيّن ذلك؛ لأنّ التفكّر في الله تعالىٰ لا يزيد إلّا تحيّراً، فإنّه لا يمكن أن يحيط أحد به علماً.

وفي «الكافي»: عن الحسن الصيقل، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث، قال: «سألته كيف يتفكّر؟ قال عليه السلام: يمرّ بالخربة، أو بالدار فيقول: أين ساكنوك؟ أين بانوك؟ مالكِ لا تتكلّمين».

أقول: هذا بيان لبعض مصاديق الفكر الممكنة لعامّة الناس، وإلّا فللتفكّر مراتب كثيرة، حسب درجات المتفكّرين من العرفاء.

وفي «تفسير العيّاشي» عن أبي حمزة الثمالي، عن أبى جعفر عليه السلام، قال: «لايزال المؤمن في صلاةٍ ما كان في ذكر الله، إن كان قائماً أو جالساً أو مضطجعاً، لأنّ الله تعالىٰ يقول **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾**».

أقول: هذا محمول على مراتب قدرة الذاكر لله تعالىٰ، على ما يأتي في البحث الفقهي.

وفي «تفسير العيّاشي» عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «الموت خيرٌ للمؤمن، انّ الله تعالىٰ يقول: **﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾**.

أقول: في جملة من الأخبار أنّه خير للمؤمن والكافر؛ أمّا المؤمن فلاستراحته عن همّ الدُّنيا وغمّها، وورود إلى رحمة الله تعالىٰ. وأمّا الكافر فلاستراحة الناس منه، فتكون الخيريّة باعتبار عدم زيادة عقوباته في الآخرة.

وفي «الدرّ المنثور» في قوله تعالىٰ: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾**، قالت اُمّ سلمة: «يا رسول الله

لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله تعالىٰ الآية».

وفي «الأمالي» في قوله تعالىٰ: **﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾**، نزلت الآية في عليّ عليه السلام لمّا هاجر ومعه الفواطم: فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت محمّد صلى الله عليه وآله، وفاطمة بنت الزبير، ثمّ لحقت بهم في ضجنان أُمّ أيمن، ونفر من ضعفاء المؤمنين، فساروا وهم يذكرون الله في جميع أحوالهم حتّى لحقوا بالنبيّ، وقد نزلت الآيات».

أقول: ورد من طرق الجمهور أنّها نزلت في المهاجرين.

وكيف كان، فالآية المباركة عامّة إلى يوم القيامة، وما ورد في شأن النزول بيان لبعض المصاديق.

***

بحث قرآني:

ممّا أكّد عليه القرآن الكريم، واهتمّ به اهتماماً بليغاً، الدُّعاء والتضرّع إلى الله تعالىٰ، والإستمداد منه في قضاء الحوائج، وقد ذكرنا في أحد مباحثنا ما يتعلّق بهذا الموضوع المهمّ، الذي يمسّ الإنسان من جميع جهاته الدنيويّة والأُخرويّة، بل دخيل في سعادته الأبديّة، وبيّنا الجوانب المتعدِّدة فيه. وفي المقام نذكر ما يستفاد من الآيات الشريفة المتقدّمة في هذا الأمر، فإنّها إشتملت على أُمور مهمّة، تكشف عن بعض الجهات المقوّمة للدّعاء، وتبيّن أدب الدُّعاء.

ويستفاد من تلك الآيات المباركة أنّ الدُّعاء داخل في صميم حياة أُولي الألباب، ولا يهملونه في حالة من الحالات، ويعتبرونه من أهمّ الأسباب في نيل المطلوب ونجح المقصود، والآيات الشريفة قد اشتملت على دقائق ورموز تكون دخيلة في استجابة الدُّعاء، التي قلّما توجد في آيات أُخرىٰ، ونحن نذكر جملة منها في المقام. والأمر المهمّ هو أنّ الدُّعاء هنا صدر عن قلوب مؤمنة صادقة في

إيمانها، تفكّرت وتدبّرت وتذكّرت واهتدت إلى الحقّ، فتوجّهت إلى الله تعالىٰ بمشاعر إيمانية خالصة، وتوسّلت إليه عزّوجلّ، وجعلت إيمانها وسيلة لقبول دعائهم، وهذا الدُّعاء الحار الذي صدر منهم يدلّ على كمال العرفان الإلهي فيهم، ونراهم أنّهم يكرّرون لفظ «ربنا» خمس مرّات في دعواتهم على سبيل الاستعطاف وطلب رحمته، وقد ذكروا هذ الاسم لما فيه من الأثر العظيم في استجابة الدُّعاء.

وقد تكرّر هذا الاسم المبارك كثيراً في دعوات الأنبياء والمرسلين، وذلك لأنّ في هذا الاسم الدلالة النفسيّة على حرارة التوجّه، وصدق الرغبة في التكرار، لدلالته على الإلحاح في المسألة، وكثرة الطلب من الله سبحانه وتعالىٰ، فهم لايزالون يلحّون في الدُّعاء، ويقولون: «ربنا» حتى استجاب لهم ربّهم، وعطف عليهم ورحمهم، ثمّ إنّهم دخلوا في هذا الميدان بعد تطهير أنفسهم من الذنوب والآثام، والاشتغال بذكر الله تعالىٰ، وملأوا مشاعرهم من عظمته، وقد كرّروا لفظ الإيمان ومشتقّاته لتوكيد إيمانهم وتقديمه أمام طلبهم، لما فيه الأثر في الاستجابة.

وقد اشتمل دعاؤهم على كمال الخضوع والخشوع، وشدّة التوجّه إليه عزّوجلّ. فقدّموا الثناء على الطلب والدُّعاء، ثمّ طلبوا الوقاية من النار، فإنّها أهمّ مطلب لأُولي الألباب، لما عملوا من تقصيرهم وما يصدر عنهم ممّا يوجب سلب التوفيق والخزي، فالتمسوا منه عزّوجلّ العناية والتوفيق، والسلامة من كلّ خزي، وطلبوا منه النصرة، ثمّ أكّدوا على طلب غفران الذنوب، وتكفير السيّئات بعدما قدّموا ما يؤهّلهم للاستجابة وهو الإيمان، ثمّ لم يقتصر دعاؤهم على خصوص الدُّنيا، بل طلبوا منه وعزّوجلّ أن يجعلهم مع الأبرار الذين لهم المقام المعلوم والمنزلة العظيمة.

وأخيراً طلبوا منه عزّوجلّ أن يوفّيهم ما وعده لهم، وهو لا يخلف الميعاد.

وقد اشتمل دعاؤهم على الادب المعهود بين الله تعالىٰ وعباده المخلصين وما تضمّنه دعاؤهم على الثناء والتنزيه، والإلحاح في الطلب، وموجبات الاستجابة، فاستجاب لهم ربّهم، لأنّ فيهم ما يوجب ذلك؛ وهو العمل الصالح الذي هو العمدة في ذلك.

هذا فيض من غيض ما تشتمل عليه الآيات المتقدّمة، من الرموز والدقائق وأدب الدُّعاء، ولابدّ لكلّ داع أن يجعل ما في هذه الآيات نصب عينيه، ويجعلها منهاجاً لكلّ دعواته، لتحصل له الاستجابة.

***

بحث فقهي:

من المسلّمات في الفقه أنّ التكاليف تتنزّل على مراتب القدرة والاستطاعة، فليس تكليف العاجز والمضطرّ في الصلاة ـ مثلاً ـ تكليف القادر المختار، واستدلّوا على ذلك بحكم العقل المقرّر بالكتاب والسنّة، قال تعالىٰ: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[2].

إلى غير ذلك من الآيات الشريفة.

وعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»، وقد تقدّم في أحد مباحثنا السابقة تفصيل الكلام فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾ ـ حسب ما ورد في تفسيرها من السنّة الشريفة ـ من أدلّة توسعة التكليف، تبيّن مراتب التكليف تبعاً لأحوال المصلّين، فالصحيح يصلّي قائماً والمريض يصلّي جالساً،

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

٢. سورة الحج: الآية ٧٨.

ومَن لا يقدر على الجلوس يصلّي على جنبه، ففي «الكافي» عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفرﷺ، في قول الله عزّوجلّ: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾، قالﷺ: «الصحيح يُصلّي قائماً وقعوداً، والمريض يُصلّي جالساً، وعلى جنوبهم الذين يكون الأضعف من المريض الذي يصلّي جالساً».

أقول: المراد من قولهﷺ: «قائماً وقعوداً» بالنسبة إلى صلاة النافلة، فإنّ المكلّف مخيّر في إتيانها قائماً أو قاعداً، وأمّا الصلاة الواجبة فإنّه يتعيّن فيها القيام إن كان صحيحاً.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن أبي جعفر ﷺ: «في قول الله عزّوجلّ: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً**﴾ الأصحّاء، ﴿**وَقُعُوداً**﴾ يعني: المرضىٰ، ﴿**وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾ قالﷺ: أعلّ ممّن يصلّي جالساً وأوجع».

أقول: الروايات في ذلك كثيرة، قد فصّلنا القول في كتابنا (مهذب الأحكام) فراجع.

بحوث عرفانيّة

الآيات الشريفة المتقدّمة تشتمل على مضامين عالية في السير والسلوك، ويعتبرها أهل الذوق والعرفان، دستوراً ومنهاجاً لهم في عروجهم العرفاني، ونحن نشير إلى بعض ما تقتضيه الحال:

الأوّل: تتضمّن الآيات الشريفة على مخاطبة المربوب مع الربّ، ومثل هذه المخاطبة تستلزم الحضور، أي حضور المخاطب لدى المتكلّم، وهو من طرف مخاطبة الله تعالىٰ مع عباده وخلقه صحيح لا ريب فيه، لأنّه حضور إحاطي فعلي من كلّ جهة، وأمّا من طرف المربوب مع الربّ فهو حضور وجداني، وهو من أعظم مراتب تجلّيات الربّ العظيم على القلوب والضمائر، ويبيّن مثل هذا

الحضور الوجداني قول أبي عبد الله الحسينعليه السلام في بعض حالاته الانقطاعيّة مع ربّه: «سيّدي ماذا وجد مَن فقدك، وما الذي فقد مَن وجدك»، ويشير إلى ذلك قول عليّعليه السلام في الدُّعاء المعروف: «إلٰهي صبرتُ على عذابك، فكيف أصبر على فراقك»، وهذه هي الرابطة الاختياريّة للعباد مع معبودهم الحقيقي.

ولعلّ من أعظم أسمائه الحسنى تأثيراً على القلوب، وأشدّها حضوراً عند المخاطب، اسم (الربّ)، ولذا نرى أنّ الأنبياء العظام يتوسّلون بهذا الاسم المبارك في دعواتهم الشريفة، وحالاتهم الانقطاعيّة، وهو يدلّ على كمال الخضوع والخشوع لربّهم، ويستميلون عطفه وعنايته عزّوجلّ، الذي خلقهم وربّاهم ومنَّ عليهم بجميع النِعَم الظاهريّة والمعنوية.

الثاني: يستفاد في الآيات المباركة أنّ أُولي الألباب هم الذين وهبوا وجودهم، وجميع حيثيّاتهم إلى خالقهم، فقد نصبوا أنفسهم على الجهاد والمثابرة، والصبر على البلايا، والأذىٰ في سبيل الله تعالىٰ، فصاروا بذلك مظاهر حقيقيّة لقول: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[1]، والالتفات إلى هذه الحالة، وترتيب الأثر عليها من أهمّ الطرق التي سلكها الأنبياءعليهم السلام الأولياء في السفر إلى الله تعالىٰ، والسير إليه، وهذه الحالة هي غاية آمال المجاهدين والمرتاضين في الحقّ بالحق، وقد أسموه بالسفر في النفس بالنفس، ولا منتهى لهذا السير إلّا ما أشار إليه سيّد الأنبياء بقولهصلى الله عليه وآله: «مَن رآني فقد رأى الحقّ»، وهذا هو المعراج الروحاني، الذي هو العلّة التامّة لاستكمال النفوس المستعدّة.

وإن شئت قلت: هو إيجاد تمام العوالم في عالم واحد، وهو عالم الإنسانيّة الكبرى بالاختيار، فتصير النيران تحت إرادته، والجنان تحت أقدامه، فتخاطبه النار بقولها: «جز يا مؤمن، فإنّ نورك يطفئ لهبي»، وهذه كلّها لمحة يسيرة من سير

---

١. سورة البقرة: الآية ١٥٦.

الإنسان إلى الكمال غير المتناهي من كلّ جهة.

كما أنّها من تجلّيات أُولي الألباب، بعدما لاقوا أشدّ المصاعب في هذه الدار الفانية، فقد هجروا الأهل والديار، وتركوا المعاصي لأجل ربّ الأرباب، وقاتلوا النفس الأمّارة فقتلوها بالسيطرة عليها وتوجيهها إلى ما يرضي خالقها، ولأجل ذلك كانت عنايات الله جل شأنه بهم عظيمة لا حدَّ لها، لأنّهم مظاهر أخلاقه، وهم الصور المرئيّة من العقل الكلّي في هذا العالم وفي عالم البرزخ وفي عالم الآخرة، وقد أعدَّ لهم جنّات عظيمة لا نهاية لعظمتها، وهذه الجنّات هي جنّة الأعمال، وجنّة الرضوان، وجنّة اللّقاء، وهي منتهى الغايات وأعلى الكمالات.

الثالث: غلبة ذكر الله تعالىٰ على العبد، توجب تجلّي عظمة الله جلَّ جلاله عليه، فيصير طوع إرادته، فلا يعمل إلّا بما يرتضيه، ولا يرى ولا يسمع إلّا ما يشاء الله تعالىٰ، ويصبح بذلك مرآة لوحي السماء، ولا معنى لأُولي الألباب إلّا ذلك، فترى أنّهم يسرعون إلى الإيمان عندما يسمعون المنادي ينادي إليه، لأنّ النداء جلب مشاعرهم بعدما كانت مشغولة بذكر الله تعالىٰ، وهذا هو السمع الحقيقي الذي يغيّر العبد عمّا عليه من الغفلة.

وبعبارة أُخرىٰ: هي الجذبة الملكوتيّة التي تحصل للنفس، وكم لأُولي الألباب من هذه الجذبات إلى ربّ الأرباب، ولابدّ من الارتباط مع هؤلاء بالمعنى الذي ذكره عزّوجلّ، لأنّ العالم خُلق لتكميل الإنسانيّة، ولا يحصل إلّا بذلك، وهذا هو غاية الأنبياء العظام خصوصاً سيّدهم صلى الله عليه وآله.

***

بحث فلسفي:

تختلف الفلسفة الإسلاميّة عن غيرها من المذاهب الفلسفيّة في معالمها ومناهجها وأُسلوبها في بيان المسائل العقليّة، وتفصيل ذلك لا يناسب المقام،

والمهمّ ما يستفاد من الآيات الشريفة المتقدّمة في الفلسفة الإسلاميّة، فإنّها من الآيات المعدودة التي وردت في بيان معالم هذه الفلسفة الجامعة لكثير من المعارف والعلوم، وأهمّ ما تمتاز به عن غيرها، ذلك الذوق العرفاني، وبيان المسائل المتعلّقة بما وراء الطبيعة، والعمق الفلسفي في البحث والتحقيق.

والمستفاد من الآيات الشريفة أنّ الفلسفة الإسلاميّة تتميّز بأُمور ثلاثة:

الأوّل: ابتناء هذه الفلسفة على التفكّر والتدبّر والنظر كسائر المذاهب، إلّا أنّ الفرق أنّ الفلسفة في الإسلام تعتمد على التفكّر الذي يدعو إلى العمل، ويتحول إلى سلوك ومنهج تطبيقي في الحياة، فلا تعتمد على التفكّر من حيث هو تفكّر فقط، كالفلسفة اليونانيّة التي تعتمد على التفكّر والتدبّر لأجل التفكّر والتدبّر فقط، قال تعالىٰ: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾**.

الثاني: الاعتماد على التجربة والاستقراء، ويعتبر الإسلام هو الذي أنشأ المنهج التجريبي، وسبق الفلسفة المعاصرة والبحث العملي في القرون المتأخّرة.

الثالث: أنّها تعتمد على الفلسفة العمليّة، وتجعلها جزءاً لا يتجزّأ عن الفلسفة العلميّة، وتعتبرهما الأصل في كلّ كمال إنساني في الدُّنيا والآخرة.

الرابع: أنّ الفلسفة الإسلاميّة تمتاز عن غيرها بأنّها منهج أخلاقي تطبيقي، فهي تعتمد على التخلية، وهذه هي أهمّ معالم الفلسفة الإسلاميّة التي يمكن استفادتها من الآيات الشريفة المتقدّمة، التي اشتملت على مضامين عالية في الفلسفة والعرفان.

وحقيق لهذه الآيات المباركة أن تجعل خاتمة سورة الإصطفاء، فإنّه لا اصطفاء إلّا من أُولي الألباب، وتعتبر هذه الإيات الشريفة تفسيراً لمعنى أُولي

الألباب وتشرح أحوالهم.

والسرّ اللطيف الذي في هذه الآيات الكريمة، أنّه لم يشر فيها إلى شيء من الدُّنيا بوجه من الوجوه، ولعلّ الوجه في ذلك التباين الكلّي بين مقام أُولي الألباب والدُّنيا الفانية، فإنّها جيفة وطلّابها كلاب كما في الحديث، وأين ذلك من المقام الرفيع لأُولي الألباب، والمنزلة العظيمة لهم.

***

الآية ١٩٦ ـ ١٩٩

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ۝١٩٦ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ۝١٩٧ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ۝١٩٨ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ۝١٩٩﴾.

بعدما ذكر سبحانه وتعالىٰ بعض أحوال أُولي الألباب، وبعض صفات الأبرار وأعمالهم الحسنة، والجزاء الحسن الذي وعده تبارك وتعالى لهم، أشار في هذه الآيات الشريفة إلى ما يتعلّق بمَن يضادّهم وينافيهم، لما ارتكز في النفوس من أنّ الأشياء إنّما تُعرف بأضدادها، والتمييز بين الأبرار والكفّار، ولبيان ما ابتلى به المؤمنون ذلك البلاء الشاقّ، من الهجرة والإخراج من الدِّيار والإيذاء والقتل والقتال، إنّما هو للتمييز والتمحيص الذي هو سنّة إلٰهيّة كما عرفت، وللإعلام باستحقاقهم ذلك الثواب الجزيل، فلا يُقاس حالهم بحال الكفّار الذين يتمتّعون متاعاً قليلاً ثمّ لهم سوء العقاب.

وفي هذه الآيات المباركة الموعظة الكبيرة للمؤمنين، والنهي عن الاغترار بحال الكفّار الذين يتنعّمون في نِعَم ظاهريّة، بل لابدّ أن يجعل الأمر في نظرهم

أبعد من ذلك، فإنّ لهم الثواب العظيم والنعيم الحقيقي.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾**.

تسلية للنبيّ الكريمﷺ والمؤمنين الذين تحمّلوا البلاء والأذىٰ في سبيل الحقّ. والخطاب وإن كان موجّهاً إلى النبيّ، لكنّه خطاب للأُمّة، باعتبار أنّ النبيّﷺ واسطة الفيض، وأنّه الوجود الجمعي للأبرار، فهوﷺ من حيث كونه واسطة الفيض الإلهي مبدأ فاعليّ لهم، ومن حيث كونه صاحب المقام المحمود غاية لهم، ففي وجوده اجتمعت العلّة الفاعلية والغائية للأبرار.

ومادّة (غرر) تدلّ على الأثر الظاهر على الشيء، سواء كان سببه الغفلة أو أمر آخر، ومنه غُرة الفرس، وغرار السيف أي: حدّه، وغر الثوب أثر كسره، يُقال: اطوه على غره، أي: اطوه على طيّاته الأُولىٰ، وجمع الغر على غرور، ويُقال: غَرّه خدعه وأطمعه بالباطل، فكأنّه ذبحه بالغرار.

والتقلّب هو التحوّل من حال إلى حال، ويستعمل غالباً في الحركات المنطبعة غير الإرادية، والمراد به كون الكفّار في رفاه الحال وشرف الحياة، يتقلّبون في البلاد آمنين متنعِّمين بالصحّة والإمهال، ولكن مع ذلك فقد وصفهم تبارك وتعالىٰ بأخسّ الأوصاف، فقال عزّوجلّ **﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾**.

والمراد بالكفر في المقام، هو الأعمّ من الكفر الاعتقادي والعملي، مقابلته للأبرار.

وإنّما نهى عزّوجلّ عن الغرور بتقلّب الذين كفروا؛ لأنّ الحقيقة غير ما همّ عليه، ولا ينبغي أن يكون المظهر سبباً للغرور والاغماض عن الحقيقة، ولعلّ سبب النهي هو أنّ المؤمنين لمّا تحمّلوا تلك المشقّات الكثيرة وذلك الابتلاء العظيم، كما

حكى عنهم عزّوجلّ في الآية السابقة، بينما أنّ الذين كفروا يتقلّبون في البلاد، يتحوّلون من نعمة إلى نعمة اُخرىٰ مطمئنين آمنين، يمكن أن يوسوس لهم الشيطان بأنّ الكفّار أولى منهم، لأجل أولوية حالهم في الدُّنيا، فكانت هذه الآية الشريفة بمنزلة دفع الدخل والتقدير، ولرفع ذلك الهاجس البشري، وتزيل الأسى في نفوسهم الحاصل من الوسوسة.

قوله تعالىٰ: ﴿**مَتَاعٌ قَلِيلٌ**﴾.

بيان لعلّة النهي عن الغرور، أي أنّ تقلّبهم في البلاد إنّما هو متاع قليل لا دوام له، وهذا من أخسّ الأوصاف، ولا يمكن أن يقابل ذلك الثواب العظيم الذي أعدّه الله تعالىٰ للأبرار، بل أنّ متاع الأرض كلّه لا يمكن أن يقابل ذلك، لأنّ حركات غير الأبرار لمّا كانت للدُّنيا وفي الدُّنيا، فإنّ الدُّنيا وما فيها قليل من جميع الجهات بالنسبة إلى الآخرة، وفي الحديث: «ما الدُّنيا في الآخرة إلّا مثل ما يجعل أحدكم اصبعه في اليم، فلينظر بماذا يرجع». والمتاع يمثّل به عن الشيء الحادث الزائل، خصوصاً إذا اتّصف بالقلّة.

قوله تعالىٰ: ﴿**ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾.

أي: ثمّ مصيرهم ـ الذي يأوون إليه وقد مهّدوه بكفرهم وسوء أعمالهم ـ هو جهنّم، وهي إسم لدار مجازاة الكفّار والمذنبين في الآخرة.

والمهاد: المكان الممهّد كالفراش، وإنّما ذكره عزّوجلّ تهكّماً بهم، أي أنّ تلك الدار التي يأوون إليها وذلك المصير، ممّا جنته أيديهم، وقد مهّدوها لأنفسهم بسوء اختيارهم، ويبيّن هذه الآية قوله تعالىٰ في موضع آخر: ﴿**أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**﴾[1].

---

١. سورة الشعرا: الآية ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

قوله تعالىٰ: ﴿لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾.

بيان لمصير الأبرار وسعادتهم، مقابلة لمصير الكفّار وشقائهم، فإنّه لا يقاس أحدهما بالآخر، لأنّ حال الطائفة الأُولى ابتلاء ومقاساة للأهوال مدّة قصيرة ونعيم الخُلد في الآخرة، وحال الطائفة الثانية متاعٌ قليل ومأواهم جهنّم وبئس المهاد.

والكفّار وإن استمتعوا بملاذ الدُّنيا ونعيمها، لكنّهم حرموا أنفسهم من نعيم الآخرة التي لا نهاية لعظمتها، وأحلّوها دار البوار، وأمّا الذين اتّقوا ربّهم وإن حُرموا من نعيم الدُّنيا، وتحمّلوا المشاقّ والأذى في سبيل الله، لكن جزاؤهم كبير وعظيم، فالاستدراك إنّما هو لأجل طمأنينة قلوب المتّقين والأبرار والمجاهدين في سبيل الله تعالىٰ، فلا يوهن عزائمهم للجهاد بتمتّع الكافرين في الأرض، ولا يشغلهم تنعّم هؤلاء ورفاههم وتقلّبهم في البلاد، ولا ينبغي أن يكون سبباً لوهن عزائمهم ونشاطهم في سبيل الدِّين وأعلاء كلمة الله تعالىٰ، فإنّ مصيرهم أعظم وأعلى من مصير الكافرين.

قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: أنّ مصيرهم إلى نِعَم لا نهاية لبهجتها وسرور ساكنيها، وهي جنّات تجري من تحتها الأنهار، وهذه الجنّات تعدّدت لأنّهم قاسوا أهوال الدُّنيا ومرارة العيش فيها، وهي الجنّات التي وعدها الله تعالىٰ لأُولي الألباب جزاء جهادهم وكفاحهم في الدُّنيا، ويمكن أن تكون الجنّات متعدّدة باعتبار حالات الأفراد وشدّة تفانيهم في الله تعالىٰ وضعفه، فإنّهم متفاوتون في ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾.

النزل: ـ بضمّتين أو بتسكين الزاي ـ ما يهيأ للنزيل أوّل نزوله من المنزل

والزاد والفرس، والنزيل هو الضيف، قال الشاعر:

نـزيلُ القـومِ أعـظمهُم حـقوقاً ‏ ‏ ‏ ‏ وَحَـقُّ الله مِـنْ حـق النـزيلِ

وخصّ بعضهم النزل بالزاد مطلقاً، ويأتي مصدراً وجمعاً، وهو منصوب على الحال، وقيل: إنّه منصوب على التفسير.

وجَعْل الجنّات نزلاً لهم فيه الكرامة العظمى للمتّقين، لا سيما إذا كانت من عند الله تعالىٰ، فإنّ فيه الشرف العظيم لهم، وفيه إشارة إلى عدم تناهي ذلك النزل كمّية وكيفيّة ومدّة، فإنّه من عند مَن لا تناهي له من كلّ جهة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

نعمة أُخرىٰ لا نهاية لها. أي أنّ ما عند الله تعالىٰ خيرٌ للمتّقين الأبرار ممّا عند الكافرين من المتاع القليل، أو خير ممّا كان المتّقون فيه في الدُّنيا.

والتفنّن في النِعم لبيان أنّ الأُولى من النعم الجسمانيّة، كالجنّات التي تجري من تحتها الأنهار، وهذه من النِّعم المعنوية، كالقرب إلى الله تعالىٰ والحظوة لديه، ولقائه عزّوجلّ، ورضوان الله أكبر، وهذه النِّعمة لا يوازيها أيّة نعمة أُخرىٰ من نِعم الجنّة، فهذه كرامة أُخرى للأبرار زائدة عمّا كانت للمتّقين.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾.

بيان لمشاركة بعض أهل الكتاب مع المؤمنين في الإيمان بالله وأجره العظيم، وعدم اختصاص السعادة الأُخرويّة بطائفة خاصّة، ولتشجيع أهل الكتاب الى الدخول في الإيمان ومتابعة الحقّ.

وفي ذلك إيماء إلى أنّ هؤلاء مع ما هم عليه من السعة، قد اختاروا ثواب المؤمنين الأبرار، وآثروا ما عند الله تعالىٰ على المتاع الدنيوي، وإن كان المؤمنون

في ضيق فإنّه خيرٌ من سعتهم.

وقد وصف سبحانه وتعالىٰ هذه الطائفة بخمس صفات، هي الأصل في كلّ سعادة:

الأولىٰ: الإيمان بالله جلّ شأنه إيماناً صحيحاً داعياً إلى العمل الصالح، لايشوبه شرك وفساد.

الثانية: الإيمان بما أُنزل إلى المسلمين وهو القرآن الكريم، والإيمان به يستلزم الإيمان بمَن أُنزل عليه وهو الرسول الكريم ﷺ.

وإنّما قال: ﴿**إِلَيْكُمْ**﴾ بإعتبار ابتداء الدعوة بهم، وإلّا فإنّ القرآن الكريم منزل لكلّ البشر، وهو المهيمن على سائر الكتب الإلهيّة، يدعو الناس إلى السعادة ودين الحقّ، ولعلّه لذلك قدَّم الإيمان بالقرآن على الإيمان بما أُنزل إليهم، وإن كان الأخير مقدّماً في الوجود، ولبيان أنّ الإيمان بما أُنزل إليهم لا فائدة فيه، إذا لم يكن معه إيمان بما أُنزل إلى المؤمنين.

الثالثة: الإيمان بما أُنزل إليهم، وهو ما أوحى الله تعالىٰ إلى أنبيائهم من غير تحريف، فإنّه يدعو إلى الله تعالىٰ وإلى ما أُنزل إلى المؤمنين، وهاتان الصفتان تدعوان أهل الكتاب إلى عدم التفريق بين رسل الله تعالىٰ، كما ذمّهم الله تعالىٰ به في ما تقدَّم من الآيات.

قوله تعالىٰ: ﴿**خَاشِعِينَ لِلَّهِ**﴾.

وصف رابع، وهو منصوب على الحال. والخشوع فوق الخضوع، وهو نوع انكسار يعرض على القلب وعلى جوارح الإنسان عند الطاعة لله تعالىٰ، وقد تقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾[1]،

---

١. سورة البقرة: الآية ٤٥.

والخشوع إنّما هو أثر الخشية من الله تعالىٰ والخوف منه، وهذه من ثمرة الإيمان الصحيح.

قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾.

وصف خامس، وهو عدم كتمان الحقّ، والاشتراء بآيات الله تعالىٰ ثمناً قليلاً، ممّا ذمّ الله تعالىٰ به أهل الكتاب والكافرين في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم:

قال تعالىٰ: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾[2].

وقد نفى عن هؤلاء هذه الخصلة، وهي كتمان الحقّ والاشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً، وهو يدلّ علىٰ صدقهم في الإيمان وخلوصهم فيه.

قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: أنّ أُولئك المتّصفين بتلك الصفات الحميدة لهم أجرهم المعلوم، وهو ثواب طاعتهم. وإنّما أضاف الأجر إلى الربّ الذي ربّاهم بنعمه في الدُّنيا، للتشريف وكمال العناية بهم.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: أنّ الله يحاسب العباد، ويعلم ما لكلّ أحد من الثواب والعقاب، فلايعقل

---

١. سورة التوبة: الآية ٩.

٢. سورة المائدة: الآية ٤٤.

التأخير بالنسبة إليه عزّوجلّ، لإحاطته بجميع جزئيات أعمال عباده، فـيوفّيهم أُجورهم بلا إمهال وتأخير.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ**﴾ على أنّ ما عند الكافرين من الحظوظ الدنيويّة مهما بلغت في العظمة في الكمّ والكيف، لاتقابل ما للمؤمنين من الجزاء العظيم الذي أعدَّ الله تعالىٰ لهم في يوم الجزاء، مضافاً إلى مصير الكافرين السيء الذي هو نتيجة أعمالهم وجهدهم في الدُّنيا وما كسبته أيديهم، وإن كان لتقلّبهم دخل في نظم البلاد، ولكنّه حقير ضئيل، خصوصاً إذا لوحظ بالنسبة إلى النظام الأحسن لو كان الأنبياء والمؤمنون هم الذين يتصدون لنظم الدُّنيا، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[١].

الثاني: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**مَتَاعٌ قَلِيلٌ**﴾ على دناءة المتاع الذي يتمتّعون به وقلّته من جميع الجهات، فهو قليل في المدّة، وقليل بالقياس إلى مؤونة السعي والجهد الذي يبذلونه في سبيله، وقليلٌ بالنسبة إلى ما أعدّ الله تعالىٰ للمؤمنين من الأجر العظيم والثواب الجزيل، كما دلّت عليه الآية السابقة.

الثالث: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ**﴾، على أنّ المناط في كلّ خير ونفع هو التقوى، وأنّ الدُّنيا وما فيها إنّما هي وسيلة إلى النعمة العظيمة

---

١. سورة الأعراف: الآية ٩٦.

الأبدية، التي لا يمكن نيلها إلّا بالتقوى، فالآية الكريمة ردّ لمزاعم الكفّار والمنافقين في أنّهم متمتّعون والمؤمنون في خسران.

وإنّما ذكر عزّوجلّ التقوى للدلالة على أنّ حرمان المؤمنين من بعض حظوظ الدُّنيا من سُبل التقوىٰ، فلا يتوهّم أحد بأنّه من موجبات شقائهم. وذكر المتّقين بعد الكافرين من أحسن وجوه البلاغة في بيان الصنفين المختلفين المتضادّين.

الرابع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ**﴾، على أنّ للأبرار منزلة عظيمة فوق منزلة سائر المؤمنين المتّقين، وأنّهم طائفة خاصّة من الذين اتّقوا ولهم شأن عظيم عند الله تعالىٰ، وقد شرّفهم الله تعالىٰ بأن حباهم ما هو أكثر وأدوم وأعظم، وأُوصلهم إلى مقام القُرب الذي لا يوازيه شيء من نعيم الجنّة، قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ**﴾[1].

الخامس: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ**﴾، على أنّ الوحدة الجامعة لجميع الأديان الالهيّة هي الإيمان بالله تعالىٰ، وما أُنزل إلى المؤمنين، وما أنزل إليهم ما لم تمسّه يد التحريف والتزوير، والخشوع لله تعالىٰ وعدم كتمان الحقّ، فمَن كان من أهل الكتاب متّصفاً بهذه الصفات الحميدة، كان له الأجر العظيم المحفوظ عند ربّهم الذي يرعى شؤونهم ومصالحهم، ومَن تخلّف كان الله سريع الحساب، فهو الذي يعلم الأسرار ومَنْ هو مطيع خاشع له تعالىٰ غيره، ويعلم خصوصيّات الثواب والعقاب.

***

---

١. سورة المطففين: الآية ١٨ ـ ٢٤.

بحث روائي:

روى الواقدي في «أسباب النزول»، في قوله تعالىٰ: ﴿**لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾: «أنّهم كانوا في رجاء ولين من العيش، وكانوا يتّجرون ويتنعّمون، فقال بعض المؤمنين: إنّ أعداء الله تعالىٰ في ما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد، فنزلت هذه الآية».

أقول: روي غير ذلك في شأن نزول الآية الشريفة، وعلى فرض اعتبارها تكون من باب التطبيق لا التخصيص.

وفي «الدّر المنثور»، عن ابن عبّاس في قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾: «أنّ الآية نزلت في النجاشي ونفر من أصحابه لمّا مات هو فصلى عليه رسول الله ﷺ، وهو في المدينة، فطعن فيه بعض المنافقين إنّه يصلي على مَنْ ليس في دينه، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**... ـ الآية ـ﴾».

وقيل: إنّها نزلت في أربعين رجلاً من أهل نجران من بني الحارث بن كعب، اثنين وثلاثين من أرض الحبشة وثمانية من الروم، كانوا جميعاً على دين عيسى عليه السلام فامنوا بالنبيّ ﷺ.

أقول: إنّها على فرض اعتبارها من باب التطبيق أيضاً.

***

الآية ٢٠٠

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ۝٢٠٠﴾.

الآية الشريفة خاتمة لجميع الوصايا والكلمات والحقائق التي تضمّنتها هذه السورة، وهي تدعو إلى المحافظة عليها ومراعاتها، وهي مع إيجازها تشمل أهمّ الوصايا والكمالات الإنسانيّة؛ وهي الصبر والمصابرة، والمرابطة في سبيل الله تعالىٰ في إقامة جميع أحكام الله تعالىٰ، والتقوى، فإنّ ذلك يعدّ الإنسان إعداداً علميّاً وعمليّاً لنيل الفلاح والسعادة في الدارين.

وهذه الآية المباركة خلاصة ما ورد في هذه السورة العظيمة، تبيّن السرّ في النجاح والفلاح، فهي أعظم آية وردت لبيان نظاميّ التكوين والتشريع.

وقد بدأت هذه السورة بالتوحيد، وذكر فيها آية الاصطفاء، وختم سبحانه وتعالىٰ السورة بهذه الآية المباركة، للإعلام بأنّ الاصطفاء لا يتحقّق إلّا بالصبر والمصابرة والمرابطة، وأنّ المرابطة لا يمكن إلّا بالتوحيد الخالص.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾.

أمر بأهمّ ما يعتمد عليه المؤمن عند طاعته لربّه، وإرشاد إلى أهمّ الأُسس

في نجاح الإنسان في كفاحه وعيشه في حياته، وبيان لحقيقة من الحقائق الواقعيّة من أنّ كلّ فلاح وسعادة ـ سواء في الدُّنيا أم في الآخرة ـ إنّما تعتمد على الصبر والمصابرة.

ثمّ إنّ الصبر فضيلة سامية، وخصلة حميدة، وخُلق كريم، بل هو أُمّ الفضائل، ولا يستقيم سائرها إلّا به، فله منزلة عالية ومقام رفيع بينها، وتقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾[1]، ما يتعلّق به فراجع.

وإنّما أطلق سبحانه الأمر ليشمل جميع أقسام الصبر، وهي:

الصبر على الشدائد، والصبر على طاعة الله تعالىٰ، والصبر عن المعصية، ولبيان أنّ موضوع الصبر يرجع تحديده إلى المؤمنين، فالصبر إنّما يكون على ما يحمد عليه الصبر وفي ما يحمد مطلقاً، والأمر بالصبر لأجل أنّ جميع ما ورد في هذه السورة من الحقائق والكمالات والدروس والعِبر لا يمكن تحصيلها إلّا بالصبر، ولذا قدّمه عزّوجلّ في الآية الشريفة على غيره.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَصَابِرُوا**﴾.

المصابرة: من باب المفاعلة، وهي المغالبة في الصبر، ويلزم ذلك مقابلة الصبر بالصبر وتضاعف تأثيره وتقوي الحال به. وإنّما يظهر هذه الخصلة الحميدة في الجماعة في حال الاجتماع والتعاون.

والمستفاد من الآية الشريفة أنّ الأوّل كان بلحاظ حال الانفراد، والثاني إنّما هو بلحاظ حال الجمع والاجتماع، والأمر بالمصابرة لأجل وقوف الجماعة أمام المشاكل الاجتماعيّة والتعاون في حلّها، وتحمّل الأذىٰ في إعلاء كلمة الحقّ وإقامة أحكام الله تعالىٰ. والمصابرة في ميدان القتال، مقابلة الأعداء الذين

---

١. سورة البقرة: الآية ٤٥.

يريدون إطفاء نور الله تعالىٰ وخذلان الحقّ والغلبة على المؤمنين.

قوله تعالىٰ: ﴿وَرَابِطُوا﴾.

المرابطة: الملازمة والثبات والمواظبة، أي واظبوا على تكميل أنفسكم بالكمالات الواقعيّة، واثبتوا في تنفيذ أحكام الله تعالىٰ، ولازموا الحقّ في جميع حالاتكم في الشدّة والرخاء.

وهذه الخصلة الحميدة تبيّن كيفيّة إستمرار السعادة وتثبيتها بعد أصل ثبوتها، فإنّها لا تحصل إلّا بالمرابطة. والأمر أيضاً مطلق ليشمل جميع أنحاء المرابطة، ومنها المرابطة في سبيل الله تعالىٰ في ثغور الإسلام، ومباراة الأعداء والترصّد للغزو.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾.

إشارة إلى أنّ كلّ ذلك إنّما تحصل بالتقوى المنبث على جميع ذلك بحسب الحالات والظروف والخصوصيّات، فالتقوى قوام الصبر والمصابرة والمرابطة، وأنّ السعادة الحقيقة لا تحصل إلّا بها.

قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: أنّ جميع ذلك من أسباب الفلاح، بل لا فلاح إلّا بذلك. وإنّما ذكر «لعلّ» بداعي الترغيب إلى ذلك بحسب أذهان المخاطبين.

***

بحوث المقام

بحث روائي:

في «الكافي»، عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عزّوجلّ ﴿**اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**﴾، قال عليه السلام: «اصبروا على الفرائض، وصابروا على المصائب، ورابطوا على الأئمّة».

أقول: الروايات في هذا المضمون كثيرة من الفريقين، وقد ذكرنا معنى المرابطة، وهي الإلتزام بما يشرحون به كتاب الله تعالىٰ مطلقاً.

وفي «الغنية»، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**﴾، قال: «اصبروا على أداء الفرائض، وصابروا عدوّكم، ورابطوا إمامكم المنتظر».

أقول: هذا من أحد المصاديق لمعنى المرابطة، وإلّا فكلّ مَن دعا إلى الحقّ في الحقّ لابدّ من المرابطة معه، في أي زمان كان.

وفي «المعاني»، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**﴾، قال عليه السلام: «اصبروا على المصائب، وصابروهم على الفتنة، ورابطوا على مَن تقتدون به».

أقول: المراد من المصابرة على الفتنة، التقيّة مع الأعداء، واجتناب مضلّات الفتن.

وفي «تفسير القمّي»، عن الرضا عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة يُنادي مناد: أين الصابرون؟ فيقوم فئام ـ جماعة ـ من الناس، ثمّ ينادي: أين المتصبّرون؟ فيقوم فئام من الناس. قلت: جُعلت فداك وما الصابرون؟ قال عليه السلام: على أداء الفرائض

والمتصبّرون على اجتناب المحارم».

أقول: هذا الحديث قرينة على أنّ المراد من الفتنة في الحديث السابق المحارم وكلّ ما يسخط الله تعالىٰ.

وفي «المجمع»، عن علي عليه السلام: «رابطوا الصلوات أي انتظروها، لأنّ المرابطة لم تكن حينئذٍ».

أقول: الحديث يفسّر المعنى الأعمّ من المرابطة الخاصّة.

وفي «الدّر المنثور»: أخرج ابن جرير، وابن حيان، عن جابر بن عبد الله، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إلّا أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويكفّر به الذنوب؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء مع المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط».

أقول: الحديث كسابقة يبيّن المعنى العام للمرابطة.

***

بحث قرآني:

المرابطة: من أهمّ الموضوعات في الإسلام، وهي تؤمّن بقاء الشريعة والحفاظ عليها بعد حدوثها، وتحدّد المسؤوليّة الاجتماعيّة والفرديّة اتّجاه الحقّ وأحكام الله تعالىٰ، ولابدّ من بيان معنى المرابطة في الإسلام وحدودها وآثارها في المجتمع الإسلامي إجمالاً.

معنى المرابطة:

المرابطة: المأمور بها في الكتاب والسنّة: هي الالتزام العملي بالحفاظ على الشريعة ودوام العمل بها، وتحديد مسؤولية كلّ فرد بالنسبة إلى الاجتماع، وهي التي تقوّي الروابط بين الفرد والمجتمع، وتوجب اشتراك كلّ واحد منهما في

الهدف وسائر الشؤون والخصوصيّات، ولذا نـرى أنّ الإسـلام يـهتمّ بـالمجتمع كاهتماله بالفرد، فهما في نظره على حدٍّ سواء من الأهمّية. ويعتبر أحدهما مكمِّلاً للآخر، فلا يمكن استغناء أحدهما عن الآخر، وأنّ كليهما ينشدان الكمال المشترك بينهما، وهي السعادة الحقيقيّة والقُرب إلى الله تعالىٰ والحظوة لديه، والمرابطة من أهمّ الأسباب التي تؤمّن هذه السعادة و الغرض، فهي روح المجتمع الإسـلامي وبدونها يبتعد الفرد والاجتماع عن الصراط المستقيم.

أهمّية المرابطة:

المرابطة بمعناها العامّ من الأُمور النظاميّة الاجتماعيّة بين أفراد الإنسان، وبدونها يختلّ النظام، ولا يمكن تحصيل السعادة والفلاح، وهي المراد من قـول قدماء الفلاسفة: إنّ الإنسان مدنيّ بالطبع بحسب التعاون والتعاضد، ويسعى إلى الكمال، فهي المدنيّة الفاضلة ـ كما عبّر بها بعض الفلاسفة ـ التي أهتمّ بها الإنسان من بدء الخليقة، وقد دعت الكتب السماوية والشـرائـع الإلهـيّة إلى المـرابـطة، واهتمّت بها من جهات شتّىٰ، وبيّنت جميع خصوصيّاتها، وقد تكفّلت الشـريعة المقدّسة الإسلاميّة شرح المرابطة وبيان مقوّماتها وخصوصيّاتها المطلوبة، وأنّ القرآن الكريم والسنّة الشريفة مشحونان بذلك.

متعلّق المرابطة:

ذكرنا أن المرابطة من أهمّ الواجبات الـنظاميّة، بـل لا يـتحقّق الـنظام إلّا بالمرابطة، ولا يظهر أثرها إلّا في المجتمع، فهي من أهمّ الأُمـور التكـوينيّة فـي الاجتماع، فلا اجتماع إلّا بالمرابطة، ولا مرابطة إلّا فيه، فهما مـتلازمان حـدوثاً وبقاءاً وارتفاعاً، وقد تقدّم أنّ الإسلام يهتمّ بالمجتمع، كما يهتمّ بـالفرد، ويـعتبر

أحدهما مكمّلاً للآخر، ويدلّ على ذلك القرآن الكريم والسُنّة المقدّسة، وشواهد من الأدلّة العقليّة، قال تعالىٰ: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يبيّن اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾**[2].

إلى غير ذلك من الآيات التي تأمر ببناء المجتمع الإسلامي على الاتّحاد والتعاون والتكافل، وتأمر بالاهتمام بإتيان الأحكام الإلهيّة ومراعاة الشريعة، فإنّ في ذلك الصلاح والفلاح، قال تعالىٰ: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[3]، وهو يدلّ على أنّ سعادة العيش إنّما تكون بالاجتماع دون الانفراد.

ما فيه المرابطة:

المرابطة إنّما تكون في ما فيه الخير والصلاح للأُمّة الأفراد، وما يجلب السعادة لهما، فتشمل المرابطة جميع جوانب الحياة، وما يتعلّق بالدنيا والآخرة، فتكون المرابطة في ما يتعلّق بالفرد مع خالقه، فتشمل العبادات كالصلاة والصيام وغيرهما، كما تشمل المعاملات بين الأفراد والعلاقات الفرديّة، وأحكام الزواج وغير ذلك، فإنّ جميع ذلك إنّما أنزلها الله تعالى لصالح الإنسان وهدايته إلى الكمال الذي أعدّه الله تعالىٰ له.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

٢. سورة الحجرات: الآية ١٠.

٣. سورة الأعراف: الآية ٩٦.

منهج المرابطة:

بعدما عرفت أنّ المرابطة إنّما تكون في الأحكام الإلهيّة المعارف الربوبيّة والشريعة المقدّسة، فلابدّ وأن يكون منهج المرابطة مستنداً إلى وحي مبين يتعلّق بما فيه سعادة الناس ونجاحهم في الدُّنيا والآخرة، ويعلم جميع جهات الصلاح فيأمر بها، وجميع جوانب الفساد فينهى عنها، وإلّا فمع التخلّف يكون خطأً محضاً، بل فيه الإثم والعصيان من كلّ جهة، لفرض أنّ الموضوع أمر اجتماعي، ولا تثمر المرابطة في غير ذلك الثمرة المطلويه منها.

ومن ذلك يعلم أنّ مأخذ المرابطة لابدّ أن يكون الثقل الأكبر، أي كتاب الله تعالىٰ، والثقل الأصغر، أي العترة الشارحة للكتاب، وإلى ذلك يشير الحديث المعروف بين المسلمين: «**إنّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض**» ـ وان مَن يقوم به المرابطة إنّما هو الله تعالىٰ المطّلع على الغيب، والعالِم بجميع الجزئيات، ولا يمكن أن يكون نفس المجتمع كلّ فرد بحسب شخصه وذاته، أو نفس المجتمع لا بحسب الأفراد بل فرداً معيّناً بإعتباره وكيلاً عن جميع الأفراد، لأنّ بطلان الأخير واضح لفرض عدم إحاطة ذلك الفرد بجميع الأُمور، ولا الأفراد الذين يوكلونه في ذلك. وأمّا بطلان الأوّل فلاختلاف آراء الأفراد، كما هو معلوم، فتكون المرابطة أقرب إلى الفساد منه إلى الصلاح.

وما عن بعض المفسّرين من أنّ الخطابات القرآنية موجّهة إلى الأفراد، فيكون ذلك حقّاً لهم.

مردود، لأنّ تعلّق الخطاب بالجماعة، إنّما هو لأجل أنّ القوانين المجعولة خطابات موجّهة إلى الجماعة في مرحلة الجعل والتشريع، فما ذكره مغالطة بين إنشاء القانون، وبين مَن يتصدّى لجعل نفس القانون، ولا ربط لأحدهما بالآخر.

نعم، في القوانين الجعليّة القابلة للحلّ والنقض والإبرام، يمكن أن يتّجه ما ذكره، كما نشاهد ذلك في القوانين الوضعيّة، حيث تجتمع أفراد المجتمع على انتخاب أفراد معيّنين، أو تجتمع الرعيّة على نصب فرد رئيساً لهم، وفي كلتا الصورتين يحقّ لكلّ واحد منهما جعل القوانين، ولكن ذلك خارج عن بحثنا، فإنّ كلامنا في القوانين الإلهيّة والمرابطة فيها.

إن قلت: إنّ اجتماع الأُمّة على جعل الرئيس وإعطاء الصلاحية له في جعل القوانين يكون بشروط خاصّة، فإذا تخلّف أحدها ينعزل بنفسه بلا احتياج إلى عزل، كما هو المشهور بين الفقهاء، من أنّه إذا اختلّت عدالة الحاكم الشرعي ينعزل بنفسه.

قلت: إطلاق قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾**[1]، وكذا قوله تعالىٰ: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**[2]، ينفي ذلك، وهو يدلّ على أنّ نصب الحاكم إنّما يكون منحصراً في النصب الإلهي، ويدلّ على ذلك ما ذكره الفقهاء في الحاكم الشرعي المنصوب من قبل الشرع، مثل قولهم عليهم السلام: «فإنّي جعلته حاكماً»، فلو فقد بعض الشروط منه يزول الموضوع فيزول الحكم لا محالة، وأمّا في غيره فمقتضى الأصل عدم حجّية قوله وفعله وآرائه. وتفصيل الكلام يُطلب من موضعه، راجع (مهذب الأحكام) كتاب القضاء. هذا موجز ما أردنا ذكره في المرابطة.

***

---

١ . سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

٢ . سورة القصص: الآية ٦٨.

سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴿١﴾﴾

هذه السورة من جلائل السور التي تضمّنت الأحكام الإلهيّة التي نزلت لصالح الناس، ما جلب سعادتهم في الدُّنيا والآخرة. فقد إشتملت على معظم أحكام الأحوال الشخصيّة، والأحكام الاجتماعيّة الجارية على حقيقة العدل وناموس الفطرة، ومراعاة الحقوق، كالزواج و علاقات أفراد الأُسرة، وأُمور اليتامى، وأحكام المواريث، وجملةٍ من أحكام المعاملات كالتجارة ونحوها، وتعرّضت لبعض العبادات كالصلاة والجهاد وغيرهما، وحثّت على التضامن والتكافل والتراحم، كما ذكر فيها بعض الأُمور العامّة؛ كالشهادات وأحوال أهل الكتاب. ولما كانت الغاية القصوى من تلك الأحكام هي حصول مَلَكة التقوى في كلّ نفس، واستقامتها في الخفاء والظاهر، وهي أساس كلّ كمال إنساني، ولا يمكن تحصيل السعادة بدونها، فلأجل ذلك كلّه أمر الله تعالىٰ بها، وقدّمها على سائر الأُمور، وابتدأ بها في السورة، كما اختتم بها في السورة السابقة.

ثمّ إنّ الحكمة الربّانيّة اقتضت ترويض النفوس التي اعتادت الباطل، واستحكم فيها الجور والتعسّف على قبول تلك الأحكام الإلهيّة وإجرائها على الحقيقة، فقد اقترنت تلك الآيات بالتذكير والموعظة والإرشاد إلى جلال الله وعظمته، وقدرته وعلمه واطّلاعه على خفايا الأُمور، ومراقبته لأعمال الناس.

وأُسلوب هذه السورة ومضامينها تشهدان على أنّها مدنية، نزلت نجوماً حسب مقتضيات الظروف والحاجة، وتحتوي على موضوعات متعدّدة ـ كما عرفت ـ تجمعها رابطة واحدة، وهي تهذيب النفس، والتخلّق بأخلاق الله تعالىٰ، وتثبيت العقيدة وتطبيقها في العمل، ومعرفة أُمور الدِّين وأحكامه.

وابتدأت هذه السورة بخلق الإنسان والإعلان بأنّه خُلِقَ من نفس واحدة، تحريضاً للتعاون والائتلاف ونبذ الاختلاف، وتوطئة لما سيذكره عزّوجلّ من الأحكام كالزواج وأحوال اليتامى والمواريث وعلاقات الأُسرة والمجتمع، وأكّد سبحانه على ملازمة التقوى، لأنّها روح تلك الأحكام والغاية منها.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿**يَأَيُّهَا النَّاسُ**﴾.

الآية الشريفة بأُسلوبها الجذّاب تحتوي على رموز وبدائع أهّلتها أن تكون مفتتح هذه السورة.

منها: الاقتران بين العلّة المادّية والغائيّة، وتقديم الأخيرة على الأُولىٰ في الذكر لأهمّيتها وهي التقوى، لأنّ خلق الإنسان وإنزال الكتب والأحكام الإلهيّة لم تكونا إلّا لها ولأجلها، ولأنّها هي الأساس الذي يجب أن يقوم عليه كلّ علاقة سواء بين أفراد الأُسرة أو بين الزوجين، أو بين جميع أفراد المجتمع. ثمّ ذكر تعالىٰ العلّة المادّية، وهي خلق الإنسان من نفس واحدة، فإنّها صارت لجمع أفراد

الإنسان ودخولهم في نفس واحدة، فكأنّهم بجميع أشتاتهم أعضاء نفس واحدة، تتحكّم فيهم روابط قويمة متكاملة.

ومنها: أنّها تشير إلى الموضوع الرئيس في هذه السورة، وهو العلاقة الزوجيّة وعلاقات الأُسرة والمجتمع، فكانت توطئة لجميع تلك الأحكام التي وردت في هذه السورة، فقد ذكر فيها النفس الواحدة التي خلقت منها زوجها. وذكر الرجال والنساء والأطفال، وأخيراً الأرحام التي تنشأ من التزاوج بين الرجال والنساء.

ومنها: الإشارة إلى أصل الإنسان والأُسس الثابتة التي يرتكز عليها عيشه في هذه الحياة، وأنّه لا يخرج عن ذلك الأصل القويم مهما طال الزمن وتغيّرت الحياة، وبذلك تبطل نظرية التطوّر التي لا تجعل للحياة أساساً وقواعد ثابتة، فهي تسير في اتّجاهات متعدّدة لا تتحكّم فيها ضوابط خاصّة، بل يحكم عليها التغيّر والتطوّر، وسيأتي في البحث العلمي ما يتعلّق بذلك إن شاء الله تعالىٰ.

ومنها: الدلالة على أنّ للإنسان ربّاً يحوطه بالتربية والعناية، وأنّ من رحمته بهم أن هداهم إلى ما هو الأصلح لهم الذي فيه كمالهم، وأرشدهم إلى ما يجلب سعادتهم في الدارين.

والخطاب بـ **(يا أيّها الناس)** عامّ إلى كلّ فرد من أفراد البشر، وليس للمؤمنين وحدهم كما ذكره بعض المفسِّرين، وذلك لأنّ الخطابات الواقعيّة لاتختصّ بطائفة خاصّة، وإذا ورد خطاب يتعلّق بالمؤمنين خاصّة، فلأجل أنّهم أشرف الأفراد، كما أنّ دين الإسلام دين الإنسانيّة، وأنّ الرسول ﷺ داعٍ إلهي مرسل إلى نوع الإنسان بلا استثناء، وللإشارة إلى أنّ القضايا التي وردت في هذه السورة هي قضايا فطرية تشمل جميع أفراد البشر، ونزلت لسعادتهم، فلا تخصّ مجتمعاً معيَّناً، وأنّ الخروج عنها خروج عن الصراط السويّ والنهج المستقيم.

والناس: اسم لجنس البشر، وهو اسم جمع للإنسان، يشمل الذكور والإناث على حدٍّ سواء، وقيل: إنّ أصله (أناس)، فحذفت الهمزة عند دخول الألف واللام عليه، وهو يفيد العموم. وهذه قرينة أُخرىٰ على تعميم الخطاب.

والمعروف أنّ خطاب «يا أيّها الناس» لأهل مكّة، وقد ورد في السور المكّية، وخطاب «يا أيّها الذين آمنوا» لأهل المدينة كما ورد في السور المدنيّة.

ولكن ذكرنا في أحد مباحثنا السابقة أنّ ذلك مردود؛ لأنّ الخطابات القرآنيّة خطابات واقعيّة تشمل جميع أفراد الناس، وخطاب المؤمنين إنّما هو باعتبار أنّهم أشرف الأفراد، مضافاً إلى أنّه قد ورد كثيراً خطاب «يا أيّها الناس» في السور المدنيّة، منها المقام، كما ورد الخطاب الثاني في السور المكّية.

قوله تعالىٰ: ﴿**اتَّقُواْ رَبَّكُمُ**﴾.

أمر بتحصيل مَلَكة التقوى، التي هي القضية الأُولى في القرآن الكريم، والأصل الثابت الذي لا يقبل التغيير والتبديل، وقد حكم بها عزّوجلّ على جميع أفراد البشر من لدن آدم عليه السلام إلى انقراض العالم، وقد تقدّم الكلام في معنى التقوى مكرّراً.

وإنّما خصّ عزّوجلّ اسم الربّ بالذكر، لتذكيرهم بأنّه خالقهم، ويدبّر أُمورهم، ويرعى مصالحهم، فلابدّ أن يتّقوه.

قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾.

هذه الآية الشريفة ـ على إيجازها البليغ ـ تتضمّن وجوهاً من الحِكَم التي لها دخل في تشريع الأحكام، وما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة:

الأوّل: الآية الشريفة تدلّ على أنّ للإنسان خالقاً قديراً عليماً حكيماً، فإنّ

الخلق يقتضي ذلك كلّه، فهو الذي خلقهم ويرعى مصالحهم ويرشدهم إلى الكمال، فلم يكن خلق الإنسان وليد الصدفة من غير سبق تقدير، أو يكون خلقه ناشئاً من التفاعل في الطبيعة كما يقول به بعض الفلاسفة الطبيعيّين، حيث ذكروا أنّ الطبيعة تخلق كلّ شيء ولا حدّ لقدرتها. وبطلان ذلك أوضح من أن يخفى، فإنّ الطبيعة العمياء التي لا عقل لها ولا فكر، كيف يمكنها أن تخلق هذا المخلوق العجيب، وهو الإنسان المفكّر العاقل الدارك؟! وقد أكّد سبحانه وتعالىٰ في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم أنّ خالق الإنسان هو الله تعالىٰ، وبيّن كيفيّة خلقه ونفى جميع المحتملات عنه، قال تعالىٰ: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾[1].

ويستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِي خَلَقَكُم**﴾، أنّه تعالىٰ هو الذي خلقهم، والخلق يقتضي الحياة والقدرة والعلم، كما تضمّن الربّ الحكمة والقيوميّة والرحمة، فكان الخالق مستجمعاً لجميع صفات الكمال.

الثاني: أنّ الآية المباركة تدلّ على أنّ الإنسان خلق من نفس واحدة؛ وهي المادّة الأُولى لجميع أفراد الناس، وهذه قضيّة ثابتة اتّفقت عليها جميع الأديان السماوية، وأُثبتت بالأدلّة القطعيّة، فيكون للإنسان أصل واحد، وهو الحقيقة الإنسانيّة يتّحد فيها جميع الأفراد وكلّ السلالات والأقوام والمجتمعات، بلا تفاوت بينها، فهم كأعضاء نفس واحدة متّفقون في الفطرة، ومشتركون في القيم والسير التكاملي، وبذلك ينفي نظرية التطوّر التي نادى بها بعض الفلاسفة الطبيعيّين، فالإنسان نسيج وحده، وهو أصل منفرد قد خلقه الله تعالىٰ ابتداءً ومباشرة بنفسه الأقدس، وبيّن عزّوجلّ كيفيّة خلقه في عدّة مواضع من القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿**وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ**

١. سورة الطور: الآية ٣٥.

مَاءٍ مَهِينٍ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾[٢].

ويأتي في البحث العلمي تفصيل ذلك.

والآية الشريفة قد جعل فيها الأمر التكويني محور التشريعات السماويّة، وأنّ جميع الأحكام الإلهيّة تدور على هذه الأصل، وهو الاتّفاق في أصل الحقيقة، وأنّ البشر لهم وحدة نوعية منبثقة من نفس واحدة، يستوي فيها الرجل والمرأة، الصغير والكبير، والضعيف والقوي وغيرها، ولأجل ذلك كان الخطاب موجّهاً لجميع الناس دون المؤمنين خاصّة.

الثالث: الآية المباركة تتضمّن العلّة التي أوجبت الأمر بالتقوى وإنزال الأحكام الإلهيّة، وهي تهذيب الناس وتكميلهم، أي أنّ الذي خلق الإنسان وربّاه وأنعم عليه بأنواع النِّعم الظاهريّة والباطنيّة، وتكفّل أمره بالتربية والتكميل، لجدير بأن يتّقى ويُطاع ولا يُخالف له أمر.

ومن ذلك يظهر السرّ في تعليق التقوى بربّهم دون غيره من أسمائه المقدّسة، فإنّ هذا الوصف يعمّ جميع الناس من غير اختصاص بطائفة خاصّة.

ثمّ إنّ المراد بالنفس هي تلك الحقيقة التي يمتاز بها الإنسان عن غيره، وما به يكون الإنسان إنساناً وهو الذي تعلّق به الخلق، كما أنّ المراد بالوحدة الوحدة الفرديّة الشخصيّة، وهي آدم عليه السلام أبو البشر الذي ورد اسمه وكيفيّة خلقه في القرآن الكريم مكرّراً، لا الوحدة النوعيّة كما ذكرها بعض المفسِّرين، لكونها خلاف ظواهر الآيات الكريمة والسُنّة المقدّسة الشارحة لها، وحينئذٍ لابدّ أن يُراد بالخلق في قوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، الخلق التقديري لا الفعلي من كلّ جهة،

---

١. سورة السجدة: الآية ٧ ـ ٨.

٢. سورة ص: الآية ٧١.

لفرض كون الخلق قبل خلق الروح، فيصير المعنى أنّكم تنتهون إلى نفس واحدة كانتهاء الصور الكثيرة إلى المادّة الأوّلية والهيولى الأُولى. وفي ذلك الامتنان والتذكير بالقدرة، ونوع استعطاف للناس بعضهم على بعض بما بينهم من النسب والرحم، ووجوب قيام العلاقات بينهم.

وإنّما لم يقل تبارك من أب واحد، لفرض عدم تحقّق الأُبوّة بعدُ، مضافاً إلى أنّ الآية المباركة في مقام بيان اتّحاد أفراد الإنسان في الحقيقة، وأنّهم تشعّبوا من أصل واحد، وهناك أقوال أُخرىٰ في تفسير هذه الآية الشريفة بعيدة عن الصواب، بل بعضها لا يليق بكرامة القرآن الكريم، ولذلك أعرضنا عنها.

قوله تعالىٰ: **﴿خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾**.

الزوج اسم لكلّ واحد من القرينين، سواء كانا من الحيوانات المتزاوجة، أو ما يقترن بآخر مماثلاً أو مضادّاً. والمراد بها هنا.

أي: وخلق من تلك النفس الواحدة زوجها وهي منشأها، فتفيد أنّها من نوع تلك النفس الواحدة وجنسها، وأنّ الزوجين متماثلان في أصل الإنسانيّة وقيمها، ومتّحدان في العبودية لله تعالىٰ وجميع الأحكام، إلّا ما يختصّ طبع كلّ جنس ببعض الحقوق والواجبات.

ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالىٰ: **﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾**[1]، وعلى هذا لا فرق بين أن يكون (من) نشوية أو تبعيضيّة، فإنّ كلّ واحدة منهما ترجع إلى الأُخرىٰ.

ثمّ إنّ خلق الزوج من النفس الواحدة يحتمل وجوها:

الأوّل: أن يكون خلق الزوج بعد تماميّة خلق آدم ﷺ، وتعلّق الروح به بأن

١. سورة الزمر: الآية ٦.

يكون قد انفصل جزء من الحيّ فصار إنساناً آخر.

الثاني: أن يكون الخلق بمعنى التقدير، بأن يكون المعنى: خلق من نوعها وعلىٰ طبعها زوجها ولو بعد حين، فلا يكون انفصالاً.

الثالث: أنّها خلقت من الطينة الزائدة التي خلق منها آدم عليه السلام قبل تعلّق الروح بهما، فيكون آدم عليه السلام وحواء موجودين مختلفين، ولكنّهما متّحدان في أصل الطينة.

والأوّلان لا وجه لهما كما يأتي، فيتعيّن الأخير، ويشهد لذلك أُمور:

منها: تكرار كلمة الخلق في الآية المباركة **﴿خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾**، وهو يدلّ على تفاوت الخلقين.

ومنها: التراخي في قوله تعالىٰ في سورة الزمر: **﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾**[1].

ومنها: الأحاديث الكثيرة المعتبرة التي تنصّ على أنّ حوّاء عليها السلام خُلقت من فاضل طينة آدم عليه السلام، وأمّا ما نقل من أنّ حوّاء خُلقت من الضلع الأيسر من آدم عليه السلام فهو ممّا لا دليل له يصحّ الاعتماد عليه، اللّهمّ إلّا أن يراد من ذلك أنّ الطينة الفاضلة من خلق آدم عليه السلام لو جعلت في بدن آدم عليه السلام لكان موضعها الضلع الأيسر.

وممّا ذكرنا يظهر أنّ هذه الآية الكريمة لا ربط لها بالآيات الكثيرة التي تدلّ على كون الزوج من أنفسكم لإثارة المودّة والمحبّة، قال تعالىٰ: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾**[2]، وغيرها من الآيات الشريفة، فإنّ ذكر «أنفسكم» فيها لبيان التماثل وإثارة المحبّة والرأفة، نظير قوله تعالىٰ: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ**

---

١. سورة الزمر: الآية ٦.

٢. سورة الروم: الآية ٢١.

أَنْفُسِهِمْ﴾[1]، فيكون المراد من النفس السنخيّة النوعيّة لا الانفصال الحقيقي من النفس.

قوله تعالىٰ: **﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً﴾**.

البثّ: هو النشر والتفرّق بالإثارة والسعة، قال تعالىٰ: **﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾**[2].

وقال تعالىٰ في وصف الناس في يوم الحشر أنّهم **﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾**[3].

وقال تعالىٰ حكاية عن يعقوب: **﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾**[4]، فإنّ الحزن بنفسه مبثوث يظهره الإنسان عند القادر على كشفه ورفعه.

وإنّما قدّم الرجال على النساء لتقدّمهم عليهنّ في الكتاب والسنّة، قال تعالىٰ: **﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾**[5]، بل في التكوين أيضاً، لأنّهم الأصل في نشو الإنسان، وإن كانت النساء لهنّ الدخل الكبير فيه.

وتوصيف الرجال بالكثرة ليس من باب الخصوصيّة والاحتراز، بل الوصف لهما، ولكن حذف الوصف من النساء لدلالة الأوّل عليه.

والمعنى: اتّقوا ربّكم الذي نشر النسل الإنساني بكثرة من آدم وزوجته.

قوله تعالىٰ: **﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾**.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

٢. سورة لقمان: الآية ١٠.

٣. سورة القارعة: الآية ٤.

٤. سورة يوسف: الآية ٨٦.

٥. سورة النساء: الآية ٣٤.

أمر آخر بالتقوى، وفي تكرارها دلالة على الحثّ عليها. والمراد بالتساؤل سؤال الناس به بعضهم بعضاً ـ والإقسام ـ بالله تعالىٰ في مهمّات الأُمور، كما يُقال: بالله أسألك أن تفعل كذا وكذا. وهذا يقتضي الاتّقاء من مخالفة أوامره ونواهيه، لما في المسؤول به من العظمة والجلال والكبرياء والعزّة ما ليس في غيره حتّى المشركين والكفّار، ولذا يقسم ويتساءل به.

وإنّما خصّ التساؤل به تعالىٰ، لعموم جريانه في المجتمع، وأنّ المسؤول به كامل من جميع الجهات، ومَن هو كذلك يستحقّ التقوى عن مخالفة أوامره نواهيه.

والأرحام: جمع رحم، وهو مستودع الجنين في المرأة ومحل نموّ النطفة، قال تعالىٰ: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾**[1]، واُطلق علىٰ مَن يمسّ الإنسان بالقرابة لانتهائه ومآله إلى رحم واحد، وأنّها عطف على لفظ الجلالة.

والمعنىٰ: اتّقوا مخالفة أوامر الله الذي له من العظمة والجلال والعزّة على حدّ تتساءلون به، واتّقوا قطيعة الأرحام وظلمها.

والآية المباركة تدلّ على عظمة صلة الرحم وحقّها ورفع شأنها، على حدّ قارن تقوى الأرحام بتقوى نفسه، فكما أنّ لله تعالىٰ حقوقاً لابدّ من مراعاتها، كذلك للرحم حقوق لابدّ من مراعاتها، قال تعالىٰ: **﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾**[2].

وقال تعالىٰ: **﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾**[3].

وقيل: إنّ الأرحام معطوف على محلّ الضمير في قوله تعالىٰ: **﴿بِهِ﴾**، فهي

---

١. سورة آل عمران: الآية ٦.

٢. سورة لقمان: الآية ١٤.

٣. سورة محمّد: الآية ٢٢.

مجرور، فيكون المعنى: واتّقوا الله الذي تتسائلون به وبالأرحام، كما كان شائعاً عند الناس بقولهم: «بالله أسألُك وبالرحم أن تفعل كذا وكذا».

ولكن سياق الآية الشريفة يأبى ذلك، لأنّها في مقام رفع شأن صلة الأرحام ومقارنتها بشأن نفسه تعالىٰ، مع أنّ ذلك مخالف للقواعد المرعيّة في الأدب، لأنّه يقتضي عطف المظهر على المضمر المجرور، وهو بغير إعادة الجار لايجوز؛ لأنّه بمنزلة الحرف ولا يجوز العطف عليه عند الأكثر.

وعلى أي حال، فالآية الكريمة تدلّ على عظمة مقام الرحم، سواء كان معطوفاً على اسم الجلالة أو على الضمير، وإن كان المتعيّن هو الأوّل.

قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾.

الجملة في موضع التعليل للأمر بالتقوى، وهي تتضمّن التهديد والتوعيد لمَن تمرّد وعصى وخالف.

والرقيب: هو المتفوّق المطّلع على الأعمال والحركات عن كثب وعناية، بخلاف الحارس.

والإتيان بلفظ الجلالة بعد ذكر الربّ في الآية الشريفة، للدلالة على القدرة الكاملة، وللتحذير والتهديد عن المخالفة، لأنّها توجب التفرّق في الوحدة الاجتماعيّة الإنسانيّة، وبثّ الفساد فيها، وهدم كيانها، فالمخالفة عظيمة تستلزم غاية التحذير وكمال التهديد.

والمعنى: اتّقوا الله الذي تعظّمونه وتهيبونه، فإنّه القادر الذي لايخفى عليه شيء ولا يفوته، ويحاسبكم ويجازكم في أمر الأرحام.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

الناس: في قوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ اسم جمع للإنسان كما مرّ، وهو يشمل كلّ بشر على الأرض، واللام فيه لام التعريف يفيد العموم والاستغراق.

والتنكير في قوله تعالىٰ: ﴿**مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾، لأجل تعظيم الأمر وتجليل مقام آدم أبي البشر عليه السلام، والتقييد بالوحدة للاحتراز.

والزوج يُطلق على كلّ واحد من القرينين، كما تقدّم، وإن قال الراغب: إنّ إطلاق الزوجة عليه رديّ.

وكثيراً في قوله تعالىٰ: ﴿**رِجَالاً كَثِيراً**﴾ صفة تؤكّد لما يتضمّنه التكثير من العدد أو غيره في الموصوف، وقيل: إنّه نعت لمحذوف، أي بثّاً كثيراً.

و(تسائلون) أصله تتساءلون، حذف إحدى التائين للتخفيف وهذا مطرد عند العرب، وهو من باب التفاعل، ويرد بمعنى الفعل إذا تعدّد فاعله، وإنّه منسلخ عن التقوّم بالطرفين لو اعتبرنا ذلك في باب المفاعلة، مع أنّ هذه الدعوى أيضاً لا دليل عليها، كما تقدّم في أحد مباحثنا السابقة.

و(خلق منها زوجها)، إمّا عطف على محذوف، أي خلقكم من نفس واحدة، أنشأها من تراب، وخلق منها زوجها، وإنّما حذف لدلالة المعنى عليه، وإمّا عطف على الخلق، وعلى أي منهما يكون المعنى واحداً.

وإتيان الفعل ماضياً في قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾، للتأكيد والاستمرار الدائمي في المراقبة.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآية الشريفة على أُمور:

الأوّل: تعليل الأمر بالتقوى بكونه تعالىٰ خالقاً لهم، يدلّ على مطلوبيّة التقوى من جميع الناس، لأنّ العلّة إذاكانت عامّة، فالحكم يكون كذلك، لأنّه يدور مدارها.

الثاني: التعبير بالربّ في قوله تعالىٰ: **﴿اتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾**، للدلالة على تربيته للعباد والإحسان إليهم، وأنّه خالقهم ومالك أُمورهم والرؤف بهم والمنفق عليهم، ومَن كان كذلك يجب الاتّقاء منه كما تقدّم، فالأمر الأوّل بالتقوى للترغيب، كما يدلّ عليه لفظ الربّ، والأمر الثاني بها للترهيب كما يدلّ عليه لفظ الجلالة.

الثالث: تقديم خلق الناس على خلق الزوجة، للدلالة على إظهار القدرة والعظمة، وأنّه تعالىٰ هو المنظّم للخليقة، وتفخيماً لشأن آدمعليه السلام وأنّه الأصل في انحدار النسل منه.

الرابع: التقييد بالوحدة في قوله تعالىٰ: **﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾**، للدلالة على أمرين:

الأوّل: أنّ خلق جميع الذريّة وبثّها لا يكون عند الله تعالى إلّا كخلق نفس واحدة، كما يدلّ عليه قوله تعالىٰ: **﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾**[١]، فيصحّ أن يراد من البثّ، البثّ الدنيوي والبثّ الأُخروي، وهو الحشر والمعاد، فهما متلازمان.

الثاني: أنّ المراد بالوحدة هي الشخصيّة الفرديّة، فيصير المقام من الكثرة في الوحدة التي أثبتها الفلاسفة بقسميهم، وقوله تعالىٰ: **﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً**

---

١. سورة لقمان: الآية ٢٨.

﴿وَنِسَآءً﴾ من الوحدة في الكثرة التي أثبتها الفلاسفة بقسميهم أيضاً، فيكون بثّ الوحدة في الكثرة، وانطماس الكثرة في الوحدة، نظير اتّحاد الهيولى الأُولى مع الصور الكثيرة غير المتناهيّة، واتّحاد الوجود المطلق في الأفراد الشخصيّة الفرديّة، فتدل الآية الشريفة على الوحدة الاعتباريّة، بل الحقيقيّة في آدم عليه السلام ونسله من أوّل هبوطه إلى آخر فنائه، فكما أنّ الجميع نوع واحد حقيقة، فهذا النوع الواحد له أفراد يكون بمنزلة الأعضاء للبعض الآخر، فلابدّ بينهم من الترابط والعناية الخاصّة في جميع شؤون الآدميّة الحقيقيّة.

الخامس: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ لطيفة خاصّة، وهي أنّ الزوجة بمنزلة الجزء من الزوج، فيحنّ الجزء إلى الكلّ ويتقوّم الكلّ بالجزء، فالكلّ بدون الجزء ناقص، والجزء بدون الكلّ لا حيثيّة له، فما أعلى شأن الزوجة في نظام التكوين.

السادس: يصحّ أن يُراد من الرجال والنساء في قوله تعالىٰ: ﴿رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً﴾ ذريّة خاصّة من نسل آدم عليه السلام ـ وهم الذين ناسبوا مقام أُبوّة آدم عليه السلام الذي هو مسجود الأملاك ـ يعني الأنبياء والذين تابعوهم من الصالحين والصالحات، ويشهد لذلك ذكر التقوى في صدر الآية الشريفة، فيكون المراد من البثّ، البثّ الظاهري والمعنوي، وهم كثيرون في أنفسهم، وإن كانوا قليلين بالنسبة إلى أصل الذرّية، وهم الذين حازوا مقام الإنسانيّة الكبرى فصار مَن دونهم كالأنعام.

السابع: الوجه في تكرار التقوى في الآية المباركة، هو: أنّ التقوى الأُولى لأجل إنعامه بالخلق وبثّ الذريّة، والتقوى الثانية لأجل أنّه تعالىٰ سبب التعاطف والتراحم بالتسائل بعض مع بعض.

الثامن: أنّ التسائل الوارد في الآية الكريمة ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ﴾ أعمّ من تسائل بعض مع بعض كما تقدّم، والتسائل النفسي ـ أي إيقاظ الشعور

الإنساني الذي يسكن في كيان كلّ بشر فيهيّج به، لدواعي التطلّع إلى الله العليّ القدير، والمساءلة فيما بينه وبين نفسه في ذاته تعالىٰ وصفاته ـ فهو موجود في الفطرة، ويدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[1].

التاسع: تدلّ الآية الشريفة على أنّ تقوى الأرحام من تقوى الله تعالىٰ، فيجب مراعاة حقوقها، وأنّ جميع البشر من أبوين، وأنّ بعضهم من بعض، فهم كأُسرة واحدة لا عنصريّة ولا عصبيّة بينهم، لأنّهم من نسل واحد، ويرجعون إلى أب واحد، وهذا هو منهج الإسلام والفطرة السليمة.

***

بحث علمي:

اتّفقت الأديان السماويّة، ومحققّو الفلاسفة من المسلمين وغيرهم على أنّ الإنسان بجوهره وصورته الفعليّة خلقه الله تعالىٰ، وأنّه من صنع الفاعل العليم المختار ـ وهو من أشرف الخليقة ـ وليس وليد التطوّر والنشوء، وقد انتشر النسل البشري على هذه الكرة الأرضيّة من آدم وحوّاء، هو الذي اتّفقت عليه كلمة الأنبياء وشرحه القرآن شرحاً وافياً.

وليس وجوده وتكوّنه من مجرّد الصدفة والاتّفاق، من دون فاعل إرادي مختار، لما أثبتوه في الفلسفة ببراهين كثيرة من بطلان الصدفة والاتّفاق، وتدلّ على البطلان الفطرة العقليّة، مع قطع النظر عن الكتب السماويّة ومقتضيات نفس الطبيعة.

وأمّا إنّه وليد التطوّر والنشوء ـ فلا يكون منتسباً إلى الخلق، بل أنّ صورته الفعليّة حصلت من إيراد الأنواع في الخارج بالتحوّل، كاقتضاء التكوين من بعض الحشرات السماويّة ثمّ الأرضيّة عند اقتضاء أسبابها ـ كما نسب إلى بعض علماء

---

١. سورة إبراهيم: الآية ٣٤.

الغرب بابتنائه على قانون الوراثة، التي هي الأساس لهذه النظرية ـ وإن كان قانون التنازع وبقاء الأصلح لهما المساس فيها، إلّا أنّ الأصل والأساس هو قانون الوراثة ـ وهي: أنّ الصفات التي حدثت في الحيوان من أثر البيئة أو الاجتماع أو أواسط المعيشة أو غيرها قبل الآف السنين، صفات بسيطة كانت في الطبقة العليا ثمّ انتقلت إلى الطبقات اللاحقة، لكنّها اشتدّت وتحوّلت على نحو تسبّبت نوعية خاصّة في الحيوان وهي الإنسان، فهو وليد تلك الصفات بالتحوّل والنشو.

وهو باطل من أساسه، لأنّ الصفات وإن كانت في هذه العالم موروثة، إلّا أنّها لا تتمكّن من انقلاب العرض إلى الجوهر (نوع) إلّا بتعدّد العوالم ـ عالم الدُّنيا والآخرة كما مرّ في البحث عن تجسّم الأعمال ـ لأنّ الجواهر أو الأنواع متباينة مع الأعراض، وأنّ مواليد الطبيعة ومتكوّناتها في هذا العالم لابدّ أن تكون من سنخ نفس مقتضياتها، ومثل هذا الخلق البديع والصنع العجيب كيف يعقل أن يكون من ملوّثات ودنيّاتها التي لا علم لها ولا شعور.

مع أنّ انقلاب النوع إلى نوع آخر بعد تحصّل النوعية غير ممكن إلّا بالاستحالة والأدوار حتّى يصلح للمنقلب إليه.

وهناك وجوه اُخرىٰ تثبت بطلان هذه النظرية، لعلّنا نتعرّض لها في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

فالنظرية الواقعيّة الحقيقيّة، هي ما تقدّم من أنّ الإنسان مخلوق، وأنّ البشرية انتشرت من نفس واحدة؛ وهي آدم الذي هو من صنع الفاعل العليم القهّار الغني بالذات.

***

بحث قرآني:

الخطابات الواردة في القرآن الكريم المتضمّنة بـ «يا أيّها الناس» خطاب

إلى الكثرة والجمع، وهذه الكثرة والجمع لا يعقل لها حدّ ولا نهاية، فيكون الخطاب عامّ لجميع البشر من زمان صدور الخطاب ـ بل من زمان الهبوط ـ إلى زمان الخلود، فهي نوع لا حدّ لأفراده، وقد أثبتنا في علم الأُصول أنّ الخطابات المشتملة على النداء، لا يعتبر فيها وجود المنادى خارجاً، بل يكفي فيها الوجود العلمي الاعتباري.

والمراد من النفس المتّصف بالوحدة الواردة في الآية الشريفة، هو آدم عليه السلام، كما هو معلوم من الآيات التي وردت في كيفيّة خلق آدم عليه السلام وشرح حالاته، فما عن بعض المفسّرين من التشكيك في ذلك غير صحيح، ولا ينبغي أن يعتني به.

ولا شكّ أنّ القرآن وغيره من الأدلّة تثبت أنّ النسل الأوّل من الإنسان انحدر من آدم عليه السلام، ولكن في تكثر الذرّية من بعدهما وفي أولادهما يتصوّر وجوه:

الأوّل: أن يكون التناسل والتكاثر من نكاح كلّ ولد ذكر مع أُمّه.

الثاني: أن يكون ذلك بتزويج كلّ ذكر مع أُخته.

الثالث: أن يكون ذلك بتزويج كلّ ذكر بروحاني متجسّد.

ولا يتصوّر أكثر من ذلك.

والأوّل باطل بالضرورة، للاستقباح الفطري عند كلّ ذي شعور حتّى الحيوانات.

وكذا الثاني، لأنّ نكاح الأُخت من المحرّمات النظاميّة التي لا يختصّ بشريعة دون أُخرىٰ، كقبح السرقة وقبح شرب الخمر وغيرهما، مع ما كشفه العلم الحديث من أنّ نكاح المحارم يستعقب مفاسد كثيرة في النسل، فيكون قوله تعالىٰ: **﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾**[1]، قضيّة حقيقيّة تكوينيّة أبرزها الله تعالىٰ على صورة التشريع، كقوله تعالىٰ: **﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ**

---

١. سورة النساء: الآية ٢٣.

بِالْبَاطِلِ﴾[١]، وقوله تعالىٰ: **﴿يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾**[٢]، فإنّ جميع ذلك من القضايا التكوينيّة أُبرزت بصورة التشريع، توافقا بين النظامين.

وأمّا ما نسب إلى المجوس من تزويج الأخ مع الأُخت وغيرها من المحارم، فليس ذلك مستنداً إلى كتابهم السماوي، وإنّما هو من افتعالاتهم.

إن قيل: وضع الفقهاء مباحث في كتاب الميراث لإرث المجوس، فلو كان مفتعلاً يصير من الزنا، ولا إرث لأولاد الزنا؟

قلت: الافتعال الأوّل حصل بالجعل الأوّلي منهم، وتبعه عوامهم، فيصير كالوطئ بالشبهة ـ جهلاً بالحكم ـ فيتحقّق موضوع الميراث.

وما عن بعض المفسِّرين من أنّ قبح نكاح الأخ مع الأُخت، ليس من الفطريات الأوّلية، بل من القبائح العَرَضية التي تزول لغرض الأهمّ، ولذا لم يكن قبيحاً لأجل بثّ النسل والذرّية.

غير صحيح؛ لأنّ قبح نكاح الأخ مع الأُخت مسلّم في الجملة، وهذا ممّا لاشكّ فيه كما تقدّم، ومع إمكان رفع هذا القبح بأمر آخر لا قبح فيه أصلاً، كيف يتوسّل بما هو قبيح ولو في الجملة؟! مع أنّا لا نسلّم أنّ ذلك قبيح عرضي، وإنّما هو قبيح ذاتي ـ كما في بعض الروايات الآتية ـ كالنكاح مع الأُمّ واللّواط وغيرهما.

ويصحّ أن يُقال: إنّ التجسّد الروحاني كان بمثال الأُخت في نظر الأخ لتحقّق التناسب حسب هذه الطبيعة، قال تعالىٰ في قصّة مريم العذراء: **﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾**[٣].

وقال تعالىٰ: **﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ**

---

١. سورة النساء: الآية ٢٩.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

٣. سورة مريم: الآية ١٧.

مَا يَلْبِسُونَ﴾[١].

وأمّا ما قيل إنّه يستفاد من الآية الشريفة: **﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً﴾**، انحصار البثّ فيهما، فلابدّ من تزويج الأخ مع الأُخت لأجل هذا الانحصار.

قلت: إنّه لا مفهوم للقب كما هو متّفق عليه، وقد أثبتناه في علم الأُصول فراجع «تهذيب الأُصول».

فتلخصّ من جميع ما تقدّم: أنّ بدو انتشار النسل كان بطريق معقول مشروع، من غير تدخّل أيّ منقصة في ذلك، وهو التجسّد الروحاني، وشروع النسل منه ومن ولد آدم عليه السلام، ولا فرق في التجسّد الروحاني بين أن يتجسّد بالذكر للأُنثىٰ، كما في قصة مريم عليها السلام، أو العكس كما في المقام، وإن كان فرق بينهما في الجملة، ولكن في أصل التجسّد وتهيج القوّة الفاعلة والمنفعلة لا فرق بينهما.

***

بحث روائي:

وفيه نذكر الروايات الواردة في خلق حوّاء، وكيفيّة بثّ الذرّية من نسل آدم وحوّاء، وما وردت في شأن الأرحام.

في «نهج البيان»، عن الشيباني: «سُئل الصادق عن التقوىٰ؟ فقال: هي طاعته، فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر».

أقول: هذا بيان بعض مراتب التقوى.

ما وردت في خلق حوّاء:

عن الصدوق، بإسناده عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام، قال:

---

١. سورة الأنعام: الآية ٩.

«سُمِّيت حوّاء لأنّها خُلقت من حيّ، قال الله عزّوجلّ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾».

أقول: هذه الرواية لا تدلّ على تبعّض انفصال عضو من آدم ﷺ، وصيرورته حواء به بإذن الله تعالىٰ، لأنّ المراد من الحيّ هو مادّة لها اقتضاء الحياة، لا الحياة الفعليّة من كلّ جهة، إذ لو كان الحياة من كلّ جهة لاستلزم أن تكون حواء أُختنا وأُمّنا، لأنّها متفرعة منه. وقد ذكرنا سابقاً أنّ «من» لبيان الجنس، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾[1]، لا للتبعيض، وعلى فرض أن يكون للتبعيض هو التبعيض في الجملة، بحيث لا يكون بطريق التوليد.

عن الصدوق أيضاً، بإسناده عن الصادق ﷺ، قال: «سمّيت المرأة مرأة لأنّها خُلقت من المرء».

أقول: المراد من المرء الشخص، والكلام فيه عين الكلام في سابقة، بل هو أهون كما لا يخفىٰ.

وفي «نهج البيان»، عن أبي جعفر الباقر ﷺ: «أنّها خلقت من فضل طينة آدم عند دخول الجنّة».

أقول: هذه الرواية شارحة لمعنى التبعيض المستفاد من لفظ «من»، إن قلنا إنّها تبعيضيّة.

العيّاشي بإسناده عن أمير المؤمنين ﷺ، قال: «خُلقت حواء من قصير جنب آدم، والقصير هو الضلع الأصغر، وأبدل الله مكانه لحماً».

أقول: المراد من هذه الرواية طينة آدم ﷺ قبل أن يجعل له ضلعاً، لا بعد تحقّق الضلعيّة ونفخ الروح والانفصال عن آدم ﷺ، بقرينة الرواية السابقة.

---

١. سورة التوبة: الآية ١٢٨.

وعن العيّاشي أيضاً، بإسناده، قال عليه السلام: «خلقت حواء من جنب آدم، وهو راقد».

أقول: معنى الرواية خلقت من طينة آدم، بحيث لو كانت موضوعة في آدم عليه السلام لكانت في جنبه وهو راقد، أي كان خلق حواء في حال رقود آدم عليه السلام.

عن عمرو بن أبى المقدام، عن أبيه، قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام من أي شيء خلق الله حواء؟ فقال: أي شيء يقولون هذا الخلق؟ قلت: يقولون إنّ الله خلقها من ضلع من أضلاع آدم، فقال: كذبوا، أكان الله يعجره أن يخلقه من غير ضلعه؟ قلت: جعلت فداك يابن رسول الله، من أي شيء خلقها؟ فقال: أخبرني أبي عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله تبارك وتعالىٰ قبض قبضة من طين فخلطها بيمينه، وكلتا يديه يمين، فخلق منها آدم، وفضلت فضلة من الطين فخلق منها حوّاء».

أقول: ذيل الرواية: «كلتا يديه يمين»، كناية عن القوّة الفعاليّة والاستيلاء، لأنّ اليمين كناية عنها، والبسيط الحقيقيّة بالوحدة الحقيقيّة تكون جميع جهاته الملحوظة، كذلك فهو جلّ شأنه مستولّ وقويّ وفعّال لما يريد، فلا يعقل بالنسبة إليه يسار، إن كان يسار كناية عن جهة النقص، كما هو كذلك.

وهذه الرواية معتبرة وشارحة لجميع روايات الباب ومفصّلة لها، فلابدّ من ردّ جميعها إليها، وهي مطابق لقانون العقل الذي قلناه.

عن أبى علي الواسطي، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ الله خلق آدم من الماء والطين، فهمة ابن آدم من الماء والطين، وأنّ الله خلق حواء من آدم، فهمة النساء من الرجال، فحصّنوهن في البيوت».

أقول: حيث كانت طينة حواء قبل أن يخلق منها مقتضية لأن يجعل في آدم، فهذه الاقتضاء باقٍ للمرأة إلى الأبد، فهي تهمّ إلى ما اقتضته منها.

ما وردت في كيفيّة بثّ النسل منهما:

عن أبي بكر الحضرمي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «إنّ آدم ولد له أربعة ذكور، فأهبط الله إليهم أربعاً من الحور العين، فزوّج كلّ واحد منهم فتوالدوا، ثمّ إنّ الله رفعهنّ وزوّج هؤلاء الأربعة أربعاً من الجنّ، فصار النسل فيهم، فما كان من حلم فمن آدم عليه السلام، وما كان من جمال فمن قبل حور العين، وما كان من قبح أو سوء خلق من الجن».

أقول: هذه الرواية تبيّن ما شرحناه في كيفيّة بثّ النسل. ويستفاد منها أنّ الإنسان بجميع ألوانه وصفاته ـ كالبيض والسود والحمر والصفر والقصير والطويل أو الجميل والقبيح وغيرها ـ ينتهي إلى آدم عليه السلام وزوجته، ولا دخل للصفات والألوان في انحدار النسل منه، وما ورد في الرواية من قوله عليه السلام: «فما كان من حلم فمن آدم عليه السلام، وما كان من جمال فمن قبل حور العين، وما كان من قبح أو سوء خلق فمن الجن»، يمكن مثالاً لكلّ تغيّر نوعي، لوناً كان أو غيره من الصفات، فلا مجال للتشكيك في أنّ بعض الألوان لا ينحدر إلى آدم عليه السلام، لأنّه كان من غير ذلك اللون.

وعن العيّاشي: عن أبي بكر الحضرمي، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قال لي: ما يقول الناس في تزويج آدم ولده؟ قلت: يقولون إنّ حواء كانت تلد لآدم في كلّ بطن غلاماً وجارية، فتزوّج الغلام الجارية التي من البطن الآخر، وتزوّج الجارية الغلام الذي من البطن الآخر الثاني، حتّى توالدوا، فقال أبو جعفر عليه السلام: ليس هذا، كذلك يحجّكم المجوس، ولكنّه لمّا ولد آدم هبة الله وكبر، سأل الله أن يزوّجه، فانزل الله له حوراء من الجنّة فزوّجها إيّاه، فولدت له أربعة بنين، ثمّ ولد لآدم عليه السلام ابن آخر، فلمّا كبر أمره فتزوّج إلى الجان فولد له أربع بنات، فتزوّج بنو هذا بنات هذا، فما كان من جمال فمن حور العين، وما كان من حلم فمن قبل آدم، وما كان

من حقد فمن قبل الجان، فلمّا توالدوا صعدت الحوراء إلى السماء».

أقول: هذه الرواية تبيّن بعض ما ذكرناه في التفسير، ويمكن حمل الاختلاف على تعدّد الواقعة.

عن الصدوق: بإسناده إلى زرارة، قال: «سُئل أبو عبد الله عليه السلام: كيف بدأ النسل من ذرّية آدم؟ قال: عندنا أُناس يقولون إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى آدم عليه السلام أن يزوّج بناته من بنيه، وأنّ هذا الخلق كلّهم أصله من الأُخوة والأخوات، قال أبو عبدالله عليه السلام: سبحان الله تعالىٰ عن ذلك علوّاً كبيراً، مَن يقول هذا؟! إنّ الله عزّوجلّ جعل أصل صفوة خلقه وأحبّائه وأنبيائه ورسله والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من حرام، ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من الحلال!! وقد أخذ ميثاقهم على الحلال والطهر الطاهر الطيب، والله لقد نُبئت أنّ بعض البهائم تنكّرت له أُخته، فلمّا نزا عليها ونزل كشف له عنها، وعلم أنّها أُخته أخرج غرموله، ثمّ قبض عليه بأسنانه ثمّ قلعه، ثمّ خرَّ ميّتاً، قال زرارة: ثمّ سئل عن خلق حواء، وقيل له: إنّ أُناساً عندنا يقولون: إنّ الله عزّوجلّ خلق حواء من ضلع آدم الأيسر الأقصى، قال: سبحان الله تعالىٰ عن ذلك علوّاً كبيراً، يقول مَن يقول هذا، إنّ الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لآدم زوجة من غير ضلعه، وجعل للمتكلّم من أهل التشنيع سبيلاً إلى الكلام، يقول إنّ آدم كان ينكح بعضه بعضاً إذا كانت من ضلعه، ما لهؤلاء؟ حكمَ الله بيننا وبينهم، ثمّ قال: إنّ الله تبارك وتعالى لمّا خلق آدم من طين أمر الملائكة فسجدوا له، وألقى عليه السبات، ثمّ ابتدع له خلقاً ثمّ جعلها في موضع النقرة التي بين ركبتيه، وذلك لكي تكون المرأة تبعاً للرجل، فأقبلت تتحرّك فانتبه لتحرّكها فلمّا انتبه نوديت أن تنحي عنه، فلمّا نظر إليها نظر إلى خلق حسن يشبه صورته غير أنـها أُنثى، فكلّمها فكلّمته بلغته، فقال لها: مَن أنتِ؟ فقال: خلق خلقني الله كما ترى، فقال آدم عليه السلام عند ذلك: يا رب مَن هذا

الخلق الحسن الذي قد آنسني قربه والنظر إليه؟ فقال الله: هذه أَمَتي حواء، أفتحبّ أن تكون معك فتؤنسك وتُحدّثك وتأتمر لأمرك؟ قال: نعم يا رب، ولك بذلك الشكر والحمد على ما بقيت، فقال الله تبارك وتعالىٰ: فاخطبها إليّ، فإنّها أَمَتي وقد تصلح أيضاً للشهوة، فألقى الله عليه الشهوة، وقد علم قبل ذلك المعرفة، فقال: يا رب إنّي أخطبها إليك فما رضاك لذاك؟ قال: رضاي أن تعلّمها معالم ديني، فقال: ذلك يا رب إن شئت ذلك، فقال عزّوجلّ: قد شئت ذلك، وقد زوجتكها، فضمّها إليك، فقال: اقبلي، فقالت: بل أنت، فأقبل إليّ، فأمر الله عزّوجلّ لآدم أن يقوم إليها فقام، ولولا ذلك لكان النساء هنّ يذهبن إلى الرجال حتّى خطبن على أنفسهن، فهذه قصّة حوّاء صلوات الله عليها».

أقول: هذه الرواية المعتبرة تتضمّن أُموراً هامّة:

الأوّل: أنّ أصل التزويج الذي في شرع الإسلام هو من الميثاق الذي أخذه الله تعالىٰ على جميع الأنبياء والمرسلين.

الثاني: أنّ ما يقال لخلق آدم عليه السلام من دون الرجوع إلى السنّة والوحي المبين، هو لسان التشنيع على الدِّين، فلا ينبغي الإصغاء إليه بوجه من الوجوه.

الثالث: لم يرد فيها ذكر أنّها خلقت من ضلع أو من فضالة طين آدم عليه السلام، للاستغناء عن ذلك بقوله عليه السلام: «ثمّ ابتدع له خلقاً».

الرابع: أنّ تبعيّة المرأة للرجل تكوينيّة من بدء الخلقة إلى آخرها.

وعن الصدوق: بإسناده إلى زرارة، قال: «سُئل أبو عبد الله عليه السلام عن بدء النسل من آدم كيف كان، وعن بدء النسل من ذرّية آدم عليه السلام؛ فإنّ أُناساً عندنا يقولون إنّ الله تبارك وتعالىٰ أوحى إلى آدم أن يزوّج بناته من بنيه، وأنّ هذا الخلق كلّه أصله من الإخوة والأخوات؟!! فقال أبو عبد الله: تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً، يقول مَن قال هذا بأن جلّ وعزّ خلق صفوة خلقه وأحبّائه وأنبيائه ورسله

والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من حرام، ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من حلال، وقد أخذ ميثاقهم على الحلال الطهر الطاهر الطيّب؛ فو الله لقد نبئت أنّ بعض البهائم تنكّرت له أُخته، فلمّا نزا عليها ونزل كشف له عنها فعلم أنّها أُخته أخرج غرموله ثمّ قبض عليه بأسنانه حتّىٰ قطعه فخرّ ميّتاً، وآخر تنكّرت له أمّه ففعل هذا بعينه، فكيف الإنسان في أُنسيته وفضله وعلمه؟ غير أنّ جيلاً من هذا الخلق الذي ترون رغبوا عن علم بيوتات أنبيائهم، وأخذوا من حيث لم يؤمروا بأخذه، فصاروا إلى ما قد ترون من الضلالة والجهل بالعلم. كيف كانت الأشياء الماضية من بدأ، فخلق الله ما خلق وما هو كائن أبداً، ثمّ قال: ويح هؤلاء أين همّ عمّا لم يختلف فيه فقهاء أهل الحجاز ولا فقهاء أهل العراق، فإنّ الله عزّوجلّ أمر القلم فجرى على اللّوح المحفوظ بما هو كائن إلى يوم القيامة قبل خلق آدم بألفي عام، وإن ممّا كتب الله كلّها فيما جرى فيه القلم في كلّها تحريم الأخوات على الإخوة مع ما حرّم، وهذا نحن قد نرى منها هذه الكتب الأربعة المشهورة في هذا العالم ـ التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ـ وأنزلها الله من اللّوح المحفوظ على رسله صلوات الله عليهم أجمعين، منها التوراة على موسىٰ، والإنجيل علىٰ عيسى، والزبور على داود، والفرقان على محمّد ﷺ وعلى النبيّين عليهم السلام، ليس فيها تحليل شيء من ذلك، حقّاً أقول ما أراد مَن يقول هذا وشبهه إلّا تقوية حجج المجوس على موسىٰ، فما لهم قاتلهم الله ـ ثمّ أنشأ يحدّثنا كيف كان بدأ النسل من آدم وكيف كان بدأ النسل من ذرّيته ـ فقال: إنّ آدم ولد له سبعون بطناً في كلّ بطن غلام وجارية إلى أن قتل هابيل، فلمّا قتل قابيل هابيل جزع آدم عليه السلام على هابيل جزعاً شديداً، قطعه عن إتيان النساء، فبقى لا يستطيع أن يغشى حوّاء خمسمائة عام، ثمّ تجلّى ما به من الجزع عليه فغشى حواء فوهب الله له شيئاً عليه السلام وحده ليس معه ثان، واسم شيث هبة الله، وهو أوّل وصيّ أُوصي إليه من الآدميين في الأرض، ثمّ ولد له

من بعد شيث يافث ليس معه ثان، فلمّا أدركا وأراد الله عزّوجلّ أن يبلغ بالنسل ما ترون وأن يكون ما قد جرى به القلم من تحريم ما حرّم الله عزّوجلّ من الأخوات على الإخوة، أنزل الله بعد العصر في يوم الخميس حوراء من الجنّة اسمها بـركة (نزلة) أمر الله عزّوجلّ آدم أن يزوّجها من شيث فزوّجها منه، ثمّ نزل بعد العصر حوراً من الجنّة اسمها بوكة (منزلة)، فأمر الله عزّوجلّ آدم أن يزوّجها من يافث من ابن شيث ففعل ذلك، فولد الصفوة من النبيِّين والمرسلين من نسلهما، ومعاذ الله أن يكون ربّك على ما قالوا من الإخوة والأخوات».

أقول: هذه الرواية من مفصّلات الروايات الشارحة، فتكون حاكمة عـلى جميع ما تقدّم، وموافقه لحكم الفطرة.

وعن الصدوق: بإسناده عن أبي بصير، قال: «قلت لأبي عـبدالله عليه السلام: لأي علّةٍ خلق الله عزّوجلّ آدم من غير أب وأُمّ، وخلق عيسى من غـير أب، وخـلق سائر الناس من الآباء والأُمّهات؟ فقال ليعلم الناس تمام قدرته وكمالها، ويعلموا أنّه قادر على أن يخلق خلقاً من أُنثى من غير ذكر، كما هو قادر على أن يخلقه من غير ذكر وأُنثى، وأنّه عزّوجلّ فعل ذلك ليعلم أنّه على كلّ شيء قدير».

أقول: تبيّن هذه الرواية كمال قدرته تعالىٰ، وأنّه على كلّ شيء قدير، وصدّ عن ألسنة مَن يقول بغير علم، ففي مثل هذه الرواية دقائق وإشارة لا يفهمها إلّا مَن تأمّل فيها حقّ التأمل.

وعنه أيضاً، بإسناده عن عبد الحميد بن الديلم، عن الصادق عليه السلام، في حديث طويل، قال: «سمّي النساء نساءً أنّه لم يكن لآدم عليه السلام أُنس غير حوّا».

أقول: هذه الرواية تبيّن وجه الاشتقاق.

وفي «الاحتجاج»، عن علي بن الحسين عليهما السلام، في حديث له مـع قـرشي: «يصف فيه تزويج هابيل بلوزا أُخت قابيل، وتزويج قابيل بإقليماً أُخت هـابيل،

فقال له القرشي: فأولداهما؟ قال: نعم، فقال له القرشي: فهذا فعل المجوس اليوم، فقالوا: إنّ المجوس فعلوا ذلك بعد التحريم من الله، ثم قال له: لا تنكر هذا، إنّما هي شرائع الله جرت، أليس الله قد خلق زوجة آدم منه ثمّ أحلها له؟ فكان ذلك شريعة من شرائعهم، ثمّ أنزل الله التحريم بعد ذلك».

أقول: هذه الرواية مضافاً إلى قصور سندها ومعارضتها بما هي أكثر منها لما تقدّم، أنّ المراد من الأُخت الواردة فيها الروحانيّة المتجسِّدة بشباهة أُخت قابيل، وكذا تزويج قابيل أُخت هابيل. وأمّا قول القرشي نحو توهّم، وقول الإمام عليه السلام للقرشي جوابٌ إسكاتي له، وذيل الرواية محمول كما تقدّم، مع أنّ متن الرواية يشهد بعدم صدوره عن المعصوم عليه السلام، فلابدّ من طرحها.

ما وردت في تعدّد خلق آدم طولاً:

في «التوحيد» للصدوق، عن الصادق عليه السلام في حديث، قال: «لعلّك ترى أنّ الله لم يخلق بشراً غيركم؟ بلى والله لقد خلق ألف ألف آدم، أنتم في آخر أُولئك الآدميِّين».

أقول: لم يدلّ دليل عقلي على أنّ أبانا آدم عليه السلام هو أوّل خلق آدمي في الممكنات، فمقتضى أصالة الإمكان جواز تعدّد الآدميين قبله. وما عن بعض المفسِّرين من سوء المقال في المقام، ظاهر في أنّه غير مطلع على القواعد العقليّة، ولا على الشواهد الخارجيّة.

وفي «الخصال»: عن الصادق عليه السلام، قال: «إنّ الله تعالىٰ خلق عشر ألف عالَم، وعالم منهم أكبر من سبع سماوات وسبع أرضين، ما يدرى عالم منهم أنّ لله عزّوجلّ عالماً غيرهم».

أقول: لا ريب في الإمكان الذاتي بالنسبة إلى هذه العوالم، كما لا ريب في

قدرة الله تبارك وتعالىٰ غير المتناهيّة بالنسبة إلى خلق هذه العوالم، ولا دليل من عقل أو نقل على امتناع وقوعها، بل الشواهد الكثيرة تدلّ على وقوعها، وإنكار بعض المفسِّرين يدلّ على قصور فهمه وعدم دركه بما جعله الفلاسفة من الأوّليات من قولهم: «كلّ ما قرع سمعك من العجائب والغرائب فذره في بقعة الإمكان ما لم يمنعك عنه قائم البرهان»، مع أنّ جمعاً كثيراً من قدماء الفلاسفة أثبتوا الأدوار والأكوار في هذه العالم، وتسالم الكلّ على قدم الهيولي والصور المتوالية المتتابعة.

وفي «الخصال»: عن أبي جعفر عليه السلام: «لقد خلق الله عزّوجلّ في الأرض منذ خلقها سبعة عالمين، ليس هم من ولد آدم، خلقهم من أديم الأرض فأسكنهم فيها واحداً بعد واحد من عالمه، ثمّ خلق الله عزّوجلّ آدم أبا البشر وخلق ذرّيته منه».

أقول: لا تنافي بين هذه الرواية وبين الروايات السابقة، لأنّ الروايات السابقة لم تبيّن كيفيّة المخلوقات في تلك العوالم. والحصر في هذه الرواية إضافي، لا أن يكون حقيقيّاً حتّىٰ يحصل التنافي. مع أنّه يمكن أن تكون الرواية الأُولىٰ بالنسبة إلى نوع آخر.

ما وردت في شأن صلة الرحم:

في «الكافي» عن جميل بن دراج، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام: عن قول الله عز ذكره: **﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾**، فقال: يعني أرحام الناس، أنّ الله عزّوجلّ أمر بصلتها وعظمها، ألم تر أنّ الله جعلها معه».

أقول: هذه الرواية تدلّ على تعظيم صلة الأرحام، ونظيرها كثيرة.

وفي «الكافي» أيضاً، عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: صلوا أرحامكم ولو بالتسليم، يقول الله تبارك وتعالىٰ: **﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾**».

أقول: لصلة الرحم مراتب كثيرة، أدناها التسليم.

وعن عمر بن حنظلة، عن الصادق عليه السلام في قول الله تعالىٰ: **﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾**، قال: «هي أرحام الناس، إنّ الله أمر بصلتها وعظمتها، ألا ترى أنّه جعلها معه».

عن جميل بن دراج، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «سألته عن قول الله: **﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾**، قال: «هي أرحام الناس، أمر الله تبارك وتعالىٰ بصلتها وعظمتها، ألا ترى أنّه جعلها معه».

أقول: تقدّم ما يتعلّق بهما.

في «الكافي»: بإسناده عن محمّد بن الفضيل الصيرفي، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: «إنّ رحم آل محمّد الأئمّة المعلّقة بالعرش، تقول: اللّهُمّ صِل مَن وصلني واقطع من قطعني، ثمّ هي جارية في المؤمنين، ثمّ تلا هذه الآية: **﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾**».

أقول: لا ريب في أنّ رحم آل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين هي المتيقّنة ممّا ورد في صلة الأرحام من الكتاب والسنّة والأدلّة العقليّة. ومعنى التعلّق بالعرش، كونهم بوجودهم النوراني موجودين في هذا المقام العظيم، يدعون لمَن وصلهم وعلى مَن قطعهم.

وفي «الدّر المنثور»: أخرج عبد بن حميد، عن عكرمة، في قوله تعالىٰ: **﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾**، قال ابن عبّاس: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يقول الله تعالىٰ: صلوا أرحامكم، فإنّه أبقى لكم في الحياة الدّنيا، وخيرٌ لكم في آخرتكم».

أقول: قريب منه غيره من طرقنا وما ذكره صلى الله عليه وآله من الآثار الوضعية من المقتضي، لا العلّية التامّة.

وفي «الكافي»: بإسناده عن جميل بن دراج، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿**وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**﴾ قال: هي أرحام الناس، انّ الله أمر بصلتها وعظمتها، ألا ترى أنّه جعلها معه».

أقول: تقدّم ما يدلّ على ذلك، ولا تنافي بينها وبين ما تقدّم من تفسير صلة الرحم برحم آل محمّد عليهم السلام، لأنّ هذه الرواية تبيّن بعض أقسام الرحم، وليست في مقام الحصر الحقيقي حتّى يتحقّق التنافي.

العيّاشي عن الأصبغ بن نُباتة، قال: «سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إنّ احدكم ليغضب فما يرضى حتّى يدخل به النار، فأيّما رجل منكم غضب على ذي رحمه فليدن منه، فإنّ الرحم إذا مسّها الرحم استقرّت، وأنّها متعلّقة بالعرش ينقضه انتقاض الحديد، فينادي: اللّهمّ صِل مَن وصلني واقطع مَن قطعني، وذلك قول الله في كتابه: ﴿**وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾، وأيّما رجل غضب وهو قائم فليلزم الأرض من فوره، فإنّه يذهب رجز الشيطان».

أقول: لا تنافي بين هذه الرواية، وبين ما دلّت على أنّ رحم آل محمّد صلى الله عليه وآله متعلّقة بالعرش، لأنّ مراتب التعلّق متفاوتة جدّاً.

ومعنى تعلّق سائر الأرحام بالعرش، حضورهن بالحضور العلمي لدى الله تبارك وتعالىٰ، والدُّعاء لمَن وصلهم وعلى مَن قطعهم.

وأمّا أنّ مسّ كلّ رحم بالرحم يوجب هبوط فوران الغضب، فلما أثبته العلم الحديث من انتهائهم إلى شيء واحد، فتستولى الوحدة وتنطفي الغضب.

وأمّا ذيل الرواية، فلأنّ القعود يوجب سكون فوران الدم في الجملة، فيتوجّه إلى نفسه فيحصل له التعوّذ من الشيطان.

وعن ابن شهر آشوب، بإسناده عن ابن عبّاس، في قوله تعالىٰ: ﴿**وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**﴾ نزلت في رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته وذوي أرحامه،

وذلك أنّ كلّ سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلّا ما كان من سببه ونسبه ﷺ.

أقول: يستفاد منه أنّ الرحم ما كان متّصلاً إلى يوم القيامة، وكان رحماً فيها أيضاً، وهو مختصّ بنسب رسول الله ﷺ، لأنّ ما سواه ينسون أنفسهم في تلك الأهوال والشدائد فضلا عن أرحامهم ،قال تعالىٰ: **﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾**[١].

وفي تفسير علي بن إبراهيم قال: «تساءلون يوم القيامة عن التقوى هل اتّقيتم؟ وعن الأرحام هل وصلتموها».

أقول: هذا من التفسير بأكبر المصاديق.

وعن علي بن إبراهيم في تفسيره أيضاً، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «الرقيب الحفيظ».

أقول: حيث إنّ رقابته جلّ جلاله من الحضور العلمي الإحاطي، وهذا يستلزم الحفظ بما يراه من المصالح.

وفي «المجمع»، عن الباقر عليه السلام: «اتّقوا الأرحام أن تقطعوها».

أقول: الروايات في حرمة قطع الرحم كثيرة جدّاً، وهي من المعاصي الكبيرة كما ذكرناه في الفقه.

***

بحث فقهي:

إطلاق الآية الشريفة وغيرها من الآيات والروايات يشمل كلّ رحم ـ ذكراً كان أو أُنثى صغيراً كان أو كبيراً ـ نسبيّاً كان أو سببيّاً، وارثاً كان أو غير وارث، قاطعاً كان أو وصولاً، بل صلة القاطع أحبّ عند الله تبارك وتعالىٰ من صلة الرحم الوصول لدلالة الروايات المتواترة على ذلك.

---

١. سورة عبس: الآية ٣٤ ـ ٣٧.

والمراد من الرحم ما ينتهي إلى رحم واحد بحسب الاجتماع العرفي، إلّا إذا دلّ دليل من الشرع على الخلاف، كما في رحم آل محمّد صلوات الله عليهم الذي وسع فيه إلى يوم القيامة بل وفيها، ولذا أكّد في الشرع أولويّة الأرحام في إيصال الصدقات والخيرات وتقدّمهم علىٰ غيرهم. وهناك موارد تفضيل ذكرناها في كتاب (مهذب الأحكام).

***

بحث عرفاني:

في خلق آدم عليه السلام جهتان:

الأُولى: الجهة النورانيّة المعنويّة، وتستفاد هي من قوله تعالىٰ: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**﴾، وهي من أرفع الجهات وأعلى الدرجات، وليس في الممكنات ما يفوقها.

الثانية: الجسمانيّة، وهي الطين والصلصال والحمأ المسنون، وقد اعتنى سبحانه وتعالىٰ بكل منها اعتناءً بليغا لم يعتن بشيء من الممكنات بمثله، لأنّه أوّل خليقته وأب الأنبياء.

أمّا الجهة الأُولى: فيكفيك قوله تعالىٰ: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**﴾[1]، بأي معني لوحظ ذلك يدرك كنه عظمته ورفعته.

وأمّا الجهة الثانية: فيكفى فيها قوله تعالىٰ: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾[2]، وأظهر منها إسجاد الأملاك لهذا الخلق العجيب الذي تحيّر الأفكار في مغزى درك حقيقته ودرك واقعيّته.

والجهتان متلازمتان في الجملة في هذا الموجود العظيم في أي مرتبة من

---

١. سورة ص: الآية ٧٢.

٢. سورة ص: الآية ٧٥.

مراتب ظهوره وبروزه.

وهذه المراتب غير محدودة، وإن أمكن تحديد كلّياتها في الجملة، فالأُولى مرتبة العلم الأزلي، وهي أعلى المراتب وأسماها.

الثانية: مرتبة المشيئة الكلّية، وهي: **﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾**[١].

الثالثة: مرتبة الإرادة الفعلية الحتميّة، وهي: **﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾**[٢].

الرابعة: مرتبة الإيجاد بالأمر، وهي: **﴿إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**[٣].

الخامسة: مرتبة تعليم الأسماء، وهي: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾**[٤].

السادسة: مرتبة التقصير، وهي: **﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾**[٥].

السابعة: مرتبة الهبوط، وهي: **﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾**[٦].

الثامنة: مرتبة التوبة وقبولها، وهي **﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾**[٧].

---

١. سورة ص: الآية ٧١.

٢. سورة ص: الآية ٧٢.

٣. سورة البقرة: الآية ١١٧.

٤. سورة البقرة: الآية ٣١.

٥. سورة طه: الآية ١٢١.

٦. سورة البقرة: الآية ٣٦.

٧. سورة الأعراف: الآية ٢٣.

وقال تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

التاسعة: عالم الاصطفاء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2].

العاشرة: عالم الذرّ بقسميه، في السماء، وفي الأرض في بطحاء بمكّة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[3].

الحادية عشر: مرتبة انتشار النسل وبثّه بالتدرّج الزماني.

الثانية عشر: مرتبة أصلاب الآباء وأرحام الأُمّهات وأدوارها.

الثالثة عشر: مرتبة خروج الروح وتحقّق الموت.

الرابعة عشر: عالم البرزخ، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[4].

الخامسة عشر: عالم الخلود.

هذه كلّيات ما يرد على هذه اللطيفة الربّانية. وإن قيل: إنّ هذا الموجود العظيم أعظم عمل ربّاني، لا بأس به، ويأتي تتمّة المقال في مستقبل الكلام.

***

---

١. سورة البقرة: الآية ٣٧.

٢. سورة آل عمران: الآية ٣٣.

٣. سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

٤. سورة المؤمنون: الآية ١٠٠.

الآية ٢ ـ ٦

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ أنّه كَانَ حُوباً كَبِيراً ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا ۝٣ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً ۝٤ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ۝٥ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً ۝٦﴾.

الآيات المباركة من جلائل الآيات التي تتعلّق بالقواعد النظاميّة، وهي تبيّن أهمّ القوانين التي لها دخل في حياة الأُسرة والمجتمع الإنساني؛ من تنظيم الروابط بينهم وحفظ العلاقات ـ بين أفراد الأُسرة ـ التي أهمّها رعاية اليتامى وحفظ أموالهم، وتحديد النكاح باليتيمات واللّواتي تحت الوصاية بعدم التقصير في حقوقهنّ. وتعدّد الزوجات المراعى بعدم الجور والظلم عليهن، وحفظ حقّ المرأة في صداقها وعدم التعدّي فيه.

والمنع من تصرّف السفهاء ـ الذين لا يحسنون التصرّف ـ في أموالهم، وإن كان لهم الحقّ منها في الرزق والكسوة، إلّا إذا تبيّن الرشد والأهليّة منهم، فيرجع إليهم أموالهم. والآية الكريمة تقرّر الإشهاد حين تسليم المال إليهم، دفعاً للشبهة والخصومة، فهذه الآيات في مقام الردع عن الأخلاق الجاهليّة ومن يحذو حذوهم في الإسلام.

ومن أجل أهمّية هذه القوانين وارتباطها بنظام الأُسرة والمجتمع، سبقت الآيات الشريفة بأنّه جلّ شأنه رقيب، وختمت بأنّه تعالىٰ محاسب ما يصدر عن عباده من الأعمال.

وارتباط هذه الآيات الشريفة بما قبلها هو أنّ القيام بشؤون الأيتام وغيرها ممّا تقدّم من أهمّ مصاديق التقوىٰ، وفي عرض صلة الأرحام، بلا فرق بين أن يكون اليتيم من الأرحام أو لم يكن منهم، مع أنّها توطئة لما يأتي من أحكام الإرث.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾.

هذه الآيات الكريمة مشتملة على أُصول نظاميّة فطريّة متينة، ترتبط بحياة الأُسرة والمجتمع كما تقدّم، وقد قررها الوحي المبين، وهي أُمور:

الأوّل: ما يتعلّق بأموال اليتامىٰ. والخطاب في الآية الشريفة عام يشمل الأوصياء والأولياء ـ الجعليّين والشرعيّين ـ وغيرهم المتصدّين لشؤون أموال اليتامى.

والأمر بإيتاء اليتامى أموالهم من التفصيل لموارد الاتّقاء، وإنّما بدأ بهم إظهاراً لشأنّهم وعناية خاصّة بهم، لأنّهم الضعفاء في الأُسرة والمجتمع.

واليتيم من اليُتم وهو الانفراد عن المثل، وفي الإنسان هو الصغير الذي مات أبوه، وفي سائر الحيوانات هو فاقد الأُمّ.

والمراد بالإيتاء إيصال أموالهم إليهم ـ إمّا صرفاً عليهم أو عيناً ـ والتعبير باليتيم حين الإيصال بإعتبار أنّ الاستيلاء على المال كان حين اليتم، أي كان يتيما. ويمكن أن يراد باليتامى كلّ مظلوم ومقهور استولي على ماله ـ يتيماً كان بالمعنى المصطلح أو لا ـ ثمّ ارتفع عنه ذلك، كما يأتي في البحث العرفاني.

والمعنىٰ: أنّ مَن استولى على أموال اليتامى ـ بحقّ كان كالوصيّ والولي، أو بغير حقّ كالظالم ـ يجب دفعها إليهم إن بلغوا الرشد والكمال، بقرينة الآية الآتية.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾**.

الثاني من تلك الأُصول: ما يتعلّق بتبديل الخبيث بالطيّب، الذي هو من المستنكرات الفطرية العقليّة.

والتبديل هو جعل شيء مكان الآخر، والخبيث هو ما تتنفّر عنه الطبائع، والطيب ما رغبت إليه الطبائع.

والمعنىٰ: لا تبدّلوا الردي من أموالكم بالطيّب من أموال اليتامى، أو لا تأكلوا أموال اليتامى فهو الخبيث، أي الحرام، بدلاً عمّا طيّب الله لكم من أموالكم، أي الحلال.

والقدر الجامع بين الاحتمالين هو عنوان تبديل الحرام بالحلال، سواء كان بالمعنى الأوّل أو بالثاني فيوخذ به، وإن كان المعنى الأوّل أقرب إلى الذهن، ولكن ذيل الآية المباركة كالقرينة للمعنى الثاني.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾**.

الثالث من الأُصول المتقدّمة: الخلط بين أموال اليتامى وأموال المتصدِّين،

ثمّ أكل الجميع، وهذا أيضاً من المستنكرات.

والنهي في الآية الشريفة تعلّق بمطلق التصرّف، وهو المراد بالأكل فيها.

والمعنىٰ: لا تتصرّفوا في أموال اليتامى، سواء كان التصرّف بالأكل أم الانتفاع، أم المشاركة مع أموالكم، لأنّ الواجب عليكم حفظ أموال اليتامى وصيانتها واستثمارها لصالح الأيتام.

قوله تعالىٰ: **﴿أنّه كَانَ حُوباً كَبِيراً﴾**.

الضمير يرجع إلى مطلق التصرّف.

والحوب: هو الإثم، وتوصيفه بالكبر للتهويل والعظمة، لأنّ في الفعل والارتكاب جرأة عظيمة.

والمعنىٰ: مَن تصرّف في أموال اليتامى ـ أي تصرّف كان ـ فقد ارتكب إثماً كبيراً، إلّا إذا كان بإذن من الشرع كما فصّل في الفقه.

قوله تعالىٰ: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾**.

الرابع: ممّا تقدّم من الأُصول، كيفيّة القسط والمعاشرة بين نفس اليتامى.

والقسط هو النصيب بالعدل، بعدما بيّن سبحانه وتعالىٰ حكم أموال اليتامى، شرع فيما يتعلّق بأنفس اليتامى، وإنّما أخّره لأنّ الأوّل أكثر شيوعاً من الثاني.

والآية الشريفة تحتمل صوراً:

الأُولى: أن يكون المراد التزويج من اليتيمات ـ اللّواتي لهنّ مال، واحدة كانت أو متعدّدة ـ وكان التزويج موجباً لتحقّق القسط بين اليتامى في أنفسهن وأموالهن، فلا ريب في جواز هذه الصورة وصحّتها، وحينئذ لا إشكال في ارتباط صدر الآية الشريفة مع ذيلها.

الثانية: التزويج بيتيمة ليس لها مال، مع تحقّق القسط من قبل الرجل بنفسه في التزويج، سواء تعدّدت الزوجات منهن أم لم تتعدّد، وحكمها حكم الصورة الأُولىٰ.

الثالثة: التزويج باليتيمات مع خوف عدم القسط، سواء كان التزويج بواحدة منهنّ أو بمتعدِّدة، وإن كان الخوف في صورة التعدّد أشدّ، والآية الشريفة تنفي هذه الصورة.

الرابعة: التزويج بامرأة ذات أب وعندها يتيم.

الخامسة: ما إذا كانت اليتيمات في معرض الزواج، وكانت نساء من غيرهن في معرض الزواج أيضاً، ويخاف الإنسان إن تزوج من اليتيمات أن لا يقسط بينهن، فيدعهن ويتزوّج من سواهن. وهذه الصورة هي المشهورة بين المفسِّرين.

السادسة: أن تكون الآية المباركة في مقام الإرشاد ودفع التوهّم، أي أنّكم لو خفتم من التزويج باليتيمات، ولأجله منعتموهن من التزويج بأنفسكم أو بغيركم، خوفاً من أن لا تقسطوا فيهن وتظلموهن، فتزوّجوا منهنّ، وإن كنتم ذوي زوجات فإنهنّ حلال لكم ولغيركم، فإنّ الله تعالىٰ يرشدكم إلى ذلك.

وهذه الصور الثبوتيّة تتوافق مع ذيل الآية الشريفة، وهو: **﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾**.

وأمّا في مقام الإثبات والظهور، فيجتمع مع أكثر الصور، وإن كانت الخامسة مشهورة بين المفسِّرين كما قلنا.

وظهر ممّا ذكرنا فساد ما ذهب إليه بعض المفسِّرين، من عدم ارتباط صدر الآية الشريفة بذيلها، وقد عرفت كمال الربط بينهما.

قوله تعالىٰ: **﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾**.

هذه الألفاظ تدلّ على أعداد مكرّرة، وهي اثنين اثنين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً. وإنّها ممنوعة من الصرف.

والخطاب متوجّه إلى الجميع، والعطف بمعنى التخيير، فيكون المعنى المُراد بلحاظ الخطاب والعطف، وبقرينة ذيل الآية الكريمة: لكلّ واحد من المؤمنين أن يختار واحدة إن خاف من الجور والتعسّف، وإلّا اثنتين أو ثلاث أو أربع.

ولا يستفاد من الآية الشريفة الجمع بين التسع منهن كما توهّمه بعض، لعدم دلالتها بوجه على ذلك، بل أنّه غير محتمل أصلاً، فلو قال أحد: جاء القوم مثنى وثلاث ورباع، لا يستفاد أصلاً مجيئهم تسعة، مع أنّ لفظ (و) بمعنى التخيير بقرائن قطعيّة؛ منها ضرورة الدين كما يأتي في البحث الفقهي.

قوله تعالىٰ: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾.

المراد من الخوف في هذه الآية المباركة، العلم العادي المعبّر عنه بالاطمئنان، وإنّما عبّر بالخوف لكون المورد والمتعلّق منشأ للخوف عرفاً.

والمعنىٰ: إن حصل لكم الاطمئنان في عدم تسوية حقوقهن، وأن لا تعدلوا بين المتعدّدات، فانكحوا وتزوّجوا واحدة منهن.

قوله تعالىٰ: ﴿**أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾.

أي: مَن خاف من عدم التقسيط فيهن، فينكح واحدة من الحرائر، أو ما يختار من الإماء ما شاء، إذ ليس لهن شيء من حقوق الزوجيّة الثابتة للحرائر حتّى يستلزم الجور والتعسّف، إلّا إذا كان نكاحهن علىٰ وجه الزوجيّة، كما فصّل في الفقه.

والآية الشريفة لا تدلّ على تجويز الظلم والتعدّي على الإماء ـ فإنّه تعالىٰ ليس بظلّام للعبيد، فلا يرخص بالظلم ـ وإنّما في مقام بيان أنّ الإماء ليست

محدودة بحدّ الحرائر، لأنّ الإماء يتحمّلن من المشاقّ والمتاعب ما لا تتحمّل الحرائر، فليست الآية الكريمة في مقام تجويز الظلم عليهن.

قوله تعالىٰ: ﴿**ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا**﴾.

العول: هو الميل، أي تميلوا إلى الجور، والمشار إليه في «ذلك» ما تقدّم من الأحكام النظاميّة، فيتضمّن نكاح الإماء وغيره.

والمعنىٰ: أنّكم إذا عملتم بما تقدّم من الأحكام والأُصول النظاميّة، تكونون أقرب إلى الحقّ وعدم الميل إلى الباطل.

ويمكن إرجاع الخطاب «ذلك» إلى خصوص تملّك الإماء، لعدم التحديد في تملكهن والتمتّع بهن، وعدم لزوم التسوية بينهن، وإن كان الأولى ما تقدّم، لشموله لهنّ بالعموم أيضاً.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً**﴾.

الخامس من الأُصول النظامية المتقدّمة: ما يتعلّق بمهور النساء ـ اللّواتي كاليتامى في الضعف ـ دفعاً وأخذاً منهن.

والأمر متوجّه إلى مَن استولى على صدقاتهن ومهورهن، زوجاً كان أو غيره، بدفع ما استولى منها إليهن.

والصدقات: جمع صَدُقة (بفتح الصاد وضم الدال)، وهي كالصداق بمعنى المهر، وهو المال ـ أو أي شيء له إعتبار عرفي ولم ينه الشرع عنه ـ يملّكه الزوج المرأة عند الزواج، لعادة استمرّت بين الناس، وقرّرتها الشرائع السماوية إلّا عند بعض المليّين.

والنحلة هي العطيّة المقصود منها الانتفاع بلا عوض، والتعبير بها للترغيب.

والمعنىٰ: أعطوا النساء مهورهن التي جعلتم لهن نحلة وعطية، أو جعل الله

تعالىٰ لهن عطية، ولا تمنعوهن من مهورهن شيئاً.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾.

أي: إن وهبن لكم شيئاً من صداقهن، وطابت نفوسهن إلى الهبة لكم ـ غير كارهات ولا لشكاسة أخلاقكم أو لسوء معاشرتكم ـ حلّ لكم أخذه وأكله.

والضمير في (منه) يرجع إلى الصداق، والأمر للإباحة المشروطة بطيب النفس.

والهنيء والمريء صفتان:

الأولى: النعمة بلا نكد ولا تعب.

والثانية: السائغة بلا غصّة. وفي حديث الاستسقاء «اللهمَّ اسقنا غيثاً مريئاً».

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾.

بيان للأصل السادس: من الأُصول الفطرية العقلائية المطابقة للوجدان، وهو التحفّظ على المال عن الفساد والانهيار، إذ لولاه لاختلّ النظام، وقد علّل هذه الأصل في الآية الشريفة بأمتن تعليل وشهد به العقل، وهو أنّ المال قيام لمعاش الناس، ومع وقوع الاختلال فيه يختلّ المعاش، ومع اختلال المعاش يختلّ المعاد أيضاً، لقولهم عليهم السلام: «مَن لا معاش له لا معاد له».

والخطاب (النهي) متوجّه إلى الناس بأجمعهم، وليّاً كان أو غيره، كان المال للسفيه أو لغيره، مخلوطاً كان المال الذي هو مال السفيه مع غيره أو خالصاً، ففي جميع ذلك لا يجوز دفع المال إلى السفيه، فهذه الآية المباركة تشمل الآيات الشريفة المتقدّمة شمول الكلّي لأفراده.

والسفهاء: جمع سفيه، والسفه الخفّة في العقل على نحو لا يضع الأُمور في مواضعها، وليس عنده حالة باعثة على حفظ ماله والاعتناء به، يصرفه في غير

موقعه ويتلفه بغير محلّه، وليست معاملاته مبنيّة على المكايسة والتحفّظ عن المغابنة، ولا يبالي بالانخداع فيها، وتقدم في آية ١٤٢ من سورة البقرة ما يتعلّق بالمقام.

وإضافة الاموال إلى المخاطبين في قوله تعالىٰ: **﴿أَمْوَالَكُمُ﴾**، أعمُّ من أن يكون للولي أو غيره مال ويريد أن يدعه عند سفيه، أو يكون المال للسفيه، وهو وليّه يصرفه عليه، يريد أن يعطيه ويردّه إليه، فحينئذٍ تكون الإضافة بالعناية والتنزيل أو غيرها. وفي جميع ذلك يراعى فيه المصالح المقرّرة الشرعيّة التي أوجبها الله تعالىٰ على عباده، وحينئذ إن لم يراع فيه تلك المصالح المقرّرة الشرعيّة يكون من الصرف في الباطل، ويستلزم الاختلال، وحينئذٍ يخرج النظام عن الاستقامة إلى الانحراف، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالىٰ: **﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾**[1]، وقوله تعالىٰ: **﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾**[2].

والمعنى: لا تعطوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وسبباً لمعاشكم وقضاء مآربكم.

قوله تعالىٰ: **﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾**.

الأصل السابع: من تلك الأُصول المتقدّمة يتضمّن العناية الخاصّة منه جلّ شأنه بالنسبة إلى السفهاء، لئلا يقعوا في الحرج والشدّة ـ ولا يقع الناس منهم في الحرج ـ لحرمانهم في التصرّف في أموالهم، فأمر جلّت عظمته بالقيام بشؤونهم من أموالهم.

والمراد من رزقهم فيها الإنفاق عليهم وتغذيتهم وتنظيم معاشهم، كما أنّ

---

١. سورة النساء: الآية ٢٩.

٢. سورة الأعراف: الآية ٣١.

المراد من كسوتهم هي اللباس، والمقصود من (القول المعروف) هو المعاملة الحسنة، تألّفاً لهم ورفعاً لحزازة حبس الأموال عنهم، لأنّهم بشر أمثالكم يتأثّرون بالقول الخشن، وقد تُغيّر المعاملة الحسنة والأخلاق الحميدة سلوكهم ويزيل السفه عنهم، وهذا هو الأصل الثابت من الأُصول المتقدّمة.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ**﴾.

الثامن: من الأُصول المتقدّمة: في تمحيص اليتامى واختبارهم لإحراز صلاحيّتهم وأهليّتهم لدفع أموالهم إليهم، وهو متقوّم بأمرين:

الأوّل: البلوغ في السنّ، وهو المراد ببلوغ النكاح، أي المرحلة التي جعلها الله تعالىٰ لنوع البشر، وهي الحالة التي تحدث فيها مادّة النسل في الذكر، ودم الحيض في الأُنثى، بحيث يكونان صالحين للزواج والإنجاب، ولها أمارات كالاحتلام والإنبات والسنّ على ما فصّلناه في الفقه، فراجع كتاب الحجر من (مهذب الأحكام)، أي امتحنوا اليتامى بعد بلوغهم واختبروا حالاتهم.

قوله تعالىٰ: ﴿**فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾.

الأمر الثاني: إحراز الرشد والاهتداء لحفظ المال.

والجملة جواب لإذا الظرفيّة، الذي هو ﴿**إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ**﴾، أي إذا وجدتم من اليتامى البالغين رشداً واهتداءً في حفظ أموالهم وضبطها بعد كبرهم وبلوغهم، فادفعوا إليهم أموالهم، فدفع الأموال لا يكون إلّا بعد البلوغ ووجدان الرشد فيهم.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا**﴾.

الأصل التاسع: في المنع عن التعدّي في أموال اليتامى.

والأكل معروف والمراد منه مطلق الاستيلاء.

والإسراف: تجاوز الحدّ.

والبدار: المسارعة إلى الشيء.

والمعنى: لا تأكلوا أموال اليتامى بالتجاوز والتعدّي، ولا تبادروا في أكلها بحيث لو بلغ اليتيم رشيداً لمنعهم عن ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿**مَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾.

الأصل العاشر: في تحديد تملّك مَن يتصدّى لأموال اليتيم من أموالهم لأُجرة عمله، أي مَن كان غنياً ذا مال وثروة، فليكف عن الأكل والتصرّف في أموال اليتامى، ومَن كان فقيراً وكان عمله في صلاح أموال اليتامى، فليأكل منها وليتصرّف بالمعروف بحسب أُجرة مثل عمله.

والأمر وإن كان للإباحة إلّا أنّه مقيّد بالمعروف، فالإكثار منه فيه محذور، فوليُّ اليتيم ـ أو مَن يتصدّى لأمواله ـ إن استغنى عفّ، وإن افتقر أكل بالمعروف.

قوله تعالىٰ: ﴿**فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ**﴾.

الأصل الحادي عشر: في الاستيثاق عند دفع الأموال إليهم، وهو الشهادة تحكيماً للأمر ودفعاً للاختلاف.

والمعنىٰ: إذا سلّمتم إليهم أموالهم بعد توفّر الشروط السابقة وقبضوها منكم، فأشهدوا عليهم بالقبض.

والأمر إرشادي محض، لأنّه لو فرض الاستيثاق والاستيمان في القبض بلا الشهادة، لا تجب شهادة حينئذ كما هو واضح.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً**﴾.

تعليل لجميع ما تقدّم من الأحكام والأُصول النظاميّة، وفي ذكر اسم الله

تعالىٰ تنبيه على أنّه محيط ومسلّط على جميع ذلك، وكفى به محاسباً عليكم في جميع أعمالكم، وما صدر ويصدركم منكم.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

اليتامى في قوله تعالىٰ: **﴿وَآتُوا الْيَتَامَى﴾** جمع يتيم، وهو فعيل ـ صفة ـ وهي قد تجمع على فعال مثل كريم وكرام، أو على فَعُلاء كشريف وشرفاء، أو فُعُل كنذير ونذر، أو فعَلى مثل مريض ومرضى، ولا يأتي على فعالىٰ إلّا في مثل هذه الآية الشريفة، وفي قول تعالىٰ: **﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى﴾**[1]، ولعلّه أنّه جمع أوّلاً على يَتمىٰ كمرضى، ثمّ جمع يَتمى على يتامىٰ.

أو يكون ذلك بالقلب، فإن يتيم صفة جارٍ مجرى الأسماء، فجمع يتيم يتائم ثمّ قلب إلى يتامىٰ، كنديم وندامى، وجميع ذلك على وجه السماع.

والتبدّل في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا﴾** من باب التفعّل، ومجيئه بمعنى الاستفعال غير عزيز.

والباء في قوله جلّ شأنه: **﴿بِالطَّيِّبِ﴾** للبدليّة، دخلت على المبدل منه، كما في قوله تعالىٰ: **﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾**[2].

و(إلى) في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾** بمعنى مع، كما في قوله تعالىٰ: **﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾**[3]، أي مع الله، وقوله تعالىٰ: **﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾**[4].

---

١. سورة البقرة: الآية ٨٥.

٢. سورة البقرة: الآية ١٠٨.

٣. سورة آل عمران: الآية ٥٢.

٤. سورة المائدة: الآية ٦.

وما في قوله تعالىٰ: ﴿**مَا طَابَ**﴾، كما تقع لما لا يعقل كذلك تقع لنعوت ما يعقل، وفي المقام وقعت لنعت ما يعقل، أي فانكحوا الطيب من النساء.

ومثنى وثلاث ورباع في موضع نصب بدلاً من (ما)، وقد وردت هذه الجملة في القرآن الكريم في موردين:

أحدهما: المقام.

والثاني: قوله تعالىٰ: ﴿**جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾[١]، ويستفاد من الآية الأخيرة أنّ هذه الكلمات الثلاث نكرات، لأنّها جاءت صفة للنكرة لا توصف بالمعرفة.

والنصب فيها بدل من التنوين، فإنّ كلّاً منهما تمييز وحقّ التمييز النصب بالتنوين، ولكنّها ممنوعة من الصرف للتأنيث والعدول، فإنّها معدولة عن الأعداد المكرّرة اثنين اثنين، وثلاث ثلاث، وأربع أربع، فنصب بالفتح فقط، وقيل إنّها صفة.

والمشهور أنّ العرب لا تجاوز في هذا الباب عن رباع إلى ما فوق، فلا يقولون خماس.

و(من) في قوله تعالىٰ: ﴿**مِنْهُ نَفْساً**﴾ للتبيّن وليس للتبعيض، مثل قوله تعالىٰ: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الْأَوْثَانِ**﴾[٢]، والنصب في (نفساً) للتمييز.

وأفراد (التي) في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً**﴾، لأنّ الأموال جمع لا يعقل، ويجري فيه لفظ الواحد، كقوله تعالىٰ: ﴿**فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي**﴾[٣].

---

١. سورة فاطر: الآية ١.

٢. سورة الحج: الآية ٣٠.

٣. سورة هود: الآية ١٠١.

وقال تعالىٰ: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَائِبُكُمْ اللاَّتِي﴾[2].

والباء في قوله تعالىٰ: ﴿كَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾ للحصر.

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: أنّ التعبير بـ(آتوا) في قوله تعالىٰ: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى﴾، يدلّ على عناية خاصّة منه تعالى للأيتام، لم تكن في التعبير بغيره، مثل اعـطوا أو ارجـعوا، لأنّ الإيتاء هو إعطاء خاص لا مطلق الإعطاء.

الثاني: إنّما عبّر جلّ شأنه بالخبيث دون غيره، حتّىٰ يشمل الفاسد والمحرم وغيرهما، فإنّه كما تقدّم عام يشملهما ويشمل الردي والفاسد وما سواهما، وكذا الطيّب يشمل المباح والواجب والمندوب.

الثالث: أنّ الاختلاف في التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿أَلاَّ تُقْسِطُوا﴾، وقوله تـعالىٰ: ﴿أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾، لأنّ الأوّل وقع موقع الخوف من عدم الإقساط، الذي هـو بـمعنى العدل، أي خفتم من ترك العدل في أموال اليتامى ونسائهم، والثاني بمعنى الجور، يعني إن خفتم أن تجوروا وتميلوا في النفقة عن الحقّ فواحدة منهن.

الرابع: يستفاد من الآية الشريفة ﴿مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾ الجمع في الحكـم، أي يجوز للرجل التزويج بتسع نساء طولاً، لأنّ الواو وإن بقيت على حالها لكنّها لا يستلزم الجمع بين تسع نسوة عرضاً، لأنّ الجمع في الحكم لا يستلزم الجمع في الزمان الواحد، وذلك بقرينة ما ورد في الكتاب والسنّة من عدم جواز الجمع بأكثر

---

١. سورة النساء: الآية ٢٣.

٢. سورة النساء: الآية ٢٣.

من أربع منهن.

الخامس: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ علىٰ مشروعيّة تعدّد الزوجات، والتخيير بين التزويج بواحدة منهم أو اثنتين أو ثلاث أو أربع. وهذه الآية من الآيات المعدودة التي تقرّر مبدأ تعدّد الزوجات إلى أربع وتبيح ذلك، ولكن الإباحة مقيّدة بقيود تحدّدها إلى الحدّ المطلوب، والذي تستقيم به الحياة، كما تدلّ عليه الآية الشريفة، وسيأتي الكلام في هذا المجال في البحث الآتي.

وإنّما عدل سبحانه وتعالىٰ عن الاثنين والثلاث والأربع إلى مثنى وثلاث رباع، لأنّ الخطاب للجميع، فالمعنى أنّ كلّ مَن يريد الجمع من المخاطبين اثنتين اثنتين فقط أو ثلاث ثلاث أو أربع أربع ولو اُفردت، لما أفاد هذه المعنى.

ومن ذلك يعلم الوجه في إتيان حرف العطف بـ(و) دون (أو)، فإنّه يدلّ على جواز الجمع بين أنواع القسمة التي دلّت عليه الواو، أي إن شاء الجميع أن يتّفقوا في أي عدد من تلك الأعداد أو يختلفوا في تلك الأعداد.

وذهب بعض إلى أنّ الآية الكريمة تدلّ على جواز الجمع بين تسع نسوة، التي هي مجمع اثنتين وثلاث وأربع، لمكان الواو.

ولكنّه مردود بما ذكرناه.

السادس: إنّما خصّ النهي عن أكل مال اليتامى مع أموال الأولياء أو الأوصياء أو غيرهما، ولم ينه عن الأكل وحده، مع أنّ ذلك حرام أيضاً، لأن أكل مال اليتيم كذلك أقبح، لأنّ فيه الاستغناء، حيث لغير اليتيم مال وهو مستغن به، ولذلك خصّه بالنهي. وأنّ الأكل كذلك فيه نحو خفاء وتستّر، بخلاف الأكل وحده، كما أنّه جاء النهي على ما وقع منهم.

السابع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾، على أنّ النكاح ليس من المعاوضة الحقيقيّة، فالصداق نحو نحلةٍ وهديةٍ من الزوج إلى المرأة.

كما أنّ التعبير بـ(طبن) يدلّ على اعتبار أن يكون إعطاؤهن الصداق للزوج عن جزم وعزم نفساني غير قابل للتبدّل، لا مجرّد الإذن الظاهري، فذلك لا يتحقّق إلّا بهذا التعبير: (طبن).

الثامن: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً**﴾ على كثرة المعاشرة مع اليتامى، ومعاشرة اليتامى معهم، بحيث صار ذلك مغروساً في النفس، وحصل الاطمئنان الكامل بالرشد، كما في قوله تعالىٰ حكاية عن موسى بن عمران عليه السلام: ﴿**إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً**﴾.

التاسع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً**﴾ على اختلاف كيفيّة المقاولة معهم بحسب الأزمنة والأمكنة والحالات، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾، فإنّ ذلك يختلف اختلافاً كثيراً، وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿**فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾.

العاشر: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً**﴾، على التهويل وأهمّية ما تقدّم من الأحكام والأُصول النظامية، على نحو أنّ الحيّ القيوم المحيط بجميع العوالم بكلّياتها وجزئيّاتها هو يتكفّل الحساب، ويحاسبكم على أعمالكم وما صدر منكم.

***

بحث روائي:

في تفسير علي بن إبراهيم، في قوله تعالىٰ: ﴿**وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ**﴾، يعني: «لا تأكلوا مال اليتيم ظلماً، فتسرقوا وتبدّلوا الخبيث بالطيّب، والطيب ما قال الله: ﴿**وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ ﴿**وَ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ**﴾ يعني مال اليتيم، لأنّه كان حوباً كبيراً. أي إثماً عظيماً».

أقول: هذه الروايات من باب بيان أهمّ المصاديق للآية الشريفة، وكذا في تبديل الخبيث بالطيب.

وفي «نهج البيان» للشيباني، في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ**﴾ قال ابن عبّاس: «لا تتبدّلوا الحلال من أموالكم بالحرام من أموالهم، لأجل الجودة والزيادة فيه، قال: وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام».

أقول: هذه الرواية وأمثالها إرشاد إلى لزوم الجادّة الوسطى في كلّ الأُمور، وعدم الإفراط والتفريط.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن سماعة، عن الصادق عليه السلام، قال:

«سألته عن رجل أكل مال اليتيم هل له توبة؟ فقال: يؤدّي إلى أهله، لأنّ الله يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً**﴾، وقال: ﴿**إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً**﴾».

أقول: هذه الرواية موافقة للقاعدة، لأنّ التوبة لا تتحقّق إلّا بعد أداء حقّ الناس إليهم.

وفي «الفقيه»، باسناده عن أبى بصير، قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما أيسر ما يدخل العبد النار؟ قال: مَنْ أكل من مال اليتيم درهماً، ونحن اليتيم».

أقول: هذه الرواية من باب بيان أهمّ المصاديق.

وفي «أسباب النزول» للواحدي، في قوله تعالىٰ: ﴿**وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ- الآية-**﴾ نزلت في رجل من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم، فلمّا بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمّه، فترافعا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، فنزلت الآية، فلمّا سمعها العمّ قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول، نعوذ بالله من الحوب الكبير، فدفع إليه ماله، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: مَن يوق شح ويطع ربه فإنّه يحلّ داره، يعني جنّته، فلمّا قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله تعالىٰ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: ثبت الأجر وبقى الوزر، فقالوا: يارسول

الله، قد عرفنا أنّه ثبت الأجر، فكيف بقي الوزر وهو ينفق في سبيل الله؟ فقال صلى الله عليه وآله: ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده».

أقول: لا ريب في أنّ ذلك من باب بيان بعض المصاديق فيجري الحكم في الجميع مطلقاً، وذيل الرواية موافق لقوله تعالىٰ: **﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾**[1]، فكأنّ والده حمل أوزاراً في جمع المال.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن سماعة بن مهران، عن الصادق عليه السلام: **﴿إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً﴾**، قال: «هو ممّا قال يخرج الأرض من أثقالها».

أقول: هذه الرواية تدلّ على عظمة هذا الإثم.

وفي حديث الدُّعاء: «تقبّل توبتي واغسل حوبتي»، أي إثمي، وفيه أيضاً: «اللّهمّ اغفر لنا حوبنا»، أي إثمنا.

وفي «تفسير» عليّ بن إبراهيم، قال: «نزلت مع قوله تعالىٰ: **﴿وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسٰاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتٰابِ فِي يَتٰامَى النِّسٰاءِ اللاّٰتِي لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا كُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ، فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾**، فنصف الآية في أوّل السورة ونصفها على رأس المائة وعشرين آية، وذلك أنّهم كانوا لا يستحلون أن يتزوّجوا بيتيمة قد رأوها، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك فأنزل الله تعالىٰ **﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ـ** إلى قوله ـ **مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْـمَانُكُمْ﴾**، وقوله تعالىٰ: **﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾** أي لا تتزوّجوا ما لا تقدرون ان تعولوا».

أقول: يمكن أن يكون التفكيك في كيفيّة سماع الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله مرّتين لا في أصل نزول الوحي.

---

١. سورة النجم: الآية ٣٩.

وفي «أسباب النزول» للواحدي: «أُنزلت هذه الآية **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا﴾** في الرجل يكون له اليتيمة وهو وليّها، ولها مال وليس لها أحد يخاصم دونها؛ فلا ينكحها حبّاً لمالها، ويضرّ بها ويسيء صحبتها، فقال الله تعالىٰ: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾**، ما أحللت لك، ودع هذه».

أقول: وقريب منه ما رواه مسلم في «صحيحه»، وأنّ ذلك من باب ذكر أهمّ المصاديق.

وفي «الكافي»: بإسناده عن نوح بن شعيب، قال: «سأل ابن أبي العوجاء هشام بن الحكم، فقال: أو ليس الله حكيماً؟ قال: بلى هو احكم الحاكمين، قال: فأخبرني عن قوله عزّوجلّ **﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾** أليس هذا فرض؟ قال: بلى، قال: فأخبرني عن قوله عزّوجلّ: **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾** أيّ حكيمٍ يتكلّم بهذا؟ فلم يكن عنده جواب، فرحل إلى المدينة إلى أبي عبدالله عليه السلام فقال: يا هشام في غير وقت حجٍّ ولا عمرة؟ قال: نعم جعلت فداك لأمر أهمّني، أنّ ابن أبي العوجاء سألني عن مسألة لم يكن عندي فيها شيء، قال: وما هي؟ قال: فأخبره بالقصّة، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: أمّا قوله عزّوجلّ: **﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾** يعني بالنفقة، وأما قوله تعالىٰ: **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾** يعني في المودّة، قال: فلمّا قدم عليه هشام بهذه الجواب وأخبره، قال: والله ما هذا من عندك».

أقول: يمكن رفع التهافت وردّ قول ابن أبي العوجاء بالاختلاف الجهتي المعقول، وما قاله عليه السلام من إحدى تلك الجهات.

وفي «تفسير» عليّ بن إبراهيم: «سأل رجل من الزنادقة أبا جعفر الأحول فقال: أخبرني عن قول الله عزّوجلّ: **﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾**، وقال في آخر السورة: **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾** فبين القولين فرق، فقال أبو جعفر الأحول: فلم يكن عندي في ذلك جواب، فقدمت المدينة فدخلت على أبي عبدالله عليه السلام وسألته عن الآيتين، فقال: أمّا قوله: **﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾** فإنّما عنى به النفقة، وقوله **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾**، فإنّما عنى به في المودّة، فإنّه لايقدر أحد أن يعدل بين المرأتين في المودّة، فرجع أبو جعفر الأحول إلى الرجل فأخبره، فقال هذا حملته الإبل من الحجاز».

أقول: ما قاله عليه السلام رفع معقول للتنافي كما تقدّم في الرواية السابقة.

وفي «الكافي»: بإسناده عن محمّد بن مسلم، عن الصادق عليه السلام:

«إذا جمع الرجل أربعاً فطلّق إحداهنّ، فلا يتزويج الخامسة حتّى تنقضي عدّة المرأة التي طلّق، وقال: لا يجمع ماء في خمس».

وفي «تفسير العيّاشي»: بإسناده عن منصور بن حازم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لا يحلّ لماء الرجل أن يجري في أكثر من أربعة أرحام من الحرائر».

أقول: هذا بناءً على ما هو المتسالم بين المسلمين من أنّ المطلّقة الرجعيّة زوجة، فلابدّ من حمل الطلاق فيها على الطلاق الرجعي دون البائن ومَن لا عدّة له.

وعن ابن بابويه: بإسناده عن محمّد بن سنان: «أنّ أبا الحسن الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: علّة تزويج الرجل أربع نسوة وتحريم أن تزوّج المرأة أكثر من واحد، لأنّ الرجل إذا تزوّج أربع نسوة كان الولد منسوباً إليه،

والمرأة لو كان لها زوجان أو أكثر من ذلك لم يعرف الولد لمَن هو، إذ هم مشتركون في نكاحها، وفي ذلك فساد الأنساب والمواريث والمعارف».

أقول: هذه الرواية محمولة على ما إذا كان الزوجان في زمان واحد عرضاً لا طولاً، بأن تزوّجت برجل ثمّ فارقته واعتدّت منه فتزوّجت بآخر وهكذا.

وعن ابن بابويه، بإسناده عن محمّد بن الفضيل، عن سعد الجلاب، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إنّ الله عزّوجلّ لم يجعل الغيرة للنساء، وإنّما تغار المنكرات منهنّ، فأمّا المؤمنات فلا، إنّما جعل الله عزّوجلّ الغيرة للرجال، لأنّه قد أحلّ الله عزّوجلّ له أربعاً وما ملكت يمينه، ولم يجعل للمرأة إلّا زوجها وحده، وإن بغت معه غيره كانت عند الله زانية».

أقول: يشهد لذلك روايات أُخرىٰ تدلّ على ما ورد فيها.

وعن العيّاشي، بإسناده عن الصادق عليه السلام، قال: «في كلّ شيء إسراف إلّا في النساء، قال الله تعالىٰ: ﴿**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾ وقال: وأحل الله ما ملكت أيمانكم».

أقول: المراد من عدم الإسراف في النساء، جواز التعدّد إلى الأربع في العقد الدائم، وإلى ما لا حدّ له في ملك اليمين والانقطاع، كما فصّلناه في كتابنا (مهذب الأحكام).

وفي «الكافي»، بإسناده عن سعيد بن يسار، قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام جعلت فداك، المرأة دفعت إلى زوجها مالاً من مالها ليعمل به، وقالت حين دفعت إليه: انفق منه فإن حدث بك حدث فما أنفقت منه كان حلالاً طيّباً، فإن حدث بي حدث فما أنفقت منه فهو حلال طيّب، فقال: أعد عليَّ يا سعيد المسألة، فلمّا ذهبت أن أُعيدها عليه عرض فيها صاحبها وكان معي حاضراً فأعاد عليه مثل ذلك، فلمّا فرغ أشار بإصبعه إلى صاحب المسألة، فقال: يا هذا إن كنت تعلم أنّها قد أفضت

بذلك إليك فيما بينك وبين الله فحلال طيّب ثلاث مرّات، ثمّ قال: يقول الله عزّوجلّ: ﴿**فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً**﴾».

أقول: يستفاد من الرواية أنّ ما أعطته المرأة أعمّ من أن يكون من صداقها أو من غيره.

وفي «الكافي»، عن عدة من أصحابنا، بإسناده عن زرارة، عن الصادقعليه السلام، قال: «لا يرجع الرجل فيما يهب لامرأته، ولا المرأة فيما تهب لزوجها، اجيزت أو لم تجز، أليس الله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿**وَلاٰيَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً**﴾، وقال: ﴿**فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً**﴾، وهذا يدخل في الصداق والهبة».

أقول: يستفاد من هذه الرواية أنّ الهبة غير المعوضة في الزوج والزوجة لازمة، كما ذكرنا في الفقه، وأنّ الصداق داخل في الهبة من باب الدخول الحكمي لا الموضوعي.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن زرارة، قال:

«لا ترجع المرأة فيما تهب لزوجها حيزت أو لم تحز، أليس الله يقول: ﴿**فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً**﴾».

أقول: يستفاد ذلك من روايات كثيرة تقدّم بعضها، وقد ذكرنا أنّ الهبة بين الزوج والزوجة لازمة.

وفي «تفسير العيّاشي» أيضاً، بإسناده عن سماعة بن مهران، عن الصادقعليه السلام، قال: «سألته عن قول الله تعالىٰ ﴿**فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً**﴾، يعني بذلك أموالهن في أيديهن ممّا ملكن».

أقول: الرواية تشمل الصداق وغيره ممّا ملكن.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن عبد الله بن القداح، عن الصادق، عن أبيهعليهما السلام،

قال: «جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين بي وجع في بطني، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ألكَ زوجة؟ قال: نعم، قال: استوهب منها شيئاً طيبة بـه نفسها من مالها ثمّ اشتر به عسلاً ثمّ اسكب عليه من ماء السماء ثمّ اشربه، فإني سمعت الله يقول في كتابه: ﴿**وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً**﴾، وقـال: ﴿**يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ**﴾، وقال ﴿**فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً**﴾، شفيت إن شاء الله تعالىٰ، ففعل ذلك فشفى».

أقول: اقتباسٌ حسنٌ لطيف من الآيات المباركة، ولعلّ الشفاء مـن الآثـار الوضعيّة لما قرّره في تلك الآيات الشريفة، وقريب منها غيرها.

وفي «تفسير» علي بن ابراهيم: «عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تـعالىٰ: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ**﴾، فالسفهاء النساء والولد، إذا علم الرجل أنّ امرأته سفيهة مفسدة، وولده سفيه مفسد، لم ينبغ له أن يسلّط واحداً منهما على ماله الذي جعل الله له قياماً، يقول: ﴿**وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً**﴾ المعروف العدّة».

أقول: المراد بالعدّة الوعد بالإحسان، وتوصيف السفيه بالمفسد بيان لبعض مراتب السفاهة.

وفي «تفسيره» أيضاً، بإسناده عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام، قال: «قـال رسول الله صلى الله عليه وآله: شارب الخمر لا تصدّقوه إذا حدّث، ولا تزوّجوه إذا خـطب، ولا تعودوه إذا مرض، ولا تحضروه إذا مات، ولا تأتمنوه على أمانة؛ فمَن ائتمنه على أمانة فأهلكها فليس على الله أن يخلفه عليها ولا أن يأجره عليها، لأنّ الله يقول: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ**﴾، وأي سفيه أسفه من شارب الخمر؟!».

أقول: قد ورد في كثير من الأخبار تفسير السفيه بشارب الخمر، وهو صحيح من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم، فإنّ شرب الخمر ملازم لزوال العـقل وعـدم

إصلاح المال، خصوصاً إذا غلب عليه ذلك وصار مدمناً، ويمكن الحمل على السفه الواقعي، لا ما هو موضوع حكم السفه شرعاً.

وعلى هذا، كلّ مَن ارتكب المعاصي سفيه من هذه الجهة، ولا اختصاص بشرب الخمر، لأنّ العقل ما عُبد به الرحمٰن واكتسب به الجنان، وكلّ ما كان خلافه فهو سفه.

وفي «تفسير» علي بن إبراهيم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إذا حدّثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله، ثمّ قال في بعض حديثه: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال، فقيل له: يابن رسول الله، أين هذا من كتاب الله؟ قال: إنّ الله عزّوجلّ يقول: **﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾**، وقال: **﴿لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾**، وقال: **﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾**».

أقول: الروايات في ذلك كثيرة، وما ذكره عليه السلام استفادة حسنة من الآيات الشريفة.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن يونس بن يعقوب، قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام في قول الله: **﴿لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾** قال: مَن لا تثق به».

أقول: المراد من عدم الوثوق عدم تدبيره لأجل خفّة في عقله، كما مرّ في التفسير.

وعن علي بن إبراهيم في «تفسيره»، عن علي بن أبي حمزة، عن الصادق عليه السلام، قال: «سألته عن قول الله **﴿لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾**، قال: هم اليتامى، لا تعطوهم حتّى تعرفوا منهم الرشد، فقلت: فكيف يكون أموالهم أموالنا؟ قال إذا كنت أنت الوارث لهم».

أقول: مفاد الرواية التنزيل بإضافة المال إلى كلّ من الوارث والمورّث.

وعن علي بن إبراهيم: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: مَنْ كان في يده مال بعض اليتامى فلا يجوز له أن يعطيه حتّى يبلغ النكاح ويحتلم، فإذا احتلم وجب عليه الحدود وإقامة الفرائض، ولا يكون مضيِّعاً، ولا شارب خمر، ولا زانياً، فإذا أنس منه الرشد دفع إليه المال وأشهد عليه، وإن كانوا لا يعلمون أنّه قد بلغ فإنّه يُمتحن بريح أبطه ونبت عانته، فإذا كان ذلك فقد بلغ، فيدفع إليه ماله إذا كان رشيداً، ولايجوز أن يحبس عنه ماله ويعتل عليه بأنّه لم يكبر بعد».

أقول: يظهر من هذه الرواية أنّ إتيان كلّ كبيرة سفه وهو كذلك، وإن لم يعمل مشهور الفقهاء بذلك، وما ورد من الإختبار بريح الأبط مهجور لدى الأصحاب ولم يعمل به أحد.

وفي «أسباب النزول» للواحدي، في قوله تعالىٰ: ﴿**وَابْتَلُوا الْيَتَامَى**ـ الآية ـ﴾ نزلت في ثابت بن رفاعة، وفي عمّه، وذلك «أنّ رفاعة توفى وترك ابنه ثابتاً، وهو صغير فأتى عمّ ثابت إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له: إنّ ابن أخي يتيم في حجري، فما يحلّ لي من ماله؟ ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية».

أقول: الرواية من باب ذكر المصداق، وإلّا فالآية الشريفة عامّة إلى يوم القيامة.

وفي «الفقيه»، بإسناده عن الصادق عليه السلام: «أنّه سُئل عن قول الله عزّوجلّ: ﴿**فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾، قال: ايناس الرشد حفظ المال».

أقول: قريب منها ما عن العيّاشي في «تفسيره»، ومثل هذه الروايات تبيّن أظهر مصاديق الرشد وآثاره.

وفي «الفقيه» أيضاً، بإسناده عن الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾ قال: «إذا رأيتموهم يحبّون آل محمّد فأرفعوهم درجة».

وقال ابن بابويه: «إنّ الحديث غير مخالف لما تقدّم، وذلك أنّه إذا أُونس منه الرشد، وهو حفظ المال دفع إليه ماله، وكذلك إذا أُونس منه الرشد في قول الحقّ أُخبر به، وقد تنزّل الآية في شيء وتجرى في غيره».

أقول: قريب منها ما عن العيّاشي في «تفسيره»، ويظهر من مثل هذه الرواية أن ترك كلّ كبيرة مأخوذ في معنى الرشد، وأنّ رفع الدرجة أخصّ من دفع المال لهم.

وفي «الفقيه» أيضاً، بإسناده عن منصور بن حازم، عن هشام، عن الصادق عليه السلام، قال: «انقطاع يتم اليتيم الاحتلام وهو أشدّه، وإن احتلم ولم يونس منه رشد، وكان سفيهاً أو ضعيفاً فليمسك عنه وليّه ماله».

أقول: المراد من الضعف ضعف التدبير في أُموره، وإن لم يبلغ مرتبة السفه.

وعن ابن بابويه، بإسناده عن صفوان، عن عيص بن القاسم، عن الصادق عليه السلام، قال: «سألته عن اليتيمة متى يدفع إليها؟ قال: إذا علمت أنّها لاتفسد ولاتضيّع، فسألته إن كانت قد تزوّجت؟ فقال: إذا تزوّجت فقد انقطع ملك الوصي عنها».

أقول: المراد من التزويج الكناية عن بلوغها تسع سنين.

وفي «الكافي»: بإسناده عن عثمان بن عيسى، عن الصادق عليه السلام، في قول الله عزّوجلّ: ﴿**وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾، قال: «مَن كان يلي شيئاً لليتامى وهو محتاج ليس له ما يقيمه فهو يتقاضى أموالهم ويقوم في ضيعتهم، فليأكل بقدر الحاجة ولا يسرف، فان كانت ضيعتهم لا تشغله عمّا يعالج لنفسه فلا يرزأ من أموالهم شيئاً».

أقول: إنّ العامل في مال اليتيم ـ وليّاً كان أو غيره ـ من يستحقّ أُجرة مثل عمله إن لم يقصد الإباحة المطلقة، هذا بحسب القواعد الشرعيّة، وما ورد من

الأخبار الدالّة على غير ما ذكرنا ـ كما تقدّم ـ فهي محمولة على الفضل والفضيلة.

وفي «الكافي» أيضاً، بإسناده عن عبد الله بن سنان، عن الصادق عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿**فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾، قال: «المعروف هو القوت، وإنّما عنى الوصي أو القيم في أموالهم وما يصلحهم».

أقول: قريب منه ما عن الشيخ في «التهذيب»، والمراد من القوت هو القوت الغالب، فتنطبق الرواية على أُجرة المثل غالباً.

وفي «التهذيب»: بإسناده إلى أبي الصباح الكناني، عن الصادق عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿**مَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾، قال: «فذاك رجل يحبس نفسه عن المعيشة، فلا بأس أن يأكل بالمعروف إذا كان يصلح لهم، فإن كان المال قليلاً فلا يأكل منه شيئاً».

أقول: هذه الرواية وأمثالها محمولة على مراتب الفضل.

وفي «تفسير العيّاشي»: عن عبد الله بن أسباط، عن الصادق عليه السلام، قال: «سمعته يقول: إنّ نجدة الحروري كتب إلى ابن عبّاس يسأله عن اليتيم متى ينقضي يتمه؟ فكتب إليه: أمّا اليتيم فانقطاع يتمه وهو الاحتلام، إلّا أن يُؤنس منه رشداً بعد ذلك فيكون سفيهاً أو ضعيفاً فليشد عليه».

أقول: معنى ذيل الرواية، أي لا يعطى ماله إليه.

وفي «تفسير العيّاشي»: بإسناده عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام في قول الله: ﴿**وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾، فقال: «هذا رجل يحبس نفسه لليتيم على حرث أو ماشية ويشغل فيها نفسه، فليأكل منه بالمعروف، وليس ذلك في الدنانير والدراهم التي عنده موضوعة».

أقول: إنّ الدراهم والدنانير لو كانتا بنحو الأمانة، وإلّا فحكمهما حكم غيرهما.

وعن العيّاشي في «تفسيره»: بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «سألته عن قول الله: **﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾**، قال: ذلك إذا حبس نفسه في أموالهم، لا يحترث لنفسه فليأكل بالمعروف من أموالهم».

أقول: هذه الرواية محمولة على الفضل، وإلّا يجوز له أخذ أُجرة المثل وإن كان محترثاً لنفسه أيضاً.

وعن رفاعة، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قوله: **﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾** قال: «كان أبي يقول إنّها منسوخة».

أقول: وفي «الدرّ المنثور»: «نسختها **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً ـ الآية﴾**»، والمراد من النسخ الإطلاق والتقييد لا النسخ المصطلح.

وعن زرارة ومحمّد بن مسلم، عن الصادق عليه السلام، أنّه قال: «مال اليتيم إن عمل به مَن وضع على يديه ضمنه ولليتيم ربحه، قال: قلنا له: قوله **﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾**، قال: إنّما ذلك إذا حبس نفسه عليهم في أموالهم فلم يتّجر لنفسه، فليأكل بالمعروف من مالهم».

أقول: إنّها محمولة على الفضل والفضيلة، كما تقدم في الروايات السابقة.

وفي «مجمع البيان» في قوله تعالىٰ: **﴿رُشْداً﴾**، قال: «المراد به العقل وإصلاح المال، وهو المروي عن الباقر عليه السلام، وقال في قوله تعالىٰ: **﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾**، معناه مَن كان فقيرا فليأخذ من مال اليتيم قدر الحاجة والكفاية علىٰ جهة القرض ثمّ يردّ عليه ما أخذ، قال: وهو المروي عن الباقر عليه السلام».

أقول: أمّا الأوّل فقد تقدّم أنّه من باب ذكر أهمّ المصاديق، والثاني محمول على الفضيلة، وإلّا فيجوز له أخذ أُجرة عمله كما مرّ.

***

بحث قرآني:

مقتضى الروايات الواردة أنّ لكلّ واحد من الآيات الشريفة القرآنيّة آثاراً

وضعيّة وخواصّاً واقعيّة معلومة، وهي واضحة لأهل العرفان بالتجربة والاختبار بعد الخلوص والإخلاص ـ وقد تقدّم بعضها في البحث الروائي ـ ومن تلك الآثار والخواص شفاء المرضى وقضاء الحاجات وكشف الكربات، وكانت الآيات المباركة في مدّة من الزمن يستشفى بها في جملة كثيرة من المرضى وذوي الأسقام عند الأخيار، ولكن كثرة الحجب الظلمانية منعت عن تلك الآثار، فعدم الأثر لوجود المانع لا لعدم المقتضي.

ولعلّ السرّ في وجود تلك الخواص الأثر المعنوي الموجود في تلك الآيات الكريمة، وأنّها عين الواقع والحقيقة التي لا ريب فيها، فهي واقع محض صدر عن واقع محض، ومَن بيده مقاليد السماوات والأرض ومَن بيده ملكوت كلّ شيء ومَن عنده مفاتيح الغيب، فلابدّ من التأثير، وتحقّق تلك الخواص حينئذٍ لا محالة.

ولذا لا يختصّ الأثر في الآيات المباركة بطائفة خاصّة ويعمّ الجميع، فإنّ رحمته جلّت عظمته غير محدودة ولا تختصّ بطائفة.

نعم، تشخيص المورد له أهمّية عظمىٰ، ورفع الحجب الظلمانية أهمّ منه بمراتب، فعدم الأثر في بعض الموارد، إمّا لعدم التشخيص، أو لوجود الحجب (المانع)، وإلّا فإنّ المقتضي تام.

ولا فرق في ذلك بين أن يكون الأثر مترتّب على نفس الآيات الشريفة، كما ذكروه في كتب خواص الآيات الكريمة، أو على ما يستفاد منها كما علّمه عليّ عليه السلام، على ما تقدّم في البحث الروائي.

وينبغي أن يعدّ هذه الآثار والخواص من معجزات الآيات الكريمة وكراماتها الباهرة التي تظهر بعد القرون والدهور.

وإنّما لا تظهر لبعض النفوس لغلظة الحجب الظلمانيّة عليه، ولعلّه بعد ظهور شمس الحقيقة عن أُفق الغيبة ينحصر علاج المرضى بالقرآن وآياته المباركة

وانكشاف المهمّات وقضاء الحاجات بها، ولابدّ وأن يكون كذلك، لأنّ القرآن لم يتجلّ بَعدُ بحقيقته النورانيّة، ولم ينطق به إلّا الشفاه، ولم تلج بها إلّا الألسنة، وكيف يكون مورد التجلّي الأعظم في كتابه الكريم بذلك!!.

ويشهد لما تقدّم شواهد كثيرة معلومة، منها: الدعوات الكثيرة المأثورة عن الأئمّة الهداة عليهم السلام لشفاء بعض الأمراض والأسقام الواردة فيها الآيات الكريمة من القرآن.

ومنها: ما تقدم في البحث الروائي وفي «تفسير العيّاشي»، قال: «اشتكى رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: سل من امرأتك درهماً من صداقها فاشتر به عسلاً فاشربه بماء السماء، ففعل ما أمر به فبرئ، فسأل أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك: أشيء سمعته من النبيّ صلى الله عليه وآله؟ قال: لا، ولكنّي سمعت الله يقول في كتابه: **﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾**، وقال: **﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾**، وقال: **﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً﴾**، فاجتمع الهنيء المريء والبركة والشفاء، فرجوت بذلك البرء».

ومنها: الروايات الواردة في خواص الآيات الكريمة وآثارها المذكورة في الكتب المعدّة لها وبعض التفاسير.

***

بحث فقهي:

يستفاد من الآيات المباركة المتقدّمة أحكام:

الأوّل: أنّ إطلاق الآية الشريفة **﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾** يشمل كلّ يتيم ذكراً كان أو أُنثى، صغيراً كان أو كبيراً، إن كان محجوراً عليه.

كما لا فرق بين مَن عيّن الأب له قيّما أو لا.

نعم لو كان الجدّ موجوداً فالولاية له.

ولا فرق في مال اليتيم بين ما إذا وصل إليه بإرث أو غير ذلك من الهدايا والمنح، فإنّ جميع ذلك ماله، فتشمله الآية الكريمة.

الثاني: مقتضى الآية الشريفة وما وردت من الروايات أنّه يجوز لليتيم التصرّف في أمواله مع تحقّق الشرائط، وهي: أن يكون التصرّف بإذن الولي ـ شرعياً كان الولي أو تكوينياً ـ وأن يكون فيه المصلحة لليتيم، كما فصّلناها في كتابنا (مهذب الأحكام)، وأن يكون التصرّف سائغا شرعاً، كما يجوز للولي التصرّف في أموال اليتيم بشرط عدم المفسدة، بل مع وجود المصلحة، كلّ ذلك كما فصّلناه في الفقه.

الثالث: لا تختصّ حرمة تبدّل الخبيث بالطيّب بأموال اليتامى، بل يجري ذلك في تبدّل كلّ مال كذلك، ولو كان من الكبير والرشيد مع عدم مجوّز شرعي، لأنّ ذلك أكل بالباطل، وقال تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾[2]، ولكن في أموال اليتامى تكون الحرمة أشدّ وأكثر تنفّراً من غيرها، ولذا أكّد النهي فيها.

ولو فعل ذلك أحد لا يملك الطيب وتشتغل ذمّته بردّه إلى صاحبه، ومع التلف ينتقل إلى العوض بالمثل أو القيمة.

الرابع: أنّ قوله تعالىٰ: ﴿**أَلَّا تَعُولُوا**﴾ عامّ يشمل النفقة وغيرها، والتودّد الخارجي، بل الميل القلبي أيضاً، نعم ما كان خارجاً عن الاختيار في القسم الأخير فهو معفوّ عنه، وإن كان تحت الاختيار وترتّب عليه الأثر، يكون داخلاً في أحد الأوّلين.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٨٨.

٢. سورة المطففين: الآية ١ ـ ٣.

الخامس: مقتضى إطلاق الآية الشريفة وما ورد من الروايات، أنّ السفيه كما هو محجور عليه في ذمّته، فلا يصحّ أن يتعهّد مالاً أو عملاً، كذلك لا يصحّ اقتراضه وضمانه ولا بيعه ولا شراؤه بالذمّة ولا تزويجه، وكذا لا يصحّ أن يجعل نفسه أجيراً وعاملاً للمضاربة والمزارعة والمساقاة وغير ذلك، للحجر عليه شرعاً.

كما أنّ المراد من عدم نفوذ تصرّفات السفيه، هو عدم استقلاله في ذلك، فلو كان بإذن الولي صحّ ونفذ.

السادس: لو أُحرز رشد السفيه سلّم إليه أمواله، كما نصّت عليه الآية الشريفة وغيرها من الروايات، ولو لم يحرز رشده واشتبه حاله، يختبر السفيه بما يناسب شأنه، بتفويضه البيع والشراء والإجارة وغيرها ممّا يناسبه، وكذا السفيهة، وقد فصّلنا ذلك في الفقه، ومَن شاء فليراجع كتابنا (مهذب الأحكام).

السابع: يجب دفع أموال السفيه إليه فوراً بعد تحقّق الرشد وإحرازه، لأصالة فوريّة دفع مال الغير إليه، كما أثبتها الفقهاء وذكرناها في الفقه.

الثامن: الاستعفاف لأولياء اليتامى عن التصرّف في أموال اليتامى حَسَنٌ وليس بواجب شرعاً، لأنّه يجوز أخذ أُجرة عمله وإن كان غنيّاً، كما أثبتناه في الفقه.

وكما أنّ الأكل بالمعروف كذلك ليس بواجب عليه، بل له أن يرفع اليد عن ذلك ويعطى الجميع لليتيم.

***

بحث فلسفي:

من أهمّ الأُصول النظاميّة التكوينيّة الثابتة في علم الفلسفة، التزاوج بين المادّة الفاعلية والمادّة المنفعلة، بلا فرق في ذلك بين الإنسان والحيوان والنبات،

كما بيّنه تعالىٰ: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ**﴾[١]، فالتزاوج بينهما من الأُصول التكوينيّة التي يقوم بها هذا العالم، وله حدود وقيود لا يحيط بها إلّا الله تعالىٰ، وإن ظهر بعض منها بالتجربيّات في ممرّ العصور والدهور، وبقيت جملة كثيرة أُخرىٰ منها في الخفاء والكمون، وسيظهر بعد ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

ويختصّ الإنسان من بين الحيوانات في هذه التزاوج والسفاد بمراسم خاصّة قرّرها الشارع بمقتضى أنّ الإسلام دين الفطرة، وعبّر عنها في الكتب السماوية بالنكاح، وأكّد الترغيب إليه، قال تعالىٰ: ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾[٢]، وفي السنّة المقدّسة أخبار متواترة ترغّب إليه، مثل قوله ﷺ: «النكاح سُنّتي، فمَن رغب عن سنّتي فليس منّي».

وقوله ﷺ: «تناكحوا وتناسلوا فإنّي أُباهي بكم الأُمم»، إلى غير ذلك من الروايات.

كما نهى عن النكاح الذي لا تتوفّر فيه تلك الشروط وعبّر عنه بالزنا، وأكّد سبحانه وتعالىٰ في النهي عنه كقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾[٣].

وقد حدّد الشارع الأقدس الزواج الدائم بإعداد معيّنة، وهي أربع، وفي غيرها بقيود أُخرىٰ، كما تقدّم في الآية الشريفة، وسيأتي في البحث الآتي وجه التشريع في ذلك.

كما قرّر نكاح جميع الملل والنحل فيما بينهم، لأنّه أمر طبيعي بين البشر

---

١. سورة الحجر: الآية ٢٢.

٢. سورة النور: الآية ٣٢.

٣. سورة الإسراء: الآية ٣٢.

لا يختصّ بملّة دون أُخرىٰ ولا يمكن التخلّي عنه، إلّا أنّ الشارع حدّده بقيود لأجل تنظيم النظام وحفظ الأنساب، وغيرهما من الحِكم.

بحث اجتماعي

الآيات الشريفة المتقدّمه تدلّ على إباحة تعدّد الزوجات في الإسلام، وهذا الموضوع طالما اعترض أعداء الإسلام عليه واتّخذوه نحو قدح فيه، وقد استنكرت الجاهليّة المعاصرة تعدّد الزوجات، واعتبرته من عوائق التقدّم الحضاري، وأنّ التعدّد خلاف المصلحة، بل موجب لسلب السعادة. ونحن في هذا البحث نذكر جملة ممّا ذكره أعداء الإسلام من المناقشات والإشكالات على هذا الموضوع، ثمّ الجواب عنها، ثمّ نعالِج الموضوع على ضوء ما ورد في الكتاب في هذا المضمار.

الإشكالات:

قد استشكلوا علىٰ حكم تعدّد الزوجات بإشكالات متعدّدة نحن نذكر المهمّ منها:

الأوّل: أنّ تعدّد الزوجات خلاف الطبيعة، فإنّ التجربة والإحصاء يدلّان على تساوي عدد الذكور والإناث في جميع الأُمم والقبائل، ويستفاد من ذلك أنّ الطبيعة اقتضت أن يكون الواحد من الذكور لواحدة من الإناث، وخلاف ذلك يكون خلاف الطبيعة.

الثاني: أنّ حكم تعدّد الزوجات ينافي الغرض المنشود من المجتمع، الذي لابدّ أن يسوده الحبّ والتعاون والتآلف بين الأفراد، وأنّه يعكس روح الانتقام في النساء من الرجال الذين أساءوا إليهنّ.

ويجوب الإهمال والتثاقل في تربية الأُسرة والأولاد، وإشاعة الفساد والخيانة، وهو ممّا يوجب انحطاط المجتمع إلى الشقاء والغواية.

الثالث: أنّ تعدّد الزوجات استهانة لحرمة النساء في المجتمع، فإنّ معادلة الأربع من النساء بالواحد من الرجال تعريض لحقوقهنّ للخطر، وإعراض عن عواطفهن.

الرابع: أنّ هذا التشريع يوجب إزدياد الشهوة في الرجال وترغيبهم إلى الشره، وبالآخرة أنّه يوجب تقوية هذه القوّة في المجتمع.

هذه هي أهمّ الإشكالات التي أوردوها على هذا التشريع الإلهي.

الجواب عن الإشكال:

ويمكن الجواب عن تلك الإشكالات بوجوه:

الأوّل: أنّ ما ذكروه من أنّ للتشريع خلاف الطبيعة فهو باطل..

أمّا أوّلاً: فإنّ تساوي عدد الذكور والإناث أمر يكذبه الوجدان، والإحصاءات المتعدّده التى أُعلنت و تعلنها الجهات المختصّة في مختلف العصور، فإنّ الحروب والحوادث كذا الموت تصيب المجتمعات، فتفنى من الرجال أكثر من النساء، وهذا أمر ثابت بالوجدان.

وثانياً: أنّ أمر الزواج لا يستند على ما ذكروه من أنّ الطبيعة ساوت بين الرجال والنساء في العدد، بل أنّ هناك أُموراً أُخرىٰ، فإنّ النساء يختلفن عن الرجال في التهيّؤ إلى النكاح وصلاحهن للازدواج والمضاجعة والإنجاب، ولهذا اعتبر الإسلام سنّ التكليف في النساء بلوغ العشر، وفي الرجال بلوغ الست عشرة من السنين، وذلك لاختلاف الطبائع في الطائفتين، وهذا يكشف عن أنّ الطبيعة تقتضي التعدّد كما هو واضح.

الثاني: أنّ ما ذكروه من أنّ التعدّد يميت عواطف النساء وتخيب آمالهن فهو باطل؛ لأنّ الانسان مركّب من أمرين، التعقّل والعواطف والإحساس. والسعيد هو الذي يمسك زمام العواطف والإحساس، ويجعلها تحت ادارة التعقّل، والإسلام وسائر الأديان السماوية أرادت من تعاليمها وضع الإنسان في مسير التعقّل، وتهيئة المجتمع الإنساني على نحو تقرّره الحياة التعقّلية دون الإحساس والعواطف، التي لا تهدي إلى الكمال المنشود، وعلى هذا فالمرأة التي هذّبتها الأخلاق الفاضلة، وقوّمتها التعاليم الإسلاميّة الرشيدة، فإنّها تجعل التعقّل مقام العواطف والنزوات الشهوانيّة، فهي ترى السعادة في ذلك.

وما ذكروه قياس بين المجتمعات الغربيّة، التي هي قائمة على تلك العواطف والشهوات الحيوانية البغيضة، والمجتمع الإسلامي الذي قوامه التعقّل، ومن ثمّ نرى ما عليه من التفكّك والانحطاط الخُلقي، وأنواع الشرّ والفساد المتداول بينهم، لأنّهم خرجوا عن الفطرة التي خلقهم الله تعالىٰ عليها، والصراط الذي أعدّته التعاليم الإلهيّة لهم، فترى أنّ المنكر الذي يعترف به العقل يكون معروفاً عندهم، وأنّهم يشرّعون القوانين في إباحة الفساد والدمار، وهذا لم يكن قبيحاً عندهم، ولا تجرح العواطف، ولكن تعدّد الزوجات يمسّها ويميت الآمال، هذه هي المدنيّة الحاضرة التي وصلت إلى الطريق المسدود.

الثالث: أنّ ما ذكروه من أنّ تعدّد الزوجات تضييع لحقوق النساء، وعدم الاحترام لعواطفهن باطل، لما ذكرناه مراراً من أنّ الإسلام أعطى لكلّ ذي حقٍّ حقّه، وأنّه احترم النساء وراعىٰ حقوقهن بما لم يكن في ملّة أُخرىٰ، ويتبيّن ذلك بوضوح عند معرفة منزلة النساء في المجتمعات الأُخرىٰ غير المجتمع الإسلامي.

هذا، مضافاً إلى أنّ تعدّد الزوجات لم يكن تضييعاً لحقوق أحد، فإنّ الإسلام في تشريعه هذا كان ينظر إلى أبعد من ذلك، كما ستعرف إن شاء الله تعالىٰ.

الرابع: أنّ ما ذكروه من أنّ تعدّد الزوجات يزيد في شره الرجال والترغيب إلى الشهوة، فهو مغالطة واضحة، فإنّ التربية الإسلاميّة الحقيقيّة تضع الرجال والنساء في هذا الموضوع في أحسن تقويم، فإنّ النساء اللائي لا تقلّ شهوتهن عن شهوة الرجال لو أثّرت التربية الواقعيّة فيهن جميعاً فإنهن يضعن تلك الشهوة الغريزيّة في الطريق المستقيم الذي حدّده الإسلام، فتراه يعطي لهذه الحاجة الغريزيّة حقّها، يفتح لها سبل معالجتها، والحدّ من ثورتها، ويمنع الكبت والحرمان، ولكنّه يحرّم الفجور والفحشاء والاسترسال في الأهواء الباطلة، وكلّ ما يوجب إثارة الشهوة، فهو قد وضع هذه الغريزة الجامحة تحت سيطرة التعقّل، فلايمنعها حتّى يوجب الكبت والحرمان، ولا يطلقها ويبسطها كلّ البسط ليزيد الفحشاء والفجور، فكان هذا التشريع الجديد من أهمّ السبل في تحديد هذا الغرض.

يُضاف إلى ذلك أنّ الإسلام لم ينظر إلى النكاح بأنّه مجرّد قضاء حاجة وقتيّة، بل كان نظره إلى أنّه من سُبل التربية الحقيقيّة، فقد تحقّق فيه جميع أساليب التربية الخلقيّة والنفسيّة، وهذا ما يمتاز به هذا الدين القويم عن سائر الأديان الإلهيّة. وسيأتي في الموضع المناسب بيان ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

وعلى هذا، يكون التشريع مشتملاً على وجوه الحكمة والصواب، فإنّه أباح ذلك حفظاً للمجتمع الإنساني، وتكثيراً للنسل والأولاد، ومراعاة للحقوق من الضياع، ومدرسة للتربية الواقعيّة، وغير ذلك ممّا اعترف به الخصم، وأقرّت به بعض الجمعيات التي رأت في تشريع تعدّد الزوجات الخير والسعادة.

وممّا ذكرنا يظهر الوجه في ادّعاء بعض من أنّنا نرى أنّ الذي تزوّج بزوجتين أو أكثر في شقاء دائم، وصراع مستمرّ بين الضرّتين أو الضرائر، ممّا يسلب الهناء من العيش والصلاح من الحياة، وربما يبلغ من شدّة الحال أنّه يكون الأمر على خلاف المرجو من هذا التشريع، فإنّ ذلك مغالطة بين الواقع والخيال.

وبتعبير آخر: أنّه خلط بين التشريع والتطبيق، فإنّ الإسلام راعى في هذا التشريع المصالح العامّة، وأمّا إذا اصطدمت هذه المصالح مع العادات والنزوات الشخصيّة، فإنّ الأحكام الشرعية تتبع المصالح والمفاسد الواقعيّة، وأمّا مرحلة العمل والتطبيق، فإنّها راجعة إلى المكلّف نفسه، فإنّ اللازم على المكلّف أن يراعي جميع ما إعتبر في التكليف، والتطبيق بين ما أراده الشارع المقدّس وعمل المكلّف، وفي هذه الحالة يؤثّر التشريع أثره المطلوب، وإلّا فإنّ الأثر السيء الذي يقع خارجاً يكون نتيجة عمل المكلّف وسوء تربيته، وهذا الوجه جار في جميع التشريعات الإلهيّة، بل التشريعات الوضعيّة أيضاً، وليس لأحدٍ العذر في أنّها لم تؤثّر أثرها، لأنّ الناس لم يراعوا حقّها، ولم يعملوا بها على ما أراده المشرِّع، فمرحلة العمل والتطبيق أمر يرجع إلى الناس، ومرحلة التشريع أمر آخر، فإنّه يرجع إلى الشارع الذي يلاحظ المصالح العامّة.

نظر الإسلام في هذا التشريع:

الآية الشريفة المتقدّمة التي تضمّنت خطاباً موجّهاً للعموم، كسائر الخطابات القرآنيّة التي تكفّلت تربية الناس تربية حقيقيّة واقعيّة، فإنّها تجعل الإباحة أو الترخيص أصلاً، ثمّ تورد القيود على هذا الأصل على حدّ يكون موجباً لتضييق مجالها إلى الحدّ الذي تستقيم به الحياة، ويتحقّق الكمال المنشود، وهذا الأُسلوب من أهمّ الأساليب التربويّة التي تؤثر في النفس، وتستلفت النظر إلى المضمون، فقد جعلت هذه الآية الشريفة إباحة التعدّد وجوازه هو الأصل، ثمّ أوردت القيد الذي يضيّق هذا الأصل إلى الحدّ الذي يتحقّق به الكمال وتنتظم به الحياة، وهو العدل بين الزوجات، وأنّه لا يتحقّق ولن يتحقّق إذا لم يتربّ الفرد بالتربية الإلهيّة، ولم يقم بالوظائف الشرعية، فيكون هذا التشريع جامعاً لمكارم

الأخلاق، وأهمّ الأحكام الاجتماعيّة وأعظم الأُسس التربويّة.

ومن توجّه الخطاب إلى العموم ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾، يستفاد أنّ التعدّد لابدّ أن يحدث في المجتمع الذي يسوده العدل، بحيث يتزوّج رجل واحد عدّة نساء في ظلّ العدل والإنصاف، يسودهم الأخاء والمحبّة، فإذا توفّرت تلك الشروط جاز التعدّد، وإلّا كانت الوحدة أفضل، فيستفاد من الآية المباركة أنّ الوحدة هي المطلوبة وان كان التعدّد مباحاً بلا ريب ولا إشكال، وإذا تحقّقت القيود التي ذكرها الشارع كانت الحياة معها أفضل وأهنأ.

تعدّد أزواج النبيّ ﷺ:

بعدما عرفت الوجه في تشريع تعدّد الزوجات في الإسلام والحكمة فيه، يتّضح لك الوجه في تعدّد زوجات الرسول الكريم ﷺ، فقد كان ﷺ المتفرّد بامتثال هذا التكليف الإلهي بأكمل وجه، فصار أُسوة في هذا المجال، حتّى عدّ من مختصّاته المعروفة حُسن المعاشرة مع نسائه، ورعاية حقوقهن والعدل بينهن، وكفى به حجّة على أعداء الإسلام الذين اعترضوا على هذا الترخيص الإلهي، ومع ذلك فقد اعترض بعضهم على تعدّد زوجات النبيّ ﷺ بأنّه لا يخلو عن الشره والانقياد لداعي الشهوة، مع أنّه ﷺ لم يقنع بما شرّعه لأُمّته فتعدّى منه إلى الازدواج بالتسع من النسوة.

ولكن المتأمّل في حياة هذا الرجل العظيم، الذي يعتبر بحقّ أنّه مثال للكمال المطلق، والذي مدحه الجليل الاعلى بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، أنّه بعيد عن ما نسبوه إليه كلّ البُعد، ولم يظهر أي أثر من آثار الشره والانقياد إلى الشهوة عليه في تمام مدّة حياته وفي معاشرته مع النساء، وهو الذي أمره الله

---

١. سورة القلم: الآية ٤.

تعالىٰ بأن يخيِّر أزواجه بين التمتيع والطلاق، إن كُنّ يردن الدين وزينتها، على ما نزل عليه في كتابه المجيد من أمره له فقال تعالىٰ: ﴿**قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً**﴾[1]، وكيف ينطبق عليه وقد زهد عن الدُّنيا وزخارفها وأعرض عن كلّ ما يُلهيه عن ذكر الله تعالىٰ؟!

ومن ذلك كلّه يستفاد أنّه ﷺ أراد من زواجه بهنّ غير الذي ذكروه، فهو قد أراد إماتة العادات الجاهليّة أوّلاً، وإظهار منزلة النساء التي أهملوها عندهم ثانياً، وبيان كيفيّة المعاشرة معهنّ ثالثاً، وليعطي الأهداف الخاصّة في زواج كلّ واحدة منهنّ رابعاً.

هذا موجز الكلام، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيله.

***

بحوث عرفانيّة:

الأوّل: يصحّ أن يُراد باليتيم في الآية المباركة كلّ ذي حقّ واجب، لابدّ في نظام التكوين والتشريع مراعاة ذلك الحقّ، وإن لم يكن منه اليُتم اللغوي، كالأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام والعلماء العاملين بعلمهم والتاركين للهوى مطلقاً، فإنّهم بين الورى محرومون، لا يعرف حقّهم ولا يتخلّقون بأخلاقهم، وهم يعيشون منفردين في مجتمع لا يهتمّون إلّا بالمادّيات الصرفة والظواهر الحسّية، ولا يعرفون من وراء ذلك شيئاً، ويدلّ عليه قول أبي جعفر الباقر عليه السلام: «نحن اليتيم»، فهم أيتام بهذا المعنى، ويتيمة جميع العوالم الإمكانيّة. وكلّ مَن يرشد إلى الحقّ بالحقّ في الخلق، يتيم بين الخلق الذين هم لا يعرفونه حقّ معرفته وغرباء في

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٢٨ـ ٢٩.

بلدهم، كما في الحديث: «المؤمن غريب في بلده لا يستأنس إلّا بإيمانه»، فلابدّ من الاهتمام بإيتاء حقوقهم والتخلّق بأخلاقهم.

الثاني: إذا كانت المادّيات لا تتحصّل لها صورة نوعية، ولا تدخّل لها في النظام الأحسن الكياني إلّا بالترابط بينها بارتباط القوى الفاعليّة بالقوى المنفعلة، فالمعنويات أولى بذلك، فما لم يرتبط مَن له مقاليد السماوات والأرض ومَن عنده مفاتح الغيب، والمعيّة القيومية مع الممكنات، لا وجه لتحقّقها في أي مرتبة من مراتب التحقّق، قال تعالىٰ: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[2].

وقال علي عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله وبعده وفيه»، فلايمكن تحقّق أي أمر معنوي إلّا بذلك، قال نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «لله في أيّام دهركم نفحات، ألا فتعرّضوا لها»، وليست تلك النفحات من الجواهر والأعراض أو الوهميّات، بل هي شوارق غيبيّة تتدفّق من عالم الغيب على القلوب المستعدّة، ومثله قوله صلى الله عليه وآله في شأن أويس القرني: «إنّي أشمّ نفس الرحمٰن من ناحية اليمن»، ففي ارتباطات النفوس المقدّسة مع معدن الكبرياء والعظمة، تتحقّق ينابيع من المعنويات، يصفو عندها كلّ معدن ويهيج. وكيف لا يكون كذلك، والإنسان الكامل هو مفخر الأملاك، وغاية حركات الأفلاك، وطاووس الكبرياء، وحمام الملكوت.

الثالث: يصحّ أن يُراد من الخبائث في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ**﴾ جميع حرمات الله تعالىٰ، سواء كانت من المادّيات أو من غيرها ممّا حرّمه الله تعالىٰ، فإنّها توجب البُعد عن ساحته والقُرب إلى الشيطان، وللخبائث مراتب شدّة وضعفاً.

---

١. سورة الحديد: الآية ٤.

٢. سورة ق: الآية ١٦.

والمراد من الطيب ما يوجب القُرب إلى ساحته عزّوجلّ، وله أيضاً مراتب شدّة وضعفاً كما يكون القرب والبعد كذلك.

والفطرة السليمة تأبى من تبدّل الخبيث بالطيب إلّا إذا عُميت عين البصيرة، وعطبت الفطرة المستقيمة بالحُجب الغليظة، وحينئذٍ تختار النفس الأمّارة بالسوء الخبيث على الطيِّب.

فالآية المباركة تجري في جميع الأقوال والأفعال والحركات، بل المعتقدات، فإنّ جميعها تتّصف بهما، وتطبيقهما على المال من باب الكلّي على الفرد.

***

الآية ٧ ـ ١٠

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ ممّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ۝٧ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ۝٨ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ۝١٠﴾.

الآيات الشريفة تشتمل على أهمّ حكم من الأحكام الاجتماعيّة التي تبتني على شريعة الحقّ وهو حكم الإرث، ونظراً لأهمّيته فقد ذكر سبحانه وتعالىٰ من المقدّمات، تمهيداً وتثبيتاً له بعدما سادت تقاليد وعادات جاهليّة.

وقد بيَّن عزّوجلّ أنّ الجميع رجالاً ونساءاً لهم النصيب من الإرث، ولا حرمان لأحد إذا ثبتت الولادة أو القرابة. وقد حذّر الناس من تحريم الأيتام عمّا فرض الله تعالىٰ لهم، وأكل أموالهم ظلماً وعدواناً، وأوعد سبحانه وتعالىٰ على آكل أموالهم بالخزي وسوء العذاب.

وقد تعرّضت الآيات الشريفة لحكم أدبي اجتماعي، وهو رزق أُولي القربى واليتامى والمساكين ـ إذا حضروا قسمة التركة ـ غير ذوي النصيب منهم.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾.

النصيب: الحظّ والسهم ويجمع على أنصباء وأنصبة. والمراد به مطلق السهم، سواء كان بالفرض كالسهام الستّة المعروفة، أم بالقرابة كما في غيرها كالولد إذا انفرد، فإنّ المال كلّه له بالقرابة، أو انضم إليه بنت أو بنات، فإنّ للذكر مثل حظ الأُنثيين.

والمراد من الرجال أيضاً مطلق الذكر وإن كان صغيراً، فإنّ الصغار كالكبار لهم النصيب من التركة. ولعلّ التعبير بالرجال لبيان أنّ المناط في تسليم المال كون الوارث بالغاً مبلغ الرجال، كما ذكره عزّوجلّ في الآية السابقة، وهذا وجه آخر من وجوه الارتباط بين هذه الآيات الكريمة.

والظرف في ﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾ متعلق بـ ﴿نَصِيبٌ﴾ وقيل متعلّق بمحذوف صفة للنكرة. والتركة اسم لكلّ ما يخلّفه الميّت وما بقي من ماله، كأنّه تركه وارتحل.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ ممّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾.

الحكم عام ـ كسابقه ـ لا يختصّ بوصف معيّن أو حال، والمراد من النساء مطلق الإناث من غير اختصاص بالكبار، والوجه في التخصيص ما تقدّم من أنّ المناط هو بلوغهن مبلغ الإناث البالغات.

والإظهار في موقع الإضمار لدفع كلّ لبس واحتمال، ولبيان أنّ السبب في التوارث هو الولادة والقرابة، وهذا هو أصل من الأُصول المهمّة في الفقه الإسلامي، وهذا الأصل بيّن الشريعة الحقّ في قانون الإرث، والعدل الإلهي في هذا الحكم، والإسلام يردّ بذلك على تلك العادات والتقاليد الجاهليّة التي كانت تحرم المرأة وبعض الوارثين عن حقوقهم، والإسلام يبيّن هذا الأصل المبتني على

دعائم قويّة، وهي الأُخوّة الإيمانيّة، والحبّ في الله والقرابة الشرعيّة، دون العصبيّة والأهواء الباطلة، ولذلك نرى أنّ المؤمنين تقبّلوا هذا الحكم بمجرّد التشريع لموافقته للفطرة والعدل.

والآية الشريفة تبيّن أنّ الرجال والنساء مشتركون في تركة مورّثهم، وأنّ لكلّ واحد منهم نصيباً فيها، وأمّا توزيع المال الموروث فسيأتي بيانه في الآيات اللاحقة من هذه السورة.

قوله تعالىٰ: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾.

تأكيد للحكم السابق، وزيادة في التوضيح، لأنّه يستفاد ذلك من إطلاق قوله تعالىٰ: ﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾ ولدفع كلّ توهّم في تحريم بعض الورثة من القليل أو الحقير، دون الكثير والعظيم أو بالعكس، فإنّهم سواء في جميع التركة، قليلة كانت أو كثيرة بالنسبة إلى أصل الوارثة، وأمّا الكمّية فلها شأن آخر سيأتي بيانها بالتفصيل.

قوله تعالىٰ: ﴿نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾.

مفعول مطلق نوعي يبيّن النصيب المجمل الذي ذكره عزّوجلّ في صدر الآية الشريفة، وفيه التأكيد للمعنى السابق أيضاً.

أي: أنّ ذلك النصيب للرجال والنساء مقطوع ومفروض من الله تعالىٰ، لايقبل التغيير والتبديل والاختلاط والإبهام، ولعلّ تسمية المواريث بالفرائض لأجل هذه الآية الكريمة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى﴾.

مقتضى السياق أنّ المراد بالقسمة قسمة التركة والميراث، ويمكن إرادة

التعميم ويكون قسمة التركة من باب المثال لكلّ قسمة، فتشمل قسمة أموال اليتامى بعد البلوغ والرشد، والحضور عند الميّت حين الوصيّة، لأنّ كلّ ذلك نحو إحسان وصلة لأُولي القربى ويوجب التآلف والتعاطف، وإن كان ظاهر السياق من الآية الكريمة هو الأوّل.

والمراد بأُولي القربى هم الفقراء من أقرباء الميّت غير الورّاث الأقربين، ويدلّ على ذلك ذكر الورثة قبل ذلك وذكر اليتامى والمساكين بعده.

قوله تعالىٰ: **﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ﴾**.

المحتاجون من غير أُولي القربى الذين يحضرون حين القسمة.

قوله تعالىٰ: **﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾**.

أي: فاعطوهم شيئاً من المال المقسوم المدلول عليه سابقاً. وظاهر الخطاب للورثة وأولياء الميّت الذين يقسّمون المال وراثة.

ولم يعيّن سبحانه وتعالىٰ المقدار، اذ المناط تحقّق هذا العنوان في أي مقدار تحقّق، ما لم يكن إجحاف في البين على الورثة، ونظير هذه العبارة تقدّم في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾**[1]، ولعلّ الاختلاف في الظرف يرجع إلى استمرار الإنفاق من الجماعة التي تولّت حفظ أموال اليتامى، فإنّ المال لهم؛ وأمّا في الإنفاق من التركة، فإنّه يكون مرّة واحدة ينتهي عند قسمة الميراث.

وظاهر الخطاب وإن كان يفيد الوجوب في المقام، ولكن مقتضى ما ورد في السنّة في تفسير الآية الشريفة هو مطلق الرجحان.

---

١. سورة النساء: الآية ٥.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾.

أي: وليقل أرباب المال هؤلاء المذكورين قولاً طيّباً، دفعاً للشحناء والبغضاء وما يوجب الحسد، لأنّ المقام يستدعي كلّ ذلك، فإذا أعطوهم شيئاً فلايمنّوا عليهم ويستقلّوا ما أعطوهم، وإذا لم يعطوهم شيئاً فليدعوا لهم ويعتذروا من ذلك.

وظاهر الخطاب الذي ورد مورد الاسترحام والاسترفاق، يدلّ على إستحباب مؤدّاه، وعليه إجماع الإماميّة.

واختلف العلماء والمفسّرون في أنّ الآية الشريفة محكمة أو منسوخة بآية المواريث. ومن المعلوم أنّه لا نسبة بين هذه الآية وآية المواريث، فإنّ الأُولى تعيّن فرائض الورثة، وهذه الآية تدلّ على استحباب الإنفاق والاسترحام على الوارث، فلا موجب للنسخ، وسيأتي في البحث الفقهي ما يتعلّق بذلك إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾.

الخشية: هي خوف خاص، فقيل: إنّها خوف مع شائبة تعظيم واكبار، وقيل: إنّها خوف في محل الأمل.

والمستفاد من موارد استعمال هذه الكلمة أنّها تأثّر قلبي لما يخاف نزوله ويرجى منه الأمل.

والضعاف جمع ضعيف، وهو يشمل الصغير وغيره ممّن لا يتمكّن دفع الضرر عن نفسه، كالمعتوهين والنساء الضعيفات، ووصف سبحانه الذرّية بالضعاف ترغيباً للترحّم عليهم. كما أنّ التصريح بكونهم من خلفهم مبالغة في تهويل الحالة.

والجملة تبيّن غاية الرحمة والرأفة على الذرّية الضعاف الذين لا وليّ لهم

يذود عنهم الذلّ والهوان، ولا كافل يتكفّل أمرهم ويرعى شؤونهم، والآية في مقام التمثيل.

وأنّها تستلفت الناس إلى الفرض والتقدير لو حلّ ذلك في أيتامهم، وما يجري عليهم من بعد ارتحال آبائهم وفقدان مَن يكفلهم، فإنّهم يتألّمون ويقدّرون له جميع ما يمكن أن يتصوّر من الحلول، فالآية المباركة جارية مجرى قوله ﷺ: «كما تدين تدان»، فهي من الأُمور الوضعية السارية في كلّ خلف عن سلف. وهذا الأُسلوب من الأساليب المثيرة للإحساس والعواطف، ويظهر واقع الحال في مظهر المثال الخارجي الذي له الأثر الكبير على الإنسان.

والآية الشريفة تبيّن واقع الحال، سواء كانوا ذرّية أم لا. وتبعث الرحمة والرأفة في النفوس، وتُثير الشفقة والرحمة الكامنة في الإنسان لرعاية شؤون اليتامى والاعتناء بشأنهم وترك ظلمهم واضطهادهم، لأنّ كلّ مَن يخاف أن يترك الذرّية الضعفاء من خلفه، لا يريد ذلك بالنسبة إلى ذرّيته، فلابدّ من تركه من جميع الناس كما تقدّم.

وممّا زاد في عظمة ذلك وشدّة تأثيرها على النفس، أنّ الله تعالىٰ لم يأمر فيها بالترحّم والعطف، بل أمر بالخشية والاتّقاء منه عزّوجلّ، فإنّه شديد الانتقام، وفيه غاية التهديد والتوعيد.

وكيف كان، فالآية المباركة تحثّ على مراعاة حال اليتامى وإصلاح اُمورهم، وترك ظلمهم وإعطاء حقوقهم، وتسوق التهديد لمَن لم يتّق الله تعالىٰ ويحرم صغار الورثة من حقوقهم، فهي متصلة بالآيات السابقة التي تأمر بحفظ أموال اليتامى. والآية التي تبيّن أنّ للرجال نصيباً فإنّها بعمومها تشمل الأيتام الصغار، فتكون مؤكّدة لمضمون الآيات السابقة، وقد ذكر المفسّرون في المقام وجوهاً لم يقم عليها دليل.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللهَ﴾.

أي: فليتّقوا الله في جميع أوامره بتنفيذها ونواهيه بتركها والاجتناب عمّا نهى عنه، فإنّ تقوى الله أهمّ الغايات وهي الكمال المطلق.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾.

السديد: هو الصواب المستقيم، أي فليكن القول والرأي مطابقاً للعمل في السداد والصواب، ويتّحدان في تثبيت الأحكام ومراعاة حال اليتامى وإصلاح شؤونهم، فإنّ المقام يحتاج إلى تطابق العمل مع القول في العدل والصواب. ويشمل ذلك كلّ ما يوجب إرشادهم إلى الصلاح والعمل بأحكام الشريعة وردعهم عن المنكر والفساد، فإنّ جميع ذلك يدخل في سداد القول، والخطاب يرجع إلى تهويل أمر اليتامى على الأولياء أو المجتمع، الذي له قسط كبير في حفظ اليتامى ومراعاة حالهم وإصلاح شؤونهم.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً﴾.

جملة استئنافية جيء بها تأكيداً لما ورد في الآية السابقة، وتثبيتاً لما فصّل من أحكام اليتامىٰ سابقاً.

وظلماً: حال، أي ظالمين، أو تمييز يرفع الإبهام عن محتملات الأكل، أي أنّ الذين يأكلون أموال اليتامى من غير وجه شرعي فهم ظالمون، أو أنّ أكلهم كان على سبيل الظلم، وإنّما يكون ظلماً إذا لم يكن الأكل له سبب شرعي، إمّا بالاقتراض على وجه شرعي، أو ما يأخذه بلحاظ أُجرة عمله، أو على وجه التقدير لأُجرة العمل، كما تقدّم، وفي غير ذلك يكون الأكل ظلماً.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾.

هذه الجملة كناية عن الإثم العظيم، وملء البطن النار يدلّ على تجسّم الأعمال، فتمثّل الواقع الذي يعيش عليه آكل أموال اليتامى ومَن هضم حقوقهم، وإن لم نره بالعيان.

أو أنّ ما يوجب إلى الغاية المهوّلة المخزية، تكون موجبة لاستحقار سائر الغايات، فإنّ النار التي تترتّب على أكل أموال اليتامى، هي غاية عظيمة مهوّلة، يستحقر معها سائر الغايات، فكأنّ الأكل نار محضة، ولذا جيء بكلمة الحصر.

وعلى كلا الوجهين يكون الكلام على وجه الحقيقة دون المجاز.

وقيل: إنّ الكلام على المجاز دون الحقيقة، لأن المتبادر من ﴿**يَأْكُلُونَ**﴾ أنّه للحال دون الاستقبال، بقرينة العطف عليه بقوله تعالىٰ: ﴿**وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً**﴾ المشتمل على حرف الاستقبال، فلو كان المراد حقيقة الأكل ووقته يوم القيامة، لكان الأنسب أن يكون لفظ الآية هكذا (فسيأكلون ناراً ويصلون سعيراً)، فيُراد به المعنى المجازي، أي أنّهم في أكلهم مال اليتامى كمَن يأكل في بطنه ناراً، فالأكل عذاب باطن البدن، والصلي عذاب ظاهره، فهو جزاء اللباس وسائر التصرّفات.

ولكن فساد هذا القول ظاهر، لأنّه مخالف لظاهر الآية الشريفة، إذ أنّ المتبادر هو حقيقة الأكل دون المعنى المجازي، والنار الفعليّة دون النار في المستقبل، مضافاً إلى أنّه يوجب خروج الآية المباركة عن مفادها الواقعي، وهو تجسّم الأعمال.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً**﴾.

الآية الكريمة تشير إلى العذاب الأُخروي. والسعير من سعر النار وأسعرها إذا أوقدها، وهو فعيل بمعنى المفعول، ويقال في المؤنّث أيضاً، نحو كف خضيب. والنار المستعرة أي الملتهبة المشتعلة، وهو من أسماء نار الآخرة، ويُقال صلى

النار يصلي صُلياً وصلياً وصلّى وصلى (بالقصر فيهما)، هو الاحتراق بالنار ومقاساة حرّها وعذابها، وأصله يرجع إلى التسخّن بقرب النار أو مباشرتها، ثمّ توسع فيه واستعمل في الحرق ومقاساة أهوال النار.

والتنكير في السعير للتهويل، أي: أنّهم سيدخلون ناراً عظيمة لا يعلم أحد صفها إلّا الله تعالىٰ.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

قال بعضهم: إنّ «نصيباً» في قوله تعالىٰ: **﴿نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾**، منصوب على الاختصاص، أي اعني نصيباً مفروضاً. ويردّ بأنّ المنصوب بالاختصاص المصطلح عليه في النحو، يشترط فيه أن لا يكون نكرة، و**﴿نَصِيباً﴾** في المقام نكرة، إلّا أن يرد من الاختصاص معنى آخر.

وقيل: إنّه منصوب على أنّه مصدر مؤكّد مؤول، بمعنى العطاء أو القسمة ونحوهما من المعاني المصدرية، وإلّا فهو اسم جامد.

وقيل: إنّه منصوب على الحاليّة، جيء بها توطئة للوصف بكون النصيب مفروضاً، ومؤكّدة لما قبلها.

وقيل: إنّه منصوب على أنّه مفعول لفعل محذوف.

والقسمة مفعول مقدّم، لأنّها المبحوث عنها، ولتعدّد الفاعل، فلو روعي الترتيب لفات تجاذب أطراف الكلام.

و(**الذين**) في قوله تعالىٰ: **﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً﴾** فاعل «**ليخش**»، ومفعوله محذوف لدلالة الكلام عليه. و«**خافوا**» جواب لـ«**لو تركوا**»، وجملة «**لو**» صلة للذين، ويجوز حذف اللام في جواب (لو). وحذف الألف في «**وليخش**» للجزم بلام الأمر.

ثمّ إنّ الأُسلوب في قوله تعالىٰ: **﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً﴾** من الأساليب الفصيحة، التي تؤثّر في النفوس وتستفزّها نحو المطلوب، وتصوّر الفرض والتقدير في لباس الواقع المحسوس لتعميم التعليم وزيادة تأثيره، فمَن يستمع هذا الخطاب، يتصوّر المضمون، ويفرض لنفسه ذرّية ضعافاً قد أحاط

بهم جميع أسباب الذلّ والهوان، ويجعلهم نصب عينيه، وهو من الأساليب التعليميّة المثيرة.

و(**السديد**) في قوله تعالىٰ: **﴿قَوْلاً سَدِيداً﴾** هو العدل والصواب كما عرفت، والسداد بالفتح هو الاستقامة والصواب، وبالكسر هو البلغة وما يسدّ به الحاجة، ولكن قال ابن السكيت في «اصلاح المنطق»: إنّه لا فرق بين الفتح والكسر وانّهما بمعنى واحد، يقال: سداد من عوز وسداد. وكذا حكاه غيره.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على اُمور:

الأول: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾**، على أنّ الأصل في التوارث هو الولادة أو القرابة، وبذلك يردّ القرآن الكريم على العادات والتقاليد التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي، فإنّهم كانوا يحرمون بعض الورثة ويمنعون حقوقهم عنهم من دون سبب معيّن، سوى العصبيّة وبعض العواطف الظالمة، والقرآن في تأسيس هذا الأصل القويم يبيّن الشريعة الحقّة في أهمّ حكم من الأحكام الاجتماعيّة، الذي طالما كان مورد النزاع والاختلاف في جميع المجتمعات.

وأسّس الإسلام قاعدة معروفة هي المرجع في الإرث، وهي قاعدة الأقربيّة، التي تقوم على العلقة النسبيّة والأقربيّة في الرحم، وأكّد سبحانه وتعالىٰ على هذه القاعدة في موارد متفرّقة من القرآن الكريم:

قال تعالىٰ: **﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**[1].

---

١. سورة الأنفال: الآية ٧٥.

وقال تعالىٰ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾[١].

والآيات التي تقدّم تفسيرها تبيّن جهة الأقربيّة، وهي الولادة، والنسب، والقرابة، ومن تقدم الولادة يستفاد أنّها الأصل للقرابة.

ولم يذكر سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية مقدار النصيب، لما سيأتي في الآيات التالية ذكره وبيان سائر خصوصيّاته.

الثاني: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ اشتراك النساء مع الرجال في الإرث، وأكّد عزّوجلّ ذلك بالتصريح والتعميم، والإظهار في مقام الإضمار، ونصَّ عليه نصّاً قاطعاً بقوله تعالىٰ: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾، فإنّه يدلّ على كون السهام مقطوعة لا إبهام فيها ولا خلط، وهذه الآية الشريفة تعطى للنساء حقوقهن قبل أن يطالبن بها، فإنّ شريعة الحقّ والعدل الربّاني يثبتان الحقوق لأهلها قبل المطالبة بها، وسيأتي في الآيات الكريمة التالية الكلام في مقدار حقّ المرأة في الإرث، وبيان السبب في التفاضل بين الرجال والنساء فيه.

الثالث: يدلّ عموم قوله تعالىٰ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ ممّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ على شمول الحكم لجميع أفراد الإنسان بلا استثناء، فيدخل فيه تركة النبيّ ﷺ إلّا إذا قام دليل معتبر على التخصيص، وهو مفقود كما ستعرف في الموضع المناسب إن شاء الله تعالىٰ، كما أنّ عموم الآية الشريفة يدلّ على بطلان التعصيب أيضاً.

الرابع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٦.

﴿وَالْمَسَاكِينُ﴾ على حكم أدبي تجتمع فيه الرحمة والرأفة في حال يكون أقرباء الميّت أحوج إليهما من غيرهم، فإنّه إذا قسنا هذا الحكم مع ما كانت عليه الحال في الجاهليّة، وما كان يقتضيه المقام من التعسّف والظلم بحقوق الآخرين، تتجلّى عظمة هذا الحكم الإلهي الذي يثير العطف والشفقة في قلوب الأولياء، لاسيما بالنسبة إلىٰ فقراء القربى واليتامى والمساكين، والإحسان إليهم ومد يد العون إليهم، فاجتمع في هذا الحكم الجانب الأخلاقي والاجتماعي والتربوي، وهذا هو شأن الأحكام الإلهيّة التي لا تقتصر على جانب معيّن.

الخامس: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**نَصِيباً مَفْرُوضاً**﴾ على أنّ النصيب يدخل في ملك الوارث قهراً، بقرينة سياق الآيات الشريفة المشتملة على لفظ «اللام» الظاهر في الاختصاص، ولعلّ ما ذكره الفقهاء من أنّ الإرث من النواقل القهريّة غير الاختيارية، مستفاد من مثل هذه الآية المباركة، والروايات الواردة في السنّة المقدّسة.

السادس: إطلاق قوله تعالىٰ: ﴿**أُوْلُوا الْقُرْبَى**﴾ يشمل قرابة الميّت الأغنياء منهم والفقراء، وقيّده بعضهم بالفقراء، ولكنّه خلاف الظاهر، نعم لا ريب في أولوية الفقير.

السابع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً**﴾ على حقيقة من الحقائق الواقعيّة التي كشف عنها القرآن الكريم، وأكّد عليها في مواضع متعدّدة، وهي ارتباط الحوادث الخارجية مع الأعمال، سواء كانت حسنة أم سيّئة. ومن مصاديق هذه الحقيقة ما ورد في الآية الشريفة التي تقدّم تفسيرها، فإنّها تبيّن أنّ الآثار الوضعيّة لظلم الأيتام سيعود إلى الظالم ولو على أعقابه، ويؤكّد هذا قوله تعالىٰ: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ**

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[1]، وإطلاقه يشمل عود الجزاء إلى نفس العامل أو إلى ذرّيته وأعقابه، وفي بعض الروايات: «يؤثّر العمل السيء ولو إلى سبعين بطناً».

وعلى هذا، فربما يكون ما يُصيب الإنسان من خير أو شرّ من انعكاس أعمال آبائه عليه.

ويمكن أن يقام الدليل العقلي على ذلك أيضاً، فإنّ الذي يحسن إلى غيره إنّما يفعل ذلك لأجل أنّه رضي بالاحسان وارتضاه لنفسه، فإذا أحسن للأيتام فهو قد رضي ذلك لذرّيته أيضاً وبالعكس، أي إذا ظلم أحد فإنّما طلب ذلك لنفسه ورضي، وما يرتضيه لنفسه يتعلّق بأولاده وأعقابه أيضاً إن لم يتدارك.

نعم، هناك أسباب وعوامل قد تمنع انعكاس العمل على النفس والذرّية، لا يعلمها إلّا الله تعالىٰ، كما يدلّ عليه قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾**[2]، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام إن شاء الله تعالىٰ.

الثامن: يمكن أن تكون من أحد بطون، قوله تعالىٰ: **﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾** الإشارة إلى كيفيّة المعاشرة مع أولياء الله تعالىٰ، إماماً كان أو عالماً عاملاً هادياً، فإنّ ترك المعاشرة معهم أو سوئها يؤثّر في الذرّية والأعقاب، وقد اُدعي التجربة في ذلك، فحينئذٍ يكون المراد من قوله تعالىٰ: **﴿قَوْلاً سَدِيداً﴾**، أي قولاً مطابقاً مع العمل بما يرشدون إليه، فإنّهم واسطة الفيوضات المعنوية.

---

١. سورة الزلزلة: الآية ٧ ـ ٨.

٢. سورة الشورىٰ: الآية ٣٠.

التاسع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً**﴾، على تجسّم الأعمال، وهو صحيح ـ ويستفاد ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿**وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً**﴾، وأنّ أكل أموال اليتامى سبب تامّ للدخول في النار ـ لأنّ الحقيقة الواحدة يمكن اختلافها بإختلاف العوالم وخصوصيّات الإدراكات، مثلاً لو رأى أحد في المنام أنّه يشرب اللّبن يعبّر عنه بالعلم، بمناسبة أنّ اللبن مادّة الحياة الجسمانيّة، والعلم مادّة الحياة المعنويّة، فأكل مال اليتيم حقيقة واحدة هي في عين وحدة تلك الحقيقة، متعدّدة بحسب العوامل والمدركات، فهي أكل للمال عند ذوي البصائر المستورة بالحجب الظلمانيّة الغليظة، وعند ارتفاعها تعرف البصائر تلك النار وتظهر في النشأة الآخرة، ولذا قال سيّد الأنبياء ﷺ: «الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا»، وقال مولانا الرضا عليه السلام: «كلّما هناك لا يعلم إلّا بما هاهنا»، فكما أنّ آثار الدُّنيا تظهر في الآخرة بما يناسب ذلك العالم، فلابدّ أن تكون تلك الآثار ظاهرة في هذه الدُّنيا بما يناسبها، لكن لأهل البصائر لا لكلّ أحد، والأمثلة والشواهد كثيرة في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، لعلّ الله تعالىٰ يوفّقنا لبيانها.

***

بحث روائي:

في «تفسير القمّي» في قوله تعالىٰ: ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ـ الآية**﴾، قال: هي منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿**يُوصِيكُمْ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ**﴾.

أقول: ليس المراد به النسخ المصطلح في علم الأُصول، بل المراد الإجمال والتفصيل كما عرفت.

وعن الطبرسي: اختلف الناس في هذه الآية على قولين، أحدهما أنّها محكمة غير منسوخة وهو الصحيح.

أقول: ما ذكره مطابق للأصل وعليه إجماع الإماميّة.

وفي «الدرّ المنثور» أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله تعالىٰ: **﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾**، قال: «نزلت في أُمّ كلثوم، وابنة أُمّ كحلة (كجة)، أو أم كحلة، وثعلبة بن أوس، وسويد، وهم من الأنصار، كان أحدهم زوجها والآخر عمّ ولدها، فقالت: يا رسول الله، توفّي زوجي وتركني وابنته فلم نورث من ماله، فقال عمّ ولدها: يا رسول الله، لا تركب فرساً، ولا تنكى عدوّاً، ويكسب عليها ولا تكتسب، فنزلت الآية».

أقول: روى قريباً منه الواحدي في «أسباب النزول»، وفي بعض الروايات عن ابن عبّاس: «أنّها نزلت في رجل من الأنصار مات وترك ابنتين، فجاء ابنا عمّه وهما عصبته، فقالت امرأته: تزوّجا بهما ـ وكان بهما دمامة ـ فأبيا، فرفعت الأمر إلىٰ رسول الله ﷺ، فنزلت آيات المواريث ـ الرواية».

أقول: يمكن تعدّد منشأ النزول، ولا تنافي بينهما.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ ـ الآية ـ﴾** قال: «نسختها آية الفرائض».

وفي «المجمع»، في الآية: **﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ﴾**: «اختلف الناس في هذه الآية على قولين، أحدهما أنّها محكمة غير منسوخة، قال: وهو المرويّ عن الباقر عليه السلام».

أقول: تقدّم ما يتعلّق بذلك في التفسير، ويأتي في البحث الفقهي تتمّة الكلام.

وفي «الكافي»، عن سماعة، عن أبي عبد الله عليه السلام: «أوعد الله تبارك و تعالىٰ في مال اليتيم بعقوبتين: إحداهما عقوبة الآخرة النار، وأمّا عقوبة الدُّنيا فيقول عزّوجلّ: **﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ ـ الآية ـ﴾** يعني ليخش أن أخلفه في ذرّيته، كما صنع بهؤلاء اليتامىٰ».

أقول: روى مثله العيّاشي عن الصادق وأبي الحسن عليهما السلام، وفي «المعاني» عن

الباقر عليه السلام أيضاً، والآيات والروايات الدالّة على وجود الآثار الوضعيّة في المعاصي كثيرة جدّاً، وهذه من إحدىٰ مصاديقها، ويستفاد منها عظمة المعصية.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن عبد الأعلى مولى آل سام، قال:

«قال أبو عبدالله عليه السلام مبتدئاً: مَن ظلم سلّط الله عليه مَنْ يظلمه أو على عقبه وعقب عقبه، فذكرت في نفسي. فقلت: يظلم وهو يتسلّط على عقبه وعقب عقبه؟!! فقال لي قبل أن أتكلّم: إنّ الله يقول: **﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾**».

أقول: هذه الرواية منقولة متواترة من أنّ للظلم آثاراً وضعيّة دنيويّة وأُخروية، ولابدّ من ظهورها في الدُّنيا، سواء على الظالم أم على عقبه، ومثل ذلك قولهم عليهم السلام: «قطيعة الرحم واليمين الفاجرة تذرّ الديار بلاقع من أهلها».

وفي «الكافي»، عن الباقر عليه السلام: «أنّ آكل مال اليتيم يجيء يوم القيامة والنار تلتهب في بطنه حتّى يخرج لهب النار من فيه، يعرفه أهل الجمع أنّه آكل مال اليتيم».

وفي «تفسير القمّي»، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال، «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لمّا أُسري بي إلى السماء رأيت قوماً تقذف في أجوافهم النار، وتخرج من أدبارهم، فقلت: مَن هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى».

أقول: وجه ذلك أنّه صلى الله عليه وآله أُسري إلى عالم كشف الحقائق، وظهور السرائر والضمائر، ولابدّ أن يرى الأشياء على ما هي عليه، وقد يحصل له صلى الله عليه وآله تلك الحالة في هذه العالم من دون أن يسرى به إلى السماء، وكذلك يحصل عند بعض أولياء الله تعالىٰ.

وفي «الدرّ المنثور»: أخرج عبد بن حميد، عن قتادة، قال: «ذكر لنا أن نبيّ

الله ﷺ قال: «اتّقوا في الضعيفين: اليتيم والمرأة، ايتمه ثم اوصى به، وابتلاه وابتلى به».

أقول: ونظير ذلك ما عنه ﷺ: «دخلت الجنّة ورأيت أكثر أهلها النساء، علم الله ضعفهن فرحمهن»، وهو محمول على المؤمنات الصالحات.

***

بحث فقهي:

الآية الشريفة: **﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ ممّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾** تُبيّن وجه الإرث والسبب فيه، وأنّه الولادة والأقربيّة، واستفاد الفقهاء من مثل هذه الآية الشريفة الأصل الأوّل في الإرث، الذي هو النسب، وهو يبتني على أمرين: الولادة والأقربية في الرحم، والآية المباركة تدلّ على أنّ الرجال والنساء مشتركان في حصّة من الميراث على الإجمال، ويرثان النوعان معاً إذا كانا متساويين في الدرجة والقرابة، وإلّا فالأقرب يمنع الأبعد.

ومن ذلك يظهر بطلان التعصيب، فإنّ الله تعالىٰ فرض للنساء كما فرض للرجال في التركة وشرّك بينهما، واختصاص بعض الورثة بها وحرمان الآخر عمّا زاد من الفرض، خلاف مقتضى الآية الشريفة.

كما أنّ مقتضى قوله تعالىٰ: **﴿نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾** أنّ الإرث من النواقل القهريّة، ودخول النصيب في ملك الوارث يكون بغير الاختيار، فلا يخرج عنه إلّا بسبب شرعي.

ثمّ إنّ ظاهر قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾** أنّ الأمر بالرزق محمول على الندب لا على الوجوب، كما في الأمر بالقول السديد أيضاً، لقرائن متعدّدة في

الآية الشريفة، وما وردت في السنّة من الروايات.

والمعروف بين الإماميّة أنّها غير منسوخة، وادُعي الإجماع عليه، ولكن في «تفسير العيّاشي» عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «نسختها آية الفرائض»، والظاهر أنّه لا منافاة بين آية الفرائض وهذه الآية الشريفة بعد ظهورها في الندب.

وعلىٰ فرض الوجوب، أنّ آية الفرائض تدلّ على تحديد الفرائض وتعيين السهام، وهذه الآية الكريمة تدلّ على القسمة على الإجمال من غير تعيين سهم، فلا موجب للنسخ.

ويمكن أن يكون المراد من النسخ في الحديث مطلق الرفع في الروايات، لا النسخ المصطلح في علم الأُصول، فحينئذٍ تصحّ الرواية ولاتنافي بين الآيتين الشريفتين.

والخطاب في الآية المباركة للأولياء أو الأوصياء وغيرهم من القضاة، أن يرزقوا أُولي القربى غير الوارثين، سواء كانوا أغنياء أم فقراء، قبل قسمة التركة أو بعدها، ممّا صار إليهم مع القول المعروف الحسن حين الإعطاء، أو الردّ بالإحسان إذا لم يعطوهم شيئاً.

ثمّ إنّ مقتضى قوله تعالىٰ: **﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾**، حرمة أكل مال اليتيم ظلماً، وأمّا إذا لم يكن على النحو المذكور، فيجوز لوجود الإذن الشرعي فيه، والخطاب في الآية الكريمة للأولياء والأوصياء ومَن يتصدّى أُمور اليتامى.

***

الآية ١١ ـ ١٤

﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

الآيات الشريفة تتضمّن أحكاماً إلهيّة ترشد الناس إلى الكمال، وتسوقهم إلى السعادة في الدارين، وهي أحكام اجتماعيّة رُوعي فيها حفظ أموال النـاس

وتوزيعها وفق نظام متين، على ما بيّنه عزّوجلّ، دفعاً للتشاجر والتخاصم. وحفظاً لحقوق الأفراد ومراتبهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالىٰ عمدة أحكام المواريث والفرائض في هذه الآيات المباركة، مرتّبة على قاعدة الأقربيّة في الرحم، التي هي أهمّ القواعد في الإرث، وجرى عليها العمل في الفقه الإسلامي، وهي من أجلّ وأحسن نظام روعي فيه جميع الخصوصيّات، وأبطل بها عزّوجلّ جميع الأحكام الوضعيّة التي كانت سائدة في المجتمعات القديمة، ومنها المجتمع الجاهلي، وما وضعته القوانين المدنيّة، وقد جعل عزّوجلّ مَن يتبع تلك الأحكام السماويّة مطيعاً لله وللرسول، وقد وعد تعالىٰ له الجزاء العظيم والسعادة العظمى في الدارين، وأوعد تعالىٰ على مَن خالف تلك الأحكام وتعدّى حدودها وعصى الله ورسوله، النار والعذاب المهين.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمْ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾.

الوصيّة: العهد والأمر، ومنه الوصيّة المعروفة، وهي ما يتعهّد به إلى الغير للعمل به، وإليه يرجع ما ذكره الراغب في «المفردات»: أنّها التقدّم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ.

والمراد بها في المقام الفرض والتشريع، وإنّما عدل إلى هذه اللفظة، لأنّها أبلغ في الاهتمام بما أُوصي به والاعتناء به، وطلب حصوله بسرعة، كما عَدَل من الأبناء إلى لفظ الأولاد، لأنّه يشمل مَن تولّد من الرجل بواسطة أو بدونها، وإن كان الأبناء أيضاً كذلك، إلّا أنّ في التعبير بـ«أولادكم» نحو استيناس إليه، وفيه تعميم يشمل الذكور والإناث، كباراً أو صغاراً.

وذكر بعضهم أنّ الولد حقيقة في أولاد الصلب، ومجاز في غيرهم.
ولكنّه فاسد كما هو واضح.
وإنّما ذكر الأولاد ابتداءً، لأنّهم أقرب رحماً إلى الميّت من غيرهم.
والمعني: أنّ الله تعالىٰ فرض عليكم أحكاماً في إرث أولادكم، والآية فيها إجمال تبيّنه الآيات الشريفة التالية.

قوله تعالىٰ: **﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾**.

تفصيل بعد إجمال، وبيان لأهمّ ما وصّى به عزّوجلّ، وهي تتضمّن قاعدة كلّية من قواعد الإرث، ولذا قدّمها عزّوجلّ علىٰ سائر أحكامه، واستدلّ بها الفقهاء في كتبهم الفقهيّة في أكثر من مورد.

والآية الشريفة بإيجازها البليغ تتضمّن تفضيل الذكر على الأُنثى في الإرث إذا اجتمعا وجهة التفضيل، والإشارة إلى تقرّر نصيب الأُنثى في الواقع وبيان سهم الاثنيين إذا انفردتا، ولا يظهر ذلك المضمون لو كانت العبارة غير ما ذكره جلّ شأنه، فسبحان مَن ظهرت آياته في محكم كتابه.

وأُسلوب الخطاب ينبئ عن إبطال ما كانت عليه الجاهليّة وبعض المجتمعات الأُخرى، من منع توريث النساء كما عرفت سابقاً، والإسلام بدأ أوّلاً بإبطال العصبيّات والتقاليد، وشرّك النساء مع الرجال في التركة ـ كما تقدّم ـ ثمّ بيّن أنّ إرث الأُنثى محفوظ ومعروف، وأنّه الأصل في تشريع إرث الذكر، وعدّ كلّ واحد منه باثنتين من النساء إذا اجتمع الصنفان من الذكور والإناث، فالإسلام يعطي نصيب الضعف للرجل، فيكون نصيب المرأة نصف الرجل في المال الموروث، ثمّ فصّل سهام الإناث بعد ذلك، ولم يذكر سبحانه سهام الرجال مستقلاً إلّا مع سهام النساء، وذلك لبيان أهمّية الموضوع، وقطعاً لكلّ عصبية، وإبطالاً لكلّ

عادة وتقليد، ورفعاً للإبهام والإجمال.

وأمّا العلة في تفضيل حظّ الذكر من المال الموروث على الأُنثىٰ، مع كون هذه المال لم يبذل فيه جهد ومشقّة من أي منهما، فلوجوه عديدة، منها ما سيذكره عزّوجلّ في قوله تعالىٰ: **﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾**[1]، فإنّ الرجل كُلّف بالإنفاق، والمرأة لم تُكلّف به، فالتفضيل حقّ في مقابل هذا التكليف. وهناك وجوه أُخرىٰ يأتي بيانها.

واللام في الذكر والانثيين للجنس. أي جنس الذكر يعادل جنس الانثيين إذا اجتمع الصنفان، وإنّما قدّم الذكر على الأُنثى لبيان زيادة حظّ الذكر لا نقص حظّ الأُنثى، فإنّ الإشارة إلى جهة فضل الفاضل أحسن في التعليل من الإشارة إلى جهة نقص المفضول، كما ذكره بعض العلماء، وهو حسن.

قوله تعالىٰ: **﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾**.

تخصيص لسهام النساء المنفردات لأهمّية الموضوع، ورفعاً لكلّ إجمال وإبهام كما عرفت. وتأنيث الضمير الذي يرجع إلى الأولاد «كن» باعتبار الخبر.

أي إذا كن الوارثات نساءً، ليس معهن في طبقتهن ذكر واحد، أو أي متعدّد، فلهن ثلثا ما تركه المورث المعروف من سياق الكلام.

وقوله تعالىٰ: **﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾** صفة نساء، أو خبر ثان. والمراد به الفوقيّة في العدد، أي ثلاثاً فصاعداً، فلهن الثلثان والباقي يرد على مَن اجتمع معهنّ مع تساوي الدرجة، أو يردّ عليهن إذا لم يكن معهن أحد من نفس الدرجة.

وإنّما ذكر الثلثين لبيان أنّهما الميزان في الردّ على غيرهن، فيبقي مجال لسهم الوالدين أو أحدهما والزوج أو الزوجة، إذا كانوا مع البنات.

---

١. سورة النساء: الآية ٣٢.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾.

الضمير يرجع إلى المولودة المفهومة من الكلام، واللام في النصف عوض عن المضاف إليه، أي نصف ما ترك. والنصف مثلث النون وقرئ بعضهم بالرفع لزوماً قياساً على بقيّة الأعشار، كالثلث والربع والخمس، فإنّ كلّها مضمومة الأوائل، وهي لغة أهل الحجاز. والنصف أحد شقّي الشيء، وإنّما ذكر النصف لبيان أنّه الميزان في الردّ على من يجتمع معها، كالأبوين أو أحدهما أو الزوج أو الزوجة، فيعرف سهام كلّ واحد منهم.

وقد ذكر سبحانه سهم البنت الواحدة وهو النصف، وسهم فوق اثنتين من البنات وهو الثلثان، ولم يذكر سهم البنتين، وسيأتي في البحث الدلالي تفصيل الكلام.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

الضمير في (لأبويه) يرجع إلى الميّت المعلوم من السياق، والسدس خبر، والمراد بالأبوين هما الأب والأُمّ تغليباً للفظ الأب، فإنّ العرب تجري المختلفين مجرى المتّفقين، فيغلب أحدهما على الآخر، كالقمرين والحسنين والمولوين.

وإنّما عطف حكم الأبوين على حكم الأولاد، لبيان اشتراكهما مع الأولاد في الطبقة.

والمعنىٰ: ولكلّ واحد من ابوي الميّت السدس ممّا تركه الميّت، فهما في هذه الصورة في الفريضة سواء، لا يتفاضلان كما يتفاضل الذكور والإناث إذا إجتمعاً.

وهذا الحكم مختصّ بالأب والأُمّ ولا يتعدّى إلى الجدّ والجدّة، لعدم إطلاق الأب والأُمّ على الجدّ والجدّة حقيقة، وإن كان يشملهما لقرائن خارجيّة، كما في

قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾[1]، مضافاً إلى أن تثنية الأبوين شاهد آخر على أنّ المراد هما القريبان، لأنّ الجدّ والجدّة في الطبقة الأُولى يكونون أربعة لا إثنين كما هو معلوم، ويتضاعف العدد كلّما علت الطبقة، ويدلّ على الحكم المزبور إجماع الإماميّة أيضاً. هذا إذا كان مع الأبوين ولد للميّت ذكراًكان أو أُنثى، منفرداً أو متعدِّداً، للصلب أو غيره، لأنّ الولد جنس يشمل الجميع.

نعم، إن كان الولد بنتاً واحدة فلها النصف، ولكلّ واحد من الأبوين السدس، فما زاد يردّ على الجميع أخماساً إن لم يكن حاجب، وإلّا فأرباعاً كما هو معروف في فقه الإماميّة.

ولا يعطى للعصبة شيء خلافاً للجمهور، وهي مسألة التعصيب المعروفة في الفقه.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾.

بيان لصورة انحصار الوارث في الأبوين، أي وإن لم يكن للميّت ولد مطلقاً ـكما عرفت آنفاًـ وانحصر الوارث في الأبوين معاً لا أحدهما، فإنّ الوارث إن كان الأب فقط فالمال كلّه له، وإن كانت الأُمّ فلها الثلث تسمية والباقي ردّاً، فإذا اجتمع الأبوان معاً وانحصر الوارث فيهما، فللأُمّ الثلث ممّا تركه المورث، والباقي للأب، وإنّما لم يذكره لكونه معلوماً، ولأنّه لم يكن صاحب فرض غيرها، والكلام في أصحاب الفروض.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾.

بيان لصورة الحجب، أي وإن كان للميِّت إخوة، فلأُمّ الميّت السدس توفيراً

---

١. سورة الأعراف: الآية ٢٧.

على الأب، فيعطى الباقي له قرابة، ويشترط في حجب الإخوة من الثلث إلى السدس أُمور ذكرها الفقهاء في الفقه، مَن يشاء فليراجع كتابنا (مهذب الأحكام).

وذكر الإخوة بعد قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾، فيه الدلالة على أنّ الإخوة في الطبقة الثانية بعد الطبقة الأُولى التي فيها الأبناء والآباء.

قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

قاعدة أُخرىٰ من قواعد الإرث وهي: «أنّ الإرث إنّما يكون من أصل المال الذي تركه الميّت، إذا لم يوص بوصيّة، أو لم يكن عليه دين، فإن كانت وصيّة أو دين، فإنّه يجب أداؤهما أوّلاً، ثمّ التوريث ممّا بقي».

والوصيّة ـ كما تقدّمت ـ هي التعهّد إلى الغير بعمل معيّن، وهو المراد بها في قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ﴾[1]، وإنّما وصف الوصيّة بأنّها يوصي بها لبيان أهمّية الوصيّة والدلالة على التأكّد من ثبوتها والتحقّق من نسبتها إلى الميّت، ولم يقيّد الدين بما قيّد به الوصيّة، للدلالة على أنّه لا يعتبر في إخراج الدين الوصيّة به، ولا حصوله عليه باختياره.

وإنّما قدّم الوصيّة على الدين ـ مع أنّها مؤخّرة عنه في الترتيب ـ لأنّها أكثر وقوعاً، وللاهتمام بها، وتنزيلها منزلة أصل الدين، وإلّا فإنّ الدين مقدّم في الوفاء على الوصيّة، فيخرج الدَّين أوّلاً من تركة الميّت، ثمّ تخرج الوصيّة ثمّ الإرث. وقد دلَّ على هذا الترتيب السنّة الشريفة والإجماع المحقّق، مع أنّ القصد في الآية الشريفة هو بيان تقديمها على الميراث من دون قصد بيان ترتيبها في أنفسهما، مضافاً إلى أنّه يستفاد التأخير من كلمة «بعد»، فإنّها تدلّ على أنّ الميراث بعد إخراج الوصيّة، وهي تلو الدين، فوافقت الآية الكريمة ما ورد في السنّة

---

١. سورة البقرة: الآية ١٨٠.

الشريفة والإجماع.

والدين يشمل كلّ ما هو واجب مالي لازم الوفاء، سواء كان ديناً خالقيّاً ـ كالزكاة والخمس والحجّ ـ أو خلقيّاً كالقرض وغيره.

قوله تعالىٰ: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾.

بيان لحقيقة من الحقائق الواقعيّة، وخطاب عام يبيّن خطأ الأوهام والتقاليد التي كانت متّبعة عند الأُمم في عصر نزول القرآن الكريم، ودفعاً لما قد يقال في هذا الموضوع المهمّ الذي هو في معرض التشاجر والتنازع، والجواب عن السبب في اختلاف السهام، ببيان أنّ الإنسان مهما بلغ في الذكاء والفطنة، لا يعلم مَن هو الأقرب إليه نفعاً في الدِّين والدُّنيا والآخرة، فإنّه يقع تحت تأثير العواطف النزعات النفسيّة والتقاليد والعادات الاجتماعيّة، فكم من شخص يحرص الإنسان توريثه وتوفير سهمه، ولكن لو إنكشف الأمر له لمنعه عن ذلك، والإسلام ينظر في ذلك نظرة واقعيّة، ويسنّ قانوناً إلٰهيّاً لا يقبل التغيير، وهو بعيد عن الأوهام الباطلة، والعواطف الإنسانيّة، والنزعات الشخصيّة. ويقسِّم السهام على أفراد الورثة حسب ما ينظره من المصلحة العامّة، وما يقتضيه تكوين الإنسان وفطرته، كسائر الأحكام الإسلاميّة التي تبتني على الفطرة والمصلحة العامّة. ويدلّ عليه تقديم الآباء على الأبناء في الآية الشريفة، وهما يشيران إلى الأُصول والفروع في باب التورات، فتشمل الأب والأُمّ والجدّ والجدّة والأبناء الذكور والإناث، والإخوة والأخوات.

ويستفاد من تقديم الآباء على الأبناء أنّ الآباء أقرب نفعاً من الأبناء.

والمراد من (النفع) الأعمّ من النفع الدنيوي المادّي، أو النفع الأُخروي المعنوي، ففي الحديث المعروف: «إذا مات الرجل انقطع عمله إلّا من ثلاثة؛ صدقة

جارية، أو علمٌ يُنتفع به، أو ولدٌ صالح يدعو له»، والآية الكريمة تؤكِّد مضمون ما ورد في الآيات السابقة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَرِيضَةً مِنْ اللهِ﴾.

فريضة منصوب على أنّه مصدر مؤكّد لنفسه، أي: فرض عليكم فريضة، وقيل: منصوب على أنّه حال من المواريث الموصى بها، أي أوصى بتلك السهام حال كونها مفروضة.

والآية المباركة تؤكّد على أنّ تلك السهام مقدّرة ومعيّنة من الله تعالىٰ، وفق حكمة متعاليّة لا تقبل التغيير والتبديل.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

أي: أنّ الله تعالىٰ المحيط بعلمه بجميع مصالحكم، ولحكمته المتعالية البالغة التي يضع الأشياء بها في مواضعها، فإنّه شرّع لكم تلك الأحكام والوصايا وفق الحكمة التامّة والمصالح العامّة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾.

بعدما ذكر سبحانه وتعالىٰ الموجب الأوّل للإرث وهو النسب والقرابة، وبيّن ما يتعلّق بالطبقة الأُولى، وهو سهام الأولاد والوالدين وبعض الأحكام، كحَجْب الإخوة عن نصيب الأُمّ.

يُبيِّن عزّوجلّ في هذه الآية المباركة موجباً آخر وهو السبب، فذكر قسماً منه وهي الزوجيّة، وأنّها تنصّ على أنّه يرث كلّ واحد من الزوجين من الآخر في جميع الحالات ولا يحجبهما عن النصيب الأعلى ـ وهو النصف للزوج والربع للزوجة ـ إلّا الولد مطلقاً، فيستفاد من الآية الكريمة أنّهما يشاركان جميع

الطبقات، فيشاركان الأولاد وإن نزلوا، والآباء وإن علوا، وسائر الورثة بالأولويّة.

وقد ذكر سبحانه جميع صور إرثهما، وهي أربعة:

الزوج مع عدم الولد للزوجة، ونصيبه النصف.

والزوج مع الولد لها، ونصيبه الربع.

والزوجة مع عدم الولد للزوج ونصيبها الربع.

والزوجة مع الولد له ونصيبها الثمن.

والمراد بالزوجة مطلق مَن تحقّقت بهن الزوجيّة الدائميّة، سواء دخل بهن أم لا، على ما فصّل في الفقه؛ كما أنّ المراد بالولد مطلق مَن تولّد منهن، سواء كان ذكراً أم أُنثى للصلب أم غيره وإن نزل، واحداً كان أم متعدّداً.

ويستفاد من قوله تعالىٰ: «لهن» أنّ المناط تحقّق الولد منهن، وإن لم يكن من الزوج الوارث لها.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

هذه هي الصورة الثانية، والمراد من الولد تحقّقه منهن، سواء كان من الزوج أم من غيره، فإنّ في هذه الحالة للزوج الربع.

قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

أي: أنّ الزوج إنّما يرث في كلتا الحالتين بعد إخراج الدين والوصيّة التي توصي بها الزوجة، فإذا فضل بعد ذلك شيء يخرج منه السهام، ومنها سهم الزوج، على ما تقدّم من التفصيل.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾.

هذه هي الصورة الثالثة، والكلام فيها كالكلام في الصورة الأُولى، والمستفاد

من «لكم» أنّ المناط تحقّق الولد منه وإن لم يكن ولداً لها. ونصيب الزوجة في هذه الحالة الربع.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾.

الصورة الرابعة، وهي إرث الزوجة من الزوج إن كان له ولد فلها الثمن ممّا تركه الزوج، على ما تقدّم من التفصيل.

وإطلاق الآية المباركة يقتضي عدم الفرق بين الزوجة الواحدة والمتعدِّدة، فإنهن يشتركن في الربع إن لم يكن للزوج ولد، وفي الثمن إن كان له ولد.

قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

على ما تقدّم من التفصيل، فإنّ الزوجة إنّما ترث في الحالتين من تركة الزوج بعد وفاء الدَّين، وإخراج الوصيّة التي أوصى بها الزوج.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ﴾.

بيان لبعض أحكام الطبقة الثانية من الموجب الأوّل للإرث، وهم الإخوة والأجداد.

و«كان» تامّة، ورجل فاعل، وجملة «يورث كلالة» صفة له، و«كلالة» حال من الضمير في «يورث»، و(امرأة) عطف على رجل. وقيل في وجه الإعراب غير ذلك، ولكنّه لا يخلو عن تكلّف.

ومادّة (كلل) تدلّ على الإحاطة، وكلالة مصدر من كلّ يكلّ، وتكلّله النسب بمعنى أحاطه، ومنه الإكليل وهو التاج لإحاطته بالرأس، وكذا الكلّ (بالضم) لإحاطته بالجزء.

وقيل: إنّ الكلالة بمعنى الإعياء، وسمّيت القرابة البعيدة كلالة لضعفها بالنسبة

إلى القرابة القريبة، وهم الأُصول والفروع.

وقيل: إنّها بمعنى البُعد، ومنه كلّت الرحم بين فلان وفلان إذا تباعدت القرابة، وسمِّيت القرابة البعيدة بها لبُعدهم عن الميّت، والكلالة ما خلا الوالدان والولد سمّوا كلالة، (لإحاطتهم) بنسب الميّت. ولم يرد لفظ الكلالة في القرآن الكريم إلّا في موضعين:

أحدهما: المقام.

والثاني: في آخر هذه السورة، ولم يقصد منهما إلّا الإخوة والأخوات. وهي اسم يجمع الوارث والمورث من جهة انتساب كلّ واحد منهما إلى الآخر، وهي تشمل الذكر والأُنثىٰ، و لا تثنّى ولا تجمع؛ لأنّها مصدر، كالوكالة والدلالة.

وكيف كان، فالمتّفق عليه عند الجميع أنّها لا تشمل الآباء والأولاد.

والمعنىٰ: إن كان الميّت المورث كلالة ليس له أب ولا ابن، والآية تختصّ بما إذا لم يكن للميِّت وارث من الطبقة الأُولى في الإرث؛ وهم الآباء والأبناء وكان له أخ أو أُخت، والمرأة حكمها حكم الرجل إذا كانت كلالة ليس لها أب أو ابن.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾.**

الضمير في «له» يرجع إلى الرجل اكتفاءً به عن المعطوف، لاشتراكهما في الحكم. والأخ أصله «أَخَوٌ» لدلالة التثنية (اخوان) عليه، فحذف منه الواو ونقلت الضمّة إلى الخاء على غير قياس. وأمّا أُخت فقد حكى جمع أنّه ضم أوّلها لأنّ المحذوف منها واو، كما كسر أوّل بنت لأنّ المحذوف منها ياء، أي وإن كان المنتسب إلى الميّت واحداً من الكلالة، إمّا أخ أو أُخت، فله السدس ممّا تركه الميّت.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾.

أي: وإن كان المنتسب أكثر من واحد أي أخوين فصاعداً أو أُختين كذلك أو هما معاً، فلهم الثلث يقتسمونه بينهم بالسويّة، من دون تفاضل بين الذكر والأُنثى.

والأخ والأُخت وإن كان مطلقاً يشمل الإخوة من طرف الأُمّ والإخوة من طرف الأبوين، أو الأب، ولكن إشتراكهم في الثلث بالسوية يدلّ على أنّ المراد منهم خصوص كلالة الأُمّ فقط، وقد أجمع المسلمون على ذلك، ويشهد له الجمع بين هذه الآية والآية الأُخرى في الكلالة في آخر هذه السورة.

قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

أي: إنّما ترث كلالة الأُمّ السدس إن كانت واحدة، والثلث إن كانت متعدّدة، بعد وفاء الدين وإخراج الوصيّة من التركة، كما تقدّم التفصيل.

قوله تعالىٰ: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾.

جملة حاليّة من الفاعل، والعامل فيها (يوصى)، أي يوصي الرجل ومثله المرأة حالكونه غير مضار للورثة بوصيّة، بأن يوصي بأكثر من الثلث أو يضرّهم بافتعال الدَّين لنفسه فيحرمهم من الإرث.

والمضارة: من الإضرار، وهذا القيد يعتبر في جميع الموارد التي ذكر فيها الوصيّة في ما تقدّم من الآيات الشريفة، كـ«يوصي ويوصين وتوصون»، ولكن حذف لدلالة ما بعده عليه، وإنّما ذكره في المقام لأنّه مظنّة الضرر، فإنّ كلالة الأُمّ كثيراً ما تكون ثقيلة على المورث.

قوله تعالىٰ: ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللهِ﴾.

مصدر منصوب بفعل مقدّر، أي يوصيكم بذلك وصيّة من الله تعالىٰ، فيجب الإذعان بها والعمل بمضمونها، وإنّما نسبها إليه عزّوجلّ للتأكيد على مضمونها تعظيم شأنها والتحذير من مخالفتها.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ**﴾.

أي: والله عليم بمصالحكم ونيّاتكم، فيعلم المطيع منكم والعاصي المتعدّي علىٰ حدود الله تعالىٰ، حليم لا يعاجل بالعقوبة، فعليكم بالتخلّق باخلاق الله تعالىٰ.

وإنّما ذكر عزّوجلّ هذين الإسمين المباركين، لأنّ أحدهما يبيّن حكمة التشريع، والثاني يبيّن تنفيذ التشريع، فإنّه شرّع الأحكام لمصالحكم، فيجب عليكم العمل بها، ومَن يخالف يعاقب، وإن يمهله الله تعالىٰ لحلمه بكم.

قوله تعالىٰ: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللهِ**﴾

الحدّ: هو الحاجز بين الشيئين، بحيث يمنع اختلاط أحدهما بالآخر والتمايز بينهما، والمراد بها تلك الأحكام التي شرّعها الله تعالىٰ في المواريث وغيرها، التي هي حدوده عزّوجلّ، فلا يجوز التعدّي والتجاوز عنها.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾.

تفريع على ما سبق، فإنّ كون الأحكام حدوده تعالىٰ، يستلزم الإطاعة وبيان الجزاء على الموافقة والمخالفة، أي ومَن يطع الله تعالىٰ في العمل بأحكامه على حدودها، ويتبع ما ورد على لسان الرسول ﷺ في تفسيرها وبيانها ـ فإنّه واسطة الفيض وما ينطق عن الهوى ـ فإنّه يجزيه الجزاء الأوفىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿**يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾.

أي: أنّ جزاء المطيع هو أن يدخله الله تعالىٰ جنّات في غاية البهجة

واستكملت جميع أسباب السرور، خالدين فيها لا ينغص عيشهم حزن الفراق.

وإنّما جمع «خالدين» مراعاة لمعنى «من يطع»، لأنّه من الألفاظ التي تدلّ على العموم، ولبيان أنّهم مجتمعين، فإنّ في الاجتماع كمال اللذّة. كما أنّه أفـرد الضمير في «يدخله» مراعاة للفظ «مَن».

قوله تعالىٰ: ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

فإنّه عظيم بنفسه، لأنّه في غاية البهاء والصفاء، واستكملت جميع أسباب البهجة والسرور والسعادة، وخلّي عن جميع المـنغّصات والكـدورات، وعـظيم بالإضافة لأنّه من عند الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾.

بعد أن ذكر أنّ المناط في الطاعة هو العمل بحدود الله تعالىٰ، وما جاء به الرسول الكريم ﷺ، بيّن عزّوجلّ أنّ المناط في العصيان هو التعدي عن حدود الله.

أي: ومَن يخالف أحكام الله تعالىٰ، ولم يعمل بما أنزله عزّوجلّ، وما جاء به الرسول العظيم ﷺ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾.

تفسير العصيان، وفيه التأكيد على ترك المخالفة، ولبيان أنّ مخالفة الرسول من التعدّي عن حدود الله تعالىٰ. وللإشارة بأنّ الزيادة عليها يكون من التعدّي عن حدود الله، فيكون ردّاً على بطلان العول والتعصيب، كما ستعرف.

قوله تعالىٰ: ﴿يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا﴾.

أي: أنّ جزاؤه هو الخلود في النار. وإنّما أفرد «خالداً» لبيان أنّه لا يتمتّع من منفعة الاجتماع، وهي الأُنس، لشدّة العذاب ومقاساة أهـوالهـا، فـهم كـالفرادى

في النار.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾.

أي: له مضافاً إلى دخوله النار عذاب عظيم كنهه، مذلّ له، وإنّما أذلّه الله تعالىٰ في العذاب لأنّه اغترّ بنفسه وتعدّى حدود الله تعالىٰ.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يستفاد من الآيات المباركة المتقدّمة أهمّية الفرائض وأحكام المواريث في الشريعة الإسلاميّة، فقد اعتنى القرآن الكريم بهذه الفرائض واهتمّ بها اهتماماً بليغاً، وتضمّنت تلك الآيات رموزاً ووجوهاً كثيرة تدلّ على ما قلناه.

منها: أنّ الله تبارك وتعالىٰ شرّع تلك الأحكام وفرضها على الناس وأمرهم بمراعاتها وتعهّدها حالاً بعد حال، وفي الوصيّة بالفرائض اهتمام بها وتأكيد على مراعاتها والعمل بها، ما لم يوجد ذلك في غيرها.

ومنها: أنّه ذكر عزّوجلّ القواعد الكلّية المتّبعة في المواريث، ولم يعهد مثل ذلك في غيرها، فمن تلك القواعد قاعدة «أنّ للذكر مثل حظّ الأُنثيين»، وقاعدة «الأقرب يمنع الأبعد»، وغيرهما من القواعد.

ومنها: أنّه تعالىٰ بسط السهام، وذكر أُصولها في هذه الآيات، وهي: النصف؛ والربع، والثمن، والثلثان، والثلث، والسدس.

ومنها: أنّه جلّ شأنه عظّم أمر تلك الفرائض ببيان جزاء المطيع والعاصي، فذكر الثواب على إطاعة الله تعالىٰ وإطاعة الرسول ﷺ فيها، والعذاب المهين على المخالفة والعصيان.

ومنها: أنّه تعالىٰ جعلها من حدوده التي لا يجوز التعدّي عنها، وقد وردت أحاديث كثيرة، منها ما ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «تعلّموا الفرائض وعلّموها الناس فإنّي امرؤ مقبوض، وأنّ العلم سيقبض، وتظهر الفتن حتّى يختلف الاثنان

في الفريضة ولا يجدان مَن يقضي بها»، وغيره من الأحاديث الكثيرة.

الثاني: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ**﴾ على أنّ حكم السهم والسهمين مخصوص بأولاد الصلب للميِّت مباشراً، وأمّا غيرهم فهم في حكم مَن يتّصلون به، فلبنت الابن سهمان ولابن البنت سهم واحد إذا اجتمعا ولم يكن هناك مَن يتقدّم عليهم في المرتبة، وكذلك حكم الإخوة والأخوات وأولادهم. هذا بخلاف الابن والبنت، فإنّهما أعمان من أن يكونا بواسطة أو بغيرها.

الثالث: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ**﴾ بإيجازه البليغ وأُسلوبه الجذّاب على أعظم حكم سَنّته الشريعة الإلهيّة في الفرائض والمواريث، فإنّه يعلن أنّ جنس الذكر يعادل في النصيب سهم اثنيين، وهو يبيّن حقيقتين:

إحداهما: إرث الأُنثى، وأنّه أمر مقرّر معروف لا يمكن لأحد إنكاره، وهو الأصل في إرث الذكر.

الثانية: أنّ للذكر مثل حظّ الأُنثيين. وبذلك تبطل جميع التقاليد والعادات البائدة التي لم ينزل بها سلطان.

وقد قيل في وجه الحكمة في هذا الحكم الإلهي وجوه كثيرة، بعضها لا تخلو من المناقشة. والمهمّ أنّ القرآن الكريم في هذا الأُسلوب يبيّن جهة فضل الفاضل، ولم يتطرّق إلى جهة نقص حظّ الأُنثىٰ.

الرابع: قد ذكر سبحانه في الآيات المتقدّمة من موجبات الإرث النسب ـ المتحقّق في الآباء والأبناء والإخوة ـ والسبب المتحقق في الزوجيّة، وقد ذكر الأبناء والآباء في قوله تعالىٰ: ﴿**فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ**﴾. وكلالة الأُمّ ومن الإخوة.

فأمّا السبب، فقد ذكر عزّوجلّ سهم الزوجين الأعلى والأدنى على ما عرفت من التفصيل.

الخامس: يستفاد من التفصيل في سهام البنات أنّه لا يستغرق فرضهن التركة، فإنّ الواحدة منهن تأخذ النصف، والمتعدّدة يأخذن الثلثين، وأمّا الزائد فيردّ عليهن بالتساوي. هذا إذا لم يكن معهن وارث ذكر، وإلّا فإنّ للذكر مثل حظّ الأُنثيين. ويعلم من هذا التفصيل أنّ الذكر الواحد أو المتعدّد يأخذون التركة ويتساوون فيها.

السادس: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾، أنّه لا نصيب لذوي السهام في التركة قبل إخراج الدين والوصيّة منها، فإذا أوفى الدين وأُخرجت الوصيّة من التركة، فما فضل منهما يتعلّق به سهام ذوي الفروض.

وإنّما قدّم الوصيّة لإثبات الاهتمام بها، فإنّ أداء دين المورث مفروغ عنه بين العقلاء، بخلاف الوصيّة.

السابع: يستفاد من نسبة السهام إلى التركة أنّ كلّ سهم من السهام الستّة ـ هي الثلث، والثلثان، والسدس، والنصف، والربع، والثمن ـ يتعلّق باصل التركة في عرض واحد وعلىٰ حدٍّ سواء، فإذا إجتمع السدس والربع مثلاً فإنّ السدس يخرج من أصل التركة كما يخرج الربع كذلك، لا أن يخرج السدس أوّلاً ثمّ يخرج الربع من ما بقي أو بالعكس، وكذا في بقيّة فروض الاجتماع ـ كالثلث، والثمن، أو الثلثان، والربع ـ فالسهام كسور عشرية تتعلّق بجميع المال وأصله، فإنّ كلّ جزء من أجزائه ينحل إلى كسور، وكلّ كسر معيّن لصاحب فرض، فلا وجه لتقديم أحد الفروض وإخراجه من المال المورث ثمّ إخراج فرض آخر من ما بقي وهكذا، فإنّ ذلك خلاف ظواهر الآيات الكريمة، وخلاف المنساق من تعلّق الكسور في مال معيّن.

الثامن: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾** على أنّ تلك الأحكام الإلهيّة والقسمة الربّانية تبتني علىٰ مصالح واقعيّة، يعمّ النفع بها لجميع أفراد البشر.

***

بحث روائي:

في «أسباب النزوال» و«الدرّ المنثور»: أخرج عبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وابو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن، عن جابر بن عبد الله، قال:

«عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبيّ ﷺ لا أعقل شيئاً فدعا بماء فتوضّأ منه ثمّ رشّ علَيّ فأفقت، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يارسول الله؟ فنزلت: **﴿يُوصِيكُمْ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾**».

أقول: في ماء الوضوء آثار فكيف بماء وضوئه ﷺ فإنّه قد يوجب إحياء الموتىٰ.

وفي «أسباب النزول» أيضاً، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال:

«جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ بابنتين لها فقالت: يا رسول الله هاتان بنتا ثابت بن قيس ـ أو قالت سعد بن الربيع ـ قُتل معك يوم أُحد، وقد استفاء عمّهما مالهما وميراثهما، فلم يدع لهما مالاً إلّا أخذه، فما ترى يا رسول الله؟ فوالله ما تنكحان أبداً إلّا ولهما مال. فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت سورة النساء وفيها: **﴿يُوصِيكُمْ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ـ الآية﴾**»، فقال لي رسول الله ﷺ: ادع لي المرأة وصاحبها، فقال لعمّهما: أعطهما الثلثين واعط أُمّهما الثمن، وما بقي فَلَكَ».

أقول: الرواية لا تتعرّض لحكم الزائد عن السهام، وهناك روايات أُخرىٰ تتعرّض له وأنّ الزائد يردّ على البنتين.

ويمكن أن يكون منشأ النزول متعدِّداً والنزول واحداً، ولا بأس بذلك.

وفي «الدرّ المنثور»، عن ابن أبي حاتم، عن السدي، قال: «كان أهل الجاهليّة لا يورّثون الجواري ولا الضعفاء من الغلمان، لا يرث الرجل من والده إلّا مَن أطاق القتال، فمات عبد الرحمن ـ أخو حسّان الشاعر ـ وترك امرأة له يُقال لها أُمّ كحة، وترك خمس جواري، فجاءت الورثة فأخذوا ماله، فشكت أُمّ كحة ذلك إلى النبيّ ﷺ، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية: ﴿**فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ**﴾، ثمّ قال في أُمّ كحة: ﴿**وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ**﴾».

وفيه أيضاً عن ابن عبّاس، قال: «لمّا نزلت آية الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأُنثى والأبوين كرهها الناس أو بعضهم، وقالوا: تُعطى المرأة الربع أو الثمن، وتعطى الابنة النصف، ويُعطى الغلام الصغير، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة، وكانوا يفعلون ذلك في الجاهليّة لا يعطون الميراث إلّا لمَن قاتل القوم يعطونه الأكبر فالأكبر».

أقول: يعلم أنّ منشأ افتعال التعصيب في الإسلام وجذوره كانت من الجاهليّة، كما يعلم من ذلك أنّ قوله تعالىٰ: ﴿**آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً**﴾ كان ردّاً على جميع هذه الخرافات والإفتعالات الجاهليّة منها، وما كانت في الإسلام.

وفي «الدرّ المنثور»: أخرج الحاكم والبيهقي عن ابن عبّاس، قال: «أوّل مَن أعال الفرائض عمر، تدافعت عليه وركب بعضها بعضاً، قال: والله ما أدري كيف أصنع بكم؟ والله ما أدري أيّكم قدّم الله وأيّكم أخّر؟ وما أجد في هذا المال شيئاً

أحسن من أن أُقسّمه عليكم بالحصص؟ ثمّ قال ابن عبّاس: وأيم الله لو قدّم من قدّم الله وأخّر من أخّر الله ما عالت فريضة، فقيل له: وأيّها قدّم الله؟ قال: كلّ فريضة ولم يهبطها الله من فريضة إلّا إلى فريضة، فهذا ما قدّم الله، وكلّ فريضة إذا زالت عن فرضها لم يكن لها إلّا ما بقي، فتلك التي أخّر الله، فالذي قدّم كالزوجين والأُمّ، والذي أخّر كالأخوات والبنات، فإذا اجتمع مَن قدّم الله وأخّر بدئ بمَن قدّم فأُعطي حقّه كاملاً، فإن بقي شيء كان لهن، وإن لم يبق شيء فلا شيء لهن».

وفيه أيضاً: أخرج سعيد بن منصور، عن ابن عبّاس، قال:

«أترون الذي أحصى رمل عالج عدداً، جعل في المال نصفاً وثلثاً وربعاً؟ إنّما هو نصفان وثلاثة أثلاث وأربعة أرباع».

وفي «الكافي»، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: «جالست ابن عبّاس فعرض ذكر الفرائض من المواريث، فقال ابن عبّاس: سبحان الله العظيم أترون الذي أحصى رمل عالج عدداً جعل في مال نصفاً وثلثاً؟! فهذان نصفان قد ذهبا بالمال، فأين موضع الثلث؟ فقال له زفر بن أوس البصري: يا أبا العبّاس فمَن أوّل مَن أعال هذه الفرائض؟ فقال: عمر بن الخطّاب لمّا التفّت عنده الفرائض ودفع بعضها بعضاً، قال: والله ما أدري أيّكم قدّم الله وأيّكم أخّر؟ وما أجد شيئاً أوسع من أن أُقسّم عليكم هذا المال بالحصص وأُدخل علىٰ كلّ ذي حقٍّ حقّه، فأدخل عليه من عول الفرائض. وأيم الله لو قدّم مَن قدّم الله وأخّر مَن أخّر الله ما عالت الفريضة، فقال له زفر بن أوس: وأيّهما قدّم وأيّهما أخّر؟ كلّ فريضة لم يهبطها الله عن فريضة إلّا إلى فريضة فهذا ما قدّم الله، وأمّا ما أخّر الله فكلّ فريضة إذا زالت عن فرضها لم يكن لها ما بقي فتلك التي أخّر، فأمّا التي قدّم فالزوج له النصف فإذا دخل عليه يزيله عنه رجع إلى الربع لا يزيله عنه شيء، والزوجة لها الربع فإذا زالت إلى الثمن لا يزيلها عنه شيء، والأُمّ لها الثلث فإذا زالت عنه

صارت إلى السدس ولا يزيلها عنه شيء، فهذه الفرائض التي قدّم الله عزّوجلّ، وأمّا التي أخّر ففريضة البنات والأخوات لها النصف والثلثان، فإذا أزالتهن الفرائض عن ذلك لم يكن لها إلّا ما بقي، فتلك التي أخّر الله، فإذا اجتمع ما قدّم الله وما أخّر بدئ بما قدّم الله فأُعطي حقّه كاملاً، فإن بقي شيء كان لمَن أخّر، وإن لم يبق شيء فلا شيء له، فقال له زفر: فما منعك أن تشير بهذا الرأي على عمر؟ فقال: هبته».

أقول: الروايات في مضمون ذلك كثيرة، ونفي العول مذهب أهل البيت عليهم السلام.

وفي «الكافي»، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث، قال:

«كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إنّ الذي أحصى رمل عالج ليعلم أنّ السهام لا تعول على ستّة لا تبصرون وجهها لم تجز ستّة».

وفيه أيضاً: عن الصادق عليه السلام، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: الحمد الله الذي لا مقدّم لما أخّر ولا مؤخّر لما قدّم. ثمّ ضرب بإحدى يديه على الأُخرىٰ، ثمّ قال: يا أيّتها الأُمّة المتحيِّرة بعد نبيِّها، لو كنتم قدّمتم مَن قدمّ الله وأخّرتم مَن أخّر الله وجعلتم الولاية والورثة حيث جعلها الله ما عال ولي الله، ولا عال سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله، ولا تنازعت الأُمّة في شيء من أمر الله إلّا وعند عليّ علمه من كتاب الله، فذوقوا وبال أمركم وما فرضتم فيما قدّمت أيديكم، وما الله بظلّامٍ للعبيد، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون».

أقول: الروايات في ردّ العول متضافرة، وأمّا كيفيّة تقسيم التركة على الوارث إذا كانت السهام أكثر منها، فهي مذكورة في كتب الحديث والفقه فليرجع إليها.

وفي «الكافي»، عن الصادق عليه السلام، قال:

«لا تحجب الأُمّ عن الثلث إلّا إخوان أو أربع أخوات لأب وأُمّ أو لأب».

أقول: الأخبار في ذلك كثيرة، وقد تقدّم ما يستفاد ذلك من الآية أيضاً.

وفي «التهذيب»، عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«أوّل شيء يبدأ به من المال الكفن، ثمّ الدين، ثمّ الوصيّة، ثمّ الميراث».

أقول: الروايات في مضمون ذلك كثيرة، وهي متّفقة على أنّ الدين مقدّم على الوصيّة، وهي مقدّمة على الميراث، والكفن من شؤون الميّت نفسه، فلابدّ من إخراجه أوّلاً.

وفي «المجمع» في قوله تعالىٰ: ﴿**مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وأنّكم تقرأون في هذه الآية الوصيّة قبل الدين، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قضى بالدين قبل الوصيّة».

أقول: رواه السيوطي وغيره أيضاً، وتقدّم الوجه في تقديم الدَّين على الوصيّة.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إنّ الله أدخل الزوج والمرأة علىٰ جميع أهل المواريث، فلم ينقصها من الربع والثمن».

أقول: هذه الأخبار ونظائرها دليل على عدم العول والتعصيب بالنسبة إليهما، وأمّا الرّد إليهما ففيه كلام ذكرناه في الفقه، ومَن شاء فليرجع إلى (مهذب الأحكام).

وفي «الكافي»، في معنى الكلالة عن الصادق عليه السلام: «مَن ليس بوالد ولا ولد».

أقول: تقدّم معنى الكلالة، وذكرنا أنّ ذلك مستفاد من نفس الآية الشريفة.

***

بحث فقهي:

يستفاد من الآيات المتقدّمة ـ التي فرض الله تعالىٰ فيها السهام بضميمة

الآيات الأُخرى الواردة في الإرث، منها الآية التي تقدّم تفسيرها: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾، والآية التي في آخر هذه السورة وغيرها ـ أحكام مهمّة تعتبر كلّيات باب الفرائض والمواريث، وقد اعتمد عليها الفقهاء في كتبهم الفقهيّة، ونحن نذكر المهمّ منها في ضمن مسائل.

المسألة الأُولى: قاعدة: «تفضيل الذكر على الأُنثىٰ» التي هي من القواعد في الفرائض والإرث، والأصل فيها قوله تعالىٰ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾، فإنّها تقضي تقسيم التركة إذا اجتمع الذكور والإناث من الورثة، ولم يكن لواحد فرض على تفضيل الذكر على الأُنثى في النصيب. وإذا تأمّلنا في الفرائض التي فرضها الله تعالىٰ في الإرث للرجال والنساء، نرى أنّ سهم النساء ينقص عن سهام الرجال مطلقاً إلّا في مورد واحد، وهو الأبوان إذا اجتمعا، فإنّ سهم الأُمّ قد يزيد على سهم الأب، كما إذا اجتمع الأب والأُمّ والبنت الواحدة فإنّ للبنت الواحدة النصف، وللأب وللأُمّ السدسان والباقي يردّ على البنت والأُمّ دون الأب، فيزيد سهم الأُمّ على الأب حينئذٍ، ولعلّ الوجه في ذلك أنّ الأُمّ أمسّ رحماً للولد من الأب، لما تتحمّله من المصاعب وتقاسي من الهموم في سبيل تربيته وحضانته، فلها المنزلة العظمى في الإسلام، وفي غير هذا المورد يكون نصيب المرأة أقلّ من نصيب الرجل، فالزوج له النصف مع عدم الولد للزوجة، والربع مع وجوده، وأمّا الزوجة فلها الربع مع عدم وجود الولد للزوج، والثمن لها مع وجوده، ونحو ذلك.

وأمّا وجه الحكمة في كون سهم الرجل ضعف سهم الأُنثى في الجملة، فإنّه يبتني علىٰ أمرين:

أحدهما: اجتماعي اقتصادي.

والآخر: يرجع إلى الخلق التكوين، ويشير إلى كلا الأمرين قوله تعالىٰ:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[1]، فإنّ المراد من الفضل الوارد فيها هو تعقّل الرجل واستيلاء روح التعقّل بحسب الطبع والتكوين عليهم، وما يمتاز به الرجل من زيادة البأس، الصلابة والشدّة، والغلظة والخشونة. فإنّ جميع ذلك أُمور يتطلّبها المجتمع الإنساني في مواطن الدفاع والأعمال الشاقّة، وفي تحمّل الشدائد والمحن، والثبات في الأهوال، ونحو ذلك ممّا هو ضروري في الحياة، فالرجال على الأكثر يقومون بهذه الشؤون.

وأمّا المرأة فهي متّصفة بالإحساسات والعواطف التي لا غنى للمجتمع عنها، فإنّ لهما آثاراً عجيبة في الإنسان لما يتطلّبه من الوداعة في العيش والسكن والمحبّة والأُنس والرحمة والرأفة، مضافاً إلى تحمّل المرأة أثقال الحمل والوضع والحضانة وخدمة البيوت، ولا يصلح لهذا الجانب إلّا الرحمة والرأفة والإحساس اللطيف والعاطفة الرقيقة، فالرجل والمرأة يتبادلان هذين الأمرين الضروريّين، وتتعادل بهما الحياة وتنتظم شؤونها، فإنّها تتقوّم بهما.

وأمّا الوضع الإجتماعي؛ فإنّ وضع الرجل الاجتماعي يقتضي الصرف وإدارة المعاش والسعي فيهما ويجب عليه الإنفاق غالباً، وذلك يتطلّب التدبير المالي في الانتاج والاسترباح، فهذا إلى روح التعقّل أنسب، إذ لا فائدة للإحساس والعواطف التي هي إلى روح التصرّف والمصرف أنسب، ولذاكانت المرأة أكثر من الرجل، فكاناً متعاكسين في الملك والمصرف، فإذا ملك الرجل الثلثين فإنّ المرأة تذهب بنصف هذين الثلثين، بينما تملك المرأة الثلث، ولكنّها تملك زمام ملكه ومصرفه. يستفاد ما ذكرناه من عدّة آيات ـ كما مر ـ وروايات.

---

١. سورة النساء: الآية ٣٤.

منها: ما رواه هشام: «أنّ ابن أبي العوجاء قال لمحمّد بن النعمان الأحول: ما بال المرأة الضعيفة لها سهم واحد، وللرجل القوي الموسر سهمان؟ قال: فذكرت ذلك لأبي عبدالله عليه السلام فقال: إنّ المرأة ليس عليها عاقلة، وليس عليها نفقة ولا جهاد ـ وعدّد أشياء غير هذا ـ وهذا على الرجل، فلذلك جعل له سهمان ولها سهم».

وفي مضمونها وردت روايات أُخرىٰ.

المسألة الثانية: قاعدة «تقريب الأقرب وتقديمه، وأنّ القريب يمنع البعيد»، ويدلّ عليها قوله تعالىٰ: ﴿**آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً**﴾، فإنّه اعتبر الأقربيّة إلى الميّت أمراً مفروغاً عنه، ولكن الإنسان يجهل خصوصيّات الأقربيّة، وبضميمة الآيات الأُخرى يتبيّن الأقرب والأبعد اللّذان يكونان مؤثّرين في زيادة السهم وقلّته، ويدلّ على أنّ الأقرب نسباً يمنع الأبعد قوله تعالىٰ: ﴿**وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ**﴾[1].

فمن الآيات المتقدّمة يستفاد: أنّ أقرب الأقارب والأرحام هو الأب والأُمّ، والابن والبنت، ومع وجودهما لا تصل النوبة إلى أولادهما، لأنّ الابن والبنت يتّصلان بالميِّت بدون واسطة، وأولادهما يتّصلون به بواسطتهما.

ثمّ بعد هذه الطبقة تأتي الطبقة الثانية، وهم إخوة الميّت وأخواته وجدودته، فإنّهم يتّصلون بالميِّت بواسطة واحدة، وهي الأب والأُمّ وأولاد الأخ والأُخت، كأولاد الابن والبنت، فإنّهم يتّصلون بالميِّت بواسطة آبائهم وأُمّهاتهم، وهم يمنعون الأولاد.

ثمّ تأتي الطبقة الثالثة، وهم أعمام الميّت وعمّاته وخالاته وأخواله، فإنّهم يتّصلون بالميّت بواسطتين؛ الجدودة والأبوين والأم، وهكذا القياس في جميع الأفراد.

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٦.

ومن ذلك يظهر أنّ ذا السببين مقدَّم على ذي السبب الواحد، فإذا اجـتمع الأبوين مع كلالة الأب، فإنّ الأوّل مقدّم على الثاني، وأمّا كلالة الأُمّ فلا يزاحمها أحد من كلالة الأبوين أو الأب، لأدلّة خاصّة.

المسألة الثالثة: قاعدة الحجب، ويستفاد تلك القاعدة من الآيات المباركة المتقدّمة والسنّة الشريفة، فإنّ بعض الأفراد يحجب صاحب سهم عن سهمه، وهذا على نحوين:

فإنّه تارةً: يحجبه عن سهم إلى سهم آخر، كحجب الإخوة لنصيب الأُمّ من الثلث إلى السدس، ويدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿**فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ**﴾، وفي حجب الإخوة شروط مذكورة في كتب الفقه.

منها: أن يكون الإخوة متعدِّدين، سواء كانوا ذكرين أو أخاً وأُختين أو أربع أخوات، ويدلّ عليه ظاهر الآية الشريفة، وبعض الأخبار والإجماع المحقّق.

ومنها: أن يكونوا للأب والأُمّ أو للأب، ويدلّ عليه الأخبار ـ كما عرفت ـ والإجماع أيضاً.

ومنها: أن يكون الأب حيّاً.

وغير ذلك من الشروط المذكورة في الفقه.

وأُخرىٰ: يكون الحجب من سهم معيّن، ولكن لا ينتقل إلى سهم آخر، مثل حجب الأبن والبنت لسهم الأب والأُمّ.

المسألة الرابعة: التركة إذا قيست مع السهام:

فتارةً: تكون مساوية للسهام، مثل بنتان وأب وأُمّ، فـإنّ للـبنتين الثـلثين وللأب السدس وللأُمّ السدس، فاستغرقت السهام التركة والمـال المـوروث، أو زوج وأُخت، فإنّ للأُخت الواحدة النصف وللزوج النصف أيضاً.

وأُخرىٰ: تكون السهام أكثر من التركة، مثل زوج وأُختين أو أخوات، فإنّ

للزوج النصف وللأخوات الثلثين، وكما إذا إجتمع أبوان وبنتان وزوج، فإنّ السهام سدسان وثلثان وربع، وهي تزيد على التركة بربع، إذ هي لا تزيد عن السدسين الثلثين.

وثالثة: تكون السهام أنقص من التركة، كما إذا اجتمع أب وبنت واحدة، فإنّ للأب السدس وللبنت الواحدة النصف، وهي تنقص عن التركة بمقدار السدسين، وكما إذا كان بنتاً فقط أو بنتين فقط أو اُختين فقط.

والصورة الثانية: تسمّى في اصطلاح الفقهاء بالعول، والصورة الثالثة تسمّى بالتعصيب، وفيهما النزاع المعروف بين الإماميّة والجمهور، فإنّهم حكموا بورود النقص في مسألة العول على جميع الورثة؛ كما حكموا في مسألة التعصيب بأنّ الزائد يردّ على عصبة الميّت ـ وهم أقاربه من الذكور فقط ـ فحرموا الإناث منه.

ولكن الإماميّة شدّدوا النكير على ذلك تبعا لما ورد من أئمّة أهل البيت عليهم السلام، واعتبروا ذلك خروجاً عن حدود الله تعالىٰ وتعدٍّ عليها، ويستفاد من تشديد النكير في آخر الآيات المتقدّمة على التعدّي عن حدوده سبحانه والاقتران بين عصيان الله والرسول صلى الله عليه وآله، والتعدّي عن حدود الباري عزّوجلّ، أنّ ذلك خروج عمّا فرضه الله تعالىٰ، ولعلّ ما ورد في السنّة الشريفة من إنكار العول والتعصيب مأخوذ من الآيات المتقدّمة.

وكيف كان، فإنّ أئمّة الهدىٰ عليهم السلام حكموا في مسألة العول أنّ النقص يدخل على خصوص الذين لم يعيّن لهم إلّا سهم واحد وهم البنات والأخوات دون غيرهم كالاُمّ والزوج الذين عيّن لهم الله تعالىٰ فرائضهما الأعلى والأدنى في جميع الفروض، وفي مسألة التعصيب يكون الزائد للجميع حسب نسبة السهام، والتفصيل يطلب من محلّه، وتقدّم في البحث الروائي ما يتعلّق بذلك أيضاً.

المسألة الخامسة: ظاهر إطلاق الآية الشريفة في الأولاد وغيرهم أنّ

الأولاد يقومون مقام آبائهم في مقاسمة الأبوين، ويرث كلّ واحد منهم نصيب مَن يتقرّب به، كما تقدّم في البحث الدلالي، ويدلّ عليه أخبار كثيرة والإجماع المحقّق.

المسألة السادسة: إطلاق الأزواج في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ**﴾، يشمل المعقود عليها وإن لم يحصل المقاربة والدخول فترثه ويرثها، كما يتناول المطلّقة طلاقاً رجعيّاً؛ لأنّها بحكم الزوجة مادامت في العدّة. وبعد العدّة إلى سنة يقع فيها الوفاة، ويدلّ على ذلك الإجماع والأخبار المستفيضة، إلّا أنّه استثنى من القسم الأوّل ما إذا تزوج المريض زوجة فلم يدخل بها حتّى مات في مرضه الذي تزوّج بها، ويدلّ على ذلك الأخبار والإجماع.

كما أنّ ظاهر إطلاق الآية الشريفة ﴿**وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ**﴾ إرث الزوجة من جميع التركة من العقار والبناء ونحو ذلك، فلا تحرم من شيء منها، ولكن الروايات المستفيضة والإجماع المحقّق يدلّان على حرمانها من بعض الأشياء. وإختلف الفقهاء في تعيين ذلك تبعاً لاختلاف الأخبار، والمتّفق بينهم أنّها تحرم من العقار بلا إشكال، كما فصّلناه في الفقه.

المسألة السابعة: ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ**﴾ أنّ الأُخوة والأخوات لا يرثون مع الوالدين والأُولاد، ولا مع واحد منهم، لما ذكرناه من أنّ طبقة الإخوة والأخوات بعد طبقة الوالدين والأولاد، فإذا وجد واحد من الطبقة الأُولى لا ترث الطبقة الثانية و هو متّفق عليه عند الإماميّة، ولكن الجمهور يورّثون الإخوة مع الأُمّ، وتعرّضنا لذلك في الفقه فراجع (مهذب الأحكام).

***

بحث فلسفي:

الوراثة على أقسام:

الأوّل: الورثة الماليّة وهي ـ كما تقدّم ـ أنّ الإنسان يورّث مالاً للطبقات التي بعده، وقد شرحها الله عزّوجلّ بأحسن شرح وأفضل بيان، وفصّلتها السنّة المقدّسة بما لا مزيد عليه، خصوصاً في الموارد التي لها المعرضيّة للتشاجر والاختلاف.

وعلم هذا التشريع منحصر به جلّت عظمته، فهو تبارك وتعالىٰ يبيّن أُصولها، والسنّة المقدّسة تبيّن شرائطها وقيودها وغيرهما ممّا يتعلّق بها، وأمّا الفروع الأحكام فيبيّنها الأولياء العظام والائمّة الكرام، وهذا ممّا لا شكّ فيه، لأنّ الإنسان مهما بلغ من الكمال لا يمكن له درك الحقائق الواقعيّة والمصالح النوعيّة على ما هي عليه، فلابدّ وأن يرجع إلى وحي السماء، وهو يبيّنها كما أنزلها تعالىٰ بالترتيب المتقدِّم، ويدلّ عليه قوله تعالىٰ: **﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾**.

الثاني: الوراثة في الملكات الراسخة في نفس المورّث ـ حسيّةً كانت أو حدسيّة ـ وهي وجدانيّة لكلّ أحد في الجملة، فقد يؤثّر ملكات الآباء أو الأجداد في الأولاد غالباً، وقد ثبت ذلك في العلم الحديث المعبّر عنه بـ(قانون الوارثة).

وعلم هذا القسم وخصوصيّاته منحصر به جلّ جلاله أيضاً، لأنّه العالم بالواقعيّات والمحيط بدقايق الأمور ـ كليّاتها وجزئيّاتها ـ ومن هذا القسم نشأت القبائل والعشائر، وعليه بُنيت أكثر الأُمور الاجتماعيّة والاعتباريّة الشرعيّة على ما فصّل في الفقه، وهو من أقدم الأُمور، فكان مقارناً مع أوّل نسل آدم عليه السلام، وقد كشف العلم الحديث كشفاً صحيحاً بمشيئته وإذنه تعالىٰ، وفي السنّة المقدّسة ما يدلّ على ذلك، وقد ورد بعضها في كتاب النكاح وغيره، قال تعالىٰ: **﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ**

وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[١]، بدعوى أنّ الإحسان في المحسن حصل من الملكات الموروثة، وكذا ظلم الظالم لنفسه صار مقتضياً لظلم الذرّية، وقال تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾[٢]، وقال تعالىٰ: ﴿**آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً**﴾.

الثالث: الوراثة الروحانية وفي بعض المعنويات في الجملة، فيورثها الأب لذرّيته، قال تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾[٣]، وغيره من الآيات المباركة.

وهذا القسم يختصّ بأولياء الله تعالىٰ يتقدّمهم سيِّد الأنبياء، وذلك مشروط بعدم النقص والخلل في الذرّية، فإنّهما يمنعان عن تلك الوراثة بعد الاعتقاد بأنّه تعالىٰ عليم حكيم.

ويمكن أن يجتمع في وليّ من أولياء الله تعالىٰ، أو نبيّ من أنبيائه الوراثة في المال والصفات الحسنة والوراثة التشريعيّة الروحانيّة، فما نسب إلى نبيّنا الأعظم ﷺ: «إنّا معاشر الأنبياء لا نورّث درهماً ولا ديناراً»، ليس في مقام نفي الوراثة أصلاً وإلّا لخالف الآيات الشريفة، بل في مقام أنّ الأنبياء ليسوا في مقام جمع المال وادّخاره لورّاثهم ـ كما يصنع ابناء الدُّنيا ـ فإنّ شأنّهم ومقامهم يجلّ عن ذلك. نعم لو فرض شيء لهم ينتقل بعدهم إلى وارثهم، وأنّ الورثة يصرفونه في ذوي الحاجات، وهذا هو معنى ما اُلحق بذيل الحديث: «وما تركناه صدقة»، فمعنى صدر الحديث وذيله أنّ النبيّ ووارثه الروحاني كلّ منهما ليس في مقام

---

١. سورة الصافات: الآية ١١٣.

٢. سورة الحديد: الآية ٢٦.

٣. سورة الطور: الآية ٢١.

ادّخار المال، بل أموالهم تُصرف في ذوي الحاجات، وإلّا فإنّهما كسائر الناس يرثون، فإنّ وإرث النبيّ يرث منه من جهتين؛ الجهة المالية والجهة الروحانيّة، ولايمكن التفكيك بينهما.

ثمّ إنّ اهتمام القرآن في تشريع أُصول سهام الإرث بهذا التقسيم البليغ إنّما هو لأجل أنّ الموضوع كان مورد التشاجر والتخاصم في المجتمع، فشرّع السهام على وجه معقول، وأكّد الالتزام بها بقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿**آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً**﴾، فهذه كلّها لدفع التشاجر والتخاصم والافتعالات الخاطئة، وأن ما سوى ما شرّعه الله تعالىٰ يكون: ﴿**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً**﴾[1].

***

بحث اجتماعي:

الإرث من الأُمور الاجتماعيّة التي لازمت المجتمع الإنساني من أوّل حدوثه، وقد مرّت أطوار كثيرة على هذا الأمر المهمّ، حتّى وصل إلى الحالة التي نراها في الإسلام، الذي يعتبر بحقّ أحسن ما شرّع فيه، لأنّه يبتني على حكمة متعالية ومصلحة عامّة، ونحن نذكر في هذا البحث ما يتعلّق به:

بداية الإرث وتحوّله:

الإرث من أقدم الأُمور الاجتماعيّة، بل يمكن أن نقول إنّه أمر طبيعي لايسع لأحد إنكاره، وقد برز للوجود بظهور الملكيّة والتملّك عند الإنسان، فإنّه من مصادر الملكيّة، لكنّه يختلف عن سائر المصادر بأنّه مصدر قهري للملكيّة، فإن

---

١. سورة النور: الآية ٣٩.

بموت أحد يتملّك غيره ـ سواء كان قريباً له أو لا ـ ما كسبه في حياته وتركه لغيره، واختلاف المجتمعات في هذه الظاهرة شدّةً وضعفاً، لا يضرّ أن يكون الإرث من أقدم العهود والسنن الإجتماعيّة.

ومن الطبيعي أنّ هذا الأمر الاجتماعي كان في بداية ظهوره بسيطاً كسائر الأُمور الاجتماعيّة، فإنّ الحياة كانت بسيطة وغير معقّدة، ولم يتكوّن المجتمع إلّا من أفراد قليلين، ولم يكن المال الذي يرثه سوى بعض الأشياء البسيطة، ولكنّه تطوّر وتحوّل تدريجيّاً وإن لم تصل إلينا كيفيّة ذلك.

تطوّر الإرث وتقسيمه:

بعدما عرفت أنّ الإرث والتوارث هو أمر طبيعي، وقد كان بسيطاً ثمّ تطوّر، وكان في ابتداء أمره مبنيّاً على القرابة والولاء، فإنّ لكلّ فرد أبوين وأولاداً وزوجة وقرابة وصديقاً ورحماً، وهذه الأفراد تتفاوت في القُرب والبُعد والأولويّة، ومن هؤلاء تتشكّل العشيرة والقبيلة ونحو ذلك، فكانت قسمة الإرث تتفاوت في المجتمعات تبعاً لاختلاف الآراء في الأولويّة والأقربيّة، ففي المجتمع الجاهلي ـ مثلاً ـ كانوا يحرمون كثيراً من الورثة عن التركة، لأنّهم كانوا يعتبرون القوّة في الوارث، فبعضهم كانوا يعتبرون القوي هو رئيس القبيلة، والآخر يعتبره الأب، وثالث يعتبره أشجع القوم، وظلّ هذا الأمر الاجتماعي مختلفاً فيه ويتحوّل من حال إلى حال آخر.

ولكن الأمر المتّفق عليه أنّهم كانوا يحرمون الصغار والنساء والضعفاء من الإرث. وبلغ هذا الأمر الاجتماعي أوج كماله في الشريعة الإسلاميّة، لأنّها تبتني على الفطرة والحكمة، بخلاف غيرها، فإنّها لا تنبع عن الفطرة، بل تتبع العواطف والنزوات والإحساسات حتّى عند الأُمم الراقية، التي سنّت القوانين في

حياتها مثل اليونان والرومان، ولذا كان يطرأ عليها التغيّر والتبدّل، بخلاف ما شرّعه الإسلام في الإرث، فإنّ المسلمين قبلوا هذا الحكم بمجرّد نزوله على صاحب الشرع، وأسرعوا إلى العمل به، وظلّوا على ذلك منذ أربعة عشر قرناً.

مقارنة الإرث في الأُمم المتمدّنة:

أمّا اليونان: فكانوا يحرمون النساء مطلقاً ـ الزوجة والبنت والأُخت ـ من الإرث، كما كانوا يحرمون صغار الأولاد، ولكنّهم كانوا يحتالون في توريث من حرموه من الميراث بالوصيّة إليهم.

وأمّا الرومان: فإنّهم كانوا يقسّمون الإرث على القرابة التي يبتني عليها البيت عندهم وما يريده أب البيت، فإنّهم كانوا يعتبرون أنّ للبيت شخصيّة قانونيّة واستقلالاً مدنيّاً عن المجتمع العام، وكانت تشكيلة البيت من ربّ البيت والزوجة والأولاد والعبيد، وكان ربّ البيت هو المعبود لأهله، وهو يعبد ربّ البيت السابق من أسلافه، كماأنّه المالك وغيره لا يملك والقيّم عليهم، والأولاد إن بقوا في البيت بعد تأسيسهم لبيت جديد، فإنّه تابع لربّ البيت، وإلّا فهو ربّ للبيت الجديد بعدما كان من أفراد البيت القديم، وأمّا إذا مات فإنّه يرثه أحد أبنائه أو إخوانه، ولا ترث النساء مطلقاً ـ الأُمّ والبنت والأُخت والزوجة ـ بحكم القانون الذي يسنّه أب البيت، فالنساء ذوات قرابة طبيعيّة دون القرابة الرسميّة، التي بموجبها يرث أفراد البيت. ولعلّ السبب في ذلك أنّهم كانوا يحرمونهنّ من الإرث لئلّا ينتقل مال الميّت إلى بيت آخر بالزواج، فإنّ المال عندهم ملك للبيت الذي اكتسبه، ولا يجوّزون انتقال الثروة من بيت إلى آخر.

وأمّا سائر الأُمم كالهند والصين وغيرهما: فإنّهم كانوا يحرمون النساء وضعفاء الأولاد، ويقتربون في ذلك إلى اليونانيّين والرومانيّين.

وأمّا الفرس: فإنّهم كانوا يحرمون بعض النساء في بعض الحالات، مثلما كانوا يحرمون البنات المزوّجات والزوجات غير الكبيرات، وأمّا الزوجة الكبيرة والبنت غير المزوّجة فإنّهما ترثان، وربّ البيت قد يحبّ بعض النساء حبّاً بجعلها مقام الأولاد، فترثه كما يرث الابن والدعي، لأنّهم كانوا يجوّزون الإرث للبنين، وأمّا البنت فاذا لم تتزوّج فهي ترث نصف الابن، وأمّا إذا تزوّجت فلا ترث شيئاً، لئلا تنتقل الثروة إلى خارج البيت.

وأمّا في العصر الجاهلي المعاصر لنزول القرآن: فإنّهم كانوا يورثون الأولاد تبعاً للرشد والقوّة، فحرموا النساء وصغار الأولاد، فإن لم يكن في الأولاد رشيد قويّ فيرث المال العصبة.

الإرث في الإسلام:

بعدما عرفت حال هذه السنّة الاجتماعيّة قبل الإسلام وعصر نزول القرآن، وقد اتّفقوا على منع النساء والضعفاء ومَن لا حول له ولا قوّة من الإرث، والجميع أسّسوا هذه القواعد والأحكام على أساس العصبيّة والعواطف التي لاتهدي إلى السعادة والحقيقة.

أمّا الإسلام فقد سنَّ حكمه على الفطرة والحكمة والتعقّل، وشرّع قانون الإرث على أساس محكم متين، وهو النسب والسبب والولاء، واعتبر أنّ القرابة تقوم على أساس الرحم الذي هو أمّ تكويني، وألغى كثيراً من الأُمور التي كانت متّبعة عند المجتمعات قبل الإسلام؛ منها التبنّي والادّعاء والقوّة والنفوذ والشجاعة والرشد ونحو ذلك من الأوهام الخاطئة، التي بها حرم كثير من الورثة، بل يمكن أن نقول إنّ الإرث مطلقاً كان يبتني على إرادة ربّ البيت وما تمليه العادات والتقاليد دون الحكمة والتعقّل. وقد عرفت أنّ الإسلام يبني الإرث على أصلين جوهريّين؛

هما أصل القرابة والرحم، الذي هو الرابط بين الفرد وأقربائه، وفي هـذا الأصـل لايختلف الذكور والإناث والكبار والصغار، بل حتّى الجنين في بطن اُمّه، فإنّهم جميعاً يشتركون في الرحم والقرابة، لكن الأفراد تختلف في القرب والبعد، ولذلك سنّ قانون الأقربية وأنّ الأقرب يمنع الأبعد. وعلى ذلك بُـنيت طـبقات الإرث المتتاليّة، وهي ثلاث: طبقة الآباء والأبناء، وطـبقة الأجـداد والإخـوة، وطـبقة الأعمام والأخوال، على ما هو المعروف، ولا ترث الطبقة اللاحقة عند وجود فرد من الطبقة السابقة، وفي كلّ طبقة يجري قانون أنّ الأقرب يـمنع الأبـعد. وكـان أساس ذلك أمر تكويني وحكم ربّاني مبني على الحكمة المـتعاليّة والمـصلحة العامّة.

كما له أصل آخر قويم، وهو: اختلاف الذكر والأُنثى فـي الإرث، وأُسّس القانون العظيم، وهو: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾، وذلك لاختلاف الطبائع في كـلّ واحد منهما، الموجب لاختلاف منزلتهما الاجتماعيّة، وإن كان الجميع سواء في الشخصيّة الإنسانيّة بلا اختلاف بينهما فـي هـذه الجـهة، وبـذلك أبـطل جـميع التشريعات الوضعيّة التي اُسّست على العاطفة والإحسـاس، فكـانوا يـحرمون النساء لأنّهم كانوا لا يرون لهنّ منزلة في المجتمع الإنساني، ولكن الإسـلام ردّ المرأة إلى منزلتها الطبيعيّة، وأرجع لها الحقوق التي أُغتصبت برهة من الزمن.

وأمّا ما تدّعيه المدنية المعاصرة من تساوي الحقوق بين المرأة والرجـل، فهذه ليست إلّا بدعة أرادوا بها إذلال المرأة، وجعلها لعبة يستفيد منها المغرضون في الميل عن الحقّ، وإثبات أغراضهم الفاسدة، وإعمال نواياهم السيِّئة، فأي حقّ لها كان ضائعاً في الإسلام حتّى يردّوه إليها.

وكيف كان، فالإسلام بنى الإرث على هذين الأصلين، وقسّمه على الكيفيّة المعهودة كما عرفت سابقاً. وجاء ردّ الإسلام واضحاً في قول الله تعالىٰ: ﴿آبَاؤُكُمْ

وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾، فإنّهم قصدوا المنافع الدنيويّة من الإرث وفي تقسيمه، ولكنّهم جهلوا خصوصيّاته فضلّوا وأضلّوا.

ومن ذلك تعرف الفرق الجوهري بين النظامين الإسلامي والوضعي، فإنّه يفترق عن غيره في المنهج والقاعدة والغرض كما عرفت ممّا سبق.

ومن نافلة القول أنّ بعض مَن يدّعي الفضل، يرى أنّ قانون الإرث في الإسلام مأخوذ من الإرث الروماني، وكأنّه غفل عن التباين الكلّي بينهما، وأنّه جهل أساس كلّ من القانونين، ونحن في غنىً عن التفصيل بعدما أتّضح لك الحال.

الإرث في الأُمم المعاصرة:

يختلف الإرث في الأُمم المعاصرة المتمدِّنة عن قانون الإرث في الإسلام في الأصل والمنهج، ولكنّها تتّفق معه في توريث المرأة، لاعتمادهم على تساوي الحقوق بين الرجل والمرأة، ويدّعون أنّهم خالفوا بذلك جميع المجتمعات التي حرمت النساء من حقوقهنّ، ولكن بعد التأمّل في ما ذكرناه ترى أنّ فضل ذلك يرجع إلى الإسلام، عندما اعتبر المرأة جزءاً من الاجتماع، وأنّ لها حقوقاً كما للرجال.

ولقد ثارت في الجاهليّة المعاصرة منذ القرن السادس عشر قضيّة المرأة وشغلت بال النساء والرجال على حدٍّ سواء برهة من الزمن، وكانت في بداية الأمر لا تتعدّى عن بعض الأُمور، ولكنّها اتّسعت وتعدّت حتّىٰ وصلت إلى المساواة المطلقة في كلّ شيء، بل نادى بعضهم بالحرية للمرأة في أن تهب نفسها لمَن تشاء. وشتّان بين الجاهليّة التي جعلت المرأة كالمتاع، وحكّمت العواطف والإحساسات على التعقّل والحكمة، وبين ما أُثيرت في عصر نزول القرآن من المسلمات المؤمنات اللّواتي أردن المساواة بينهن وبين الرجال في الحقوق

ودرجة الشهادة، والتساوي في الميراث، فجاء الخطاب السماوي الذي يفصل بين الواقع والخيال، ورداً على التمنّيات التي توجب الفوضى والفساد، قال تعالىٰ: **﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾**[١]، فإنّ الله خلق كلّ واحد من الجنسين لمهمّة معيّنة تقوم بها الحياة وينتظم النظام الأحسن، وجعل لكلّ جنس حكمه المختصّ به، التي تتطلّبه وظيفته الفطريّة، وفي غيرها يشترك الجنسان في جميع الأحكام والحقوق، وقد أُسّست في الفقه الإسلامي قاعدة معروفة يعتمد عليها الفقهاء وهي: «اشتراك الرجال والنساء في جميع الأحكام إلّا ما خرج بالدليل»، كما عرفت في أحد مباحثنا السابقة. وتطبيقاً لتلك المشاعر العاطفيّة والنعرات الجاهليّة، فقد وضعت القوانين الحديثة أحكاماً تشرك النساء مع الرجال في جميع المجالات، منها تساوي الرجال والنساء في سهم الإرث، فالآباء والأُمّهات والبنات والبنون سواء فيه.

وقد سنَّ القانون الوضعي في فرنسافي الإرث أُموراً، منها أنّه رتّب الطبقات على أربع:

الأُولى: البنون والبنات.

الثانية: الآباء والأُمّهات والإخوة والأخوات.

الثالثة: الأجداد والجدّات.

الرابعة: الأعمام والعمّات والأخوال والخالات.

ولم يجعل القانون موضعاً للزوجيّة في هذه الطبقات، لأنّ الجاعلين اعتبروا علاقة الزوجيّة من مجرّد المحبّة القلبيّة، ولكنّهم جعلوا الزوجة تحت قيمومة الزوج، فلا يحقّ لها أن تتصرّف في الأموال التي ترثها من أقاربها إلّا بإذن زوجها.

---

١. سورة النساء: الآية ٣٢.

إلّا أنّ القوانين التي وضعت بعد ذلك أخرجت المرأة عن قيموميّة الرجل وساوت بينهما في الملك والتصرّف.

وبعد الإحاطة بما ذكرناه آنفاً تعرف الفرق الكبير بين قانون الإسلام والقوانين الوضعيّة التي تباين الإسلام من جهات كثيرة، فإنّ الشريعة التي وضعت على الحكمة والمصلحة العامّة، وأعرضت عن الإحساس والعواطف الوقتيّة، لجديرة بالعمل بها والإعراض عن غيرها.

***

الآية ١٥ ـ ١٦

﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴿١٦﴾﴾.

بعدما ذكر سبحانه وتعالىٰ بعض أحكام اليتامى وأحكام المواريث، وبيّن شريعة الحقّ فيها، ففي هاتين الآيتين يبيِّن عزّوجلّ حكماً اجتماعيّاً يتعلّق بالاجتماع والأفراد معاً. وهو النهي عن الفحشاء، والتغليظ علىٰ مَن يأتي الفاحشة، ويرتكب هذه المعصية الموبقة وإخلاء المجتمع منها، لأنّها توجب زوال الحياء والعفّة وتستلزم إفساد النسل والشقاء، ويبيِّن سبحانه وتعالى لزوم إجراء الحدّ الشرعي على مرتكبها.

ويجمع هذه الآيات المباركة أنّها تشتمل على الأحكام الشرعيّة الإلهيّة التي نزلت لتكميل الإنسان وجلب السعادة له في الدارين، وهذا هو وجه الارتباط بين هاتين وما سبقتهما من الآيات الكريمة، ولا موجب لالتماس وجوه بعيدة عن السياق للتوفيق بينها.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾.

اللاتي: إحدى صيغ جموع (التي) السماعيّة وهو اسم مبهم للمؤنّث، ولا يتمّ إلّا بصلته ولا ينزع الألف واللام منه، ولذا أدخل بعض الشعراء حرف النداء عليه كاسم الجلالة، قال:

لأجلك يا التي تيمت قلبي وأنت بخلية بالوّد عنّي

ويأتي في البحث الأدبي تتمّة الكلام.

و(يأتين) من الإتيان وهو المجيء، يكنّى به عن الفعل، كما جاءت الكناية عن الفعل بالقرب في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾[1]، وإنّما عبّر به عنه عزّوجلّ لمزيد التهجين، ولبيان أنّ الفعل صدر عنهم مع القصد والاختيار.

والفاحشة: اسم لكلّ فعل قبيح، بل لكلّ ما اشتدّ قبحه من المعاصي، وهي مصدر كالعافية والعاقبة، وقيل: اسم وضع موضع المصدر.

وهي إمّا تصدر من الذكرين وتسمّى باللواط والتفخيذ، أو تصدر من الانثيين وتسمّى مساحقةً، أو بين الذكر والأُنثى وتسمّى بالزنا، وقد استعملت في القرآن الكريم في جميع تلك الموارد، ففي الزنا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[2]، وفي اللواط والسحقّ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[3].

ثمّ إنّ المحتملات في المراد من الفاحشة في الآيتين ثلاثة:

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٥١.

٢. سورة الإسراء: الآية ٣٢.

٣. سورة العنكبوت: الآية ٢٨.

الاحتمال الأوّل: أن يكون المراد منها الزنا، وهذا هو المعروف بين المفسِّرين والفقهاء، واستدلّوا على ذلك بأُمور:

منها: أنّ الزنا هو المعهود من إطلاق لفظ الفاحشة.

ومنها: مناسبة المقام تقتضي أن يكون المراد منها الزنا.

ومنها: ظهور الآية المباركة في أنّ الحكم فيها مؤقّت، وأنّه منسوخ بالحدّ المفروض في سورة النور، حيث قال تعالىٰ في المقام: ﴿**أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً**﴾، والسبيل ما ورد في سورة النور: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾[1].

ومنها: الروايات المتعدّدة التي تدلّ على أنّ المراد منها الزنا، فقد روى كبار المحدِّثين من الجمهور عن عبادة بن الصامت في حديث: «أنّ رسول الله ﷺ أُوحي إليه، ولمّا سرى عنه الوحي، فقال ﷺ: خذوا عنّي، قد جعل الله لهنّ سبيلاً: الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة، والبكر جلد مائة ثمّ نفي سنة»، ومثله غيره.

وفي «الكافي»، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث: «أنّ سورة النور نزلت بعد سورة النساء، قال الله تعالىٰ: ﴿**واللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً**﴾، فالسبيل الذي قال الله تعالىٰ هو: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾.

وفي «تفسير العيّاشي» عن جابر، عن الباقر عليه السلام: «جعل السبيل الرجم أو الجلد».

وغير ذلك من الروايات.

---

١. سورة النور: الآية ٢.

وأصحاب هذا القول اختلفوا في تعيين المراد من الآيتين:

فقيل: إنّ الأُولى في زنا المحصّنات لتخصيص النساء بالذكر دون الرجال، وشيوع إطلاق النساء على ذوات الأزواج، لاسيما إذا أُضيفت إلى الرجال، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**مِنْ نِسَائِكُمْ**﴾، والآية الثانية متعرِّضة لحكم الزنا من غير إحصان، فيكون الحكم المذكور في الآية الأُولى مؤجّلاً إلى أن يجعل الله لهنّ سبيلاً، فإنّ المراد من السبيل الحكم الإلهي المبيَّن بالوحي أو السنّة المقدّسة، ولا يسمّى هذا نسخاً. والمراد من قوله تعالىٰ: ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ**﴾، ترغيب الأولياء إلى النهي عن المنكر وردعهنّ عن الفاحشة وتربيتهن تربية صالحة، حتّى يأتي حكم آخر، وحينئذٍ فإن تابت فلا حدّ، وإلّا فيجري عليها الحدّ.

والمراد من الإيذاء مطلق ما يوجب الأذية، من الضرب والحبس والتعيير بالقول والإهانة ونحو ذلك. وعلى هذا تكون الآية منسوخة ببيان الحدّ في سورة النور وهو الجلد.

وقيل: إنّ الأُولى تتعرّض لبيان حكم الزنا في الثيب، والثانية لبيان حكم الأبكار، وحينئذ يكون المراد بالإيذاء الحبس ثمّ تخلية السبيل مع التوبة والإصلاح.

وقيل: إنّ الآية الأُولى متعرّضة لحكم الزانيات، والثانية متعرّضة لحكم الزاني من الرجال، وجميع الأحكام الواردة فيهما منسوخة بآية النور.

وقيل: إنّ المراد من الآيتين شيء واحد، وهو بيان عقوبة الزنا، وهي الإيذاء ثمّ نسخ بالحبس، ثمّ نسخ بالجلد والرجم، واستقرّ الحكم على ذلك.

وقيل: غير ذلك.

وبالجملة: أنّ الآية الأُولى تتعرّض لحكم النساء الزانيات مطلقاً على نحو الإجمال، وأمّا التفصيل فهو مذكور في آية سورة النور والسنّة المقدّسة، سواء كنّ

محصنات أم غير محصنات، ثيبات أم أبكاراً. وأمّا الآية الثانية فهي تتعرّض لحكم مَن يصدر عنه الفاحشة كما ستعرف. ولكن لا وجه للنسخ من الآية، بل هي مفصّلة ومشروحة بعضها في هذه السورة والبعض الآخر ـ وهو حكم غير المحصنات ـ في سورة النور.

الاحتمال الثاني: أن يكون المراد من الفاحشة في الآية الأُولى خصوص المساحقة، وفي الآية الثانية اللواط، وقد نسب هذا القول إلى أبي مسلم من الجمهور وبعض المفسِّرين، وأيّده الأردبيلي في «زبدة البيان»، فيكون حكم المساحقات الحبس والإمساك في البيوت، والمنع من مخالطة النساء مع المرأة التي اعتادة هذه الجريمة والفاحشة، حتّى تتوب أو يتوفاهنّ الموت.

وأمّا اللواط فحكمه معلوم من السنّة، وهو القتل. فيكون ما ورد في السنّة تفسيراً للأذية الواردة في الآية الثانية، فالآيتان غير منسوختين.

ولا دليل على تعيين هذا الاحتمال أصلاً إلّا ما يقال: من أنّه لو لم يكن المراد منها ذلك لم يذكر في الكتاب حكمهما، وهو تبيان كلّ شيء.

وفيه: أنّه كذلك بلا ريب ولا إشكال، لكن مع شرحه في السنّة المقدّسة، وقد ورد حكمهما فيها مفصّلاً، وتقدّم سابقاً أنّ القرآن الكريم يتكفّل أُصول الأحكام وجذورها، وأمّا الشروط والقيود بل الفروع، تتكفّلها السنّة.

أو ما يقال: من أنّ لفظ «اللّاتي» يدلّ على المساحقة، إذ ليس بينهنّ فاحشة غيرها.

وفيه: أنّ الآية الأُولى الواردة فيها «اللّاتي» باعتبار غلبة أفراد النساء الزانيات ولا مانع منهنّ من ارتكاب المساحقة وغيرها، وسيأتي في البحث الدلالي ما يرتبط بالمقام.

الاحتمال الثالث: أن يكون المراد من الفاحشة في الآية الأُولى المعنى الأعمّ

من الزنا والمساحقة، وهو احتمال حسن أخذاً بالعموم الوضعي للفظ الفاحشة، فيكون الحكم المذكور في الآية الشريفة مجملاً تبيّنه الآيات التي وردت في الحدود وما ورد في السنّة الشريفة. وأمّا الآية الثانية فيجري فيها ما يجري في الآية الأُولى أيضاً ـ كما عرفت ـ إلّا أنّ المراد بالفاحشة فيها إمّا اللواط أو التفخيذ أو الزنا، والأُولى هو التعميم أيضاً كما تقدّم، فيكون الحكم فيها مجملاً تبيّنه السنّة المقدّسة، وما ورد في سورة النور.

واحتمال اختصاصها بخصوص اللواط، يبعده ظاهر الآية الشريفة، فإنّ مجرّد الإيذاء لا يناسب تلك المعصية العظيمة التي ورد فيها التغليظ الشديد. فقد خسف الله تعالىٰ قوم لوط لأجلها.

وكيف كان فالآيتان غير منسوختين.

ثمّ إنّ المراد من قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ هو النساء المؤمنات تشريفاً لهنّ.

وقيل: إنّ المراد النساء ذوات الأزواج، لشيوع هذه الاستعمال، قال تعالىٰ: **﴿مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾**[1]، وقال تعالىٰ: **﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾**[2]، ومن هنا قال بعض المفسّرين باختصاص هذه الآية بالمحصنات ذوات الأزواج.

وفيه: أنّ اللّفظ مطلق يشمل ذوات الازواج وغيرهن، واختصاصه بالأُولى لبعض القرائن لا يوجب تقييد بقيّة الموارد، وقد ورد في القرآن الكريم استعماله في العموم، قال تعالىٰ: **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾**[3].

---

١. سورة النساء: الآية ٢٣.

٢. سورة النساء: الآية ٤.

٣. سورة آل عمران: الآية ١٤.

وقال تعالىٰ: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾[1].

وغير ذلك ممّا ورد في القرآن الكريم والسنّة المقدّسة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾.

أي: أقيموا أربعة من الشهداء الرجال عليهن بإتيانهن الفاحشة. وتخصيص الفاحشة بإقامة أربعة شهداء ذكور إنّما هو للتغليظ على المدّعي، والستر على العباد، وعدم شيوع الفحشاء.

ولا يختصّ الزنا بإقامة أربعة شهود، بل يشترك معه اللّواط والسحق أيضاً، فلا يستفاد من هذا الحكم اختصاص الفاحشة بالزنا في الآية كما عن بعض. كما لا يستفاد من الآية المباركة وجوب تحمّل الشهادة ولزوم المراقبة لهنّ، فإنّ ذلك أمر آخر لا ربط له بالآية المباركة، فتشمل الآية الشريفة الشهادة الاتّفاقية أيضاً.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾.

أي: وإن شهد الرجال الأربعة، وثبت الأمر عند الحاكم الشرعي بإتيانهنّ الفاحشة، فاحبسوهنّ في البيوت حائلين بينهنّ وبين الفاحشة.

والظاهر أنّ هذا الحكم أدبي اجتماعي تربوي، حيث تجعل المرأة التي اقترفت هذه الجزيمة تحت المراقبة، وللابتعاد عن مظانّ الجريمة، والمواظبة على تهذيبهنّ وتربيتهنّ تربية صالحة.

وعلى هذا، لا ينافي خروجهنّ من البيوت إذا تحقّق المناط وهو المراقبة، ويستفاد ذلك من لفظ الإمساك أيضاً، حيث لم يعبّر عزّوجلّ بالحبس والسجن ونحوهما.

---

١. سورة النساء: الآية ٣.

قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾.

أي: حتّى يستوفيهنّ الموت بانتهاء أجلهنّ، وقد تقدم في قوله تعالىٰ: ﴿يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾[1]، الكلام في مادّة (و ف ي).

قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾.

أي: أو يشرّع لهنّ حكماً غير الحبس فيه المخرج لهنّ، ويستفاد من ذلك أنّ الحكم السابق مؤقّت حتى يأتي الحكم الجديد، والسبيل هو الجلد أو الرجم، كما ورد في القرآن الكريم والسنّة الشريفة.

وقد راعى القرآن الكريم في مَن أقترف الفاحشة من النساء، السماحة التسهيل، فقد جعل الإمساك في البيوت عقاباً مؤقّتاً يسائر الضمير، ولوحظ فيه تربية مَن اقترف الفاحشة وتهذيبه بالاصلاح وترك الفاحشة، والحيلولة بين المقترف وبينها، ثمّ ينتقل إلى حكم آخر روعي فيه قمع مادّة الفساد، فكان كلا الحكمين جارياً على حكمة متعاليّة وفق المصلحة العامّة، فإنّ الحكم الأوّل بُني على الفطرة، وهي بعث العفّة بين النساء التي طمست في الجاهليّة، وأمّا الحكم الثاني فقد بُني على المحافظة لناموس العفّة وزوال مادّة الفساد، وهذه قرينة أُخرىٰ على عدم اختصاص الفاحشة بالزنا أو السحق، كما عرفت.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ﴾.

اللّذان تثنية (الذي)، والتثنية إمّا باعتبار الزانية والزاني تغليباً، كما عليه المشهور؛ أو الرجلين في اللواط كما عليه جمع، أو الرجلين في الفاحشة مطلقاً اللوط والتفخيذ وسائر الفواحش بينهما.

---

١. سورة آل عمران: الآية ٥٥.

والضمير في «يأتيانها» يرجع إلى الفاحشة، وقد ذكرنا أنّ الفاحشة وإن كانت مطلقة في الآيتين، لكنها تختلف في الآية الأُولى عن الآية الثانية، فراجع. والضمير في «منكم» يرجع إلى المسلمين لكونهم أهلاً لإلقاء الخطاب وتلقّي الأحكام الإلهيّة.

وهذه الآية المباركة تتعرّض لحكم الرجال في الفاحشة، أمّا الآية الأُولى فهي تتعرّض لحكم النساء كما عرفت آنفاً.

وقيل: إنّ هذه الآية تتعرّض لحكم زنا الأبكار، وأنّ المراد بالأذيّة هي مطلق الحبس، ثمّ تخلية السبيل مع التوبة.

وفيه: أنّه لم يقم دليل عليه.

قوله تعالىٰ: ﴿**فَآذُوهُمَا**﴾.

بالقول أو الفعل بما هو المتعاد للردع عن الفاحشة، سواء كان بالحبس أم الضرب أم الإهانة أم بالتوبيخ والتعيير ونحو ذلك، والحكم وإن كان مطلقاً أوّل الأمر، إلّا أنّه ورد تفسيره في السنّة الشريفة بالحدّ المعيّن لفاحشة الرجال، وهو القتل في اللواط والجلد في التفخيذ، ولوحظ في هذا الحكم ابتداءً جانب التربية، وروعي فيه التسهيل والسماحة وإثارة العفّة والحياء والترغيب إليهما، ثمّ ورد تفسيره بذلك قمعاً لمادّة الفساد على سبيل التدريج.

قوله تعالىٰ: ﴿**فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا**﴾.

هذه قرينة على أنّ الحكم كان مبنيّاً على السماحة والتسهيل، فإنّه إذا تابا حقيقة، وأصلحا أعمالهما بالرجوع عن الفاحشة. وعطف الإصلاح على التوبة لبيان تحقّق حقيقتها دون مجرّد اللفظ لو بقي في حالة معيّنة.

قوله تعالىٰ: ﴿**فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا**﴾.
أي: اصفحوا عنهما وكفّوا عن إيذائهما بعد تحقّق التوبة.

قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً**﴾.
أي: أنّ التوبة والرحمة ثابتتان منه تعالىٰ لعباده أزلاً وأبداً.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

اللآتي إحدى صيغ جموع (التي) كما عرفت، وهي «اللات» بحذف الياء وإبقاء الكسرة، و«اللائي» بالهمز وإثبات الياء، و«اللاء» بكسر الهمز وحذف الياء، و«اللا» بحذف الهمزة، وأمّا جمع الجمع (فاللاتي) تجمع على «اللواتي» و«اللاء» على «اللوائي»، وقيل (اللوات) بحذف الياء وإبقاء الكسرة، و(اللوا) بإسقاط التاء.

وتصغير «التي» اللتيا بالفتح والتشديد، قال الراجز:

بعد اللُّتيا واللَّتيا والتي إذا علتها نفس تردت

واللتيا والتي اسمان للداهية. يقال: وقع في اللّتيا والتي.

واللّذان تثنية الذي ـ كما تقدّم ـ والقياس أن يكون اللذيان كرحيان ومصطفيان، ولكن قيل: إنّه حذفت الياء تخفيفاً، وقيل: إنّه للفرق بين الأسماء المبهمة والأسماء المتمكّنة، لأنّ نون التثنية قد تنحذف فيها مع الإضافة، نحو رحياك ومصطفيا القوم، فلو حذفت الياء لاشتبه المفرد بالاثنين. هذا بخلاف اللذان، فإنّ النون لا تنحذف فيه.

وقرئ بتخفيف النون وبالتشديد، وهي قراءة قريش.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيتان الشريفتان على أُمور:

الأوّل: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ**

الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ أطراف الفاحشة التي نهى عنها الله تعالىٰ في مواضع متفرّقة من القرآن الكريم، وشدّد النكير عليها، وجعل على مَن ارتكبها حدّاً ردعاً معيّناً عن اقترافها مرّة أُخرىٰ، واصلاحاً للمجتمع.

والمذكور في هذه الآية المباركة من المقوّمات والأطراف، هي الطرفان المرتكبان، والفاحشة، وثبوتها بأربعة شهداء، والحدّ. و قد أجمل سبحانه وتعالىٰ سائر الخصوصيّات في هاتين الآيتين، لأنّهما في مقام قبح هذه الجهة (الفاحشة) وإعلام الناس بها، وبعث الضمير الإنساني على التجنّب عنها، وهذه الآية الشريفة من أجمع الآيات الواردة في هذا الموضوع، وحملها على إطلاقها ـ بحيث تشمل جيمع أقسام الفاحشة ـ أولى من إختصاصها ببعض الأقسام من غير دليل.

وقيل: إنّ الموصول في الآية الأُولى «واللاتي» يدلّ على اختصاص الفاحشة بالتي ترتكبها النساء وهي المساحقة، والموصول في الآية الثانية «اللذان» يدلّ على اختصاصها بالتي يرتكبها الرجال وهي اللواط والتفخيذ، فلا إطلاق لها.

ويرد عليه: أنّ ذلك صحيح إذا لم يكن احتمال آخر يساويه ويمنعه عن الظهور، فإنّ اسم الموصول في الآية الاولى قد يراد به الطرف الأُنثوي في الفاحشة، أي الأفراد منهنّ، والموصول في الآية الثانية يراد به الطرف المقابل لها وهو الرجل، فتختصّ الفاحشة بالزنا كما ذكره جمع من الفقهاء، وخصّه عزّوجلّ بالذكر لشيوع هذه الجريمة في المجتمع، وهي ذات طرفين ذكر وأُنثى، فالآية الأُولى تتعرّض للثاني، والآية الثانية تتعرّض للأُولى، وإنّما قدّم عزّوجلّ الأُنثى على الذكر في هاتين الآيتين، لقوام هذه الجريمة بالمرأة، نظير قوله تعالىٰ: **﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾**[1].

---

١. سورة النور: الآية ٢.

ويحتمل أيضاً ان يكون إتيان اسم الموصول جمعا للمؤنّث في الأُولى لبيان مطلق الفاحشة الصادرة من النساء سرّاً وجهراً، حتّى إنهنّ كنّ ذوات الأعلام في الجاهليّة كما هو معروف، وإتيان التثنية مذكّراً في الثانية باعتبار الفواحش الصادرة من الرجال وشناعتها، بحيث فرض وجودها كالعدم، ولم يعرف ذو علم بالنسبة إلى رجل، فلا تختصّ الإتيان بفرد خاص من الفاحشة، كما عرفت في التفسير فراجع.

الثاني: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ**﴾ على أنّ المراد منه منع الخروج عن البيوت، والحيلولة بينهنّ وبين الفاحشة.

وبعبارة أُخرىٰ: إبقاؤهنّ في البيوت لغرض تربيتهنّ تربية صالحة. ولعلّ ذلك هو السرّ في العدول عن التعبير بالسجن والحبس. ويشهد على أنّ المراد من الإمساك منع الخروج، قوله تعالىٰ: ﴿**لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ**﴾[١]، وإن كان الإمساك في الموردين يختلفان في الغاية.

وكيف كان، فلا ينافي ذلك كونه حدّاً لهنّ في المقام، لما يقتضيه بعض النصوص. وكيف كان؛ فالآية الشريفة تتضمّن سماحة الإسلام وسهولته كما لا يخفى.

الثالث: ذكر بعض المفسّرين أنّ قوله تعالىٰ: ﴿**حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ**﴾ يشير إلى عادة جاهليّة، وحمل قوله تعالىٰ: ﴿**أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً**﴾ على جعل الحكم الالهي والحدّ الشرعي الفاحشة، وهو ما ورد في سورة النور والسنّة المقدّسة، فيزول الحكم الإلهي لا محالة بعد التشريع.

ويمكن أن يُراد من قوله تعالىٰ: ﴿**حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ**﴾ المعنى الكنائي،

---

١. سورة الطلاق: الآية ١.

وهو إظهار النفرة عنها، يعني أنّ المرتكبة لهذه الفاحشة لا يختلط ولا يعاشر معها حتّى يأتيها الموت لقبيح فعلها، ولابدّ أن يقيّد ذلك بما قبل التوبة وإظهار الندامة، وصدور العمل الصالح عنها، فيزول الموضوع لا محالة، كما تدلّ عليه الآية الثانية.

الرابع: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ**﴾ على أنّ الفعل صدر عنهنّ بالإختيار من دون جبر وإكراه، فيكون للمكرهة حكم آخر.

الخامس: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً**﴾ على أنّ الحكم مغييً بجعل حكم جديد، فليس ذلك من النسخ المصطلح ـ كما عرفت في التفسير ـ لأنّه يشترط في المنسوخ ظهوره في التأبيد.

السادس: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿**فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا**﴾، على أنّ التوبة والإصلاح مسقطان للحدّ، على ما فصّل في الفقه.

***

بحث روائي:

في «تفسير العيّاشي»، عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام قال: «سألته عن هذه الآية: ﴿**وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً**﴾، قال عليه السلام: هذه منسوخة، قلت: كيف كانت؟ قال عليه السلام: كانت المرأة إذا فجرت فقام عليها أربعة شهود أُدخلت بيتاً ولم تحدّث، ولم تكلّم، ولم تجالس، وأُوتيت بطعامها وشرابها حتّى تموت، قال: ﴿**أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً**﴾، فقال عليه السلام: جعل السبيل الجلد والرجم والإمساك في البيوت».

وفي «تفسير النعماني»، عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن أميرالمؤمنين عليه السلام في حديث ذكر فيه أحكام هذه الآية ـ إلى أن قال ـ «فلمّا قوي الإسلام أنزل الله: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾، فنسخت هذه الآية الحبس

والأذى ـ الحديث».

وفي «تفسير القمّي»، في قوله تعالىٰ: **﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾**، كان في الجاهليّة إذا زنى الرجل يوذي والمرأة تحبس في بيت إلى أن تموت، ثم نسخ ذلك بقوله تعالىٰ: **﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾**.

وفي «المجمع»: «وحكم هذه الآية منسوخة عند جمهور المفسِّرين، وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام».

أقول: ليس المراد بالنسخ هنا النسخ المعروف بين الفقهاء الذي يبحث عنه في علم الأُصول وعلم الكلام، وهو: «رفع حكم شرعي ثابت بحكم شرعي آخر»، بل المراد بالنسخ هنا إبطال الحكم الجاهلي بتشريع إلهي جديد، ولعلّ المراد من قول بعض المفسِّرين بالنسخ هذا المعنى، فلا نزاع، ويدلّ على ما ذكرناه ما تقدّم من الحديث.

***

بحث عرفاني:

ذكرنا في أحد مباحثنا السابقة أنّ للقرآن الكريم بطوناً ترتقي إلى سبعة بطون كما في بعض الروايات، أو إلى سبعين بطناً كما في بعضها الآخر، ولابدّ أن يكون كذلك، لأنّه كلام مَن لا تناهي لعلمه وحكمته وتدبيره، وقد حكي عن بعض الفلاسفة الأقدمين أنّه كان يلقي على أصحابه كلمات الحكمة وهم يستفيدون من كلّ واحدة منها وجوهاً من الحكمة، كلّها صدق وصواب.

وما يرتبط بالآيات التي تقدّم تفسيرها أنّه ورد في بعض الروايات تفسير الفاحشة بحبّ الدُّنيا، كما ورد تفسير السفه في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ**

أَمْوَالَكُمْ﴾ بحب الدُّنيا أيضاً، والجميع حقّ وصواب؛ لقول سيِّد الأنبياء ﷺ: «حبّ دنيا رأس كلّ خطيئة»، وقول سيِّد الأولياء والعرفاء عليّ عليه السلام: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»، فإذا اجتمعا معاً كانا من أفحش الفواحش في إيجاب المفسدة المهلكة، وإلى ذلك أشار عزّوجلّ في سورة العصر: **﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾**، وهذه السورة على صغرها تعيّن مبدأ الإنسان ومنتهاه الاختياريّين، كما أنّ قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾**[1] يعيّن مبدأه ومنتهاه غير الاختياريّين، مع أنّنا إذا لاحظنا معنى قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾** بالملاحظة التفضيليّة في المعتقدات والأفعال والحركات والسكنات، يكون داخلاً في قوله تعالىٰ: **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾**.

وكيف كان، فإنّ أكبر الفواحش حبّ الدُّنيا، الذي يجتمع مع الأهوية النفسانيّة، وحينئذٍ يكون الحدّ لهذه الفاحشة هو إماتة النفس وتزيين النفس بالأخلاق الحميدة، وتزكيتها بالتقوى، ليحصل القرب إلى الله تعالىٰ والبُعد عن الدُّنيا وما فيها، فإنّ ذلك هو الكمال المطلق.

***

---

١. سورة البقرة: الآية ١٥٦.

الآية ١٧ ـ ١٨

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿١٨﴾﴾.

لما ختم سبحانه وتعالىٰ الآيات السابقة بالتوبة، وبيّن أنّ بها تسقط العقوبة والحدّ الشرعي، ذكر عزّوجلّ في هاتين الآيتين الشريفتين حقيقة من الحقائق الإلهيّة التي امتاز بها الإسلام عن سائر الأديان السماويّة، فبيّن عزّوجلّ حكم التوبة وأنّها حقّ من حقوق العبد على خالقه ومربّيه، وقد وصف نفسه بالرحمة وذكر شروط التوبة ومواردها التي تقبل من الإنسان، والموارد التي لا تقبل.

كما بيّن عزّوجلّ أنّ التوبة إنّما تكون وفق النظام الربوبي المتقن المبني على الحكمة والعلم.

والآية من الآيات المتعدّدة التي ترغّب العاصين إلى هذه الموهبة الربّانيّة وتحرّضهم إلى التوبة قبل فوات الأوان. وإنّما ذكر عزّوجلّ هذه الحقيقة ضمن الأحكام الإلهيّة، لما لها من الأهمّية الكبرى في تربية الإنسان وهدايته إلى السعادة والكمال، ولا تخلو الآيتان من الارتباط بالآيات الأُخرىٰ.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾.

بيان لحقيقة من الحقائق الالهيّة التي كشف عنها القرآن الكريم بما لم يكشف عنها كتاب سماوي آخر، فإنّه بيّن حقيقة التوبة وشروطها ومواردها وآدابها وآثارها. ويمكن اعتبارها بحقّ من التعاليم المختصّة بهذا الكتاب العزيز، وأنّها لم تكن بهذه الخصوصيّة في سائر الشرائع الالهيّة، وقد أهتمّ القرآن المجيد بها اهتماماً بليغاً حتّى ورد ذكرها فيه بما يزيد علىٰ ثمانين مورداً، وسمِّيت سورة من سور القرآن المجيد باسم التوبة.

والتوبة في نظر الإسلام من الأُمور المعدودة التي لها جوانب متعدّدة، فهي عمليّة تربويّة تربّي الإنسان تربية دينيّة مبنيّة على الحقيقة دون الوهم والخيال، كما أنّها عمليّة إصلاحيّة تصلح النفوس الفاسدة وتهذّبها وتزكّيها وتصلح المجتمع وتجعله في المسار الصحيح، كما أنّها فضيلة أخلاقيّة، وهي من أجلّ مكارم الأخلاق. ونحن ذكرنا ما يتعلّق بها في قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**[1]، فراجع الآية الكريمة.

ومادّة (توب) تدلّ على الرجوع، سواء استعملت بالنسبة إليه عزّوجلّ أم استعملت بالنسبة إلى العبد، قال تعالىٰ: **﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾**[2]، وتوبة الله تعالىٰ على العبد هي الرجوع عليه بالرحمة والتوفيق وغفران الذنوب، وتوبة العبد هي الرجوع إلى الله تعالىٰ بالندامة والانصراف عن المعصية.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٥٩ ـ ١٦٠.

٢. سورة التوبة: الآية ١١٨.

والمستفاد من الآيات الواردة في هذه الموضوع أنّ توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالىٰ:

إحداهما: التوفيق لها، لأنّ العبد محتاج بذاته وهو الفقير إليه عزّوجلّ، قال تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾**[1]، فإذا وفّقه الله تعالىٰ للتوبة، تاب ورجع إليه عزّوجلّ بالندامة والانصراف عن المعصية.

الثانية: توبة الله تعالىٰ عليه بالقبول والغفران، فتكون مطهّرة للعبد ممّا أصاب نفسه بسبب المعصية من القذارات والنجاسات المعنويّة، فيحصل بها التقرّب إليه عزّوجلّ.

و(على) في قوله تعالىٰ: **﴿عَلَى اللهِ﴾** تفيد اللزوم والثبوت، وهو يرادف الوجوب، وإنّما وجبت التوبة لأنّها من أفراد رحمته التي أوجبها على نفسه، قال تعالىٰ: **﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾**[2]، واستعمال (على) في الوجوب واللزوم كثير ولا ضير في ذلك.

إلّا ما يقال: من أنّ استعمال الوجوب بالنسبة إليه عزّوجلّ أمر مستنكر، بل لا يصلح لأنّه لا سلطة على الله تعالىٰ يوجب بها عليه، ولذا ذكر بعض المفسّرين أنّ هذه العبارة وأمثالها التي هي ظاهرة في وجوب بعض الأشياء على الله قد جاءت على طريق العرب في التخاطب، ولا يفهم منه إلّا أنّه واقع لا محالة.

ولا يخفى أنّ ذلك تطويل لا طائل تحته، وما ذكره إنّما هو تغيير في ظاهر اللفظ، فلا مانع من إيجاب الله تعالىٰ على نفسه أُموراً تقتضيه حكمته المتعاليّة، وقد نطق بها القرآن الكريم، وشهد بها العقل السليم، من دون أن يكون لغيره سلطة عليه يوجب عليه شيئاً أو يكلّفه بتكليف، فإذا كانت التوبة من مصاديق الرحمة الإلهيّة

---

١. سورة فاطر: الآية ١٥.

٢. سورة الأنعام: الآية ٥٤.

التي وعد بها عباده، والله لا يخلف الميعاد، فيجب عليه قبول توبة عباده من هذه الجهة أيضاً.

ثمّ إنّ إطلاق الآية الشريفة يشمل جميع أقسام التوبة من الكفر والشرك والضلال وأنحاء الفسق والعصيان، إلّا ما يستثنيه سبحانه وتعالىٰ بعد ذلك.

نعم، تختلف أنحاء التوبة؛ ففي بعض المعاصي تكون بالإيمان بالله تعالىٰ، وفي البعض الآخر تكون بأداء الحقوق، وفي ثالث بإيقاع الحدّ، وفي رابع باجتناب الكبائر، وفي خامس بالطاعة والمواظبة على الصلاة، وقد ذكرنا جميع ذلك في مبحث التوبة فراجع آية ١٦٠ من سورة البقرة.

قوله تعالىٰ: ﴿**لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**﴾.

(للذين) خبر، و(التوبة) مبتدأ، و(على الله) متعلّق بما تعلّق به الخبر، وقيل غير ذلك، و(بجهالة) حال من فاعل (يعملون) والباء للسببيّة، و(السوء) هو العمل القبيح الذي يسوء فاعله بارتكابه، وهو لا يليق به سواءً كان كفراً أم معصية كبيرة أم صغيرة، و(الذين) عام يشمل المؤمن والكافر معاً، فالجملة تبيّن حالهما، لأنّهما معاً يعملان السوء. و(العمل) أعمّ من الجوارح أو عمل القلوب. والتعبير به ــ مع أنّ الكفر من أعمال القلوب ــ لبيان أنّ الكفر سيّئة ومنشأ للأعمال السيّئة.

والجهالة من الجهل مقابل العلم، والمراد بها إمّا عدم العلم بالموضوع أو الحكم أو هما معاً، قصوراً أو تقصيراً، وفي الكلّ لا يتحقّق العصيان حتّى يتحقّق موضوع التوبة، لأنّ مقتضى ما هو المتواتر بين المسلمين عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «رفع عن أُمّتي ما لا يعلمون»، عموم الحكم لجميع أفراد عدم العلم. إلّا أن يدعى الانصراف عن مورد التقصير، كما عن جمع من العلماء من تحقّق العصيان في الجهل التقصيري، وهو مقتضى ظاهر بعض الأخبار أيضاً، فلا تكون الجهالة في

المقام بهذا المعنى بلا إشكال.

أو المراد بالجهالة في المقام، فعل كلّ ما لا ينبغي صدوره عن العاقل المتوجّه إلى نفسه والعارف ـ ببصيرته ـ ما فيه صلاحه عن ما يسوؤه، كما في قوله تعالىٰ حكاية عن يوسف عليه السلام: **﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾**[١]، فما يصدر حينئذٍ عن الفرد إنّما يكون من داع نفساني غالب على ما تقتضيه القوّة العاقلة، فيكون مغلوباً لنفس أمّارة وداعية شهويّة أو غضبيّة، وغواية الشيطان الذي يمني الإنسان بالسوء وحبّ العاجل والتغاضي عن الجزاء، فإنّ جميع ذلك توجب الغفلة والوقوع في الجهالة، فيغفل عن وجه قبح الفعل وذمّه، مع كون الفاعل إنّما يفعل عن علم وإرادة، وعلى هذا تكون الجهالة قيداً توضيحيّاً لكلّ معصية تصدر عن الهوى، وغلبة الشهوة والغضب، فتكون صادرة عن الجهالة، ولذا لو سكنت ثائرة الغضب، وخمد لهيب الشهوة، ورأى جزاء عمله عاد إلى العلم وزالت الجهالة وندم على فعله، وممّا ذكرنا يظهر السرّ في قوله صلى الله عليه وآله: «كفى بالندم توبة».

هذا إذا لم يكن صدور الذنب عن المكابرة للحقّ وعناد معه، وإلّا فإنّ ذلك يرجع إلى خبث الذات ورداءة الفطرة، ومعهما لا يرجع إلى الحقّ بالتوبة ويستمرّ على ذلك طول حياته، إلّا إذا لحقه العناية الربّانية فيرجع عن عناده ولجاجته وتلحقه الندامة، وفي غير هذه الحالة لا يكون المعاند نادماً، وإن أظهر الندامة فإنّما يكون لحيلة يحتالها لنفسها فراراً عن الجزاء ونحوه، ويدلّ عليه رجوعه إلى غيّه ولجاجته لو ارتفعت الضرورة، كما قال تعالىٰ: **﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾**[٢].

---

١. سورة يوسف: الآية ٨٩.

٢. سورة الأنعام: الآية ٢٨.

وممّا ذكرناه يظهر أنّ القيد يمكن أن يكون احترازياً أيضاً، فيكون المراد به أن لا يكون الذنب عن عناد ولجاجة واستعلاء على الله تعالىٰ، ويشهد لذلك عدم تقييد عمل السيّئات بالجهالة في الآية التالية، فإنّ المنساق منها هو التعمّد والتجبّر على الله تعالىٰ، كما يشهد له قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ**﴾، فالحالة التي تكون بين الموت وعمل السيّئة على أقسام:

الأوّل: أن يكون مبادراً إلى التوبة بعد عمل المعصية، فهذا تقبل التوبة منه.

الثاني: أن يكون بانياً على الطغيان والعصيان إلى أن يحضر بعض علامات الموت فيتوب حينئذٍ، والمنساق من الآيات الشريفة عدم قبول التوبة حينئذٍ، قال تعالىٰ: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**﴾[1]، لأنّ التوبة إنّما تقبل في ظرف اختيار العبد وتمشّي القصد الجدّي منه، وهو لا يتحقّق في وقت ظهور علامات الموت وورود الإنسان في الإشراف على أوّل منازل الآخرة وهو البرزخ، إذ لا اختيار له.

الثالث: ما إذا كان بانياً على التوبة بحسب الفطرة، ولكن تساهل فيها لغلبة الشهوات الدنيويّة، حتّى إذا حضر بعض علامات الموت التي لا تسلب الاختيار ويتحقّق منه القصد الجدّي في الطاعة والمعصية ويترتّب عليهما الآثار الشرعيّة والعرفيّة فتاب عن قصد، فحينئذٍ تقبل التوبة إن كانت جامعة للشرائط، كما تقبل وصيّته، قال تعالىٰ: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾[2]، والروايات الدالّة على قبول

---

١. سورة غافر: الآية ٨٤ ـ ٨٥.

٢. سورة البقرة: الآية ١٨٠.

التوبة حتّى إذا بلغت النفس الحلقوم تختصّ بهذه الصورة، فتقبل التوبة لتحقّق موضوعها.

وبالجملة: بعد إرجاع بعض الآيات إلى بعض، يستفاد منها أنّ عدم قبول التوبة إمّا لأجل تحقّق الموضوع، كما في صورة العناد واللجاج، أو لأجل عدم تحقّق ظرفها وهو الاختيار والقصد للطاعة والمعصية، ونرجو منه جلّت عظمته أن يدخل عباده في قوله عزّ شأنه في القدسيات: «أغفر ولا أُبالي».

وقد ظهر من جميع ذلك أنّ الاحتمال الأوّل وهو كون القيد احترازياً، وإن كان أوفق للقواعد، فإنّ المعروف أنّ الأصل في القيود أن يكون احترازياً إلّا أنّ كونه توضيحيّاً أوفق لسعة رحمته.

قوله تعالىٰ: **﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾**.

القريب من الأُمور الإضافيّة وله مراتب كثيرة، وقد استفاد العلماء من هذا اللفظ الفوريّة العرفيّة في التوبة، وهي في نفسها حسن، لأنّ العصيان حجاب بين العبد والمعبود ودرن للروح، والعقل يحكم بإزالة الدرن والنجاسة عن اللِّباس والبدن فضلاً عن الروح، وهذا لا ينافي أن تكون الجملة إشارة إلى المسارعة وعدم التساهل، فيكون المراد من القريب الزمان القريب قبل ظهور الموت وبروز آيات الآخرة، بحيث لا يعدّ تساهلاً في أمر التوبة، حتّى تفوت الفرصة بحضور علامات الموت.

وبالجملة: المراد من قوله تعالىٰ: **﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾** التوبة في عهد قريب من قبل أن تموت الشهوات وتسقط دواعي المعصية، بل تكون في حال صراع النفس مع القوّة العاقلة، فترغم النفس الأمّارة ويقلع عن المعصية ندماً، ويرغب في الطاعة شوقاً إلى رضا الله تعالىٰ وطلباً لعفوه وغفرانه، ويؤدّي حقوق الناس وحقوق الله

سبحانه وتعالىٰ لو كانتا عليه، ففي كلّ وقت صحّ إبراز ما في الضمير والإرادة الجدّية من القلب تقبل التوبة، كما عرفت آنفاً.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾.

أُولئك اسم الإشارة الموضوع للبعيد، وهو مبتدأ وخبره جملة: «يتوب الله عليهم»، وعدِّيت التوبة بـ(عليهم) لتضمّنها معنى العطف والرحمة، أي أنّه تعالىٰ يعطف عليهم بقبول التوبة ويعود بالرحمة.

وإنّما أشار إليهم بالبعيد إعلاماً بعلوّ قدرهم وتعظيم شأنّهم، لأنّهم تابوا على حقيقة التوبة، والتفريع بالفاء المفيدة لسببيّة ما قبلها لما بعدها، ولبيان أنّ قبول التوبة من مصاديق ذلك الوعد الذي قرّره تعالىٰ في صدر الآية المباركة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

أي: أنّ الله تعالىٰ عالم بحقيقة الحال، فيعلم شؤون عباده ومصالحهم، ويعلم المخلص في توبته، حكيم في أفعاله، قد وضع التوبة وفق نظام محكم، فلا تغرّه ظواهر الأحوال وصريف الأقوال.

وإنّما ذكر هذين الاسمين لبيان أهمّية الموضوع، وأنّه تابع لعلمه الأتمّ وحكمته المتعاليّة، يضع التوبة في مواضعها، وهو أرحم الراحمين.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾.

بيان لحال مَن لا تقبل توبتهم، وهم طائفتان:

إحداهما: لأجل عدم تحقّق موضوع التوبة منهم، وهم الذين يعملون السيّئات دوماً ولا يتحقّق منهم الندم، حتّى إذا حضرهم الموت، وانتفى أسباب العمل، فلا داعي فيهم لعمل السيّئات، لانقطاع آمالهم وموت شهواتهم، فلا تقبل توبتهم.

وإنّما ترك عزّوجلّ إعادة اسم الجلالة (على الله) لبيان انقطاع العناية الإلهيّة عنهم، وللإعلام بأنّ التوبة الصحيحة لا تقع منهم، لنفي موضوعها كما عرفت آنفاً.

وإنّما جمع عزّوجلّ السيّئات وأفردها في الآية السابقة وقال: ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾، للدلالة على إحصاء سيّئاتهم الكثيرة العديدة، واستمرارهم على فعلها وإصرارهم على التكرار، بلا فرق بين أن تكون السيّئة المكرّرة من أنواع مختلفة أو من نوع واحد، فإنّ التكرار يوجب التعدّد لا محالة.

قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾.

أي: حتّى إذا حضر الموت برؤية علاماته لاهية قلوبهم، والجملة تدلّ على استهانتهم بالتوبة واستحقارهم لموجبات الرحمة والمغفرة، فهم يدّعون التوبة حال العجز ولم تتحقّق حقيقتها عندهم، ولم ترغب نفوسهم عن الذنب، فإذا زال عنهم المهلكة، عادوا إلى الذنب ورجعوا إلى المخالفة والعصيان، كما يخبر عن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾[1].

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾.

أي: أنّه في حال العجز واليأس يردّد على لسانه التوبة في تلك الحال فقط، من دون أن يكون ذلك من حاق نفسه.

والآية تدلّ على تحقّق التوبة اللّسانية مرّة واحدة بلا استمرار عليها، بخلاف الآية السابقة التي دلّت على الاستمرار المستفاد من هيئة المضارع في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾، وهذه تؤكّد ما ذكرناه آنفاً من أنّ التوبة منه ليست على الحقيقة، فإنّه التجأ إليها عند مشاهدة سلطان الآخرة، وانقطاع أمله عن

---

١. سورة الأنعام: الآية ٢٨.

الدُّنيا بحضور الموت، ولذا ذكر عزّوجلّ: ﴿**قَالَ إِنِّي**﴾، ولم يقل: (تاب) ونحو ذلك، تحاشياً عن تسمية ما قاله توبةً، ونظير ذلك قوله تعالىٰ حكاية عن المـجرمين: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ**﴾[1].

قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ**﴾.

بيان لحال الطائفة الثانية، وهم الذين يصدر عـنهم الذنب عـناداً ولجـاجاً واستكباراً على الله تعالىٰ، فلا توبة لهؤلاء، كما لا توبة لأُولئك، لأنّـهم تمادوا في الكفر فماتوا وهم كافرون، فلم تصدر عنهم السيّئات بجهالة، بل عن عناد ولجاج، فإذا مات الإنسان على هذه الحالة لا تنفعه التوبة ولا نجاة له بعد الموت، وقد أكّد القرآن الكريم ذلك في مواضع متعدّدة، قال تـعالىٰ: ﴿**إِلَّا الَّـذِينَ تَـابُوا وَأَصْـلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُـفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِـيهَا لَا يُـخَفَّفُ عَـنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ**﴾[2].

قوله تعالىٰ: ﴿**أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**﴾.

أي: أُولئك الفريقان قد أعتدنا لهم وهيّأنا لهم عذابـاً أليـماً مـؤلماً، جـزاءً لأعمالهم السيِّئة التي قدّموها في دار الأعمال. وقد ذكرهم باسم الإشارة للدلالة على بعدهم عن ساحة القرب والعناية والربانية.

***

١. سورة السجدة: الآية ١٢.

٢. سورة البقرة: الآية ١٥٩ ـ ١٦٢.

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: يستفاد من الحصر الوارد في قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾** أنّ التوبة من الأُمور المختصّة به عزّوجلّ، ومن مظاهر ربوبيّته العظمى، ومن مصاديق رحمته الواسعة التي وسعت كلّ شيء، وهو ردّ على كلّ مَن يدّعي أنّ هذا الأمر يمكن أن يتصدّيه بعض الأفراد، إمّا وليّ من أولياء الله تعالى، أو الكنيسة كما في الديانة المسيحيّة التي اعترفت لها غفران الذنوب، حتّى بلغ من إفراط الكنيسة أنّها كانت تبيع صكوك الغفران بعدما كانت التوبة في هذه الديانة من الأُمور غير النافعة للإنسان، لأنّ المسيح عليه السلام فدّى بنفسه لأجل خلاص الإنسان، على ما هو المعروف عندهم.

فالآية الشريفة ردّ على جميع المزاعم، فإنّها صريحة في أنّ التوبة من شؤون الباري عزّوجلّ، وأنّها محصورة عليه تبارك وتعالىٰ، لا شأن لأحد غيره فيها.

الثاني: تدلّ الآية الشريفة على فضل التوبة، وأنّها من مظاهر رحمته عزّوجلّ وفضله العظيم، وقد مَنَّ بها على عباده، ومن المعلوم أنّه لا شيء يوجب رحمته عليه، ولكن لا ينافي ذلك وجوب هذا القسم من الفضل عليه بإيجاب من نفسه على نفسه، لا من إيجاب غيره عليه، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في مبحث التوبة في سورة البقرة آية ١٦٢.

وأمّا ما ذكره بعض المفسّرين من أنّ الله تعالىٰ غير مجبور في قبول التوبة،

لأنّ له الأمر والمُلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، واستدلّ على ذلك بقوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِم ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾**[١]، وقوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنْ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾**[٢].

فإنّه يردّ عليه: أنّ الله تعالىٰ قد وعد عباده بقبول التوبة ـ كما اعترف به هذا المستدلّ ـ وكلّ وعد منه عزّوجلّ واجب الوفاء عليه، كما قال في كتابة العزيز: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾**[٣]، والآيات الشريفة التي استدلّ بها تدلّ على عدم قبول توبة المتمادي في الكفر، وهذا ما استثناه عزّوجلّ من القبول في المقام أيضاً كما عرفت.

وكيف كان، فالآية الشريفة من الآيات التي تعتني بشأن العاصين، وتأمرهم بالتوبة من الشرك والضلال والسيّئات والمعاصي كلّها.

وللتوبة آثار عظيمة، فإنّها من سُبل الصلاح والتقوى، وتجلب السعادة وتزيل درن الشقاء والرذيلة من القلب الذي هو محل الصلاح والفساد معاً. وتصفّي النفوس التي انكدرت بالعصيان، وتزيل الغشاوة عن القلوب، وترفع الموانع عن طريق سير الإنسان نحو السعادة والكمال، وتخلّص الناس من بوار الذنب وهلاك المعصية، وهي الوسيلة للفلاح، قال تعالىٰ: **﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[٤].

ومن آثار التوبة أيضاً أنّها تجعل قلب المذنب متعلّقاً بالرحمة الإلهيّة،

---

١. سورة آل عمران: الآية ٩٠.

٢. سورة النساء: الآية ١٣٧.

٣. سورة آل عمران: الآية ٩.

٤. سورة النور: الآية ٣١.

وتبعث روح الرجاء بعد انخماد نور النفس بظلمة الذنب، وتمحو الآثار السيّئة التي تترتّب على الحياة بسبب العصيان وعمل السيّئات. والآية المباركة تعدّ البشارة العظمى للمذنبين.

ثمّ إنّ للتوبة مظاهر مختلفة كالندم، والاستغفار، والانقلاع عن المعصية، وإتيان الطاعة، والتلبّس بالعمل الصالح، وأداء الحقوق، وغير ذلك ممّا ذكره علماء الأخلاق، وتقدّم في مبحث التوبة، وهي تبدّل السيّئات بالحسنات.

الثالث: يستفاد من الآية الشريفة أنّ التوبة أمر اختياري، فإنّها رجوع إلى الله تعالىٰ بعد البُعد عنه بسبب فعل السيّئة وإتيان المعصية، بالدخول في سلك الطاعة والعبوديّة بعد الإعراض عنه عزّوجلّ، وذلك لا يتحقّق إلّا في ظرف الاختيار، وكون العبد مخيّراً بين طريقي الصلاح والسعادة، والطلاح والشقاوة، وفي غير ذلك فلا توبة له، لما يدلّ عليه ذيل الآية الشريفة.

الرابع: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**بِجَهَالَةٍ**﴾ أنّ كلّ ذنب يصدر عن جهالة، قابل للعفو والغفران من الله تعالىٰ، وبهذا القيد يخرج كلّ ذنب يصدر عن لجاج وعناد مع الحقّ واستكباراً على الله تعالىٰ، وقد عرفت في التفسير أنّ الجهالة في المقام ـ وفي باب الأعمال على العموم ـ هي الغفلة عن وجه قبح الفعل وفساده، لغلبة الشهوة واستيلاء الهوى، ولكن ذلك لا يسلب نسبة الفعل إلى الفاعل، لأنّه صدر عنه عن علم وإرادة، كما يسمّى الشاب قليل التجربة جاهلاً، لأجل غلبة العواطف والنزوات الشهوانيّة عليه.

الخامس: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ**﴾ أنّ المؤمن إذا صدر عنه الذنب، ينبغي أن يبادر إلى التوبة بعده، ولا يسوّف في ذلك، فهو في صراع مع النفس الأمّارة، وتوبة مستمرّة يرجو رحمة ربّه، وهذا ينبئ عن حسن السريرة وشدّة الأمل بالله تعالىٰ، ولعلّ ما ورد في بعض الروايات: «طوبى لمن كان له تحت

كلّ سيّئة توبة»، إشارة إلى ذلك، ويستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾، أولويّة التوبة من الذنب من ترك الذنب رأساً، فإنّ الله تعالىٰ مدح التائبين من الذنب وأدخلهم تحت رحمته وقرّبهم إليه. وقال بعض العلماء: إنّ ترك الذنب مطلقاً أحسن وأولى من إرتكابه ثمّ التوبة عنه، لأنّ الله تعالىٰ مدح هؤلاء بما لم يرد في غيرهم، وهم المختصّون لمقام العبودية التشريفيّة.

ولكن، يمكن إختيار الأوّل لكثرة ما ورد من الترغيب إلى التوبة كتاباً وسنّة، وقد ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «التائب من الذنب كمَن لا ذنب له»، فيصير التائب من الذنب مساوياً له من هذه الجهة، أي عدم الذنب، ويكون تذلّله ممّا في نفسه عند ربّه لتصوّره لما صدر منه من المعصية موجباً لترجيح هذا المقام بنفسه عند الله تبارك وتعالىٰ.

نعم، مَنْ عصمه الله من الزلل كالأنبياء والائمّة الهداة عليهم السلام والأولياء، لهم مقام خاص وهبه الله تعالىٰ لهم.

وفي حديث آخر: «لو لا أنّكم تذنبون الله ثمّ تستغفرونه لذهب بكم، ثمّ يأتي بأقوام يذنبونه ثمّ يستغفرونه»، وهذا هو المطابق لما هو المتسالم بين أذواق المتألّهين من أنّ كلّ اسم من أسماء الله المقدّسة لابدّ له من مظهر خارجي، ومن أسمائه جلّت عظمته التوّاب والغفور، ولا مظهر لذلك إلّا بعد الذنب والتوبة.

مع أنّ حالة الندامة والاستحياء من الله تعالىٰ من حالات العبد وأحسنها، ولا تتحقّق تلك الحالة إلّا بذلك.

السادس: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ على وعد منه عزّوجلّ للمذنبين بقبول توبتهم، وهو لا يخلف الميعاد. كما أنّه يدلّ على أنّ التوبة الصحيحة الجامعة للشرائط تمحو الذنوب وتزيلها.

السابع: يمكن أن يكون المراد من قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ

﴿الْمَوْتُ﴾ موت الأمزجة والقوى، فمَن كانت معاصيه من سنخ أعمال الشهوة الجنسيّة، ووصل إلى سنّ الأربعين مثلاً، وترك تلك المعاصي لأجل عوارض عرضت عليه، فلا توبة له حينئذٍ، وكذلك سائر القوى، لأنّه لا توبة بعد انتفاء القدرة على ارتكاب المعاصي، وهذا الاحتمال وإن كان مخالفاً لما استفدناه من الآيات المباركة، ولكنّه احتمال حسن يوجب المسارعة إلى التوبة والاستعداد لها في حال القدرة.

الثامن: إطلاق الآية الشريفة: **﴿فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾**، يشمل التوبة من الشرك وجميع المعاصي، ويشمل أيضاً المؤمن والكافر إذا تاب عن كفره، فيكون إسلامه توبة لما صدر عنه في حال كفره، لقوله ﷺ: «الإسلام يجبّ ما قبله»، وأمّا توبته عن معصية فيها حقّ الله في حال كفره، مع بقائه على الكفر فيشكل قبولها.

نعم، إذا كان الذنب من حقوق الناس كالسرقة وايذاء الناس ونحوهما، فأرضى الناس، سقط هذا الذنب منه لزوال موضوعه، ويمكن أن يستفاد ذلك من مفهوم قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾**، أنّ توبة الكافرين في حال حياتهم مقبولة، إلّا أن يستظهر ذلك بخصوص إسلامهم.

التاسع: يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾**، أنّ التوبة من الله تعالىٰ تشمل العاصين من المؤمنين إذا استغفر لهم الأحياء ولو بعد مماتهم، بخلاف الكافر المعاند الذي مات على الكفر، بلا فرق بين أقسامه.

***

بحث روائي:

في «الكافي»، عن جميل بن دارج، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إذا بلغت النفس هاهنا ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ لم يكن للعالم توبة، ثمّ قرأ: **﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾**».

أقول: أراد عليه السلام بالعالم هو اللجوج المستكبر على الله تعالىٰ، وإطلاق الآية الشريفة لا ينافي ما ذكرناه سابقاً، ويمكن أن يجمع بذلك بين ما ورد من عدم قبول التوبة حين ظهور علامات الموت، وما ورد من قبولها حينها، بحمل الأوّل على العالم العامد المستكبر على الله تعالىٰ كفرعون ونحوه، والثاني على غيره.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن أبي عمرو الزبيري، عن الصادق عليه السلام، قال: «كلّ ذنب عمله العبد وإن كان عالماً به فهو جاهل حين خاطر لنفسه في معصية ربّه، وقد قال في ذلك تبارك وتعالىٰ يحكي عن قول يوسف لإخوته: ﴿**هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ**﴾[1]، فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله عزّوجلّ».

أقول: يشهد ذلك على ما قلناه في معنى الجهالة.

وفي «تفسير العيّاشي» أيضاً، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إذا بلغت النفس هذه ـ وأهوى بيده إلى حنجرته ـ لم يكن للعالم توبة، وكانت للجاهل توبة».

أقول: يشهد ذلك على ما جمعنا بين الروايات آنفاً.

وفي «الكافي»، عن محمّد بن مسلم، عن جعفر عليه السلام، قال: «يا محمّد بن مسلم، ذنوب المؤمن إذا تاب عنها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله أنّها ليست إلّا لأهل الإيمان، قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار في الذنوب وعاد في التوبة؟ فقال: يا محمّد بن مسلم، أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه فيستغفر الله منه ويتوب ثمّ لا يقبل الله توبته؟! قلت: فإن فعل ذلك مراراً، يذنب ثمّ يتوب ويستغفر؟ فقال: كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة، عاد الله تعالىٰ عليه بالمغفرة، وأنّ الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن

---

١. سورة يوسف: الآية ٨٩.

السيِّئات، فإياك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله».

أقول: ورد في بعض الروايات إلى سبعين مرّة، ويشهد لذلك تحذير الإمام عليه السلام الراوي في ذيل الرواية، ويستفاد ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[1]، إذ المراد بالجميع الكثرة العدديّة. ثمّ إنّه قد ذكرنا الروايات الواردة في التوبة في مبحث التوبة، فراجع سورة البقرة الآية ١٦٠.

***

بحث عرفاني:

التذلّل لدى المعبود الحقيقي الجامع الجميع الكمالات غير المتناهيّة، والاعتراف بالقصور والتقصير عنده، محبوبان لديه عزّوجلّ. والعبوديّة التي هي غاية مقامات العارفين وأولياء الله المخلصين، متقوّمة بهما، فإنّه لا ريب في تحقّق الإرتباط بين الممكن والواجب، كالارتباط بين المعلول مع العلّة التامّة، والمخلوق مع الخالق، والأثر مع المؤثّر، بلا فرق في ذلك بين المجرّدات والمادّيات، والأملاك والأفلاك، فإنّ جميعها متعلّقة بالإرادة الأزليّة حدوثاً وبقاءً، وبزوالها ينعدم جميع ما سوى الله تعالىٰ، ولا يبقى إلّا وجهه الواحد القهّار، ولكن الإنسان يرتبط مع الله جل جلاله بارتباطين:

الأوّل: الارتباط العام القهري، الذي يعمّ جميع الخلق وما سواه تعالىٰ.

الثاني: الارتباط الاختياري، أي الطاعة والإمتثال والانقياد، وهذا هو الأصل والأساس في علاقة الإنسان مع الله عزّوجلّ، فإذا زال يبقى الارتباط الأوّل، وهو يعمّ الجميع ـ الحيوان والجماد ـ على حدٍّ سواء.

---

١. سورة الزمر: الآية ٥٣.

والإنسانيّة إنّما تظهر في الارتباط الثاني، ولا يزول إلّا بالطغيان والعصيان، وحينئذٍ لابدّ من التوبة والرجوع إلى الله تعالىٰ ليعود الارتباط إلى ما كان عليه وتستكمل به الإنسانيّة، وتزول الشقاوة وتحلّ محلّها السعادة الأبديّة، إذ القرب من ينبوع الحكمة والعلم والكمال المطلق، يوجب بلوغ الإنسانيّة إلى الكمال، ويتمّ به العقل والدِّين، كما أنّ البُعد عنه يوجب زوال ذلك كلّه، فللتوبة الحقيقيّة دخل في استكمال الإنسانيّة والدِّين والعقل، ويكفي في فضلها أنّ فيها يتجلّى المعبود الأعظم للتائبين بقوله عزّوجلّ: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1]، فالعبد يعترف بما هو مَن زيّ العبودية، والمعبود يظهر بما هو من شأن الربوبية الواقعيّة، ولذا ترى أنّ أحبّ حالات المتعبِّدين إلى الله تعالىٰ هي حالة الاعتراف بالتقصير، كما هو واضح في الدعوات المأثورة عن الأئمّة الأطهار سلام الله تعالىٰ عليهم، لا سيما الصحيفة الملكوتيّة السجاديّة على صاحبها ومنشئها أفضل الصلاة والسلام، وليس الاعتراف بالتقصير مع عدم صدور ذلك عنهم كذباً، لأنّهم يعلمون أنّ تلك الحالة محبوبة لله عزّوجلّ وتقرّبهم إليه تعالىٰ، ويعترفون بذلك في جملة من دعواتهم الشريفة، وهذا كاشف عن اشتياقهم إلى هذا المقام من العبوديّة.

ثمّ إن ظاهر الآية الشريفة: ﴿**وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ**﴾، إنّما هو في الموت الطبيعي الذي هو مسير كلّ ذي حياة، وأمّا الموت الاختياري الذي هو غاية آمال العارفين، وقرّة عين أهل التقوى واليقين، فهو فوق التوبة بمراتب كثيرة، إذا وفّق له وليّ من أولياء الله تعالىٰ بشرطه وشروطه.

***

١. سورة البقرة: الآية ١٦٠.

الآية ١٩ ـ ٢١

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴿٢١﴾﴾.

الآيات الشريفة تشمل على أحكام اجتماعيّة تهمّ المجتمع الإسلامي، وقد تضمّنت تشريعات إلٰهيّة للحياة الزوجيّة، وقد أمر عزّوجلّ الزوج بالمعاشرة بالمعروف مع الزوجة، ونبذ الإحساسات والعواطف التي تهدّد حياتهما و تجلب الشقاء لهما، كما نهت الزوجة عن الخيانة والفحشاء، فالعمل بهذه الأحكام الإلهيّة تجلب السعادة ويهدي إلى الكمال، وهذه هي وجه الارتباط بين الآيات في هذه السورة.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً﴾.**

خطاب إلى المؤمنين الذين آمنوا بالله ودانوا بشريعة الحقّ، وأعرضوا عن العادات الجاهليّة والتقاليد الباطلة، فصاروا بذلك مستحقّين للخطاب الإلهي، كما

تشرّفوا به منه تعالىٰ.

والآية الشريفة تشير إلى عادة جاهليّة، وهي أنّهم كانوا يجرون على النساء حكم المتاع والعروض، بل يستفاد منها أنّها كانت في زعمهم بمنزلة الحيوانات العجم التي لا إرادة لها ولا اختيار، كالابل والغنم، وذلك من إضافة الوراثة إلى النساء، إلّا أنّ وراثة النساء عندهم كانت وراثة خاصّة، لم تكن في عرض وراثة سائر الأموال.

والمعروف أنّهم كانوا يرثون النساء مع التركة إذا لم تكن المرأة أُمّاً للوارث، فكان أحد الورّاث يُلقي ثوباً على زوجة الميّت فيرثها ويتسلّط عليها، فإن شاء عضلها عن النكاح وحبسها حتّى الموت، فيرث أموالها، وإن شاء يزوّجها فينتفع من مهرها. والآية المباركة تنهي عن تلك العادات التي لم ينزل بها سلطان، وتضمّنت قوانين فطريّة عقليّة قرّرها الوحي المبين، وهي أُمور اجتماعيّة يسعد بها الاجتماع والحياة الزوجيّة:

منها: النهي عن إرث النساء كرهاً، وهذا الحكم فطري يقرّره كلّ عقل سليم. وكرهاً بالفتح كما هو المعروف وقرئ بالضم. والكره بالضم والفتح بمعنى عدم الرضا، إمّا من الغير أو من قبل نفسه، وقيل: بالفتح الكراهيّة، وبالضم الإكراه، وقيل غير ذلك، وهو مصدر في موضع الحال إمّا نائب عن المفعول المطلق المستفاد من «ترثوا»، أو أنّه منصوب على أنّه حال من النساء. وهذا الحكم يتصوّر فيه وجوه:

الأوّل: أن يستوهب منها المال الذي يصل من المورث بالإكراه، بأن تحرم من تركتها فيستقلّ الوارث بتمام التركة دونها.

الثاني: أن يؤخذ نفس النساء كسائر الأموال وهن مكرهات على ذلك، أو أنّهن يكرهن ذلك.

الثالث: أن يستكرهها أحد الورّاث على أن تهب تركتها أو نفسها له دون

سائر الورثة، وغير ذلك من الحيل الإكراهيّة.

وعلى أي حال، يكون القيد (كرهاً) لبيان الواقع الذي كان في الجـاهليّة، فتكون الآية في مقام الردع عن تلك العادة السيّئة، وحينئذ لا معنى للنزاع في أنّ هذا القيد هو قيد توضيحي أم احترازي، ويستفاد من إضافة الوراثـة إلى النسـاء أنهنّ بمنزلة المال، فيشمل نفسهن والمال الذي عندهنّ.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ**﴾.

حكم فطري آخر عطف على قوله تعالىٰ: ﴿**لاَ تَرِثُوا**﴾. ومادّة (عضل) تدلّ على التضييق، وإليه يرجع الحبس والشدّة. يقال: اعضل الأمر، أي اشتدّ، وعضلت المرأة بولدها عسر عليها. وعضل المرأة يعضلها ـ مثلثة الضاد ـ منعها الزوج ظلماً، وقد وردت هذه المادّة في موضعين:

أحدهما: المقام.

والثاني: في قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[1]، وقد تقدّم الكلام هناك فراجع، والمراد به هو المنع من حقوقهن في الحياة الزوجيّة، بخلاف الآيـة الأُولى التـي كانت في المال الذي تمتلكها النساء.

وهذا أيضاً يتصوّر على أقسام:

فأمّا أن يكون العضل والمنع عن الزواج، وهذا ما تقدّم في سورة البقرة ـ ٢٣٢.

أو العضل عليهن في الطلاق حتّى تفتدي بشيء من المال.

أو العضل عليهنّ من النكاح حتّى تفتدي جميع الصداق أو ببعض منه.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٣٢.

والآية المباركة تؤكّد النهي عن منع المرأة من حقوقها المشروعة التي قرّرها القرآن الكريم في مواضع متعدّدة، منها قوله تعالىٰ: **﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾**[١]، فإنّ المنع والتضييق عليهنّ بأي وجه كان هو خلاف قاعدة السلطنة المقرّرة عقلاً وشرعاً.

قوله تعالىٰ: **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾**.

إستثناء عن ما تقدّم. والفاحشة هي الفعل القبيح، قد شاع استعمالها في الزنا، والمبيّنة من البين، وهو الواضح، أي الفاحشة المعلومة الواضحة.

والمعنىٰ: ولا تمنعوا النساء من النكاح وتضيّقوا عليهن ليضطررن إلى بذل شيء من المال ـ إمّا الصداق أو غيره ـ ممّا دفعتموه إليهن لرفع الاضطرار، إلّا أن تأتي المرأة بفاحشة معلومة واضحة، فله أن يعضلها حتّى تدفع مالاً له ليفارقها.

ونظير هذه الآية ما ورد في سورة البقرة، قال تعالىٰ: **﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾**[٢]، و«إلّا» في المقام يفسّر عدم إقامة حدود الله تعالىٰ بإتيان الفاحشة، هذا كله لو لم يكن رضاء منها في البذل.

وأمّا لو كان عن تراض منهما، فلا إشكال في جوازه، إذا لم تكن عن مفسدة شرعيّة. ومن تقييد الفاحشة بالمبيّنة يستفاد أنّ مجرّد صرف الوجود غير كاف مالم تكن مبيّنة وواضحة.

قوله تعالىٰ: **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾**.

بيان لأصلٍ من أُصول الحياة؛ وهو الأساس للحياة السعيدة، فإنّ الله تعالىٰ

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٣٤.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

نهى عن إرث النساء كرهاً وعضلهن، ووضع حدّاً للظلم عليهن، وبيَّن في هذه الآية المباركة أنّ الطريق الصحيح هو المعاشرة مع النساء بالمعروف، بأن تكون المخالطة والمصاحبة والعيش معهن بما هو المعروف بين أفراد المجتمع، ولم يعيّن سبحانه وتعالىٰ كيفيّة ذلك، ليكون العرف الذي هو الشائع في كلّ عصر وزمان هو المعتمد في ذلك، وهذا من المفاهيم الإسلاميّة القويمة التي تذكر في مجال التطبيق العملي، وأنّ الجاهليّة والشقاء تتحقّقان بقدر الإعراض عمّا شرّعه الله تعالىٰ فيما بيّنته السنّة المقدّسة، والإسلام دين متكامل يعطي بقدر ما يترك، ولا يصلح جانباً على حساب جانب آخر، أو إهمال جهة معيّنة، ففي المقام الواجب على الرجل حسن المعاشرة مع النساء بالمعروف، فإذا كان ذلك من جانب الرجل، ففي جانب المرأة هو إطاعة الزوج، وهما يتوازنان الأمر وتتأدّى الحقوق والواجبات.

قوله تعالىٰ: **﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾**.

تأكيد لما ذكره عزّوجلّ وهو المعاشرة مع النساء بالمعروف، وإيقاظ للشعور الإنساني، بأنّ دين الله تعالىٰ لابدّ أن يعمل به بجميع حدوده وقيوده في جميع اتّجاهاته.

وتبيّن الآية الشريفة حكم الاستمرار في الحياة الزوجيّة ولو كانت مع الكراهيّة، فإنّها تأمر بالمعاشرة حتّى مع الكراهة، وعدم فصم العلاقة الزوجيّة وقطعها عند أدنى تحوّل في المشاعر والإحساس، ويصلح حالها بالصبر وحسن المعاشرة، لتعود حياتهما إلى الانتظام وتتهيّأ أسباب السرور والبهجة، فإنّ الله تعالىٰ قادر على أنّ يمنحهما السعادة ويتمتّع الرجل ـ الذي وجد أُموراً يكرهها في زوجته ـ بما فيه خير كثيرا ممّا يهون عند ما شاهد ما كرهه في زوجته.

وللخير الكثير مظاهر كثيرة:

منها: إظهار الحقّ وإبطال الباطل.

ومنها: كثرة النسل والبركة فيه وفي المال.

ومنها: التخلّق بأخلاق الكرام.

ومنها: الهناء في العيش والبُعد عن مشاكل الحياة.

ومنها: السعادة في الدارين، وغير ذلك ممّا لا يخفىٰ.

وإسناد الكراهة إلى الزوجات أنفسهن، يدلّ على أنّ أسباب الكراهة توجد في أنفسهن؛ إمّا ذاتاً كما كان عليه الناس في العصر الجاهلي، أو لأمر خارجي كالعيب الخُلقي أو الخَلقي دون نفس الحياة الزوجيّة ونكاحهنّ، والآية المباركة ترشد إلى عدم المسارعة إلى مفارقتهنّ ومضارتهنّ.

والتعليل في الآية الشريفة عامّ لا يختصّ بمورد الآية، فهو من الحقائق الواقعيّة التي كشف عنها القرآن الكريم، وهي توقظ روح التعقّل في الإنسان عند استيلاء القوى الشهويّة والغضبيّة عليه، وترشده إلى التفكّر في عواقب الأُمور، وتروّض النفوس على التخلّق بمكارم الأخلاق وحسن المعاشرة مع النساء، وأنّه بعمله بما ورد في هذه الآية الشريفة، يرتقي إلى المستوى المرغوب منه من المحل الواقعي له، ويصل إلى الكمال الذي أُعدَّ له، فإنّه أذعن بالحقّ وعمل به وأنكر الباطل وزيّغه.

والآية المباركة تبعث الأمل والرجاء عند اليأس في الحياة وعروض المشكلات على الإنسان، وقد تقدّم نظير ذلك في قوله تعالىٰ: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾**[1]، وتقدّم البيان في ذلك أيضاً، فراجع.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢١٦.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾.

الاستبدال: هو طلب البدل وإقامة زوج مكان زوج أُخرىٰ، ترغبون عنها لكراهتكم لها، كما يدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾، فإنّ الإرادة تستدعي ذلك بأن تكون رغبة عن المبدّل ورغبة في البدل.

والآية الشريفة تحدّد المسؤوليّة عند تشكيل الحياة الزوجيّة، وإقامة زوج آخر.

ومن كلمة الاستبدال الواردة في الآية الشريفة، نستفيد أنّ الأمر إذا بلغ الانفصام بينهما، رغم التوصية في الآية السابقة على عدم مسارعة الرجل إلى فصم رباط الزوجيّة عند تحوّل المشاعر، فعسى أن يكره شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، فلا ينبغي أن يحدث ذلك، وأمّا إذا أحدث فلابدّ أن تقام الوحدة الاجتماعيّة مرّة أُخرىٰ بزوج أُخرىٰ وتجتمع الأُسرة، لئلا تتعطّل وظيفتها.

والإسلام يؤكّد على ذلك وهو شديد الحرص على تكوين الأُسرة، وذلك لأسباب كثيرة، منها سدّ أبواب الفحشاء، وجعل دوافع الفطرة في مسيرها الطبيعي، وتوحي كلمة الاستبدال منضمة بقوله (أردتم) على ملأ الفراغ في الحال، وعدم الإهمال في هذا الأمر العظيم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾.

القنطار: هو المال الكثير، وقد تقدّم تفسير هذه الكلمة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾[1]، وأُتي به مبالغة في كثرة ما يعطي من المهور، وتأكيداً في الزجر، فإذا دفع الزوج الصداق إلى الزوجة ولو كان كثيراً، أو النزم به في الذمّة، فلا يجوز أن يأخذ منه شيئاً ولو كان قليلاً إذا بلغ الأمر إلى انفصام علاقة

---

١ . سورة آل عمران: الآية ٧٥.

الزوجيّة والطلاق، ولا يحلّ له ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾.

إنكار على أخذهم لذلك الشيء، والبهتان مصدر نصب على الحاليّة، وهو ما يجعل الإنسان متحيِّراً، وغلّب استعماله في الافتراء الذي يبهت المكذوب عليه ويجعله متحيِّراً، والإثم: الذنب وهو حال أيضاً، والمبين الموضح، فيكون البهتان بمعنى الدعوى بغير حقّ، ولا ريب أنّ أخذ شيء من صداق المرأة بعد كثرة علاقتها به بدون رضاها، بهتان وإثم مبين واضح لا ريب فيه.

نعم، لو رضيت به لا إشكال فيه حينئذٍ، كما في الخلع وغيره.

وقيل: البهتان في المقام نسبة المرأة إلى الفاحشة ليستلب أموالها وصداقها، أي: أتأخذون شيئاً ممّا دفعتموه إليهن صداقاً، ولو كان السبب رميهن بالفاحشة باهتين لها أو ناسبين الكذب إليها، كعدم إقامة حدود الله تعالىٰ، لتلتجأ إلى الافتداء.

وهذا وإن كان حسناً ثبوتاً، لكنّه خلاف المنساق من الآية الشريفة.

وبناءً على ما ذكرناه يكون ﴿إِثْماً مُبِيناً﴾ عطفاً تفسيريّاً للبهتان، كما هو واضح.

قوله تعالىٰ: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾.

تعليل لمنع الأخذ من مال المرأة وإنكار آخر له، وإرجاع إلى الفطرة، مبالغة في التنفير، وهو من أحسن الأساليب البلاغيّة، فإنّ الصداق إنّما يكون بإزاء الزوجيّة، والخلوة بها قضاءً لما تدعو إليه الشهوة والفطرة، وهذا يؤكّد ما ذكرناه من رجوع البهتان إلى نفس الأخذ، وفيه كمال الذمّ والتوبيخ للآخذ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾

الإفضاء: هو المخالطة والاتّصال بالمماسة، يقال: أفضى إلى الأرض يده إذا مسّها في سجوده، ويكنّى به في النكاح عن الجماع غالباً. والإفضاء من الكلمات التي تستعمل في الحياة الزوجيّة، لأنّها تشمل على الارتباط والتمتّع ورفع الحشمة، وهي من أحسن الكنايات في هذا المجال.

والمعنىٰ: كيف تأخذون من مالها شيئاً وقد ارتبطتم معها ارتباط اللّباس باللابس، كما في قوله تعالىٰ: **﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾**[١]، واختلطتم معها وتحقّقت علاقة الزوجيّة، فكأنّهما حقيقة واحدة، وفي هذه الحالة لا يصحّ الظلم والبهتان، والرمي بالكذب، وأخذ المال ظلماً وعدواناً، وهو ممّا يتعجّب منه.

قوله تعالىٰ: **﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾**.

الميثاق: هو العهد المؤكّد المشدّد، والغليظ إمّا عطف بيان على «ميثاقاً»، فيكون المعنى وأخذن منكم شيئاً غليظاً، وهو المني الذي يكون محترماً بالعقد الواقع بينهما.

أو تكون وصف من قبيل ذكر الخاص بعد العام، أي العقد الغليظ الواقع غالباً بمحضر من الناس مقروناً بالطرب والسرور.

وكيف كان، فهذه الآية الشريفة تدلّ على احترام العلاقة الزوجيّة، وأنّ العقد الواقع بين الزوجين ممّا عظّمه الإسلام وسائر الأديان الإلهيّة، ويجب الالتزام به بحسب الفطرة.

وقيل: إنّ الميثاق الغليظ هو العهد المأخوذ من الرجل للمرأة في ما ذكره عزّوجلّ: **﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾**[٢].

---

١. سورة البقرة: الآية ١٨٧.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

وقيل: الحلّية المجعولة شرعاً في النكاح.

وقيل غير ذلك.

ولا يخفى بُعد جميعها، ويمكن إرجاعها إلى ما ذكرناه، والآية المباركة تدلّ على إنكار الأخذ وأنّه بهتان.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ**﴾ أنّ في عصر نزول القرآن كان الناس يعتبرون النساء متاعاً من الأمتعة يتوارثونهنّ، ويحكم الرجل عليها بما يريده وإن كان على كره منها، وقد نهى القرآن الكريم عن هذه العادة السيّئة، وبيّن عزّوجلّ حكمه الأبدي فيها وردّ عليها كرامتها، وألزم الرجل معاشرتها بالمعروف، وجعل تبارك وتعالىٰ ذلك أصلاً من الأُصول النظاميّة، فلابدّ من مراعاتها وإلاّ حصلت أُمور لا تُحمد عقباها، كما عرفت في التفسير.

الثاني: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ**﴾ حرمة الإبتزاز والاستبداد بالمرأة، والنهي عن التضييق على النساء بكلّ وجه من وجوه التضييق، وحرمة إضطهادهنّ ليستفيدوا منهنّ أيّة فائدة، فإنّ ذلك قبيح إلّا ما استثناه عزّوجلّ، ولا منافاة لهذه الآية الشريفة مع آية الخلع، فإنّه إنّما يكون من جانب المرأة، فإذا رضيت بالفداء يجوز للزوج قبوله ومفارقتها. وفي غير ذلك لايجوز عضلها ومنعها مطلقاً، إلّا إذا أتت بفاحشة مبينة.

الثالث: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ**﴾ أنّ الفاحشة التي توجب العضل لابدّ أن تكون معلومة ثابتة، فلا يكفي الظنّ في هذا المقام، الذي هو في معرض الخصومة والجدال وسوء الظنّ، فهذه الكلمة «مبيّنة» لها موقعها العظيم في المقام. وفي هذه الحالة يجوز عضلها من باب النهي عن المنكر

والأمر بالمعروف.

الرابع: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ حقيقة من الحقائق الواقعيّة، وهي تدلّ على جهل الإنسان بالواقع، وأنّ ما يجهله أكثر ممّا يعلمه، فإنّه قد يقع تحت وقع المشاعر والإحساس والعواطف التي قد تكون حجاباً عن التفكّر في عواقب الأُمور.

فالآية الشريفة من الآيات الكثيرة التي نزلت لتربية الإنسان تربية حقيقيّة واقعيّة، وتحدّد مسؤوليّته اتّجاه الحياة الزوجيّة التي بُنيت على المحبّة وتحكيم العقل، دون المشاعر الوهميّة الخاطئة التي تسبِّب كثيراً من المشاكل والمتاعب في هذه الحياة.

والآية المباركة توحي إلى الإنسان بعدم التسرّع في الحكم عند غلبة العواطف، ولها وقع كبير في الحياة الزوجيّة التي لا تخلو من التنازع والخصومة، إذ ليس كلّ زوجة مطلوبة للزوج من كلّ جهة، وكذا بالعكس.

الخامس: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ منضمّاً إلى قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾، أنّ الأخذ المحرّم من الصداق هو ما كان بعنوان الإكراه والإلجاء لها على ذلك، ولو كان البذل بإرادتها وعن طيب نفس منها فلا بأس به، وعلى هذا فلا منافاة بين هذه الآية وآية الخلع في سورة البقرة ـ ٢٢٩.

السادس: يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾ على أهمّية الأُسرة، وأنّه لابدّ من تشكيل الأُسرة بعد انفصام الأُولى لجهة من الجهات، إعادة الواحدة والأُلفة التي يعطي لها الإسلام أهمّية خاصّة في بناء المجتمع. وتوحي الآية الكريمة بأنّه لا يجوز تعطيل وظيفة الأُسرة لأي جهة من الجهات.

السابع: قوله تعالىٰ: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ على أُسلوب من الأساليب البلاغيّة البديعة، فإنّه يرجع الإنسان إلى الضمير وتحكيمه

على سائر المشاعر والعواطف، فإنّ الحياة التي بُنيت قاعدتها على الترابط بين شخصين يكون احدهما بمنزلة اللّباس للآخر، كيف يمكن جعل المال عوضاً عن تلك الحياة الزوجيّة.

الثامن: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً﴾** على أنّه لا تحديد في المهر بالنسبة إلى الكثرة، كما أنّه لا تحديد فيه بالنسبة إلى القلّة، وقد ورد في السنّة المتواترة: «أنّ المهر كلّ ما تراضيا عليه قليلاً أو كثيراً»، نعم لا ريب في أنّ الفضل في مهر السنّة.

التاسع: يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾** على أنّ المرأة هي التي أخذت الميثاق من الرجال، ولكن المستفاد من الأدلّة الأُخرى أنّ الميثاق مأخوذ من الطرفين، وهو متقوّم بالزوجين، يأخذ الميثاق من المرأة على تمكينها من التمتّع بها وقيامها بسائر الوظائف الزوجيّة الواجبة عليها، والزوجة تأخذ الميثاق من الرجل على العشرة بالمعروف أو التسريح بالإحسان؛ وعقد النكاح بينهما عند كلّ قوم ينحل إلى ذلك.

ولعلّ الوجه في تخصيص الزوجة بالاخذ في الآية الشريفة لأجل شدّة عواطفها وسلطة الزوج عليها، فخصّها عزّوجلّ بالذكر لئلا تنقهر تحت تلك السلطنة، كما يمكن أن يكون لأجل أنّها أخذت مسؤولية الحمل والإرضاع، وهو المراد بـ(المني) في بعض الروايات.

وكيف كان، فالمستفاد من الآية الشريفة أنّ للمرأة شأناً عظيماً في هذه الحياة، وأنّها بمنزلة الهيولى والمادّة، ولولاها لما كان للميثاق موضوع أبداً، كما أنّه لو لم تكن الأرض لما كان للنبات موضوع أصلاً.

***

بحث روائي:

في «تفسير القمّي» عن أبي الجارود، عن الباقر عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا**

الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً﴾، قال عليه السلام: «كان في الجاهليّة في أوّل ما أسلموا من قبائل العرب إذا مات حميم الرجل وله امرأة ألقى الرجل ثوبه عليها، فورث نكاحها بصداق حميمه الذي كان أصدقها، فكان يرث نكاحها كما يـرث ماله، فلمّا مات أبو قيس بن الأسلب ألقى مُحصّن بن أبي قيس ثوبه على امرأة أبيه؛ وهي كبيسه بنت معمر بن معبد، فورث نكاحها ثمّ تركها، لا يدخل بها ولا ينفق عليها، فأتت رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله، مات أبو قيس بن الأسلب فورث ابنه محصّن نكاحي، فلا يدخل عليَّ، ولا ينفق عليَّ، ولا يـخلّي سـبيلي فألحق بأهلي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ارجعي إلى بيتك، فإن يحدث الله فـي شأنك شيئاً أعلمتك به، فنزل: **﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾**، فلحقت بأهلها، وكانت نساء في المدينة قد ورث نكاحهنّ كما ورث نكاح كبيسه، غير أنّه ورثهن عن الأبناء، فأنزل الله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً﴾**».

وفي «الدرّ المنثور»، و«أسباب النزول» للواحدي: عن عكرمة، عن ابـن عبّاس في الآية الشريفة: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً﴾** قال: «كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقّ بامرأته، وإن شاء بعضهم تـزوّجها، وإن شاؤوا زوّجوها وان شاؤوا لم يزوّجوها، وهم أحقّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية».

أقول: الروايات في مضمون ذلك متعدّدة من الخاصّة والجمهور، وجميعها تنكر ما كان شائعاً في الجاهليّة، وقد عرفت في التفسير ما يرتبط بالمقام.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن هاشم بن عبد الله عن السري البـجلي، قـال: «سألته عن قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾**، قال: فحكى كلاماً، ثمّ قال: كما يقول النبطية إذا طرح عليها الثوب عضلها، فلا تستطيع تزويج

غيره، وكان هذه في الجاهليّة».

أقول: هذا يبيّن بعض مراتب العضل.

وفي «تفسير العيّاشي» أيضاً، عن ابراهيم بن ميمون، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾**، قال: «الرجل تكون له المرأة فيضربها حتّى تفتدي منه، فنهى الله عن ذلك».

أقول: هذا أيضاً نحو من العضل.

وفي «المجمع»، عن الباقر عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾**، قال: «كلّ معصية».

أقول: لا ريب أنّه كلّ معصية فاحشة، إلّا أنّ بعضها أفحش من بعض.

وفي «الكافي»، عن الصادق عليه السلام:

«إذا قالت له: لا أغتسل لك من جنابة، ولا أبرّ لك قسماً، ولأوطين فراشك مَن تكرهه، حلَّ له أن يخلعها وحلّ له ما أخذ عنها».

أقول: هذا من بعض مصاديق الفاحشة، وإلّا فلو كانت موجبة لما هو مستنكر في المعاشرة بين الزوجين وقد نهى عنها الشرع، تكون تلك فاحشة أيضاً.

وفي «تفسير البرهان»: قال الشيباني: «الفاحشة يعني الزنا، وذلك إذا اطّلع الرجل منها على الفاحشة منها، فله أخذ الفدية، قال: وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام».

أقول: هذا أيضاً بيان لبعض المصاديق.

في «الكافي»، عن الباقر عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾**، قال عليه السلام: «الميثاق هي الكلمة التي عقد بها النكاح، وأمّا غليظاً فهو ماء الرجل يفضيه إلى امرأته».

أقول: كون المني غليظاً باعتبار كونه منشأ الحياة، وهو محترم إذا كان بعقد

شرعي، وإلّا فلا احترام له.

وفي «المجمع»: الميثاق الغليظ هو العقد المأخوذ على الزوج حالة العقد، من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، قال: وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام.

أقول: لا منافاة بين التعبيرين، فإنّ الإمساك بالمعروف والتسريح بإحسان من الالتزامات الضمنية الداخلة في مفهوم العقد.

وفي «الدرّ المنثور»: أخرج ابن جرير، عن جابر: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: اتّقوا الله في النساء فإنّكم أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، وأنّ لكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مبرح، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف».

وفي «الدرّ المنثور» أيضاً، أخرج ابن جرير، عن ابن عمر:

«أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا أيّها الناس إنّ النساء عندكم عوان، أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، ولكم عليهنّ حقّ، ومن حقّكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم أحداً، ولا يعصينّكم في معروف، وإذا فعلن ذلك فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف».

أقول: كلّ ذلك بيان لمعنى الميثاق القولي الحاصل بين الزوجين.

وفي «الدرّ المنثور»: أخرج الزبير بن بكار في «الموفّقيات» عن عبد الله ابن مصعب، قال: «قال عمر: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية، فمَن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال، فقالت امرأة: ما ذاك لك. قال: ولِمَ؟ قالت: لأنّ الله يقول: ﴿**وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً**﴾ فقال عمر: امرأة أصابت ورجل اخطأ».

أقول: ما يدلّ على تحديد المهر كمّاً وكيفاً، فراجع.

***

« الفهرس »

سورة آل عمران الآية: ١٥٩ ـ ١٦٠

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٦١ ـ ١٦٤

سورة آل عمران: ١٦٥ ـ ١٦٨

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٦٩ ـ ١٧٥

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٨٠ ـ ١٨٤

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٨٥ ـ ١٨٩

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٩٠ ـ ١٩٥

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٩٦ ـ ١٩٩

سورة آل عمران الآية ٢٠٠

سورة النساء الآية ١

سورة النساء الآية ٢ ـ ٦

بحوث المقام

سورة النساء الآية ٧ ـ ١٠

بحوث المقام

سورة النساء الآية ١١ـ١٤

بحوث المقام

سورة النساء الآية ١٥ـ ١٦

بحوث المقام

سورة النساء الآية ١٧ـ١٨

بحوث المقام

سورة النساء الآية ١٩ـ٢١

***